

محاضرات في تاريخ العرب

الدكتور صلاح أحمد العلي

الجزء الأول

الدول العربية قبل الاسلام ، النظم البدوية ، حياة الرسول
والدعوة الاسلامية في مكة



الدكتور صلاح أحمد العلي

استاذ بكلية الآداب - جامعة بغداد

محاضرات

في تاريخ أمة العرب

الجزء الاول

الدول العربية قبل الاسلام ، النظم البدوية ، حياة الرسول
والدعوة الاسلامية في مكة

الطبعة

شكر

تشكر مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر في جامعة الموصل الاستاذ الفاضل
الدكتور صالح احمد العلي لتفضله بالموافقة على اعادة طبع الكتاب خدمة للحركة
العلمية في قطرنا .

مقدمة الطبعة الاولى

ان هذا الكتاب هو في الاصل مجموعة المحاضرات التي القيت على طلاب كلية الآداب والعلوم ، ثم نقحت ووسعت بعض فصولها لتكون كتاباً منسجماً متناسقاً فيه تلخيص وعرض ، واضح بقدر الامكان ، للمحاولات التي قام بها سكان الجزيرة العربية لانشاء دول ذات نظام سياسي ، والحضارات والنظم التي ظهرت في هذه الدول أو عند القبائل العربية قبل الاسلام ، وآثار كل حضارة ونظام على مجرى تاريخ الجزيرة ، وخاصة على أحوالها عند ظهور الاسلام الذي له الاثر الاكبر لا في تاريخ الجزيرة العربية وفي عقائدها ونظمنا فحسب ، بل في تاريخ الانسانية عموماً .

لقد نشر في اللغة العربية واللغات الاجنبية عن تاريخ الجزيرة قبل الاسلام وبعده ، عدد غير قليل من الابحاث التي تختلف في قدمها وفي مدى تفاصيل معلوماتها ، فبعض هذه الابحاث كتب عامة قديمة كبلوغ الارب للالوسي وتاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ، وبعضها كتب عامة حديثة مفصلة كتاريخ العرب لجواد علي ، أو مقتبضة كتاريخ العرب لفيليب حتي ، وتاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ، وتاريخ العرب قبل الاسلام لمبروك نافع . كما ظهرت في العربية بعض الدراسات المفصلة عن بعض نواحي حضارة تلك الفترة كفجر الاسلام لأحمد أمين ، والحياة العربية من الشعر الجاهلي ، والمرأة العربية لمحمد أحمد الحوفي ، والنظم الاجتماعية والسياسية عند الساميين لمحمد محمود جمعة ، والاساطير العربية قبل الاسلام لمحمد عبدالمعيد خان ، والحيرة ليوسف غنيمه وآل غسان لنولدكه ، كما ظهر في اللغات الاوروبية عدد غير قليل من الدراسات المفصلة عن بعض هذه الدول . ولكن هذه الابحاث بعضها عتيق ، وبعضها يكاد يكون نادراً ، وبعضها مفصل أو مقتضب . فمحاولتي هذه هي تقديم بحث شامل منسجم

يرضى الطالب والمثقف الذي يريد أن يكون له فكرة عن تاريخ الجزيرة
دون التبحر في الموضوع •

لقد أكدت ، بقدر ما تمكنتي المصادر ، على نواحي الحضارة والحياة
الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، أما النواحي السياسية فقد بحثت بقدر ما
يظهر أمد كل من تلك الدول ومدى امتدادها الزماني والمكاني ، دون ايجاز
مخل أو تفصيل مضلل • ولما كان سقوط أي دولة لا يعنى فناء شعبها أو
اندثار حضارتها ، فقد حاولت تتبع آثار حضارة كل دولة وتراثها ، وذلك
كيما أبرز الاستمرار التاريخي وتطوره ، مما قد يساعد على اللقاء ضوء على
جذور وأسس كثير من أفكارنا وثقافتنا ونظمنا ومؤسساتنا •

ولابد من التأكيد على أنه لا يمكننا رسم صورة كاملة لمختلف نواحي
هذه الحضارات أو تتبع خطوات تطورها ، نظراً لأن معلوماتنا لما نزل غير
وافية وغير موزعة بانتظام على الزمان والمكان ، فلدينا كمية من المعلومات
طبية نسبياً عن اليمن وبعض الدول الشمالية القديمة ، وعن أحوال العرب
في الججاز وبعض مناطق نجد والبحرين عند ظهور الاسلام ، ولكننا نكاد
نجهل تماماً تاريخ المناطق الاخرى • وقد كان هذا الاختلاف في كمية
المعلومات الموثوقة المتوفرة لدينا ، هي الدافع الرئيسي الذي حملني على أن
لا أسمى هذا الكتاب تاريخاً ، بل اطلق عليه (محاضرات) التي تدل على انها
ليست تاريخاً شاملاً متسقاً ، بل هي بحث المواضيع التي تتوفر عنها المعلومات •

وقد بحثت مبادئ الاسلام وخطوات الدعوة الاسلامية وانتشارها
بتفصيل واف نسبياً ، نظراً لأهميتها الكبرى في كياننا الذاتي وفي تاريخ العالم •
ويكاد يكون القسم الثاني من هذا الجزء وصفاً للاحوال التي ظهر فيها
الاسلام ، والاسس التي قام على آئارها أو على انقاضها وكان لها تأثير في
سيره ، وهذا هو السبب الذي فصلت فيه البحث عن الدين الجاهلي •

حاولت في بحثي عن الاسلام دراسة خطوات تطوره الزمني في فترة

نشوئه ، ووصف تاريخ نشوء وتطور وانتشار العقيدة الاسلامية ، دون تحليل هذه العقيدة ، لأن بحثي في التاريخ لا في العقائد . وقد كان اعتمادي الرئيسي على القرآن الكريم ، لأنه الكتاب الاعظم الذي يرسم معالم الدين ويوضح حدوده . وقد حاولت أن اجلو معانيه كما فهمت آنذاك وبصرف النظر عن التأويلات والتحليلات التي قام بها العلماء المسلمون المتأخرون .

لقد حاولت اعطاء الصورة التي اعتقد أن المصادر تصور ما لتلك الفترة ، وان اقصر عملي على تنظيم المادة وعرضها ثم تحليلها ومحاولة ايجاد الصلة بينها وابرار ارتباطاتها مع الحوادث والمؤسسات الاخرى . واذا كانت بعض مظاهر هذه الصورة تخالف بعض ما ألفه الناس واعتقدوه ، فان ذلك راجع الى المصادر التي حاولت استيعابها واختيار ما أراه صحيحاً دون أن تكون لي فكرة سابقة احاول الدفاع عنها أو نقضها .

وقد حملني تحدد نطاق الكتاب وحجمه على الاقتصار على ايراد ما اعتقد بصحته أو بأنه أقرب الى الصواب ، وقد اغفلت ذكر كافة الامور أو الآراء والحوادث التي اعتقد أن معلوماتنا العامة وتفكيرنا ومنطق الحوادث لا تؤيد صحتها . لذا أهملت بحث العرب البائدة ، لأن الاخبار التي لدينا عنهم غير مضبوطة أو معتمدة . وقد قصرت عملي على الوصف والتحليل وتجنبنت اصدار الحكم على حسن أو قبح أية حادثة أو مؤسسة ، كما تحاشيت مهاجمة أية مؤسسة أو الدفاع عنها .

وقد اتبعت في كتابة المصادر طريقتين متباينتين ، اولاهما اتبعتها في بحث الدول العربية القديمة ، عدا مكة ودولة المازرة ، والثانية في بقية فصول الكتاب . ففي بحث الدول العربية القديمة اكتفيت بذكر المصادر الرئيسية التي اعتمدت عليها ، في هامش مطلع كل فصل ، أما باقي أجزاء الكتاب فقد ذكرت مصدر كل خبر أو حادثة أو رأي في هامش الصحيفة التي تحويه . ويرجع هذا التباين الى أن معلوماتنا عن الدول القديمة كاليمن وبطرا وتدمر

مستمدة من مكتشفات الآثار اولا ، ومن اشارات الكتاب الاغريق والرومان القدماء ثانياً ، وقد استوفى بحث كل منها بعض المؤلفين المحدثين •

اما كل من دولة الفساسة وكندة والمناذرة فمع أن المصادر الرئيسية لأخبارها هي الكتب العربية ، الا ان عن كل منها دراسة وافية قام بها واحد من المؤرخين المحدثين ، وليس هناك ما يمكن في الحال الحاضر اضافته وتعديله على أبحاثهم ، لذا اكتفيت بالإشارة الى هذه الابحاث الرئيسية الحديثة في هامش بداية كل فصل •

أما الفصول الخاصة عن مكة وعن الحياة البدوية ونظمها فان اعتمادنا الاول فيها على الكتب العربية التاريخية والادبية ، لذا أشرت الى مصدر كل خبر ، اللهم الا في بعض النقاط التي فصل البحث فيها بعض المؤلفين المحدثين ، فاكثفت بالإشارة الى مباحثهم دون أن أورد كافة المصادر التي اعتمدوا عليها ، وقد أجلت فهرس أسماء الكتب وطبعاتها الى نهاية الجزء الثاني تحاشياً من التكرار •

واني اذ أرجو أن يكون في هذا الكتاب بعض الفائدة للمهتمين بهذه الفترة من التاريخ ، أرى من الصعب ذكر أسماء كافة من أعانني على اخراج هذا الكتاب سواء من رجال وزارة التربية أو اخواني وطلابي ، فلهم مني خالص الشكر والتقدير •

صالح احمد العلي

كلية الآداب

١٩٥٤

الفصل الاول الساميون

يتميز معظم سكان الشرق الاوسط منذ أقدم الازمنة ببعض الصفات المشتركة التي ميزتهم عن سكان البلاد الاخرى التي تقع وراء جبال طوروس وزاغرس . فاللغات التي يتكلم بها هؤلاء السكان تشترك في كثير من الخصائص وقواعد اللغة ، كما أن عاداتهم الاجتماعية وأفكارهم السياسية وأساليب حياتهم فيها كثير من التشابه منذ أقدم الازمان ، وهذا مما حمل الناس على الاعتقاد بأن هذا التشابه يرجع الى تحدرهم من أصل واحد ودعواهم بالجنس السامي^(١) .

وسميتهم بالساميين ترجع الى أزمنة قديمة ، فقد جاء في التوراة^(٢) انه كان لنوح ثلاثة أولاد تحدر منهم البشر بعد الطوفان ، هم سام وحام ويافت . وقد سكن الساميون ، وهم أحفاد سام ، في الشرق الاوسط . وانقسموا بعد تكاثرهم الى أقسام فرعية وقبائل . ولا ريب ان هذا التصنيف يوضح قدم الخصائص المشتركة التي يتميز بها سكان الشرق الاوسط . غير انه من الضعب أن نجزم بالقيمة التاريخية لقصة التوراة وأولاد نوح ، خاصة وان الشرق الاوسط جاءت موجات متعددة من أقوام غريبة استوطنت فيه وتكلمت بلغة أهله وتعودت بعاداتهم .

غير ان ما جاء في التوراة عن أصل الساميين ظل مقبولا عند الناس واعتمد عليه النسابون العرب في كتبهم عن الانساب ، فكرروا ما قالته التوراة مع اضافة بعض التعديلات الفرعية .

(١) راجع ما كتبه كوك في الفصل الرابع من الجزء الاول في تاريخ كمبردج القديم بالانكليزية .
(٢) سفر التكوين ١٠-١٢ .

وفي منتصف القرن التاسع عشر ألف المستشرق الفرنسي إرنست رينان كتاباً عن أديان الساميين أكد فيه على أن الساميين جنس منحدر من أصل واحد مشترك يتميز أفرادُه بتشابه لغاتهم وبتكوين عقليتهم وبنظرتهم الجزئية للأشياء وبتأثيرهم بالغيبات وميلهم إلى البساطة في التفكير والوحدانية في الدين . وذكر أن ظهور الأديان الموحدة الثلاثة الكبرى (اليهودية والمسيحية والاسلام) بين الساميين يرجع إلى طبيعة تفكيرهم . وقد أكد بأن هذه الميزات التي تتصف بها العقلية السامية ترجع إلى عوامل بيولوجية ووراثية في الجنس وانهم بذلك يختلفون أساسياً عن الآريين^(١) . ولا ريب أن رينان كان متأثراً بالنزعة القومية المتطرفة وبالروح الاستعمارية التي سادت الأوروبيين آنذاك ودفعتهم إلى الاعتقاد بأن الساميين يختلفون في التركيب البيولوجي عن الغربيين ، وانهم أحط من الأوروبيين في العقلية . وقد أخذ بنظرية رينان هذه عدد غير قليل من الفلاسفة والعلماء والساسة . وظل كثيرون يعتقدون بها حتى السنوات الأخيرة .

غير أن علماء الأنثروبولوجيا ودارسي الشعوب المدققين انتقدوا نظرية رينان ومشايخه وبرهنوا على أنه لا يوجد شعب يمكن أن يبرهن على نقاوة دمه . إذ أن الهجرات المستمرة والتزاوج قد أديا إلى اختلاط دماء الشعوب . وهكذا فإن الشعوب القاطنة في الشرق الأوسط أو في غيره من البلاد لم تكن منزلة عن العالم كما انها لم تحافظ على نقاء دمه . أضف إلى ذلك أن اختلاف طرق تفكير الشعوب لا يرجع إلى اختلاف تركيب دماء أفرادها . بل إلى الظروف الجغرافية والاجتماعية التي أدت بقولها إلى أن تعمل بالشكل الذي تعمل فيه^(٢) .

فاذا ما تحدثنا عن الجنس السامي فأتينا لا ندعي نقاء دمه ، كلا بل نقصد

-
- (١) « تاريخ عام للغات السامية » باريس ١٨٥٥ (بالفرنسية) .
(٢) انظر في ذلك : كاسيرر « مقالة عن الرجل » (بالانكليزية) .
جولييان هكسلي وهدن « نحن الأوروبيين » بالانكليزية .

مجموعة من البشر الذين يتميزون بحضارة ذات عناصر مشتركة تميزهم عن غيرهم من الامم . وخاصة في اللغة التي هي أهم ما يميز الساميين . وعلى هذا فان تقسيم الشعوب يستند على أسس لغوية وحضارية أكثر مما يستند على أسس بيولوجية .

ولا ريب أن الساميين يتكلمون بلغات مختلفة ، ولكنها تشترك في خصائص عديدة مشتركة تميزها عن غيرها من اللغات وتحمل على الاعتقاد بأنها منحدرة من أصل واحد . ومن أهم هذه الخصائص وجود عدد كبير من الكلمات المشتركة بينها ، وان الأساس فيها فعل الماضي ، وان تصريف الافعال يتشابه فيها ، وهي تعتمد على السواكن لا الحركات ، وأصل الكلمات مكون من ثلاثة أحرف في الغالب ، والفعل هو أساس الجملة ويعتمد عليه الاسم والضمير . هذا الى أن للاسماء فيها صيغتين : المذكر والمؤنث ، وليس فيها صيغة ناثلة ^{الكلمة} Neuter gender الموجودة في اللغات الاوربية . واللغة بصورة عامة بسيطة ، مباشرة ، لا تستعمل الافعال المساعدة وقلما تستعمل حروف الربط ^(١) .

ولقد ظهرت نظريات متعددة عن أصل الساميين ، فمن أقدمها نظرية المستشرق الايطالي أغناص جويدي الذي قارن بين اللغات السامية المتعددة فوجد ان أغلب الكلمات التي تدل على السهول والمياه والنباتات مشتركة بين هذه اللغات . فاستنتج من ذلك ان هذه اللغات كان يتكلم بها في الاصل أقوام يسكنون في مناطق سهلية غزيرة المياه والنباتات ، وارتأى بأن العراق هو أقرب منطقة فيها هذه الظواهر ولذلك استنتج بأن أصل الساميين من العراق ^(٢) . ومما قد يؤيد نظريته هو ان التوراة تذكر ان سفينة نوح رست

(١) فيليب حتي : تاريخ سوريا ص ٦٢ (بالانكليزية) .

(٢) ان بحث جويدي عن الاصل الاول للشعوب السامية ، نشر اول مرة بالاطالية في مذكرات اكااديمية لنسي سنة ١٨٧٩ . أما بحث بارتون فقد نشر بالانكليزية في فيلادلفيا سنة ١٩٣٤ بعنوان «الاصول الاجتماعية =

بعد الطوفان على الجودي في شمال العراق ، ومنها انتشر الناس بعدئذ •

غير ان هذا الاستنتاج يثير عدة اعتراضات : فمن ذلك انه لا يبين لماذا يهاجر الناس من هذه المناطق الخصبة ، كالعراق ، الى المناطق الصحراوية الجرداء التي نجد انها آوت أنقى اللغات السامية منذ أقدم الازمان ؟ هذا الى انه منذ أقدم الازمنة التاريخية نجد أن الاقوام السامية تهاجر من الجزيرة الى العراق ، لا العكس كما يدعى جويدي • يضاف الى هذا ان جويدي لم يطلع على الاستكشافات الجغرافية الحديثة التي أظهرت ان في الجزيرة العربية مناطق كانت وفيرة المياه كثيرة المزروعات •

ومع سعة اطلاع جويدي على اللغات السامية الا انه كان يجهل فقه اللغات الاخرى وخاصة الحامية التي يتكلم بها سكان افريقية الشرقية والشمالية وتشارك مع اللغة العربية ببعض الخصائص •

وقد درس بارتون اللغة الحامية وقارنها بالسامية فوجدها تشترك في بعض الكلمات والصيغ ، فاستنتج ان الساميين والحامين كانوا متحدرين من أصل واحد تفرعوا منه ، وادعى ان أنسب منطقة ملائمة لسكنى «الاصل» هي شرق افريقية ، في منطقة الصومال والاريتريا حيث يسهل عبور الساميين الى بلاد العرب من باب المندب ، وكذلك الانتشار في افريقية ، والواقع انه قد جرت اتصالات تاريخية مستمرة بين اليمن وافريقية الشرقية مما أكسب هذين الاقليمين بعض الصفات اللغوية والجسمية المتشابهة •

غير ان الكلمات والقواعد المشتركة بين السامية والحامية أقل مما تكفي احملنا على الاعتقاد باشتراكهم في الاصل • واذا كان سكان اليمن يشبهون

= والحامية للساميين ، اما كايثاني فقد نشر بحثه بالاطالية بكتاييه «الحواليات الاسلامية» و «دراسات في التاريخ الشرقي» ميلانو ١٩٠٧، ١٩١١ • وتجد خلاصة ونقدا لهذه الآراء بالفرنسية في كتاب «الساميون ودورهم في تاريخ الدين» للاستاذ ديلا فيدا (بالفرنسية) • كما تجد تلخيصا ونقدا لآراء كايثاني في كتاب «شمال نجد» لالواموزيل بالانكليزية وفي كتاب «تاريخ العرب قبل الاسلام» للدكتور جواد علي الجزء الاول •

بعض الشبه سكان الصومال ، فان سكان العراق أبعد ما يكونون عن سكان افريقية والكلمات المشتركة قد يرجع أصلها الى الاتصال التجاري لا الى الاشتراك في الجنس ، لذلك لم ينسلم المفكرون بصحة هذه النظرية .

وقد اعتقد فريق من العلماء ان أصل الساميين من جزيرة العرب . ولعل أعظم من دافع عن هذا الرأي وأوضحه هو المستشرق الايطالي كايثاني الذي يتلخص رأيه بأن أصل الساميين من الجزيرة العربية . وهو يبني اعتقاده هذا على ان الآثار القليلة المدروسة في الجزيرة العربية تدل على وجود آثار المياه والنباتات فيها . وقد وجد برترام توماس بقايا بحيرة في الربع الخالي عند منخفض أبو بحر ، وآثار نباتات وحيوانات في جبل العترا . هذا الى ان وادي الرمة لا يزال مليئاً بالصخور الرسوبية والحصى مما يدل على انه كان في القديم مجرى نهر غزير المياه ، كما ان الفيلة كانت تعيش في الالف الثانية ق.م . في شمال سوريا ، أما الاسود فكانت كثيرة في العراق ، وربما في شمال الحجاز . والواقع ان الجيولوجيين قد قرروا ان مناخ العالم في العصور الجيولوجية كان يختلف عما هو عليه الآن ، ففي عصر الميوسين كان مناخ الجزيرة العربية يشبه مناخ الهند اليوم من حيث الدفء وكثرة الرطوبة وغزارة المياه مما يساعد على سكنى البشر . فهو لذلك يرجح ان الساميين كانوا في الاصل يقطنون الجزيرة العربية ، فلما تغير المناخ تدريجياً نقص السكان وتحولوا الى حياة البداوة ، وهاجر عدد منهم الى أطراف الجزيرة حيث الخصب ووفرة المياه . والواقع اننا نجد ان العرب منذ أقدم العصور التاريخية المعروفة كانوا أوفر الامم حظاً من الصفات والعادات الاجتماعية السامية الاصلية ولقنهم أقرب اللغات السامية الى الاصل وأثاها .

لقد ظلت العلاقة بين سكان الجزيرة العربية وأطرافها ونيقة طوال الازمنة التاريخية ، حيث كانت تجري هجرات متعددة ، من داخل الجزيرة الى اطرافها . وهذه الهجرات بعضها موسمية أو محدودة كهجرات الرعاة الذين يتجولون وراء المراعي فيدخلون العراق وسوريا لمدة موقفة خاصة في فصل الصيف والربيع ثم يعودون الى الجزيرة ، وفي بعض الاحيان

ينتشرون في اطراف الهلال الخصيب او يستوطنون في مناطق معينة فيه ، وخاصة عندما لا تعيقهم عن ذلك الظروف السياسية • وفي بعض الاحيان تجري هجرات واسعة تحمل عدداً كبيراً من الناس الى بلاد الهلال الخصيب • وأبرز هذه الهجرات الكبيرة هي :-

(١) هجرة الاكاديين الذين استوطنوا العراق حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م • وكونوا الدولة الاكادية التي استطاعت في عهد ملكها سرجون الاول أن توحد العراق ، وتمد نفوذها الى أعالي دجلة •

(٢) هجرة العموريين الى العراق ، والكنعانيين والفينيقيين الى سوريا (حوالي سنة ٢٢٠٠ ق.م •) •

(٣) هجرة الآراميين الذين انتشروا في سوريا وفلسطين وشمال العراق ، والعبرانيين في فلسطين (حوالي سنة ١٥٠٠ ق.م •) •

(٤) هجرة الانباط والتدمريين (حوالي سنة ٥٠٠ ق.م •) •

(٥) الموجة الاسلامية في القرن السابع الميلادي •

وبوصول الساميين الى بلاد الهلال الخصيب يبدأون بترك حياة البداوة والاستقرار تدريجياً ويختلطون مع الامم الاخرى التي تقيم في هذه البلاد ، مما كان يؤدي دائماً الى تصادم مؤسساتهم الاجتماعية وحضارتهم مع مؤسسات وحضارات الشعوب الاخرى ، وينتج من هذا التصادم ظهور مدنات جديدة مزدهرة يغطي عليها الطابع السامي ، الا انها تصبح مختلفة الى حد غير قليل عن حضارة اخوانهم من أهل الصحراء • والواقع ان ازهى عصور الهلال الخصيب هي التي تعقب الهجرات السامية اليها •

ونظراً لتعدد حضارة الهلال الخصيب ووفرة المعلومات عن تاريخها ، فانها تدرس عادة بصورة مستقلة • أما بحثنا هذا فسيقتصر على تاريخ جزيرة العرب التي استوطنها العرب منذ آلاف السنين وخرجت منها الموجات السامية وتغذي الشرق الاوسط بالعنصر السامي وحضارته ، والتي احتفظ سكانها بمظاهر الحياة السامية ، وخاصة اللغة وتقاليده البدو بدرجة أنقى مما هي في

بقية البلاد نظراً لقلّة العناصر الدخيلة التي تأتي وتستوطن بلادهم • والتي ظهر فيها الاسلام ، ويتوجه اليها المسلمون في قبلة صلاتهم ويحجون اليها •

وشبه جزيرة العرب^(١) مستطيلة الشكل ، يبلغ طولها من رأس الخليج العربي الى العقبة حوالي ألف ميل ، ومن البحر العربي الى أطراف الهلال الخصيب حوالي ألف ومائتي ميل • وهي هضبة مرتفعة في الغرب وتنحدر تدريجياً نحو الشرق ، حتى تصبح كالسهل عند سواحل الخليج العربي •

ويمتد على طول الجزء الغربي منها سلسلة من الجبال تدعى «السراة»، توازي البحر الاحمر ، ويزداد ارتفاعها في الشمال حيث يبلغ معدل ارتفاعها ٢٠٠٠ متر ثم تنخفض في الوسط ، حتى تصبح كاللال المتقطعة ، ثم تعود الى الارتفاع في الجنوب حيث يصبح ارتفاعها حوالي ١٢ ألف قدم كما تكون عريضة فتصبح كالهضبة • ويمتد من وسط الجزيرة سلسلتا جبال اجا وسلمى أو جبلي شمر ، وهي تبلغ حوالي ٥٥٠٠ قدم في الارتفاع • كما يمتد في وسطها جبل طويق الذي يبلغ طوله الف كيلومتر ، كما توجد سلسلة أخرى من الجبال التي تمتد موازية لساحل بحر عمان ، تدعى الجبل الاخضر ويبلغ ارتفاعها حوالي ١٠ آلاف قدم • وهناك سلاسل من المرتفعات الموجودة في الجزيرة مثل جبل النير

(١) لقد درس سبرنجر في كتابه «جغرافية الجزيرة العربية القديمة» (بالألمانية) ما ورد في كتب القدماء عنها وحاول تعيين أماكنها ، وتجد خلاصة لها في كتاب الدكتور جواد علي • كما درس لامنس في كتابه «مهد الاسلام» (بالفرنسية) اقليم الحجاز • ولعل أوفى ما كتبه العرب في العصور الوسطى هو كتاب «صفة جزيرة العرب» للهمداني ، وقد اعتمد عليه كثيرا ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» •

ومع كثرة السياح والكتاب الحديثين عن جزيرة العرب الا انه لا يوجد بحث مفصل شامل عنها ، ولكن تجد خلاصة لها في كتاب «دليل جزيرة العرب» (بالانكليزية) الذي نشرته الاميرالية البريطانية واعتمد عليه كثيرا حافظ وهبة في كتابه «جزيرة العرب في القرن العشرين» •

تجد خلاصة واضحة عن جغرافية الجزيرة في كتاب فيليب حتي (تاريخ العرب) ص ١٤-٢٢ • وفي دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة •

والصمان تحصر السلسلة الغربية (السراة) بينها وبين البحر الاحمر سهلاً ساحلياً ضيقاً مهدد الانحدار نحو البحر يقطعه عدد غير قليل من الاودية التي قلما يستفاد من مياهها الشتوية للزراعة ، نظراً لشدة انحدارها ، ولكن توجد في فوهات الوديان موانئ متعددة أهمها الحوراء ، وينبع ، وجدة في بلاد الحجاز ، والحديدة ومخا في بلاد اليمن .

أما سطح الهضبة الوسطى فيتكون من الدهناء وهي أرض صلبة تكسوها قشرة ترابية تنبت فيها بعض النباتات البرية والاعشاب وخاصة في الربيع بعد سقوط الامطار . وفي هذه الهضبة توجد منطقة النفود وهي اراض تكسوها تلول من الرمال الناعمة البيضاء والحمراء التي تغير مواقعها بتأثير العواصف والرياح ، وتكون قاحلة جرداء لا نبات فيها ولا ماء وهي تكون عريضة في الشمال الى الجنوب ١٤٠ ميلاً ، ثم يمتد منها ذراع مواز للخليج العربي ، ويدعي الصمان ، ويبلغ عرضه حوالي خمسين ميلاً وهو يمتد حتى يتصل بالربع الخالي الذي يمتد في جنوب الجزيرة ، ولم يمر به أي أوربي حتى سنة ١٩٣٢ حيث مر به برترام توماس ثم قلبي ووصفاه بأنه منبسط من الارض الرملية والجيوية فيها بقايا بحيرات مالحة وآثار مياه البحر .

وفي القسم الغربي من الهضبة عدد غير قليل من الراكين الهامدة والخامدة ، وتدعى الحرات ، وأشهرها حرة خير ، وحرة سليم ، وحرة يشرب ، وأغلب هذه الحرات خضبة وهي مراكز للحضارة . كما تمتد وسطها سلسلة جبل طويق .

يقطع هذه الهضبة عدد من الوديان ، وأهمها وادي الريم الذي يسير من قرب الزبير متجهاً نحو الغرب حتى ينتهي عند خليج العقبة . ووادي سرحان الذي ينحدر من الشمال الى الجنوب الغربي حيث ينتهي عند البحر الميت . ووادي يشبه الذي يجري في عسير من الشرق الى الغرب حتى ينتهي في البحر الاحمر . ووادي اليمامة التي يمتد موازياً للبحرين . والراجع ان هذه الوديان كانت في الازمنة القديمة مجاري أنهار .

ان مناخ الجزيرة صحراوي ، حار جداً في الصيف ، وبارد في الشتاء ، وتسقط الثلوج على جبال اليمن ، كما تتجمد المياه أحياناً في الطائف وفي اليمن . وأمطارها قليلة جداً ، وهي تسقط في فصول الخريف والشتاء والربيع ، بدفعات غير منتظمة ، أما اليمن فتسقط فيها أمطار غزيرة في الصيف تأتي بها الرياح الموسمية من منطقة شرقي افريقية .

ان مياه الامطار قليلة لا تكفي للزراعة ، بل تنبت الاعشاب والنباتات البرية وأهمها الائل والغضا والطلح .

غير ان المياه الباطنية تتوفر في معظم أنحاء الجزيرة ، وتكون أحياناً قريبة من سطح الارض ووافرة لدرجة تكفي للزراعة ولاسيطان عدد غير قليل من الناس ، وتدعى هذه المناطق الواحات . وتتوفر المياه ايضاً في بطون الاودية وفي اليمن كذلك ، وهذا مما يساعد على الزراعة والاستقرار ونشوء الحضارات . ولعل أهم المزروعات هو النخيل الذي يوجد منبثاً في مختلف الواحات ، ويكثر بصورة خاصة في خيبر والمدينة ، وفي البحرين (وخاصة عند هجر) وفي اليمامة ، كما تكثر زراعة الشعير في فدك ووادي القري وخيبر والمدينة والبحرين ، والحنطة في اليمامة ، والذرة في عسير ، والكروم في الطائف واليمن ، واشجار الفاكهة في الطائف وفي عدد غير قليل من أودية الحجاز وفي اليمن . وتعيش الافاويه كالمر والمكاوي والصمغ في أودية اليمن وحضرموت بكثرة .

يطلق على سكان الجزيرة العربية اسم العرب ، وقد ذكر هذا الاسم لأول مرة في التاريخ في نقوش ترجع الى زمن سليمان الثالث (سنة ٨٥٤ ق.م.) ثم يتردد ذكرهم منذ ذلك الوقت في النقوش الآشورية والبابلية بأشكال مختلفة

Arubu, Arebi, Aribi, Arbi Arabian, Arabyaya' Arabya
وفي عدد من اسفار التوراة وقد ذكره ايضاً بعض الكتاب اليونان كايستخلوس وزينوفون . وهذه الكلمة تعني في اللغات السامية الجذب او القحولة ،

وقد اطلقتها المصادر القديمة في الغالب على عدد من الامارات والدويلات الواقعة في اطراف بلاد الشام وشمال الحجاز ، وكان يرأسها ملوك ومشاريخ بعضهم من النساء ، اسماؤهم تشبه الاسماء المستعملة في الجزيرة عند ظهور الاسلام . كما اطلق اسم العرب في بعض النقوش السبائية على البدو القاطنين في اطراف صنعاء ثم اصبحت تطلق على كافة سكان الجزيرة .

غير ان هذه النصوص المستمدة من المصادر الخارجية لا تقدم تفاصيل وافية عن نشأة وتطور هذه المشيخات القديمة وما كان سائداً في داخل الجزيرة من نظم . وليست لدينا معلومات وافية نسبياً الا عن بعض الدول التي ظهرت في بعض اطراف الجزيرة ، والتي لها علاقة وثيقة بالدول العظمى التي حكمت الشرق الاوسط^(١) .

(١) راجع في ذلك فيليب حتي « تاريخ العرب » ٣٧-٤٦ . ومادة « عرب » في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الاسلامية .

الفصل الثاني

اليمن^(١)

تقع اليمن في الطرف الجنوبي الغربي من انجيزة العربية ، تمر بها من الشمال الى الجنوب سلسلتان جبليتان تحصران بينهما هضبة عريضة ، وينحدر سطحها نحو البحر بشدة تاركاً سهلاً ساحلياً ضيقاً يقطعه عدد من الوديان المنصبة في البحر . وتسقط على هذه البلاد أمطار وافرة في الصيف تأتي بها الرياح الموسمية من شرقي أفريقية ، وقد ساعدت هذه الامطار على نشوء النهرات الصغيرة والسيول التي يستفاد منها في الزراعة التي ازدهرت في هذه البلاد . وقد أدى ذلك الى استقرار الناس ونشوء المدن والمدنية .

ومن أهم المتوجات اليمنية العطور والافاويه والبخور التي كانت لها أهمية كبرى عند الناس في التاريخ القديم ، حيث كانت تستعمل في المعابد والطقوس الدينية ، وللتحنيط ، كما كانت تستخدم أحياناً في الاطعمة ، هذا الى أن العطور كانت تستخدمها النساء بكثرة . ويكفي للاستدلال على مدى أهميتها أن نذكر ان معبداً لآمون في مصر استعمل في أوائل القرن الثاني عشر ٢١٥٩ جرة في سنة واحدة ، وان الكلدانيين كانوا يحرقون سنويا في معبد بعل بابل عشرة آلاف تالنت ، وان الاسكندر أرسل ٥٠٠ تالنت هدية لاستاذة أرسطو^(٢) . وكانت اليمن وحضرموت تزرعان أهم أنواع الافاويه والعطور العالمية وتعتبران أكبر مصدر لها في العالم القديم . وقد ساعدت زراعة الافاويه على ازدهار تجارتها مع البلاد الاخرى ، وخاصة بلاد الهلال

(١) أهم مراجعنا في هذا الفصل كتاب « سناد الاسلام » لفلبي (الاسكندرية سنة ١٩٤٦) و « تاريخ العرب » لفيليب حتي و « جزيرة العرب قبل محمد » لاوليري (بالانكليزية) و « تاريخ العرب قبل الاسلام » لجرجي زيدان و « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد علي .

(٢) فرياستارك « المداخل الجنوبية لجزيرة العرب » ص ١٠ (بالانكليزية) . ويعادل التالنت ٥٦ رطلا انكليزيا .

الخصب وبلدان البحر المتوسط حيث كانت تصدر اليهم المتوجات ، كما ان وقوعها على طريق الهند ساعد على جعلها مركزاً هاماً لتجارة الترانسيت، ولسيطرة بحاريها على ملاحه البحر العربي والبحر الاحمر . ومن المعلوم ان الملاحه في البحر العربي تعتمد على الرياح التي تسيّر من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي في فصل الصيف ثم تسيّر بالعكس في الشتاء ، ولم يكن يعرف هذه التبدلات في اتجاه الرياح سوى الملاحين اليمانيين ، مما ساعدهم على احتكار الملاحه فيه حتى القرن الثاني قبل الميلاد ، وقد أدت هذه الاحوال الطبيعية الملائمة الى ظهور المدن وازدهار المدينة منذ أقدم الأزمنة فظهرت فيها دول ، أقدم ما نعرفه منها هي الدولة الميعينية التي تشكلت في الجوف وكانت عاصمتها قرناو أو معين .

وقد لاحظ بعض الباحثين ، وخاصة ونكلر وهومل ودوفرنى ، ان بعض مظاهر الحضارة الميعينية تشبه حضارة البابليين ، فالاله شماش وعشتروت البابلية ، يشبه اسمها الاله شمس وعثر اليمانية ، كما ان النقوش والاختام الميعينية تشبه ما عند العراقيين انقدماء ، والمكارب اليمانيين يشبهون الملوك الكهنة السومريين . وقد استنتجوا من ذلك ان اصل الميعينيين من العراق . غير ان هذا التشابه الجزئي في مظاهر الحضارة لا يكفي أن يكون دليلاً قطعاً على كونهم جاءوا من العراق ، اذ يجوز أن يكون الساميون العراقيون قد جاءوا من اليمن ، أو قد يكون العراقيون واليمانيون قد جاءوا من أصل واحد في محل ما ، أو قد يكون التشابه في مظاهر الحضارة نتيجة الاختلاط الذي كان بين البلدين منذ أزمنة سحيقة .

وقد اختلف الباحثون في بداية نشوء دولتهم وذلك لان الآثار القليلة الباقية عنهم تذكر وجود خمس أسر ميعينية حكمت معين ، تكون كل أسرة من عدد من الملوك المتسلسلين ، ولكن لا توجد أية صلة بين كل أسرة من هذه الاسر وبين الاسرة التي تليها . وقد اختلف الباحثون فيما اذا كانت هذه الاسر

متعاقبة ومتسلسلة أو ان هناك ملوكا حكموا الميعين لم تصلنا أخبارهم • ويرجح المؤرخون ان أولى هذه الأسر بدأت في الحكم حوالي سنة ١١١٠ ق.م • وكانت الظروف الدولية مؤاتية لها • ففي مصر لم يتمكن ملوك الاسرة الحادية والعشرين الضعفاء من التدخل في شؤون الجزيرة العربية • وفي العراق كان يحكم بابل ملوك ضعفاء • وفي آشور كان تغلات فلاسر منشغلا في حروبه في شمال العراق • وقد ساعدت هذه الظروف الميعين على تثبيت ملكهم ومد نفوذهم التجاري في الشرق الاوسط ، فامتد نفوذهم في عهد الأسرة الثانية الى حضرموت في الجنوب ، كما امتدت تجارتهم ونفوذهم الاقتصادي الى شمال الحجاز حيث أقيمت مستعمرة ميعينية يرجح انها كانت مرتبطة بدولة اليمن • وقد أدى هذا التوسع الى احتكاك الميعين بأشور والفيقيين •

ويظهر انه في نهاية عهد الأسرة الثانية بدأ احتكاكهم بحضرموت وقتبان في الجنوب • كما بدأ يتردد في النقوش ذكر قبيلة خولان وذكر السبأين الذين أصبحوا فيما بعد ورثة الميعين •

يرجع تاريخ القتبانيين الى سنة ١٠٠٠ ق.م • على الاقل ، وكانوا يسكنون في الطرف الجنوبي الغربي من اليمن وعاصمتهم تمنا^(١) ، وهي قرب باب المندب ، وقد كشفت آثارها قبل بضع سنوات • ويذكر بعض كتاب الرومان انه كان فيها ٦٥ معبدا •

استفاد القتبانيون من موقعهم الجغرافي ومجاورتهم لحضرموت التي تنتج خير أنواع البخور ، فجنوا ثروة كبيرة وصارت لهم قوة عظيمة حددت من نفوذ الميعين • وكانت نظم ادارتهم تشبه النظم الميعينية غير أن الضربة النهائية التي قضت على الميعين جاءت من السبأين الذين ازدادت قوتهم حتى استطاعوا أن يقضوا على الدولة الميعينية وسيطروا على اليمن ويحدوا من نفوذ القتبانيين • إلا أن الميعين ظلوا محتفظين بكيانهم الاجتماعي حتى بعد انقضاء دولتهم اذ وجد لهم ذكر في الآثار المصرية في القرن الثاني ق.م •

وفي ديلوس حيث امتدت تجارتهم اليها •

يبدو من الوثائق القليلة الباقية أن نظام الحكم في معين كان ملكيا مقيدا ، فكان الملك يدعى مزود ، ومعناه المقدس ، والملك وراثي ، وقد يشارك الابن أباه في الحكم ، ولكن يحيطه مجلس استشاري يعاونه في الحكم ويحد من سلطانه •

وكانت المدن التابعة لدولتهم تتمتع باستقلال ذاتي ، أما ادارتها فكانت بيد رؤساء ينتخبون لمدة سنة قابلة للتجديد ويعاونهم مجلس من المشايخ • ويظهر انه كانت لهؤلاء الرؤساء مكانة سامية ، اذ كانت تدون أسماءهم في سجلات المدينة أو المعابد ويذكرهم المؤرخون في وثائقهم ، حتى أن بعض الملوك كانوا يؤرخون توليتهم ويحددونها بذكر الرئيس الذي كان قائما آنذاك • كان المعينيون يمتهنون الزراعة والتجارة ، وفيهم عدد من القبائل البدوية يرعون الماشية ولا تختلف نظمهم عن نظم البدو •

والمجتمع المعيني ارستقراطي يستخدم العبيد ، وفيه عدد من الطبقات التي تتميز عن بعضها • وهم متدينون يعيرون رجال الدين أهمية كبيرة • والمرأة حرة واسعة •

لقد كان المعينيون يستعملون في كتابتهم الحروف • ومن المحتمل انهم أول من اخترع الألفباء ثم انتقلت منهم الى سينا ، والفيقيين ثم نقلت الى اليونان •

انتشر المعينيون في بلاد واسعة متبعين تجارتهم حتى بعد انقراض دولتهم • فقا وجد ذكر المعينيين في مصر والعراق وسوريا وديلوس • وقد ذكرهم الكتاب اليونانيون والرومان فأشار بليني الى وجودهم مع سبأ ، ووصفهم بطليموس بأنهم شعب قوي ، وقال ديودورس بأنهم كانوا يأتون بالافاويه • ولاريب ان ذكر هؤلاء الكتاب الاغريق والرومان لهم في القرون القريبة من ميلاد المسيح دليل على بقاء المعينيين محتفظين بنشاطهم الاقتصادي حتى بعد أن دالت دولتهم • وكانت لهم مستعمرة واسعة في شمال الحجاز •

اما السبأيون فقد ورد ذكرهم في النقوش الآشورية حيث يذكر كل من تغلات فلاسر (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) وسنحاريب وأسر حدون (٧١٥ - ٦٨٥ ق.م) بأنهم أخذوا الجزية من يشعر وكرب ايلو ملوك سبأ . كما ذكرت التوراة (في سفر التكوين ٧ × ٧) سبأ جنوب جزيرة يقطان تعطى المر والجوهر والذهب ، وان بلقيس التي تزوجت سليمان كانت ملكة سبأ ، وان لم يكن هناك دليل قاطع بأن هذه المملكة كانت في اليمن .

لا تذكر المصادر التاريخية شيئاً واضحاً عن أصل السبأين . ومن المحتمل أنهم كانوا في الاصل قبائل بدوية تتجول في الشمال ثم انحدرت نحو الجنوب الى اليمن حوالي سنة ٨٠٠ ق.م . كعادة العرب في التجوال ، أو نتيجة ضغط الآشوريين عليهم من الشمال ، واستقرت أخيراً في اليمن وأخذت تتوسع فيها مستفيدة من ضعف المعينين وقوتهم العسكرية فامتدت الى الجوف .

ويمكن تقسيم حكمهم في اليمن الى ثلاث فترات متميزة كان يطلق على رؤسائهم في الفترة الاولى لقب مكرب وهي كلمة دينية تعني المقدس . ثم تلتها فترة أخرى أصبح يسمى الرؤساء فيهم ملوك سبأ . ثم في الفترة الثالثة كانوا يلقبون ملك سبأ وريدان .

وأول مكارب سبأ هو سمح علي (حوالي ٨٠٠ - ٧٨٠ ق.م) الذي لا يعرف عن حكمه الا خبر واحد هو انه قدم هدية من البخور والمر للاله المقه الذي أرشد القبيلة بعد تجوالها الى « أرض فيها اللبن والعسل » . وقد أعقبه ابنه يدع ايل ضريح الذي بنى معبدا للمقه في صرواح عاصمة مكارب سبأ ، كما بنى معبدا آخر للمقه وكذلك لعشر في مأرب ، وهذه أول اشارة لمأرب مما يدل على انها كانت آنذاك مدينة كبيرة مهمة . وقد تلا هذا المكرب يشعر وتر الذي بنى معبدا لآله القمر حوباش في دابر التي كانت تقع بين مأرب والجوف في وادي حريد . وقد ولي هذا المكرب ابنه يدع ايل بين الذي حصن مدينة نشق في الجوف عند حدود الدولة المعينية ، مما يدل على أنه كانت هناك حروب مع المعينين . غير ان النقوش لا تذكر شيئاً

من هذه الحروب • وقد تولى بعد هذا المكرب سمح على يتاف ويشعبر وتر وكرب ايل بين الذين قدموا الجزية لسنحاريب وأسر حدون • ليست لدينا أخبار أخرى عن هؤلاء المكارب • مما قد يدل على انهم لم يقوموا بفتوحات تستحق الذكر وانهم انصرفوا الى الحياة السلمية واهتموا بالزراعة والاعمار والسدود •

وقد تولى بعد كرب ايل بين ابنه (أو ابن أخيه) ذمر على وتر الذي قام بتشيد سد مأرب الذي يعتبر أعظم سد شيد في الجزيرة العربية ومن أعاجيب العالم القديم • وقد ظل ذكره يتردد بين الناس وأشير اليه في القرآن فقال تعالى « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فاعرضوا فآرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وائل وشيء من سدر قليل • ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور • وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين • فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » (سورة سبأ ١٥ - ١٩) وقد وصف هذا السد العالم اليماني الهمداني في كتابه « الاكليل » • كما وصف بقاياه عدد من السياح المحدثين منهم أرنو وهاليفي وكلازر •

والسد^(١) طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠ ذراعاً بنى على مقطع وادي أذنة الذي تتجمع فيه معظم مياه السيول التي تتكون من الامطار الساقطة على الجبال الواقعة أطراف صنعاء ، وهو مبني بالتراب والحجارة ينتهي أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى تمنع انجراف التراب عند تدفق المياه • ويستند هذا السد من طرفيه على جبلين ، وعند كل

(١) راجع كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » لجرجي زيدان ص ١٤١ - ١٤٨ وقد اعتمد فيه على وصف أرنو وتجد وصفا لبقايا السد في كتاب « رحلة في البلاد العربية السعيدة » لنزيه المؤيد العظم •

من هذين الجبلين تتفرع القنوات وتدعى ميزاب ، وعلى فتحة كل قناة سد آخر ذو فتحة مبنى بالحجارة ، فالسد يحصر المياه الآتية من السيل ويجمعها فتصبح كالخزان ، وترتفع المياه حتى تصل مستوى عالياً يقارب مستوى الجبلين ، ثم تفتح فوهات القنوات فيدخل منها الماء لارواء سطح الجبلين ، فاذا اكتفوا سدوا هذه القنوات بأبواب من خشب وحديد •

على أن ما بناء دمار علي لم يرو كل الاراضي ، لذلك أكمله ابنه يشمر بيان فأنشأ سدا جديدا يدعى جبار (أو جبارذ) ووسع سد رحاب • وقد جعلت هذه السدود منطقة مأرب غنية بالزراعة •

وقد اضيفت الى السد اضافات متعددة حتى اتخذ شكله النهائي على عهد شمر يرعش (٣٠٠م) غير ان اضطراب الاحوال في أواخر عهد الحميريين أدى الى اهماله وحدث تصدع فيه ، وقد حاول ابرهة اصلاحه ولكنه تخرب فيما بعد وكان لتخريبه تأثير في اغراق الاراضي • ويروي العرب عن سبب تخريبه أقاصيص خرافية ويعززون الى هذا التخريب سبب هجرات الفساسنة والمناذرة والازد • ولا ريب أنهم مغالون في هذا ، اذ أن تخريبه أدى الى تدمير الزراعة في المنطقة المزروعة حول مأرب فقط •

لقد ازدادت أهمية مأرب ببناء هذا السد وأصبحت عاصمة للسبأيين بدل صرواح واتخذها يشمر بيان قاعدة عسكرية قام منها بفتوحات دون اخبارها في نقوش على السد ، فاضع القتبانيين وقتل عددا كبيرا منهم ، ثم توجه شمالا الى معين وأخضعها ، كما أخضع قبائل أخرى في نجران كالحامر وعامر فقتل عددا كبيرا من رجالهم وغنم منهم غنائم كبيرة ، غير انه لم يقض على معين •

وقد خلفه في الحكم ابن عمه (أو ابن أخيه أو حفيده) كرب ايل وتر (٦٢٠ - ٦١٠) الذي كان أول من اتخذ لقب الملك • وحالف هذا الملك يدع ايل ملك حضرموت وداروايل ملك قتيبان واستعان بهما في حروبه ، فهاجم مملكة أوسان التي كانت قد ظهرت في الجنوب الغربي من اليمن واستفادت من ضعف القتبانيين فوسعت رقعتها وتحكمت في

حضر موت وسيطرت على الطرق التجارية الآتية منها • وقد استطاع كرب ايل وتار القضاء على هذه المملكة واخضاع عدد من القبائل التي كانت تحالفها كالمحامر ، وأمن له هذا الانتصار السيطرة على طرق تجارة البخور والافاويه الآتية من الجنوب •

ثم توجه كرب ايل وتر الى معين وحلفائها في الشمال ، فهاجم نشان والمناطق المجاورة لها • وقد حاول المينيون أن يدرأوا خطره بالتحالف مع القبائل الموجودة في الشمال ضده ، ولكنه عاجلهم وهاجم المحامر وعامر واوهاب الذين كانوا يسكنون نجران وغنم منهم غنائم كبيرة •

وقد ساعدت الظروف الدولية كرب ايل وتر على القضاء على خصومه ، ذلك ان مصر لم تكن قد استفاقت من تأثير غزو الآشوريين لها في أواخر القرن السابع قبل الميلاد ، وكانت آشور منشغلة في صد هجمات البابليين والكاشيين ، كما أن بابل كانت منشغلة في حروبها مع الآشوريين ثم مع اليهود في فلسطين كل هذا ساعد الملك السبائي على توطيد كيان الدولة السبائية وتأمين سلامتها وتوطيد السلم لأحفاده الذين ظلوا يتعاقبون في الحكم على البلاد حتى سنة (٣٧٥ ق م •)

لقد كان الملك في الدولة السبائية هو الذي يقوم بالحكم والقيادة العليا للجيش في الحروب ، ويعينه على الحكم مجلس شعبي ، وهناك موظفون يرثون مناصبهم ويسمى كل منهم « الكبير » وهو مسؤول عن القانون ، وقد كونوا على مر الايام طبقة وراثية حلت محل المجلس الشعبي ، ثم تطورت مكانتهم فصاروا طبقة اقطاعية ، وأدوا الى اضعاف نفوذ الملك •

وكانت الادارة تعتمد على ملكية الارض ، وتفرض الضرائب على الارض والتجارة ، كما تفرض عادة ضرائب استثنائية لسد نفقات وتكاليف الحملات الحربية ، ويتوقف مقدارها على وضع المنتج الزراعي والحصاد ، وعلى الوضع الاقتصادي العام للبلد •

وقد ازدهر فن البناء والعمران ، وكانت الاخشاب وأحجار الجرانيت متوفرة ، غير أن كثيرا من البيوت الشعبية كانت مبنية بالطابوق • وكان

النحت راقيا ، بحيث يصعب أحيانا تمييز القطع المتصلة ، وكثيرا ما تزخرف
الحيطان والاعمدة وتطلى بالمعادن • وكانت كثير من الابنية مكونة من عدة
طوابق • أما السدود والقنوات والكهاريز فقد رقى فن اقامتها رقا عظيما •

وقد وصل فن الصياغة مستوى عاليا من الرقي ، كما تظهر ذلك
الاوراني الذهبية والفضية الباقية ، أما النقود فمتأثرة بالطراز الاغريقي^(١) •

غير انه تعاقب على حكم الدولة السبائية فيما بعد ملوك ضعاف ، واستغلت
ذلك القبائل التي تسكن الهضبة وخاصة حاشد وبكيل فرعى همدان ،
وخولان وبني ذي ريدان ، وزادوا من نفوذهم وسطوتهم واشتبكوا فيما
بينهم بحروب طويلة زادت في اضعاف نفوذ السبائين ، وأدت الى استقلال
حضر موت وأوسان • غير أن ظهور هذه القبائل أدى الى تناقص أهمية
الهضبة الوسطى وانتقال مركز الحضارة منها •

وفي ذلك العهد كانت روما قد أخذت تمد نفوذها في الشرق الاوسط ،
فاستطاع بومبي أن يستولي على سوريا وفلسطين ، ثم قضى يوليوس قيصر
على دولة البطالسة في مصر ، فلم يتولى اغسطس زمام الحكم في روما وأدرك
ما تصرفه روما سنويا من الاموال على البخور والافاويه ، أراد أن يضم الى
امبراطوريته البلاد التي تنتج هذه المتوجات ، ويبدو انه اعتقد بضعف
اليمنيين وعجزهم عن مقاومة الرومان ، فأوعز الى واليه في مصر اليوس
كالوس بتجريد حملة لاحتلال اليمن سنة ٢٥ ق.م • ولا نزال نحتفظ
بأخبار هذه الحملة بفضل ما دونه سترابو عنها • لقد سلكت الطريق
البري ، وأخذت لها دليلا نبطيا سار بها عبر الحجاز الى حربد الذي هو
الوادي الوحيد الذي تتوافر فيه المياه الدائمة ثم تقدمت الحملة فاحتلت
اسكا (نسا أو نشق) واثرولا (يشيل أو البيضاء) وغنم منها غنائم كبيرة
ثم تقدم الى مارسابا (مأرب ؟) التي كان يحكمها الرايتيون وملكهم
الاساروس (على ما يقول سترابو) • وقد لقي مقاومة شديدة اضطرته أن

(١) انظر موسكاتي • مدنية الساميين القدماء ص ١٩٠ (بالانكليزية) •

يتركها ويعود راجعاً بعد أن حاصرها ستة أيام • وقد لاقى جيشه في طريق عودته الالهوال من الامراض والعطش • ويعزو الرومان سبب فشل الحملة الى عوامل المناخ • ولا ريب ان هذا تبرير لفشلهم ، اذ الراجع أن سبب فشلها مقاومة اليمانيين •

لم تستطع هذه الحملة أن تؤدي الغرض الذي جاءت من أجله ، فظلت اليمن خارج الامبراطورية الرومانية ، غير انها في نفس الوقت لم تؤد الى قطع العلاقات اذا استمرت تجارة الافاويه مع الرومان وكان يقوم بها اليمانيون • ويبدو ان حملة اليوس كالوس قد أحدثت بعض الانتعاش السياسي والعسكري في دولة سبأ ، فضعف خصومهم ، وزاد نفوذ الاسرة الحاكمة ، فلم يبق من يخاصمها سوى حاشد ، وقد استطاع ملوك سبأ أن يمدوا نفوذهم الى حضرموت كما يظهر من القابهم • غير ان الدمار الذي أصاب مأرب من جراء الحملة حملهم على نقل عاصمتهم الى ذمار فترة من الزمن •

لقد كان السبأيون يعتمدون في الملاحة في المحيط الهندي والبحر العربي على حركة الرياح الموسمية ويسهرون سفنهم حسب أوقاتها ، التي تبدل حسب المواسم تبديلاً تاماً ، وقد احتفظوا لانفسهم بمواعيد هذه الرياح ، واعتبروها سرا لم يباحوا به لغيرهم ، مما مكنتهم من احتكار تجارة الهند التي كانت تأتيهم بأرباح طائلة • غير انه في أواخر القرن الثاني ق.م • استطاع هبارخوس ، وهو أحد الملاحين الرومان ، أن يتعلم مواعيد هذه الرياح الموسمية ثم علمها بدوره الى غيره من اليونانيين ، فأخذت السفن المصرية والرومانية تبحر في المحيط الهندي وتجلب البضائع من جنوب آسيا والهند من دون حاجة الى وساطة السبأين • وهكذا لم يعودوا يحتكرون التجارة ، وأخذت البضائع الهندية تسير في الطريق البحري من المحيط الهندي الى البحر الاحمر وتنزل بضائعها في الموانئ المصرية أو في العقبة رأساً • وقد أدى هذا الى تناقص أهمية الطريق البري الذي كان يسير من عدن مخترقاً الهضبة اليمانية الى وسط الججاز ، كما أدى الى تضائل

أهمية الهضبة اليمانية الوسطى وانحطاط مدنها التي كانت تعتمد كثيراً على التجارة المارة بها ، ولكنه أدى في نفس الوقت الى ازدياد أهمية المدن اليمانية الواقعة على ساحل البحر الأحمر ، فانتعش الحميريون الذين كانوا يسكنون في المنطقة الساحلية وازدادت قوتهم ، فكونوا لهم دولة عاصمتها ظفار ، استطاعت أن تمد نفوذها حتى تمكنت من القضاء على دولة سبأ • وقد تم تأسيسها تدريجياً •

وأول ذكر للحميريين في آثار اليمن يأتي من سنة ١١٥ ق م • حيث تذكر النقوش « ملك سبأ وذو ريدان » وريدان هي ظفار عاصمة الحميريين ، (وهي تقع على بعد مائة ميل من مخا) وهذا يدل على ان الحميريين كانوا منذ ذلك الوقت ذوي كيان سياسي متميز • وكانوا يسكنون المنطقة الساحلية ، وقد ساعدتهم موقعهم الساحلي على المساهمة في الحركة التجارية وتوثقت علاقاتهم بالاحباش • ثم صار لقبهم من سنة ٢٧٥ م « ملك سبأ وريدان وحضرموت واعرابهم من الجبال رتهامة » مما يشير الى توسع نفوذ اليمن وامتدادها الى تلك المنطقة ، ثم استطاعت حمير أن تنتزع الحكم من السبائيين وتصبح أسرتها هي الحاكمة في اليمن •

ينسب بعض المؤرخين العرب للملوك الحميريين فتوحات واسعة فيروون أن فتوح ناشر النعم وصلت اسبانيا واوروبا ، وان شمر يرعش امتدت فتوحاته فشملت العراق وايران حتى وصلت الى تركستان ، وانه بنى سمرقند التي سميت بأسمه ، وان اسعد كرب فتح اذربيجان والقسطنطينية^(١) • ولا ريب ان تواريخ الدول المعاصرة لا تذكر شيئاً عن هذه الفتوحات ، مما يدل على كونها أساطير ومخلفات ، غير انها تدل على الاثر الذي تركته قوة الحميريين العسكرية في النفوس • ومن الثابت ان الحميريين استولوا على بلاد الحبشة في القرن الاول قبل الميلاد •

(١) راجع في ذلك كتاب التيجان من ملوك حمير ، المنسوب لوهب

وفي عهد الدولة الحميرية بدأت المسيحية تنتشر في اليمن ، وكان انتشارها تدريجيا على ايدي المبشرين المسيحيين وخاصة اليعاقبة الذين جاءوا من الحبشة وأنشأوا لهم كنائس في عدن وظفار ونجران وربما ساعد على نشر المسيحية أيضا الارساليات النسطورية من الحيرة وارساليات من سوريا^(١) وأخذوا يبشرون منها الدعاية المسيحية حتى استطاعوا أن ينصروا عددا من أهل اليمن . وفي سنة ٣٤٠م هاجم الاحباش اليمن واستولوا عليها ، ووجدت المسيحية فيهم سندا قويا لها .

غير أن الحكم الحبشي لم يدم طويلا ، اذ أن رجال الدين المتعصين للوثنية تعاونوا مع اليمانيين على مقاومة الاحباش النصارى الغزاة ، واستطاعوا اخراجهم سنة ٣٧٨م واعادة الوثنية الى مكائنها الاولى . وقد كانت هذه الحملة الحبشية الاولى محاولة لانتزاع التجارة من اليمن ولنشر الدين المسيحي ، وهي بمثابة حركة استطلاع مهدت للاستعمار الحبشي فيما بعد .

أدى خروج الاحباش الى أن تفقد المسيحية سندا قويا لها ، كما ان الملوك الحميريين ، وكانوا قد لجأوا الى يثرب عند الغزو الحبشي ، تأثروا بالديانة اليهودية التي كانت منتشرة في يثرب . غير أنه ليس هناك دليل على اعتناقهم اياها فان ملك كرب الذي طرد اليهود كان يعبد « ذى سماوى بعل السماوات والارض » كما تنص النقوش التي بقيت من عهده . ويظهر من هذا النص ان اليمانيين قد أخذوا يعتقدون باله عظيم هو رب السماوات والارض ، الا أنهم لم يتركوا آلهتهم الاخرى كما أنهم لم يدينوا باليهودية التي تعتبر الالهة يهوه ، لا بعل كما يدعو هذا النقش .

وقد جاء بعد ملك كرب ابنه أبو كرب أسعد الذي يدعو المؤرخون العرب أسعد كامل تبع وينسبون اليه فتوحات واسعة وصلت بها جيوشه الى تركستان . ولا ريب ان هذه الاخبار هي من باب الاساطير ، اذ لا توجد اشارة اليها في تواريخ الامم المعاصرة له ، ولكنها تدل على مدى ما تركته

(١) أنظر الفصل السابع من كتاب « جزيرة العرب قبل محمد ،

قوة الحميريين العسكرية في أذهان الناس من تأثير • ويبدو أن توسع أبو كرب لم يتجاوز يشرب التي زارها هذا الملك ردا لجميل أهلها الذين آووه ، وربما أراد بذلك أن يتعاون مع اليهود ضد الاحباش والنصارى • وقد أعقبه شرحيل يعفر الذي عمر بعض ما خرب من سد مأرب سنة ٤٥٠ نتيجة الفيضانات والاهمال •

ثم تعاقب فيها على حكم اليمن بضعة ملوك لم تكن لهم آثار بارزة الى أن جاء ذو نواس الذي كان شديد التعصب على المسيحية فعزم على اجتثاثها من اليمن ، وطلب من النصارى ترك دينهم ، فلما أبوا أحرقهم بالنار في اخدود حفره لهم • وقد أشار القرآن الى هذه الحادثة • قتل أصحاب الاخدود • النار ذات الوقود • اذ هم عليها قعود • وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود • وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد • (سورة البروج ٤ - ٨) •

ويروى أن ذا نواس دان باليهودية وتسمى يوسف أو فنحاص وان مقاومته للمسيحية كانت نتيجة تعصب ديني • وقد تكون هناك دوافع أخرى لاضطهاده المسيحية : منها ان المسيحية في الشرق كانت تجد سندها في الدولتين البيزنطية والحبشية ، وأن انتشارها قد يؤدي الى تزايد نفوذ البيزنطيين والاحباش في اليمن ، أو على الأقل قد يكونون بمثابة رتل خامس للبيزنطيين عند حدوث أي غزو بينما لم يكون اليهود أي خطر للاستيلاء على اليمن • ولعل اليهود هم الذين حرضوا ذا نواس على اضطهاد المسيحية انتقاما من البيزنطيين الذين قاموا باضطهاد اليهود في بلادهم آنذاك • وجدير بالملاحظة أن ذا نواس أول ملك ذكر بأنه تهود ، وأنه لم يكن متعصبا لليهودية ، فلم يضطهد الوثنية التي ظلت منتشرة حتى ظهور الاسلام •

غير أن اضطهاد ذي نواس للمسيحيين أثار البيزنطيين الذين أوعزوا الى الاحباش بالهجوم على اليمن • فجهز الاحباش حملة بقيادة أرباط استطاعت أن تقضي على الدولة الحميرية وتنتصر للنصارى • وقد اتبع

الاحباش سياسة لينة مع اليمانيين ، واعتمدوا على الامراء المحليين في الادارة ،
فين أرباط سميغ اشوع الحميري على اليمن ، ولما مات أعقبه ابرهة الذي
أراد اتباع سياسته فعين على كندة رجلا من أبنائها يدعى يزيد بن كبشة ،
ولكن هذا ثار على ابرهة ، فجرد حملة ضده ، ثم القى القبض عليه وقتله .

واهتم ابرهة كذلك في اصلاح البلاد ، فعمر سد مأرب الذي كان قد
تصدع ، وحشر للعمل فيه العمال من أهل البلاد ، وصرف على ذلك مبالغ
طائلة ، فلما انتهى من اصلاحه أقام احتفالا عظيما دعا اليه مندوبين من كافة
الدول المجاورة . وقد سجل جهوده واحتفالاته في نقش اكتشف في السنين
الاخيرة ، والثى ضوءاً هاما على أحوال ذلك الزمن^(١) .

ثم جرد ابرهة حملة للاستيلاء على مكة . ولكن الحملة تدمرت
عند مكة ، ومات ابرهة . وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله تعالى « ألم تر
كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل
عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم ككصف مأكول ،
(سورة الفيل) » .

لم يرض بعض أهل اليمن باحتلال الاحباش بلادهم ، فاستجدوا
بالدولة الساسانية التي كانت عدوة البيزنطيين ، فانجدهم انو شروان بقوة
أبحرت من الخليج العربي ونزلت في جنوب اليمن واستطاعت أن تطرد
الاحباش منها ، وبذلك تحررت اليمن . وقد أصبح سيف بن ذي يزن
حاكما عليها ، وكان هو الذي استجد بانو شروان . وقد ظلت القوة
الساسانية في اليمن ، وكانت تقيم في صنعاء^(٢) .

(١) لقد كتب سدني سميث في نشرة مدرسة اللغات الشرقية (١٩٥٤)

مقالة قيمة عن الاحباش وأحوال الجزيرة في القرن السادس الميلادي .

(٢) انظر في ذلك الطبري ج ٢ ص ١١٥ فما بعد . ابن هشام

سيرة النبي ج ١ ص ٦٥ فما بعد .

ثم ان سيف بن ذي يزن قتل ، فتولى الحاكم الساساني أمر ادارة اليمن تسانده القوة الساسانية . غير ان الاضطرابات التي حدثت آنذاك في الدولة الساسانية جعلت مركز هذا الوالي ضعيفا منزلا ، فقوى نفوذ المشائير والامراء المحليين ، وحصروا نفوذ هذا الوالي في صنعاء وما يجاورها . ثم ادعى الاسود الغنسي النبوة ، وحرّض الناس ضد الفرس ، وتمكن من القضاء عليهم ، ولكن هذا لم يدم طويلا اذ سرعان ما دهمه المسلمون وقضوا على حركته ، بعد أن اغتاله بعض اليمانيين المعارضين له . وهكذا أصبحت اليمن جزءاً من الدولة الاسلامية .

وقد ساهم كثير من اليمانيين في الفتوح الاسلامية ، فانضموا الى الجيوش الاسلامية منذ عهد أبي بكر ، ثم استوطنوا الامصار الاسلامية كالسكوفة والشام والفسطاط ، وشارك كثير منهم في فتح الاندلس واستقروا فيها ، وساهموا في تكوين الحضارة لاسلامية التي بُعثت في هذه الامصار ، مما سنبحثه بالتفصيل في الجزء الثاني .

قائمة أسماء الملوك المعينين حسب ترتيب فلبى^(١)

اليفع وقه

وقه ايل صديق

أبو كرب يشع

عم يشع نعمت

« فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها ،

صدق ايل ملك حضرموت ومعين

اليفع يشع

صفن ذرح

اليفع ريام

حوف عشت

أب يدع يشع

وقه ال ريم

حفن صدق

اليفع يفش

• فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها ،

يشع ال صديق

وقه ال يشع

اليفع يشر

حفن ريام ووقه ال نبت

• فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها ،

أب يدع ريام

خال كرب صديق

حفن يشع

• فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها ،

يشع ال ريم

تبع كرب

حكم اليفع وقه سنة ١١٢٠ • ودام حكم كل ملك عشرين سنة •

وقد رتب البرايت قائمة ملوك معين بشكل آخر ، فان الملوك الاربعة

الاول في قائمة فلبى ، يعتبرهم البرايت تولوا الحكم بين اليفع يفش ويشع

ال صدق ، كما انه يرى أن اليفع وقه حكم سنة ٢٥٠ ق م٠٠ ، وان اليفع
يتع (أول ملوك معين) برأيه حكم حوالي سنة ٤٠٠ ق م٠٠^(١)

ملوك سبأ حسب ترتيب فلبى^(٢)

المكارب :	يدع ال وتر
سمه على	ذمر على بين
يدع ال ذرح	كرب ال وتر
يشعمر وتر	
يدع ال بين	«فترة عشرين سنة لانعلم أسماء ملوكها»
يشعمر وتر	
كرب ايل وتر	الكرب يهنم
ذمر على وتر	كرب ال وتر
كرب ال بين	وهب ال (من بكيل)
سمح على ينف	انمار يهنم
يشعمر بين	ذمر على ذرح
كرب ايل وتر	نشا كرب يهنم
الملوك :	
كرب ايل وتر	« فترة ثلاثين سنة »
سمح على ذرح	

(١) نشر البرايت قائمته في نشرة مجلة المدرسة الامريكية في الشرق
Bsasoor سنة ١٩٥٠ .

(٢) سناد الاسلام ص ١٤١ .

ناصر يهنعم	كرب ايل وتر
وهب ال يحز	الشرح
كرب ال وتر يهنعم	يدع ال بين
(ثم اغتصب العرش بريم ايمن	يكرب ملك وتر
وابنه علهان نهفان)	ينع امر بين
مزعم ينهب	كرب ال وتر
الشرح يحصب	سمح على ينف
(ثم تعقبه فترة ذكرت فيها أسماء	الشرح
ملوك لانعلم ترتيبهم أو زمن حكمهم)	ذمر على بين
ذمار على يحابر	ملوك سباً وذو ريدان :
تاران يعب يهنعم	يزل بيان
ذمار على يحابر (الثاني)	نشا كرب يمين يرحب
ذمار على بيان	وتر يهنم
	ياسر يهصدق

وقد اعتبر بداية حكم سمح على سنة ٨٠٠ ق م ، وقدر حكم كل
مكرب عشرين سنة وهو رقم كيفي •

تتفق قائمة فلبي للملوك سباً مع قائمة هومل ، الا في بعض الامور ،
منها أن هومل يضع كرب ايل وتر الاول بعد الشرح ، ويعتبر سمح على
ينف مؤسساً لاسرة جديدة ، ويحذف اسم يدع ال وتر وذمر على بين ،
ويرى ان الكرب يهنم أعقب كرب ال وتر مباشرة^(١) •

وقد نشر فلبي مقالة في مجلة الميوزيون الفرنسية عدل فيها هذه القائمة عن
المكارب ، فاضاف سمح على ينف بعد يدع آل ذرح ، وذمر على ذرح بعد

(١) نقلت قائمة هومل من كتاب الدكتور جواد علي ج ٢ ص ١٤٧ -

يدع ال بين ، وذمر على ينف بعد يشمر بين ، كما اعتبر بداية حكم سمح
على سنة ٨٢٠ ق م .

ملوك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات

نوف	يريم يرحب
لاهي عت يتبن	الاحتلال الحبشي الاول
معد يكرب ينعم	ملكرب يهنم
ذو نواس	أبو كرب أسعد
غزو الاحباش	ورو عمار ايمن
سميفع اشوع	شرحيل يعفر
معد يكرب وايرهه	معد يكرب
غزو الفرس	عبد كلال
دخول الاسلام •	شرحيل يكيف

الفصل الثالث

بطرا^(١)

أقد كان الهلال الخصب منذ أقدم العصور التاريخية مركزا لحضارة راقية ، فقد ساعدت خصوبة أرضه ووفرة المياه فيه على رقي الزراعة وازدهار السكان وظهور المدن وتكوين الحكومات • وأدى هذا الى رقي المدينة والصناعة والتجارة • ومع وفرة منتوجات بلاد الهلال الخصب ، ورقي بعض صناعته ، الا أنه كان محتاجا الى استيراد بعض البضائع ، وخاصة من الهند وشرق افريقيا وجنوب البلاد العربية ، كالبخور والعطور والبهارات والافاويه والعاج والمصنوعات الحريرية • وكان يصدر بدوره بعض الفائض من منتوجاته وخاصة المنسوجات والمصنوعات الزجاجية •

ولما ازداد رقي الحضارة اليونانية والرومانية ، زاد الطلب على بضائع بلاد الهند وجنوب البلاد العربية ، وصار الهلال الخصب مركزا لتجارة الترانسيت الى بلاد البحر المتوسط •

وكانت التجارة الهندية^(٢) تأتي عن طريقين أولهما طريق الخليج العربي فتفرغ بضائعها عند رأس الخليج العربي حيث تنقل الى العراق ومنها الى سوريا فالبحر المتوسط ، وفي بعض الأحيان كانت البضائع تفرغ

(١) رجعنا في بحث الانباط بصورة خاصة الى كتاب « بطرا والانباط » لكاميرر (بالفرنسية) ، وكتاب « مدن القوافل » لروستوفزيف بالانكليزية و « بطرا : تاريخها وآثارها » لكندي (بالانكليزية) هذا بالاضافة الى كتابي جواد علي وجرجي زيدان •

(٢) راجع عن طرق التجارة بالاضافة الى ما ذكر اعلاه كتاب ورمنجتن « تجارة الامبراطورية الرومانية مع الهند » ، وكتاب جالسورث « الطرق التجارية والتجارة في الامبراطورية الرومانية » • وسليمان حزين « جزيرة العرب والشرق الاقصى » وكذلك ما كتبه روستوفزيف في الجزء الاول من كتابه « التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للعالم الهليني » ، وكذلك ما كتبه في الجزء السابع من تاريخ كمبردج للعصور القديمة •

في موانئ البحرين وخاصة كره Garrhae التي تقع في مكان لم يعين بعد في منطقة البحرين^(١) ثم تنقل عبر الصحراء العربية الى العراق أو الى سوريا أو الى فلسطين ومصر •

أما الطريق الثاني فكان يأتي من البحر العربي فالبحر الاحمر ومنها الى الموانئ المصرية الواقعة على ساحل لبحر الاحمر الغربي ، أو الى ميناء العقبة حيث تنقل منها الى سوريا وموانئ البحر المتوسط • ولا ريب أن الطريق الاول المار عبر الخليج العربي الى العراق كان أفضل لانه أقصر وأقل كلفة وليس فيه جزر مرجانية كالبحر الاحمر ، لذلك كان أكثر طروقا وخاصة عندما يكون الهلال الخصيب تحت حكم امبراطورية واحدة لا تتدخل في عرقلة الطرق التجارية •

الا أن الطرق البحرية كانت في العصور القديمة معرضة الى كثير من الاخطار الطبيعية أو البشرية كالعواصف والدوامات والحيوانات البحرية أو الشعاب المرجانية ، لذلك كان التجار يفضلون الطرق البرية بقدر المستطاع • فكانت السفن الآتية الى الخليج العربي تمرغ أحيانا حمولتها عند البحرين في ميناء كره Garrhae وتنقل منها براً الى العراق ، و الى سوريا عبر الصحراء ، أما السفن الآتية الى البحر العربي فكانت تنهي رحلتها في ميناء عدن حيث تنقل بعدها البضائع عبر اليمن فالحجاز ومنها الى مصر وفلسطين أو الى سوريا • وكان لابد للطرق البرية أن تقطع صحراء البلاد العربية ، سالكة الوديان أو القفار ، وأهم المصاعب التي تلاقيها هي قلة المياه ، فالآبار هي العامل الاول الذي يقرر اتجاه القوافل ومحطاتها في الصحراء ، لذلك كانت كافة محطات القوافل حول الآبار • وتتوقف أهمية هذه المحطات على وفرة مياه آبارها والاراضي القاحلة التي تحيط بها أو وقوعها على تشعبات الطرق •

وقد كان شمال الحجاز منذ أقدم الازمنة ذا أهمية كبيرة لطرق

(١) ويذهب فيليب حتي الى انها العقير • تاريخ سوريا ولبنان

القوافل ، وذلك لان تلك المنطقة تقع عند طرف الهلال الخصيب ، تلتقي فيها الطرق الآتية من كره شرقا ، واليمن جنوبا ، وسوريا وفلسطين شمالا ، ومصر غربا . لذلك كانت تنشأ فيها مدن في محطات القوافل ، وتنشئ هذه المدن خاصة عندما يحدث اضطراب في الهلال الخصيب وينفصل العراق عن سوريا ، وقد رأينا كيف أن المعينين أنشأوا لهم مستعمرة عند العلا في الطرف الشمالي من البحر الاحمر لتكون محطة لقوافلهم البرية التي تنقل تجارتهم الى الهلال الخصيب أو الى مصر .

وكثيرا ما كانت القبائل العربية التي تجوب تلك المناطق تترك حياة التجول وتستقر حول الآبار وتقوم بتموين القوافل المارة بها ، وقد تقوم بحراستها .

ومن هذه المناطق التي اتخذت محطة للقوافل ، وادي موسى في شرقي الاردن . فقد كانت هذه المنطقة تتوفر فيها المياه والآبار ، فصلاح لان تكون محطة للقوافل تحميها الجبال التي كانت تحيط بها . ولسنا نعلم عن تفاصيل تاريخها في القديم ، سوى أن الادوميين قطنوها منذ القديم ، وأنشأوا فيها بضعة مدن ، ولكن القبائل البدوية في الجزيرة قامت بعدة هجمات على الآدوميين فأقصتهم عنها تدريجيا وحلت محلهم . فلما قامت الامبراطورية الآشورية احتلت سوريا وفلسطين وبذلك وحدت الهلال الخصيب وجعلته خاضعا لامبراطورية واحدة قوية نشرت الامن والسلم في ربوعه ، الامر الذي ساعد على ازدهار الطريق التجاري المار بالعراق ، ولا بد ان هذا أدى الى ضعف التجارة التي كانت تمر من غربي الجزيرة . وقد أدرك اليمانيون ، وربما القبائل التي تسكن غربي الجزيرة قوة الآشوريين وخطرهم ، فراحوا يتوددون لهم ويرسلون لهم الهدايا ، ولعلمهم كانوا يستهدفون من ذلك ضمان مرور تجارتهم في بلاد الامبراطورية الآشورية . ولكن ليس هناك دليل على ان الآشوريين احتلوا هذه الاماكن أو أدخلوها ضمن امبراطوريتهم . فظلت تلك المناطق تتمتع بالاستقلال ، ولا بد أنهم أصابهم بعض الضعف لتحول التجارة الى طريق العراق ، اذ اتنا لا نسمع شيئا عن سكانها سوى

أن آشور بانيبال أرسل ضدهم حملة ولكنه لم يخضعهم .
فلما جاء الاسكندر المكدوني أرسل ضدهم بقيادة أحد قواده حملة
توغلت في بلادهم ولكنها لم تستطع اخضاعهم . فلما مات الاسكندر انقسمت
امبراطوريته الى عدة أقسام ، وقد كانت مصر من نصيب بطليموس وسوريا
من نصيب سلوقس ، وكان هذان الحاكمان متنافسين فحاول سلوقس قطع
التجارة عن مصر ، بلاد خصمه بطليموس ، لذلك أراد احتلال بلاد الانباط
التي كانت تسيطر على طرق التجارة البرية ، فأرسل حملة مكونة من ٤٠٠٠
راجل و ٦٠٠ فارس ، ولكنها شئت ، واضطر الذين سلموا الى مصالحة
الانباط . ثم أرسل السلوقيون حملة أخرى لعقابهم ، فانسحب الانباط الى
معاقلهم في الجبال والصحارى ، ثم فاضوا السلوقيين بالصلح ، ودفعوا لهم
مبلغا من المال ، فوافق السلوقيون على الصلح بعد أن أدركوا أنه ليس
بمقدورهم الاستيلاء على تلك البلاد .

وقد أدرك البطالسة أهمية بلاد الانباط وأثرها على التجارة الخارجية
المصرية ، كما أدركوا صعوبة الاستيلاء على تلك البلاد الجبلية الصحراوية ،
لذلك عزموا على أن يتركوا لهم استقلالهم ولكن يجعلوهم تحت نفوذهم ،
فاستولوا على المدن الفينيقية وفلسطين التي كانت تنهي اليها القوافل النبطية ،
كما أرسلوا حملة احتلت أراضي اللحيانيين الواقعة في الطرف الشمالي من
الحجاز ، ثم أنشأوا في الاردن ، عند أطراف بلاد الانباط ، عدة مستعمرات
يونانية . وبذلك أحاطوا ببلاد الانباط وهيمنوا على منافذ الطرق التجارية^(١) .
وبجانب هذا شجع البطالسة تجارة البحر الاحمر ، وأنشأوا على
سواحل مصرية الموانئ والمحطات والطرق ، الامر الذي أدى الى اضماف
التجارة البرية المارة ببلاد الانباط . وقد أدرك الانباط هذا الخطر الذي
يتهددهم فقاموا بمض النشاط في القرصنة والانتقاض على السفن في البحر
الاحمر بقصد عرقلة التجارة البحرية .

(١) راجع في ذلك مقال روستوفزيف بعنوان « بطليموس الثاني
والجزيرة العربية » المنشور في مجلة الآثار المصرية سنة ١٩٢٧ .

ثم أن البطالسة ضعفوا في القرن الثاني ق.م. واسترجع منهم السلوقيون سوريا ، فحاول هؤلاء أن يجلبوا الانباط الى جانبهم . وقد استفاد الانباط من ذلك ، ونشطت تجارتهم مع سوريا ، وذهب تجارهم الى صور وبيلوس (جيل) حيث وجدت آثارهم هناك ، وربما امتد نشاطهم التجاري الى المدن السورية الاخرى .

ثم ضعف السلوقيون واضطربت أحوال الشرق الاوسط عامة والهلال الخصيب خاصة ، فاحتل البارثيون العراق واستقلت امارات متعددة في شمال الهلال الخصيب وسوريا ، وكانت هذه الامارات متخاصمة ، فاضطرب الامن وتعطلت التجارة المارة بالعراق فاستردت طرق التجارة في غربي الجزيرة أهميتها ، وعادت بطرا الى الازدهار ، والمواقع أن معظم أخبارها وآثارها المكتشفة تأتي من هذه الفترة .

حاول الانباط الاستفادة من عدم وجود دولة قوية في الهلال الخصيب وأرادوا بسط نفوذهم على البلاد المجاورة . واضطر ملوكهم الاول : الحارث الاول (١٦٩ - ١٤٦ ق.م.) والثاني (١١٠ - ٩٦ ق.م.) وعبادة الاول (٩٠ ق.م.) الى الاشتباك بعدة حروب مع دولة الهيروديين اليهودية التي تأسست في فلسطين . وقد استطاع هذا الملك الاخير أن يستولي على جنوب شرقي سوريا بما فيها حوران وجبل الدروز .

ومن أشهر ملوك الانباط الحارث الثالث (٨٧ - ٦٢ ق.م.) الذي استطاع أن يكسر اليهود في عدة مواقع ويحاصر القدس ، ثم استنجد به أهل دمشق وطلبوا منه أن يتولى أمرهم بدل السلوقيين المقتولين ، وقد لبى نداءهم وخلصهم من السلوقيين ، وقد رحب به أهل دمشق وسموه محب الهلينين Philhellenic وهكذا استطاع أن يبسط سيطرته على قلب سوريا .

ولما جاء القائد الروماني بومبي الى الشرق حاول احتلال بلاد الانباط فأرسل حملة ضدهم ، ولكن الحارث الثالث استطاع صد تلك الحملة

والاحتفاظ باستقلال بلاده ، رغم أنه خسر ما كان قد حصل عليه في سوريا .
لقد أدخل الحارث الثالث الحضارة الهلنية في بلاد الانباط ، فقد سك
النقود على الطراز الهلني وأخذ العيار البطليموسي للعملة ، وجاء بمعماريين
سوريين شادوا له قبرا يعتبر حتى اليوم من آيات الفن الرائع ، وتسمى تلك
البنية اليوم « الخزنة » كما أنشأ مسرحا ، وصارت بطرا في زمنه مدينة
تشبه المدن الهلنية لها طرق عظيمة وأبنية جميلة .

ثم ان روما أخذت تمد نفوذها الى الشرق ، فاستولت على آسيا الصغرى
فسوريا ثم مصر ، وبذلك استحوذت على حوض البحر الابيض المتوسط
وسيطرت على موانيه التي هي منافذ للتجارة النبطية ، وقد أدرك الانباط
خطر الامبراطورية الرومانية ، ففسعوا الى التقرب منها ، لذلك نجد أن
ملكهم مالك الاول (٥٠ - ٢٧ ق م) أنجد يوليوس قيصر بقوة عندما
حاصر هذا الاسكندرية ، كما ساعد ابنه عبادة الثالث (٢٨ - ٩ ق م) في
حملة اليوس كالوس ضد اليمن وأمدّها بادلء من الانباط . ورغم فشل
هذه الحملة ، الذي عزاه الرومان الى سوء نية الادلاء الانباط وتضليلهم
لهم ، فقد ظلت العلاقات بين الانباط والرومان طيبة ، واستطاعوا أن يحافظوا
على سلطانهم في حثوب فلسطين وشرقي الاردن وجنوب شرقي سوريا
وشمال الجزيرة ، وأنشأوا بضعة خانات ومحطات للقوافل ، وقلاعا في
وادي العربة لتكون مركزا للحاميات التي تحمي القوافل .

غير أن مجيء الرومان أدى الى نشر الامن في ربوع البلاد ، كما أن
الاباطرة منذ عهد اغسطوس اتبعوا سياسة السلم ، واتفقوا مع البارثيين الذين
كانوا يحكمون العراق . مما أدى الى عودة حياة السلم والطمأنينة في بلاد
الهلال الخصيب ، وأخذت التجارة الخارجية تسلك تدريجيا طريق العراق ،
وهو الاقصر ، الامر الذي أدى الى اتعاشه ، أما الطريق المار بفربي
الجزيرة ، والذي تقع في نهايته بطرا ، فقد أخذت أهميته تتضاءل تدريجيا ،
وقد تبع هذا انحطاط بطرا التي كانت تقع على الطرف الشمالي من هذا

الطريق ، والتي كانت تعتمد على التجارة الغربية في كيانها •

وفي سنة ١٠٦م جاء تراجان الى الشرق لاعادة تنظيمه ، فأرسل ضد بطرا حملة استطاعت أن تستولي عليها دون مقاومة ، وبذلك قضى على دولة الانباط ثم جعلها جزءاً من المقاطعة العربية Arabia Provincia التي أنشأها في الطرف الجنوبي من سوريا لتحميها من هجمات البدو ، وجعل عاصمتها بصرى التي تحول اليها طريق التجارة ، فانتهد بذلك حياة بطرا ولم نعد نسمع لها دورا أو ذكرا في التاريخ •

مدينة الانباط

لقد نشأت مدينة بطرا كمحطة للطرف التجارية ، فلا عجب أن تكون التجارة وخدمة القوافل العمل الرئيسي للانباط والاساس الذي قامت عليه مدينتهم • وقد مدوا نفوذهم الى ما يجاورهم من البلاد والمدن فحصنوها وأقاموا فيها حاميات للقوافل وأماكن لاستغلال المناجم ، وأصبحت مدينتهم في القرن الاول قبل الميلاد المدينة الرئيسية للقوافل ، وسوقا عظيما ، فسيطرت على طرق غزة وبصرى ودمشق وأيلة • وقد حفروا الآبار ، وأقاموا مشاريع المياه ، وحولوا بعض المناطق الصحراوية الى اراضٍ زراعية •

ولا ريب ان القوافل في القديم كانت تتطلب كثيرا من الحاجات ، فانها فضلا عن اعلاف الحيوانات ومأكولات البشر ، كانت تتطلب السروج والأكسية للحيوانات والاكياس للبضائع والاسلحة للحراس ، وكل هذا يستلزم تزويدهم بمنتجات النساجين والتجارين والحدادين والزراع • وهكذا كانت محطات القوافل أسواقا • وكثيرا ما كان يقوم أصحاب تلك المحطات ببعض المعاملات التجارية من بيع وشراء واقراض ، لذا كانت تنشط الحركة في هذه المحطات ، وتصبح مراكز تجارية • وهكذا سرعان ما

أصبحت يطرأ مركزا تجاريا واقتصاديا ، يساهم أهلها في التجارة والاقراض . وقد امتد نشاطهم التجاري الى مناطق واسعة ، اذ وجدت آثار تجارتهم في سلوقية وموانئ سوريا والاسكندرية وديلوس ورودس .

وأهم السلع التي كانوا يتاجرون فيها الافاويه (من اليمن) ، والحزير من الصين ، والحناء من عسقلان ، والزجاج ، وصنع الارجوان من صيدا وصور ، واللؤلؤ من الخليج العربي والخزف من روما ، هذا بجانب ما كانت تنتجه بلادهم من الذهب والفضة والقار وزيت السمسم .

ويروي ديودورس انه كانت لهم قوانين تمنع زراعة الاشجار وبناء البيوت أو استعمال الخمر لانها تؤدي الى الخضوع ، فاذا صح هذا فانه لا بد وأن يمثل أدوار حياتهم الاولى حيث كانوا أقرب الى البداوة ، يمتنون الرعي والتجارة ، أما في الادوار المتأخرة ، عندما اتسع حكمهم ، فقد أخذوا يشيدون البيوت والمسارح والابنية الفخمة للقصور والمعابد ودوائر الحكومة ، وكثير منها منقور في الصخر ، ولا تزال بقاياها موجودة في الرقيم موقع بطرا ، في وادي موسى ، وهي من أروع الابنية والآثار ، مشيدة على الطراز الهليني ، وتشهد على مدى تأثيرهم بالحضارة الهلينية التي كانت سائدة في الشرق الأدنى آنذاك ، كما تدل على رقي الذوق الفني والرخاء وتقدم المدينة .

ان الانباط من عرب شمال الجزيرة ، ولعلمهم أقرب الدول القديمة الى عرب الحجاز . فأغلب الاسماء التي كانت شائعة عندهم تشبه الاسماء المستعملة عند ظهور الاسلام مثل حارثة ومليكة وجذيمة وكليب ووائل ومغيرة وقصي وعدي وعائذ وعمر وعميرة ويعمر وكعب ومعن وسعد ومسعود ووهب الله وتيم الله وعلي .

كما ان تركيب لغتهم يشبه تركيب النحو العربي المعروف لدينا ، فالفاء تستعمل لترتيب (جاء بنوه فبناته) ومن للاسم الموصول (جاء من يعلم) والياء للمضاف اليه (تيم الله) . كما كانوا يستعملون صيغة الماضي في

الدعاء بدل المضارع فيقولون (لعن ذو الشرى) كما يفعل العرب ، وبذلك يختلفون عن الآراميين الذين يستعملون صيغة المضارع فيقولون (يلعن ذو الشرى) •

غير انهم كانوا يستعملون في الكتابة والمكتابات الرسمية والمعاملات التجارية اللغة الآرامية التي كانت سائدة آنذاك في كل بلاد الشرق الاوسط ، فكأنه كانت لهم لغة للتخاطب ولغة أخرى للكتابة ، مثلما لدينا اليوم لغة عامية ولغة فصحي • والراجع ان كثيرا من تجارتهم كان يعرف الاغريقية واللاتينية •

لقد استعمل الانباط الخط الآرامي المشتق من الفينيقي ، ولكنهم حوروه وصقلوه تدريجيا ، حتى أصبح خطأ قائما بذاته • ومنه انحدر الخط العربي الكوفي^(١) •

عبد الانباط آلهة متعددة ، كان أعظمها لديهم ذو شرى ، وكان له صنم من صخرة سوداء مستطيلة ، ولا نعلم أصله ، وقد ذكر الكتاب الاغريق انه اله الشمس وانهم كانوا يقيمون له في عيده احتفالات يشربون فيها الخمر ، وكان يعتبر حامي ملوكهم •

وقد عبد الانباط أيضا اللات (وكانت الالهة القمر) والعزى ، كما عبدوا الاله هبل ، وكذلك اتاركيتس (عشتروت) • وقد أشار سترابو الى بعض الاحتفالات الدينية التي كان يقيمها الانباط ويقدمون فيها الخمر • لقد ظلت عبادة ذو شرى حتى ظهور الاسلام في شمال الحجاز ، أما العزى واللات وهبل فقد عبت في مكة والحجاز ، ويروي ابن الكلبي ان عمرو بن لحي هو الذي ادخل عبادة الاصنام الى مكة ، وانه جاء بها من الانباط^(٢) ، وهو خبر يظهر مدى اعتقاد الناس بآثر الانباط في عبادة مكة عند ظهور الاسلام •

(١) انظر المقال الذي كتبه يحيى خليل نامي في مجلة كلية الآداب للجامعة المصرية سنة ١٩٣٥ عن تطور الخط العربي •
(٢) الاصنام ص ٨ •

- ★ الحارث الاول ١٦٩ ق م٠
- مالك ؟ ١٤٦ ؟ ق م٠
- ★ الحارث الثاني ١١٠ - ٩٦ ق م٠
- ★ عبادة الاول ٩٦ - ٨٧ ق م٠
- ★ ريبال الاول ٨٧ ق م٠
- ★ الحارث الثالث ٨٧ - ٦٢ ق م٠
- ★ عبادة الثاني ٦٢ - ٤٧ ق م٠
- ★ مالك الاول ٤٧ - ٣٠ ق م٠
- ★ عبادة الثالث ٣٠ - ٩ ق م٠
- ★ الحارث الرابع ٩ - ٣٠ م
- ★ مالك الثاني ٤٠ - ٧٥ (أو ٣٨ - ٧١) م
- ★ ريبال الثاني ٧١ - ١٠٦ م

(١) اعتمدنا في هذه القائمة على كتاب بطرا وبلاد الانباط لكامير .
وقد نقل جرجي زيدان في كتابه تاريخ العرب قبل الاسلام (ص ٦٩) عن
دوسو قائمة تشبهها الا في امرين : اولهما هو انه وضع زيديل مكان مالك ،
وجعل آخر ملوك الانباط مالك الثالث الذي حكم ، في رايه من سنة ١٠١
- ١٠٦ .

الفصل الرابع

تدمر^(١)

نشأت تدمر في بادية الشام حول منبع ماء يقع في منتصف المسافة تقريبا بين الفرات من جهة ، وبين دمشق وحمص من جهة أخرى ، وهو يبعد حوالي ١٥٠ ميلا عن كل منها . وقد أصبحت محطة للقوافل السائرة بين العراق والشام . ولا نعلم على وجه التحقيق منشأها ، فاسمها عند اليونان والرومان Palmyre مشتق من التمر وهو لا يبين أصل هذه المدينة . وتدعى التوراة ان النبي سليمان قد بنى تدمر^(٢) ، وقد اعتقد بعض العرب بذلك فقال النابغة الذبياني على لسان سليمان :

وخيس الجن اني قد اذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

على انه لا يمكن الجزم بأن المدينة التي بناها سليمان يقصد منها هذه التي تقع في بادية الشام ، خاصة وان سليمان لم يمتد حكمه الى هذه البلاد . والظاهر ان هذه المدينة نشأت منذ أقدم الازمان من استقرار بعض البدو في الواحة التي تكونت حول البشر ، وصارت محطة للقوافل . وقد ورد ذكرها في نقوش تغلات فلاسر التي دون فيها أخبار حملته ضد العموريين في سنة ١١١٥ ق.م . ، كما ذكر ملالاس بأن التدمريين ساعدوا نبوخذنصر في هجومه على القدس وأمدوه بـ ٨٠٠٠ من رماة النبال . وقد استفاد التدمريون من قيام الامبراطورية الاخامينية التي وحدت الشرق الاوسط فنشط بذلك الطريق التجاري بين الهند والعراق وتركيا وسوريا .

(١) بالاضافة الى كتب جرجي زيدان ، وفيليب حتي ، وجواد علي فقد اعتمدنا على كتاب « مقالة عن تاريخ تدمر » للاستاذ فيفريه (باريس ١٩٣٢) (بالفرنسية) وكتاب « مدن القوافل » لروستوفزيف (بالانكليزية) وكذلك المقالات التي نشرها سيريج في مجلة سوريا (بالفرنسية) .

(٢) حزقيال ٤٧ - ١٩ ، ٤٨ - ٢٨ .

وظلت هذه المدينة محتفظة بمكانتها الطيبة في عهد السلوقين الذين وحدوا سوريا والعراق وشجعوا الطريق التجاري الذي كان يمر بالعراق وتدمر منافسة للبطالسة الذين أرادوا أن تمر التجارة الهندية عن طريق البحر الاحمر ومصر •

ولكن انقراض الدولة السلوقية وقيام الدولة البارثية في العراق وايران أضرا بها ، لانه فصل العراق عن سوريا وهدد التجارة • الا ان هذا لم يدم طويلا ، لانه سرعان ما جاءت الدولة الرومانية الى الشرق فسيطرت على سوريا وفلسطين ثم مصر • وقد حاولت هذه الامبراطورية في عهد اغسطوس ان تتبع سياسة السلم فهادت البارثيين ، وعادت التجارة الهندية تسير عن طريق العراق •

كانت علاقة تدمر بالرومانيين طيبة ، فتمتعت باستقلال ذاتي كبير • غير ان تراجان حاول الاستيلاء عليها والقضاء على استقلالها ، كما انه هاجم البارثيين وعاد العداء بين الرومان والبارثيين ، فاضطربت التجارة وساءت أحوال تدمر • ولكن هذه الحال لم تدم طويلا ، اذ أن تراجان توفي ، وتولى منصب الامبراطور هادريان الذي عاد الى اتباع سياسة أغسطس السلمية ، واعطى أهل تدمر حقوق الايطاليين ، ومنحهم استقلالاً ذاتياً ، وسمح لمجلس شيوخهم أن يقرر الضرائب التي يرثيها ، ثم اعفيت تجارتها من الضرائب • لذلك أخذت تدمر تزدهر ، وصار التدمريون يكثرون من تسمية أولادهم بأسماء رومانية ، وقدموا للرومان قوات من الخيالة التي كانت تحارب بالنبال • واتسع نشاطهم التجاري وازدادت ثروتهم وكثر العمران في بلادهم ، حتى ان أكثر الابنية العظيمة المكتشفة في تدمر ترجع الى عهد هادريان • وقد وجدت نقوش تذكر « تدمر الهديانية » الامر الذي يدل على العلاقة الوثيقة بين تدمر وروما •

ثم انشغل الرومان في مشاكلهم الداخلية وفي صد الغزوات الجرمانية التي كانت تهدد امبراطوريتهم في أوروبا ، الامر الذي اضعف نفوذهم في

الشرق • وقد اغتشم التدمريون هذه الفرصة وأخضعوا القبائل المجاورة لهم ووسعوا رقعتهم • فلما قام الساسانيون واحتلوا العراق وحلوا محل البارثيين اتبعوا سياسة التوسع ، فجهز سابور الاول حملة احتلت تدمر وانطاكية وأسرت الامبراطور الروماني فالريان سنة ٢٦٠م ثم توغلوا في آسيا الصغرى ، الا ان أذينة قام ينصر الرومان فهاجم الساسانيين وكسرهم وطاردهم فقدر الرومان أعماله ومنحوه لقب *Dux orientis* .

ثم انه استولى على الرها ونصيبين وحاول احتلال طيسفون ، ولعله كان يستهدف من ذلك تأمين السيطرة على طرق التجارة الهندية والعراقية التي اضطربت بعد ظهور الساسانيين ، الا أنه لم يستطع احتلال طيسفون ، ثم قتل في حمص نتيجة مؤامرة يقال ان ابن اخيه دبرها • والحق أنه كان حاكما قديرا ، كان يحترمه أهل تدمر لما له من شجاعة وبذل وسخاء ولما كان يقدمه من هدايا في الاعياد وغيرها •

وقد خلفه في الحكم ابنه وهب اللات وكان صغيرا فتولت الوصاية عليه أمه زنوبية • وهي من الشخصيات النسائية البارزة في تاريخ الشرق الاوسط القديم • فهي سورية الاصل تربت تربية راقية ودرست الفلسفة الافلاطونية المجددة ، ثم جاءت بلاط تدمر ، فتزوجها أذينة • ولما قتل أصبحت وصية على ولدها وهب اللات وأخويه خيران وتيم الله وأمسكت أعنة الحكم في تدمر • وكانت تتقن الآرامية والاغريقية واللاتينية ، وترعى العلوم والآداب فعاش في بلاطها الفيلسوف لونجينوس وأخذت تقلد البلاط الساساني بما فيه من أبهة وفخخة • وكانت قوية الجسم جميلة أنيقة تحب الصيد وركوب الخيل •

ارادت زنوبية أن تستغل ضعف الرومان في الشرق وانشغالهم في الازمات الداخلية في روما وعزمت على توسيع حدود بلادها ، فأرسلت حملة بقيادة زبدا لغزو مصر وتأمين سيادتها على الشرق الاوسط ، والسيطرة على

تجارة شرق البحر المتوسط ، ولتحزرم روما من الحنطة التي كانت تمونها بها مصر . ثم أعلنت نفسها امبراطورة فاستقلت عن الرومان . غير ان مصر قاومت هذه الحملة مقومة شديدة ، كما ان الرومان أرسلوا اسطولا الى انطاكية يهددون فيه مؤخرة هذه الحملة ، فاضطرت زنوبية الى سحب جيوشها من مصر .

ثم جردت زنوبية حملة أخرى على آسيا الصغرى ، واستطاعت أن تتوغل فيها ، وكانت الجيوش الرومانية منشغلة في حروبها مع الجرمان في حوض الدانوب ، فاضطر الامبراطور أورليان أن يهادن زنوبية ويعترف لها بما استولت عليه ، كما تدل على ذلك النقود ، ولكنه بعد أن أنهى مشاكله في الغرب ، تقدم بجيش قوي الى الشرق لمحاربة زنوبية . وقد حاولت أن تدافع في جنوب آسيا الصغرى ، ولكنها خشيت أن يهاجمها الساسانيون من الشرق . فاضطرت الى الانسحاب الى حمص واشتبكت مع الرومان في معركة انكسرت فيها ثم انسحبت الى تدمر . وقد حاولت زنوبية أن تفلت من أسرها وتستجد بالساسانيين ولكنها لم تفلح .

أما تدمر فبعد أن فتحها اورليان عاملها معاملة حسنة مستهدفا بذلك أن يجعلها مركزا أماميا لمجابهة خطر الغزو الساساني ، فاكفى بأن أبى فيها حاكما رومانيا وحامية صغيرة وفرض عليها غرامة ، ولكن تدمر سرعان ما ثارت ضده فاضطر الامبراطور الروماني الى أن يعود ثانية لفتحها ونهبها وأخذ زنوبية أسيرة الى روما حيث قضت بقية حياتها بالقرب منها .

وقد أدت هذه الحروب المستمرة الى اضعاف تدمر ، كما أن سيطرة الساسانيين على طرق التجارة الهندية أدى الى انحطاط تدمر ، فلم نعد نسمع لها ذكرا في التاريخ حتى الفتح الاسلامي حيث مر بها خالد بن الوليد فدانت له بالطاعة ، ثم لجأ اليها مروان بن الحكم واتخذها قاعدة لحركاته بعد أن اختاره الامويون خليفة على أثر عزل معاوية الثاني .

الحضارة التدمرية

ليست لدينا معلومات واضحة عن تدمير الامند العصر الروماني ، حيث تكثر الوثائق التاريخية التي تعطينا تفاصيل عن التنظيمات التدمرية وتطورها .
ويبدو من هذه المعلومات ان سكان تدمر كانوا مكونين من المواطنين والعبيد والاجانب . فأما الاحرار فكانوا مكونين من عدد من العشائر ، ينتسب افراد كل منها الى جد واحد ، ولدينا من أسماء هذه القبائل : بنو انوبات ، بلتي ، بلعا ، برسعه ، جدبعل ، جنجن ، زيدبعل ، حنار ، هالا ، حنفي ، حشاش ، يديب ، قمر ، مجدات ، مية ، معزيان ، عطار ، بني بعل ، شمعون ، شيزا ، تيم ، تيمرسون .

ولم تكن هذه القبائل متكافئة في مركزها الاجتماعي ، اذ كانت بعض القبائل تعتبر أشرف من غيرها وأسمى مكانة ، وقد احتكرت الوظائف الادارية . الا أن كل قبيلة كانت تتمتع ببعض الاستقلال في شؤونها الخاصة ، ولها مجلس خاص ، وكانت الخصومات تحتمد أحيانا بينها . ولدينا أخبار عن منازعات حدثت بين بني قمر وبني مابول . وكثيرا ما كانت هذه المنازعات تؤدي الى تكوين محالفات بين القبائل المتنازعة . وأغلب أفراد العشائر كانوا يتسمون بأسماء سامية ، والقليل منهم يتسمى بأسماء اغريقية .

ولما نشطت الحركة التجارية في تدمر ، لم يقتصر التدمريون على نقل البضائع أو تزويد القوافل المارة بهم ، بل أخذوا يقومون بالتجارة في أنفسهم . وهكذا ازداد عدد التجار فيهم ، وكونوا لهم وكلاء وجاليات في بابل وفولوكاسيا (وهي مدينة بالقرب من الكوفة على ما يظهر) وكرخ ميسان ، وفي الشام والمدن الفينيقية ومصر وروما حيث كان لهم معبد خاص يقدمون فيه الذبائح . وامتد نشاطهم الى داسيا (رومانيا الحالية) والغال (فرنسا) واسبانيا . ولا ريب ان التجارة قد ساعدتهم على الاحتكاك بالاجانب ووسعت أفق نظرهم ، كما أدت الى استعمال عدة لغات في بلادهم ، فانتشرت

الآرامية والاغريقية التي كتبت بها معظم وثائقهم • كما استعملت الرومانية في مكاتباتهم الرسمية في العصر الروماني •

أما الاجانب فكان أغلبهم من الاغريق والعبيد المحررين ، ولم تكن لهم مكانة كبيرة في المجتمع ، غير أنه كان هناك عدد من الفرس ، كانوا يعتبرون من الارستقراطية ويعاملون كأنهم من أهل المدينة لا كاجانب ، كما كان هناك بعض الرومانيين وخاصة من الموظفين • وبجانب هذا كان يوجد عدد من التجار الذين يقيمون في المدينة لمدة موقتة في خانات خاصة ، ويكونون خاضعين الى موظف خاص • وتقيم الجاليات الاجنبية عادة بفنادق خاصة بها ، ولكل فندق رئيس يشرف على شؤون تلك الجالية •

وقد تأثرت أذواقهم وألبستهم وفنهم بالمؤثرات الخارجية ، فكانت ألبستهم من السراويل والاردية وهي تشبه الالبسة الباثية وزخرفتها متأثرة بالذوق الفارسي • كما أن فنونهم كانت متأثرة بكل من الفن البابلي والفارسي واليوناني •

وقد عبد التدمريون آلهة متعددة تزيد على الاربعين ، أعظمها ثلاثة هي الاله بل الذي كان يعتبر الهاً وطنياً ، وعبادته معروفة عند الساميين من أقدم الازمنة • ويتلو هذا الاله بل سمين أي بل السماء ، وكان يعتبر حامي الزراعة وأصله معبود الفنيقيين والسوريين • ثم الاله يرحيل اله القمر • وكانت هذه الآلهة الثلاثة ترسم في الغالب مجتمعة بحيث يكون الاله بل في الوسط والاله بل سمين في اليمين والاله يرحيل في اليسار ، وكانت تعبد عادة مجتمعة في معبد واحد • وفي زمن الرومان ازدادت مكانة الاله بل سمين ، وصار يوصف بالاله الطيب الرحيم ، وأخذ ينافس بعلاً في مكانته ، وهناك اشارة الى ملك بل وهو كالرسول للآلهة •

وبجانب هذه الالهة عبد التدمريون الاله شماش وعشتروت وانينا ورجال وهي آلهة بابلية الاصل • كما عبدوا الالهين حداد وعشتروت

السورية ، والشمس واللات وغى القوم وارسو (وكان يعتبر حامى القوافل ويرسم على هيئة جمل) كما عبدوا الاله العزيز (وكان يمثل نجمة الصباح وشكله جميل ويعبد عادة مع اله الشمس) واكبول .

اما رجال الدين فقد كونوا طبقة قوية معقدة كان بعض أفرادها يقيم في المعابد الرئيسية والبعض الآخر يقيم في الحرم القبلية ، وكانت وظائفهم شرفية لآ وراثية . وهناك اشارات الى رجال دين يرأسون الموائد الدينية ولهم عدد كبير من الاتباع . وكانت تقام عادة حفلات دينية فخمة في بعض الاعياد ، تشرب فيها الخمر وتعد فيها موائد فخمة للطعام ، كما كان دفن الموتى يجري باحتفالات تنصب فيها موائد الاكل .

ليست لدينا عن تنظيمات تدمر معلومات واضحة قبل القرن الاول حيث تكثر الوثائق . وتظهر هذه الوثائق انه كان في تدمر مجلس للشيوخ يدعى boule ومجالس للعشائر يدعى كل منها demos ، وان الاسماء اليونانية لهذه المجالس تدل على مدى تأثير تنظيم المدينة بالنظم الاغريقية . وكان مجلس الديموس يضم كافة أفراد العشائر البالغين ؛ أما البولي فكان يضم من كان يتميز بالجاء والثروة والسن ، ولهذا المجلس رئيس وسكرتير ، وللرئيس مركز هام في تمشية أمور الدولة . وفي القرن الثاني ازداد نفوذ مجلس البولي وتناقص نفوذ مجلس العشائر . ولكن في زمن أذينة تناقص نفوذ كلا المجلسين .

وكان للمدينة رئيس (أراخون) يتولى ادارتها وموظف يدعى متقن المدينة ، وموظف للمالية يدعى procurator ، وموظف مسؤول عن الاسواق Agoranomos وظيفته تشبه وظيفة المحتسب في الاسلام ، وموظف مسؤول عن المنازعات والشؤون القضائية Juridicus وقائد للحامية Argapad وقائد للجيش strategos ومعلوماتنا عن اختصاصاتهم وعلاقاتهم مع بعضهم قليلة جدا ، وأكثرها من عهد هادريان ، فلا نعرف عن تطورهما شيئا كثيرا .

كانت السلطة عادة في يد الاراخون الذي كثيرا ما كان يجمع بين هذا المنصب ومنصب الستراتيجوس • وقد ركز أذينة معظم السلطات بيده ويبد ورود الذي كان يشغل منصب متقن المدينة ويشرف على ادارة دوائر المدينة • وقد أدى تركيز السلطات بيد أذينة وورود الى اضعاف سلطة مجلس العشائر والبولى والى اضعاف نفوذ الارستقراطية •

وكانت للمدينة قوة من البوليس لحماية القوافل والطرق من غزوات البدو الذين كانوا يهددوننا دائما • وهي مكونة من رماة النبال والخيانة أو الهجانة ، وتمسند رئاستها عادة الى الزعماء والاغنياء • ولأ نعلم فيما اذا كانت قوة البوليس هذه تجمع من أهل تدمر أم انها كانت تجمع من المتطوعه المأجورين • وهي على كل حال كانت توضع تحت حماية الالهين أرسو والعزيز •

وبجانب هذا كانت توجد قوة من المليشيا تعسكر عند الآبار والمناطق الهامة من الصحراء • وفي عهد الاضطرابات والحروب كانت تنشأ قوة أخرى يقودها الستراتيجوس لتشارك في الحروب والدفاع عن المدينة والقيام بحملات • وللهيئنا نقش يذكر أن الكردوس الواحد والعشرين كان مرابطا في دورايوروبوس (الصالحية) ، ولكننا لا نعلم فيما اذا كان معنى هذا انه كان للتدمريين أكثر من عشرين كردوسا أم ان كلمة الكردوس لها مفهوم خاص عندهم ، أو ان الكردوس الواحد والعشرين لا يعني انه كان هناك ٢١ كردوسا •

لا تزال بقايا تدمر قائمة بين دمشق والفرات في منتصف الطريق بينهما تجتلب السياح اليها • وأبرز ما في هذه الآثار معبد بعل ، وهو مقام على مرتفع من الارض أمامه قوس هائل وطريق عريض طوله ١٢٤٠ ياردة وعلى جوانبه ٣٧٥ عمودا طول كل منها ٥٥ قدما ، ولا يزال قائما منها ١٥٠ عمودا منحوت معظمها من المرمر الابيض وبعضها من الجرانيت السماقي ،

وكانت هذه الاعمدة مرتبطة ببعضها • وهذا الطريق هو الشارع الرئيسي في المدينة وتتفرع منه الطرقات الفرعية وعلى جوانبه الحوانيت والمخازن المفعمة بالبضائع •

ولا ريب ان معبد بعل لم يكن المعبد الوحيد في المدينة ، بل هناك عدة معابد أخرى منبثة فيها كانت مبنية بالحجارة وتزينها مختلف النقوش والصور وبعض التماثيل • كما أن هناك عددا من الخانات التي تنزل فيها القوافل ويقيم فيها الاجانب ، وهي أبنية ضخمة واسعة • اما المقابر فلا تزال بقايا بعضها قائمة في أطراف المدينة كالابراج العالية ، وفيها غرفاً منقوشة وصور ملونة ومنحوتات كثيرة • والعادة أن يدفن الميت في أعلاها • ومعظم أبنيتها الفخمة على الطراز الهلنستي •

أما بيوت الشعب فالراجح انها كانت مبنية بالطين فلم يبق من آثارها شيء •

لقد كان التدمريون يشربون من مياه الآبار ، وكانت الزراعة عندهم قليلة • ولكن بعد تقدمهم في المدنية أعاروا الزراعة بعض الاهتمام ، فبنوا بعض السدود لحصر مياه السيول وجمعها ، ولا يزال من آثارها سد يبلغ طوله نصف ميل بنى بين تلين لحصر مياه الامطار وتكوين مستودع من الماء يكفي للزراعة •

الا ان اهتمامهم الاكبر كان منصرفا الى التجارة • وقد تحدثنا عن امتداد تجارتهم وجالياتهم في ميسان (عند البصرة الحالية) وفولوكاسكرته (عند النجف) وسلوقية (سلمان باك) ودورايبوربوس (الصالحية) والشام والمدن الفينيقية ومصر وروما وداسيا (رومانيا) والغال (فرنسا) واسانيا • كما أنهم عقدوا معاهدات مع القبائل المقيمة على ضفاف الفرات ، وأعطوا بعض شيوخهم الهدايا والاموال لتأمين مرور القوافل بسلام ، ولعل دولة المناذرة قامت في الاصل بتشجيعهم لحماية الطرق التجارية خاصة بمسد ضعف البارثين •

وقد اكتشف نقش يبين مقدار ضرائب الكمرك المفروضة على
البضائع التي تمر بتدمر • ويتبين من هذا النقش ان أهم هذه البضائع هي
الانسجة الصوفية وصبغ الأرجوان والحرير والزجاج والعمود وزيت
الزيتون والفواكه المجففة كالتين والجوز والجبن والخمر • ويستنتج من
هذه القائمة المتنوعة أن تجارتهم كانت تشمل منتجات دول متعددة كالصين
والهند وبابل والمدن الفينيقية وبلاد الجزيرة •

الفصل الخامس

الفساسنة^(١)

لم يكن من الممكن لروما ، حتى بعد استيلائها على تدمر ، أن تبسط سيطرتها التامة على بادية الشام نظرا لطبيعتها الصحراوية وقلة المياه فيها ، لذلك ظلت هذه المنطقة ميّدانا للقبائل العربية التي كانت تتجول فيها وتتخذ من مراعها ديارا لها . وقد لجأ الى هذه المنطقة بعض القبائل العربية التي هاجرت من العراق فرارا من حكم الساسانيين الذين يبدو أنهم لم يحسنوا معاملة العرب ، فهاجرت تنوخ واستقرت في الشمال ، كما سكنت قضاة في أطراف حوران والجولان . ولسنا نعلم عن تاريخ هذه القبائل في سوريا ما يمكن الوثوق بصحته . غير أنه يبدو أن الرومان لم يسيثوا معاملتهم بل استعان بهم بعض الاباطرة في حروبهم ضد الفرس ، الا أنهم لم يعترفوا لهم بتشكيل دولة سوى الفساسنة الذين هاجسروا ، على ما تقول المصادر العربية ، من اليمن ، وبعد أن أقاموا مدة في جنوب الحجاز وفي يثرب ، تقدموا الى سوريا الجنوبية وأزاحوا الضجاعة الذين كانوا مقيمين في تلك المنطقة وعاونوا الرومان في حروبهم معاونة فعالة حملت الرومان على أن يمنحوا أمراءهم ألقابا رسمية عالية ويعترفوا لهم ببعض السيادة في المناطق التي يقيمون فيها .

وقد أراد الرومان بذلك أن يستفيدوا منهم في ضغط حدود سوريا الشرقية المفتوحة ، وأن يسدوا بواسطتهم نفوذهم على القبائل العربية ، ويجعلوهم دولة حاجزة بين سوريا والساسانيين ، ويستخدموهم لمساعدتهم في حروبهم وحملاتهم في الشرق الاوسط .

(١) اعتمدنا في بحث الفساسنة على كتاب نولدكه « أمراء غسان » الذي ترجمه بندلي جوزي وقسطنطين زريق (بيروت ١٩٣٣) بالإضافة الى كتب جرجي زيدان وفيليب حتي وجواد علي .

وليس لنا عن أصلهم وتاريخهم الاول معلومات يوثق بها ، فان المؤرخين العرب غير مجمعين على تاريخهم وعدد ملوكهم وسنى حكمهم ، اذ أن بعض هؤلاء المؤرخين يذكرون قائمة طويلة من أسماء ملوكهم لا تذكرها المصادر البيزنطية ، ولعل المصادر العربية كانت تدخل في هذه القائمة الطويلة اسماء الامراء القدماء ومشايخهم . أما البيزنطيون فاكثفوا فقط بذكر من كان له علاقة بهم ومن اعترفوا بسلطانهم .

وقد أجمعت الاخبار التاريخية على أن جد هذه الأسرة هو جفنة . ولكن لا ريب أن جبلة هو أول ملوكهم البارزين الذين اعترف بهم البيزنطيون ، وتروى المصادر البيزنطية ان جبنة هذا غزا فلسطين في سنة ٤٩٧ م .

وقد تلاه ابنه الحارث بن جبلة ، ويطلق عليه العرب أحيانا الحارث بن أبي شمر . وقد حارب الحارث هذا المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة وانتصر عليه في سنة ٥٢٨ م ، كما انه أبلى بلاءاً حسناً في قمع ثورة السامريين سنة ٥٢٩ م ، وعلى أثر هذه الخدمات منحه جستنيان لقب فيلارك وبطريق ، وأقر له سلطته على القبائل العربية في أطراف سوريا ، وكان غرضه من ذلك أن يقيم خصماً بوجه المنذر بن ماء السماء الذي سرعان ما هاجم سوريا وعاث فيها . وكان لقب بطريق من أسمى الألقاب البيزنطية ، اذ أن طبقة البطارقة كانت تعد عند البيزنطيين أعلى الطبقات الاجتماعية بعد الامبراطور ، وعلاقتهم بالقيصر تشبه علاقة الكرادلة بالبابا .

وفي سنة ٥٣٨ نشبت بين الحارث وبين المنذر أمير الحيرة حرب على الارض المعروفة بـ Strata وهي الارض الواقعة قرب الطريق الممتدة من دمشق الى تدمر حتى مدينة سروج . فقد ادعى أمير الحيرة ان القبائل العربية النازلة في تلك الاراضي خاضعة لسلطته وهي تدفع له الجزية ، فنازعه الأمير الضاسني هذه السلطة ونشب القتال بينهما وكانت هذه الحرب

من الاسباب التي عادت فأججت نار المنازعات بين الدولتين بعد أن كادت تنطفئ . •

وفي سنة ٥٤١م حارب الحارث في العراق بجانب الروم وعبر نهر دجلة على رأس جيشه ثم عاد فارتد الى مركزه السابق عن طريق أخرى غير الطريق التي اتبعها معظم الجيش البيزنطي ، ولم يحصل في حملته هذه على نتائج تذكر الامر الذي أثار شكوك البيزنطيين في اخلاصه .

ثم تجددت الحرب في سنة ٥٤٤م بينه وبين المندر ملك الحيرة ووقع في هذه الحرب أجد أبناء الحارث في يدي المندر فقدمه ضحية للمزي • وقد استمر القتال في فترات متقطعة بين الفساسنة والمناذرة الى أن أحرز الحارث بن جبلة انتصارا حاسما في سنة ٥٥٤م في معركة قرب قنسرين قتل فيها المندر وهي الموقعة التي يدعوها العرب يوم حليلة •

سافر الحارث في سنة ٥٦٣م الى القسطنطينية لمفاوضة البيزنطيين فيمن يخلفه من أولاده في عمالته على سوريا وفي ما يجب اتخاذه من التدابير لمقاومة عمرو بن هند ملك الحيرة • وقد اثرت مظاهر البذخ والترف في القسطنطينية تأثيرا كبيرا على الحارث ، كما انه أحدث بدوره تأثيرا قويا على سكان العاصمة وبالاخص على جوستين ابن اخي القيصر الذي كان مضطرب العقل • ولما تسنم جوستين هذا منصب الامبراطورية كان أهل البلاد يخوفونه بالحارث بن جبلة كلما أساء التصرف •

وكان الحارث بن جبلة من المؤيدين للمذهب يعقوبي ، واستطاع أن يقنع البيزنطيين بتعين يعقوب البردعي وثيودورس (وهما منشأ هذا المذهب) أساقفة في المقاطعات السورية العربية فتوطدت بذلك دعائم المذهب يعقوبي وربما كان في تأييده لهذا المذهب مدفوعا بعوامل سياسية لان أكثرية رعيته كانوا من اتباع هذا المذهب •

وقد توفي الحارث بن جبلة سنة ٥٦٩ بعد أن حكم أربعين سنة • وأعقبه في الحكم ابنه المنذر الذي بدأ حكمه بالهجوم على المناذرة وانتصر عليهم في موقعة عين أباغ التي تبعد ثلاث مراحل عن الحيرة • غير أن البيزنطيين لم يحسنوا السياسة معه وخاصة لتطرفه في تأييد المونوفيسية ودبروا مؤامرة لاغتياله فثار عليهم • واغتتم المناذرة الفرصة فهاجموا سوريا وعاثوا بها فاضطر الروم على مفاوضة المنذر ومصالحته سنة ٥٧٨ م •

ثم زار المنذر القسطنطينية سنة ٥٨٠ م ، فاستقبل فيها بكل احترام وتبجيل ، وأنعم عليه القيصر طياريوس بالتاج ، مع أن الروم لم يكونوا ينعمون قبلا على عمالهم من العرب إلا بالأكليل • وقد وصل خبر هذه الحادثة الى اسبانيا فذكره بعض مؤرخيها المعاصرين • وقد اغتتم فرصة وجوده في عاصمة الروم فسعى للحصول على العفو عن أصحاب مذهبه وعمل على توطيد السلام بينهما •

غير أن رجال الدين في الدولة البيزنطية ، وهم من المذهب الارثوذكسي كانوا يمقتون المذهب اليعقوبي ، لذلك أخذوا يحرضون الامبراطور على المنذر وكان يساعدهم في ذلك بعض كبار رجال الدولة من التمسكين بالمذهب الارثوذكسي • وقد حدث أن قام موريسيوس حاكم سوريا بهجوم على الفرس يعاونه المنذر ، ولكنه لم ينجح فيه فعزى فشله الى خيانة المنذر ، فزاد هذا من ايثار صدور البيزنطيين عليه ودبروا مؤامرة ضده ، فأوعز الامبراطور الى ماجنوس حاكم الروم في سوريا بالقبض على المنذر ، فأرسل الحاكم البيزنطي يدعو المنذر لحضور حفلة تدشين بعض الكنائس في حوارين ، فلما جاء المنذر القى القبض عليه وأرسله منفيا الى القسطنطينية ونقل منها الى صقلية حيث قضى نجه فيها بعد أن أمضى في الحكم ثلاث عشرة سنة •

لم يكتف الروم بنفي المنذر فحسب بل عمدوا أيضا الى قطع الاعانة السنوية التي كانوا يقدمونها لاسرته ، فكان ذلك دافعا آخر لاثارة الفساسة

فقام أبناء المنذر الاربعة وشقوا عصا الطاعة على دولة الروم ، ثم أوغلوا تحت قيادة أخيهام الأكبر - النعمان - في الصحراء وأخذوا يشنون منها الغارات على أراضي الدولة ويسطون على أموالها وينهبونها ويمشون في داخل البلاد فسادا ووجهوا هجمات عنيفة موفقة ضد بصري التي كانت أكبر قاعدة عسكرية بيزنطية في جنوب سوريا •

وقد اضطر القيصر طياريوس أزاء هذا الى تجهيز حملة بقيادة ماجنوس للقضاء على ثورة النعمان ولكن ماجنوس استعمل الخيلة والدهاء فأرسل يطلب من النعمان مفاوضات ثملقى القبض عليه وأخذ أسيرا سنة ٥٨٤ م •

وعلى أثر هذا الحادث تصدعت أحوال العرب في سوريا وتفككت عرى وحدتهم ، حتى اختارت كل قبيلة منهم أميرا لها • ولا ريب في أن هؤلاء الامراء كانوا من المشايخ الذين تقلص قسم كبير من سلطتهم ونفوذهم في أيام الحارث والمنذر فانسحبوا الى الصحراء أو انتقلوا الى بلاد الامبراطورية الفارسية •

ولد زوال دولة الفساسنة بعض الاخطار في سوريا ، اذ أن القبائل العربية البدوية أخذت تتطاحن وتتنازع فيما بينها ، كما أخذ بعضهم يهاجم السكان المتحضرين فينهبون مواشيهم ويدمرون مزارعهم • وقد حملت هذه الاحوال الروم على التفكير في اعادة تعيين عامل جديد مكان المنذر ، وفضلوا أن يكون هذا العامل من آل جفنة نظرا لما كان لهؤلاء الامراء في الماضي من الهيبة في قلوب جميع القبائل البدوية • غير أن المؤرخين السوريين والبيزنطيين انقطعوا عن رواية أخبار آل جفنة بعد المنذر • لذلك فإن المصدر الوحيد لآخبارهم هو ما جاء في دواوين الشعراء المعاصرين رغم ما في هذه الدواوين من الابهام وعدم تحديد زمان كل أمير يذكرونه •

من المصادر التي تحفظ لنا شيئا من نسب آل جفنة بضعة أبيات تنسب الى النابغة الذبياني يقول فيها :

هذا غلام حسن وجهه مستقبل الخير سريع التمام
للحارث الأكبر والحارث الأصفر والأعرج خير الأنام
ثم لهند ولهند وقد أسرع في الخيرات منه امام
خمس اباء هو ما هم هم خير من يشرب صوب الغمام

فمن هذا نرى ان الشاعر يذكر في هذه الايات ثلاثة رجال من آل جفنة وامرأتين وتختلف الروايات في البيت الثاني فمنهم من يذكر الحارث الأكبر والحارث الأعرج والأصفر ، ومنهم من يذكر الحارث الأكبر والحارث الأعرج والحارث ، ومنهم من يذكر الحارث الأكبر والحارث الأصفر والحارث الأعرج ، ومنهم من يذكر الحارث الأصفر والحارث الأوسط والأكبر ، مما قد يحملنا على الاعتقاد ان الأعرج هذا كان اسمه الحارث فاما اسم المرأتين فلعلهما أم المدوح وزوجته والراجع ان الحارث الأكبر المقصود به هو ابن الحارث ابن جبلة وان الحارث الأصفر ابنه أما الأعرج فهو ابن الأصفر وأبو الغلام المدوح •

والحارث الأصفر هذا هو الحارث الوهاب الذي مدحه علقمة في قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب
ويبدو من هذه القصيدة ان الحارث كان قد انتصر على بعض القبائل العربية وأسر كثيرا من رجالها منهم أحد أخوة الشاعر نفسه •
وقد مدح النابغة عمرو بن الحارث الأصفر في قصائد منها التي مطلعها :

أهاجك من أسماء رسم المنازل بروضة نعى فذات الاجاول
وفي قصيدة :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أفاقيه بطيء الكواكب

وقد أشار النابغة في القصيدة الاولى الى ان الحارث تهدد بني مرة بن

عوف التي كانت تنزل في شمال الحجاز • كما أشار النابغة في قصيدة أخرى الى أحد ملوكهم الذي أراد الاستيلاء على وادي القرى :

اتطمع في وادي القرى وجنابه وقد منعوا فيه جميع المعاصر

وهذا يدل على امتداد نفوذ الفساسنة الى شمال الحجاز وأطراف نجد •

ومن أمراء غسان كذلك النعمان بن الحارث الذي مدحه النابغة بعدة

قصائد منها التي يقول فيها :

وان يرجع النعمان نفرح ونبتهج ويأت معداً ملكها وربيعها

كما رثاه بقصيدته التي يقول فيها :

دعاك الهوى واستجھلتك المنازل وكيف تصابي المرء والشيب شامل

بكي حارث الجولان من فقد ربه وحواران منه موحش متفائل

ويشير النابغة في بعض هذه القصائد الى ان النعمان فتك بقبيلة أسد ،

وأراد غزو فزارة ، وكلتا القبيلتان كانتا تسكنان شمال الحجاز وفي

أطراف خيبر •

وقد تلا النعمان ولداه عمرو وحجر اللذين مدحهما النابغة وأشار

اليهما حسان بقوله :

ملكا من جبل الثلج الى جانبي أيلة من عبد وحر

اتيا فارس في دارهم فتناها بعد اعصام بقر

ثم صاحبا بين غسان اصبروا انه يوم مصاليت صبر

وبيين البيت الاول مدى امتداد سلطانهم ، وهو دليل على مدى قوتهم •

ولما احتل الساسانيون سوريا سنة ٦١٣م قضوا على ملك بني جفنة ،

ففر بعض امرائهم الى بلاد الروم والتجأ البعض الآخر الى داخل الصحراء •

ويبدو ان هرقل لما استعاد سوريا من الفرس سنة ٦٢٩م لم يرجع

للفساسنة حكمهم ، وظلت الحدود السورية الجنوبية مفتوحة ، فاعتدت

بعض القبائل على التجارة البيزنطية دون أن تلقى مقاومة تذكر •

تروي المصادر العربية ان الفساسنة حاربوا المسلمين مرارا بجانب الروم وان خالد بن الوليد أوقع بهم سنة ٦٣٤م في مرج الصفر جنوبي دمشق وان جبلة بن الأيهم قاتل خالد بن الوليد في دومة الجندل ، واشترك في معركة اليرموك ، الا أن الراجح ان جبلة كان أميرا من بقايا أمراء الفساسنة ولم يكن له ملك كبير ، وقد انضم فيما بعد الى العرب ، ثم عاد وانضم الى الروم بعد أن حكم عليه عمر بأن يلطم قصاصا للطمه اعرابيا عند الطواف حول الكعبة في الحج •

لقد كانت سلطة أمراء غسان تمتد على كل القبائل البدوية التي كانت تنزل في فلسطين ومنطقة الاردن وأطراف الشام •

على اننا لا نرى قط اشارة الى أن الفساسنة كانوا يمتلكون أيا من الاماكن المحصنة أو من المدن التي كانت مراكز للجيش كدمشق وبصرى أو كدمر التي حصنها جستنيان •

كانت الجابية بالجولان قاعدة ملكهم وفيها معسكرهم ومقرهم ، ومع ان المؤرخين البيزنطيين والبربريان كانوا يذكرون حرقا الفساسنة أو معسكر الفساسنة ، الا انه ليس هناك دليل على أن معسكرهم هذا أصبح مدينة كالحيرة اذ كانوا يتنقلون أحيانا ، وقد اتخذوا جلق عاصمة لهم أمدا من الوقت •

يذكر حمزة الاصفهاني عددا من الابنية والقصور وقنوات الماء التي أقامها الفسانيون غير ان المصادر الاخرى لا تؤيد قائمته • ويذكر حسان بن ثابت في شعره فخامة الحياة في قصور الفسانيين ولكن لم تكشف الحفريات القليلة حتى الآن عن هذه الآثار ، ومن الجدير بالملاحظة انه لم يظهر فيهم أي شاعر ، كما ان الشعراء الذين قصدوهم قليلون ، ومع انهم دانوا المسيحية ورعوا المذهب اليعقوبي ، الا اننا نشك في عمق فهمهم لهذا الدين •

الفصل السادس

المناذرة^(١)

لقد كانت حدود العراق الغربية مفتوحة للصحراء ، لذا كانت القبائل العربية تستطيع التوغل فيه دون أن تصادف حاجزا جغرافيا يصدّها . وكانت مثل هذه الهجرات تزداد بصورة خاصة عندما تكون الحكومات القائمة في العراق ضعيفة . ولم يكن يعيق هذه القبائل حاجز ، الا نهر الفرات الذي يفصل الصحراء عن المناطق الخصبة في العراق . غير ان نفوذ هذه القبائل لا يصبح واضحا الا عندما تكون الحكومات المسيطرة علي العراق ضعيفة ، حيث تستطيع القبائل العربية آنذاك التوغل الى الداخل والتمتع بنفوذ قوى ، أو أن تؤثر في أحوال السكان وطرق التجارة . ومع انه ليست لدينا أخبار دقيقة مفصلة عن هذه القبائل الا أن الاشارات القليلة المبشرة في الكتابات تدل على مدى أثرهم .

ويبدو ان القبائل المقيمة في غربي الفرات استفادت من ضعف الدولة البارثية في أواخر عهدها ، فاختدت تتمتع باستقلال كبير . ولما كانت الطرق التجارية المارة بين سوريا والعراق عبر وادي الفرات تمر من منطقتها ، لذا اضطر التدمريون والتجار وأصحاب القوافل أن يسترضوا هذه القبائل فيدفعوا لرجالها مبالغ كبيرة لقاء حمايتهم للقوافل ، أي انهم اعترفوا ضمينا بنفوذهم وسلطانهم .

ويروي الرواة العرب ان هذه القبائل التي استوطنت أطراف الفرات

(١) لا ريب ان كتاب الحيرة ليويسف غنيمية (بغداد ١٩٣٦) هو اوسع ما كتب عنها باللغة العربية وعليه كان اعتمادنا .

هم من التتوخين^(١) الذين هاجروا من اليمن بعد انكسار سد مأرب .
ولا ريب ان ادعاءهم هذا غير صحيح ، لان سد مأرب بقي الى منتصف
القرن السادس الميلادي ، كما ان الأزد كانت تسكن بعيدا عن منطقة سد
مأرب ، وليس لدينا دليل ثابت على ان أصلهم من اليمن ، أو انهم كانوا
ينتمون جميعا الى قبيلة واحدة . والارجح انهم كانوا قبائل عدة استقرت
« تنوخت » في وادي الفرات ، برئاسة شخصيات قوية واستغلت ضعف
الدولة البارثية ، فتمتعت باستقلال ذاتي ، وقامت بحماية القوافل المازة في
وادي الفرات ، وانشأت لها علاقات وثيقة مع تدمر .

ويذكر المؤرخون العرب من ملوكهم الاول مالك بن فهم وعمر بن
فهم وجذيمة الابرش^(٢) الذي عاش في أواخر عهد الدولة البارثية وشهد
انحلالها وسقوطها ، وقد استفاد من ذلك فوسع نفوذه على الضفة الشرقية
للفرات ، كما حاول أن يمد نفوذه الى البحرين جنوبا والى بادية الشام
غربا . فلما ظهرت الدولة الساسانية لم يخاضعها كما فعلت معظم القبائل
العربية المقيمة بالعراق ، بل حالفها . وقد أقر له الساسانيون بالسلطة ،
وتركوه يتمتع بالحكم في منطقة غرب الفرات . ولعل الساسانيين أدركوا
ما يجنونه من هذه المحالفة في تأمين حدودهم الغربية وايقاف توغل البدو في
العراق ، كما يحتمل أنهم أرادوا استخدامه في حروبهم المنتظرة ضد الروم .

وقد استفاد جذيمة بدوره من محالفته الساسانيين ، فأمن لنفسه صداقة
الدولة القوية التي أصبحت منذ ذلك الوقت أعظم دولة في الشرق مدة أكثر
من ثلاثة قرون ، وهكذا نجا من المصير الذي آلت اليه الحضرة أو القبائل
العربية التي قاومت حكم الساسانيين كفضاعة فأخرجت من العراق .

ويبدو ان جذيمة تأثر بالاضاع المحيطة به فأراد أن يصنع ملكه

(١) طبري ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) طبري ج ٢ ص ٢٨ - ٢٩ . المسعودي : مروج الذهب ج ٢
ص ٩٠ فما بعد . السكري : المحبر ص ٣٥٨ .

بصبغة دينية فتنياً وتكهن على ما يروي الطبري • وأوجد لنفسه صنمين هما الضيزنان • غير أن حكمه لم يدم طويلاً ، إذ قتل غيلة على يد ملكة عربية تدعى الزباء • ومن المحتمل أن الزباء المقصودة هي ملكة تدمر ، وإن كانت الروايات العربية لا تنص على ذلك صراحة • وتنسج حول مقتله قصصاً طريفة لعلها أساطير مختلفة^(١) •

وبموت جذيمة انتقل الملك الى ابن أخته عمرو بن عدي^(٢) بن نصر الذي يعتبر مؤسس أسرة آل لخم أو آل نصر التي انحدر منها ملوك المناذرة • وقد اتبع عمرو بن عدي سياسة جذيمة في الانضمام الى جانب الساسانيين ، واستفاد من سقوط الحضر ، وهي الدولة العربية الأخرى في العراق • فأصبح أكبر أمير عربي بجانب الساسانيين ، وزاد نفوذه على العرب في العراق واتخذ مقراً له في الحيرة التي أصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة المناذرة • ولا ريب أن لموقع الحيرة أهمية كبرى ، فهي تقع في مكان تقترب فيه الصحراء من طيسفون ، هذا الى انها تقع قريبة من المكان الذي يصب فيه الفرات بالبطائح ، فهي لذلك مهمة من الناحية العسكرية والتجارية حيث تتحكم في الطريق التجاري بين الصحراء وطيستفون وفي الطريق النهري المار في نهر الفرات •

وقد أعقب عمرو ابنه امرئ القيس^(٣) (٢٨٨ - ٣٢٨) وكانت أحوال الدولة الساسانية مضطربة ، إذ هاجمها الرومان واقتطعوا منها بعض المقاطعات ، كما جرت فتن كثيرة وخلافات على العرش ، كما أن الدولة الرومانية كانت تعاني اضطرابات كثيرة • وقد ساعدت هذه الأحوال امرئ

(١) الميداني : مجمع الامثال ج ١ ص ٢٤٣ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٠ فما بعد • جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ٩٨ - ١٠١

(٢) طبري ج ٢ ص ٥٩ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١ ص ١٣٧

(٣) طبري ج ٢ ص ٦٥ •

القيس على ازدياد نفوذه وتوسيع سلطانه ، فأخضع القبائل العربية في بادية الشام والجزيرة ، كما يدل على ذلك النقش الذي اكتشف على قبره في وادي الصفا بسوريا والذي يذكر فيه انتصاراته وترجمته « هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم » الذي تقلد التاج ، وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم ، وهزم مذحج الى اليوم ، وقاد الظفر الى أسوار نجران مدينة شمر وأخضع معداً ، واستعمل بنيه على القبائل وأتابهم عنه لدى الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه الى اليوم . توفي سنة ٢٢٣ في يوم ٧ بكسلول . وفق بنوه للسعادة » ويقابل تاريخ وفاته سنة ٣٢٨ م^(١) .

وقد أعقب امرئ القيس عدة ملوك لم تكن لهم أعمال بارزة ، الم أن جاء النعمان الأعور أو السائح^(٢) الذي كون له جيشاً قويا مؤلفاً من كتيبتين هما الشهباء والدوسر^(٣) ، وقد اشتهرت الاخيرة بقوة بطشها ، ومن المحتمل انها نظمت على أسس تنظيم الجيش الفارسي . وكانت تقيم عنده في الحيرة قوة فارسية مكونة من ألف جندي ، ولا ريب أن هذه القوة العسكرية قد أعانتها على تقوية نفوذه عند القبائل العربية .

وقد بنى النعمان الخورنق ، وهو قصر فخم تردد ذكره في كتب الشعر والادب العربي ، والارجح ان اسمه فارسي معناه موضع الاكل وقد ظل الى العصر العباسي ، كما بنى السدير وهو أصغر من الخورنق^(٤) .

وقد دفع يزدجرد بابنه بهرام جور الى النعمان ليشرف على تربيته ، فقام بذلك خير قيام وأصبح من مهرة الصيادين . فلما مات يزدجرد وأراد

(١) جرجي زيدان ص ١٩٠ .

(٢) طبري ج ٢ ص ٧٢ ابن الاثير ج ١ ص ١٥٩ .

(٣) الميداني ج ١ ص ١٢٤ ابن الاثير ج ١ ص ١٥٩ طبري ج ٢ .

ص ٧٢ ابن الاثير ج ١ ص ١٥٩ .

(٤) ياقوت الحموي . معجم البلدان ملحة خورنق ومادة سدير .

انظر ايضاً ما كتبه لامنس عن الخورنق في دائرة المعارف الاسلامية ،

كذلك يوسف غنيمة : الحيرة ص ١٩ - ٢٤ .

الفرسي اقصاء بهرام جور ، أنجده النعمان بقوة مكنته من استرداد العرش ،
وبذلك زادت مكانته في البلاط الساساني .

لا نعلم شيئاً محققاً عن نهاية النعمان ، اذ تروى الروايات العربية انه
في نهاية عمره صدف عن زخرف الحياة الدنيا ، فغادر الحيرة وانطلق
سائحاً ، فلم يعلم أحد عن مصيره شيئاً .

ولما توفي النعمان أعقبه عدة ملوك ساعدوا الساسانيين في حروبهم مع
البيزنطيين ، وحاولوا توطيد نفوذهم على قبائل الجزيرة العربية ، واشتبكوا
مع بعض هذه القبائل في عدة معارك . ومن أبرز هؤلاء الملوك هو المنذر بن
ماء السماء^(١) (٥١٤ - ٥٦٣) الذي عاصر حكم قباذ وساعده في حروبه
الاولى ضد البيزنطيين ولكن العلاقة ساءت بينهما ، ولعل ذلك راجع الى
أن قباذا كان قد ناصر المزدكية واتخذها ديناً رسمياً^(٢) فأراد فرضها على
المأذرة ، فأبى المنذر بن ماء السماء الاعتراف بها ، الامر الذي أغضب قباذ ،
فعزله وولى مكانه الحارث بن عمرو بن حجر الكندي على الحيرة . وقد
لجأ المنذر الى القبائل العربية في الصحراء ، وظل عندهم الى أن مات قباذ
وتولى مكانه أنوشروان فقاوم المزدكية ، ثم أرجع المنذر الى حكم الحيرة .
وقد انتقم المنذر بن ماء السماء لنفسه فتبع الكنديين ، وأثار عليهم القبائل
وأوقع بهم في يوم مرينا وفي يوم أواره . والواقع أن دولة كسرة كما
ستحدث عنها فيما بعد ، انقسمت على نفسها وتفككت بعد موت الحارث ،
وأتاح تفككها للمأذرة فرصة في التوسع في الجزيرة حتى أصبحوا أقوى
الدول العربية في الجزيرة وأصبح اسم ملوكهم يتردد ذكره عند الشعراء .
اشترك المنذر بن ماء السماء في الحروب التي وقعت بين الساسانيين

(١) طبري ج ٢ ص ٨٦ - ٩٢ .

(٢) راجع عن حكم قباذ والمزدكية . كرستنس : ايران في العهد
الساساني : الفصل السابع (بالفرنسية) وكذلك حكم قباذ والمزدكية
(بالفرنسية) .

والبيزنطيين ، فأيد الساسانيون واشتبك مع الحارث بن جبلة في عدة حروب انكسر في أولها ولكن ثار لنفسه وأعاد الهجوم على القساسنة فانتصر عليهم وأسر منهم أربع مائة امرأة قدمهن ضحايا للآلهة العزى . ثم تجددت الحرب بينه وبين الحارث بن جبلة الذي هاجم المناذرة واستطاع ابنه أن ينتصر على المناذرة في موقعة عين أباغ التي قتل فيها المنذر نفسه كما تحدثنا من قبل . وفي زمنه قوى نفوذ النصرانية في الحيرة ، فكانت زوجته هند نصرانية واليهما ينسب دير هند ، ويقال ان المنذر نفسه تنصر . وينسب الى المنذر الغرياني ويوم البؤس والنعيم^(١) .

وقد تلاء ابنه عمرو بن هند ، وكان ملكا طموحا قوي الشكيمة ، عاون الساسانيين في حروبهم ضد البيزنطيين ، واستغل اضمحلال دولة كندة ، فوسع نفوذه وسلطانه في الجزيرة ، واشتبك مع تغلب وتميم وطبي بمبارك كسرهم فيها . وقد قصده عدد من الشعراء الجاهليين كطرفة والاعشى والنابغة ومدحوه بقصائد عدة ، ولكنه قتل أخيرا على يد الشاعر التغلبي عمرو بن كلثوم الذي لم يتحمل ، فيما يقال ، محاولة عمرو بن هند اذلال أمه .

وقد تلا عمرو بن هند على امارة الحيرة عدد من اخوته أبرزهم أبو قابوس النعمان بن المنذر^(٢) الذي عاش النابغة الذبياني في كنفه ومدحه بعدة قصائد مشهورة ، كما قصده عدد من الشعراء البارزين وخاصة المنخل الشكري وطرفة بن العبد ، ويبدو من قصائد هؤلاء مدى روعة بلاط النعمان وأثره في نفوس العرب .

وقد امتد سلطان النعمان جنوبا الى منطقة البحرين ، ولعله امتد غربا

(١) الميداني : مجمع الامثال ج ١ ص ١٠٧ . سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان مادة عزي .

الى جبلي طي حيث بسط نفوذه عليهم ، ويبدو انه استفاد في ذلك من
وهن أمر منافسيه الفساسنة وكانت قوافله ولطائمه تذهب الى الحجاز .
وقد أدى هذا التوسع الى احتكاكه مع كثير من القبائل العربية فاشتبك مع
بني يربوع في يوم طخفة كما اشتبك مع بني عامر بن صعصعة^(١) .

وقد ساءت العلاقة بين أبي قابوس وبين بلاط كسرى لاسباب يختلف
المؤرخون في ذكرها فمنهم من يدعي انها بسبب سجن النعمان أبي قابوس
لرجل اسمه عدي الذي كان من مقربي كسرى ثم قتله ، فاستغل ذلك
خصوم النعمان واوغروا صدر كسرى عليه^(٢) . ولكن أبو حنيفة الدينوري
ينقل في كتابه الاخبار الطوال كتابا منسوباً الى كسرى ابرويز يقول فيه
• • • • • فان النعمان وأهل بيته واطأوا العرب وأعلموهم توكفهم خروج
الملك عنا اليهم وقد كانت وقعت اليهم في ذلك كتب فقتلته ، ووليت الامر
اعرابيا لا يعقل من ذلك شيئا ، ولعل الدافع الاساسي هو ما جاء في هذا
الكتاب ، وان قصة عدي ، ان صحت فقد اتخذت حجة عليه^(٣) .

ألقى كسرى القبض على النعمان وسجنه وبذلك انتهى حكم المناذرة
في الحيرة ، وعين مكانه رجلا من طي اسمه أياس بن قيصة^(٤) ، ويبدو
ان أياساً لم يكن محبوباً ولم يتمكن من املاء مركز المناذرة ، اذ كان هؤلاء
قد ثبتوا سلطانهم ونفوذهم في الحيرة ، فلم يطق أهل الحيرة احتمال أياس ،
لذلك اضطر الفرس الى اسناده بحامية فارسية قوية تشد أزره ، ولكن
يبدو انه لم يستطع أن يجلب القلوب اليه ، فظلوا كارهين للفرس .

أدى زوال أسرة المناذرة الى خسران الساسانيين الواسطة المهمة التي

(١) الطبري ج ٢ ص ١٤٦ - ٧ .

(٢) طبري ج ٢ ص ١٥٠ ، الاغانى ج ٢ ص ٢٨ .

(٣) الدينوري : الاخبار الطوال ص ١٠٧ - ٩ .

(٤) طبري ج ٢ ص ١٥٢ ، اغانى ج ٢ ص ٢١ .

كانت تقف أمام العرب وتسيطر عليهم وتمنعهم من الاعتداء على الامبراطورية الساسانية . فلما زال هذا الحاجز وقفت القبائل العربية وجها لوجه أمام الامبراطورية الساسانية ، ولم تعد هناك قوة تصدهم ، فأخذوا يقومون بالغزوات على أطراف الحدود العراقية ، وساعدهم على ذلك الاضطراب الداخلي والحروب المتعددة والفتن والمنافسات على العرش وضعف الاكاسرة ، فتوغل بعضهم الى داخل بلاد العراق .

ولعل أهم هذه الحروب هي حرب ذي قار التي وقعت بين الفرس وبين العرب من بني بكر وخاصة شيان . ويدكر العرب انها وقعت عقيب زوال أسرة المناذرة من الحيرة وكنيجة مباشرة لها ، وذلك لان النعمان أودع سلاحه عند هانيء بن مسعود الشيباني فأراد كسرى استرجاعه بالقوة ولكن هانيء رفض ونشب القتال بينهما وكانت نتيجة انكسار الجيش الفارسي^(١) .

ورغم صغر القوة الفارسية التي اشتبكت في القتال ، الا أن أهميتها كبيرة فهي أول اصطدام مسلح مباشر بين العرب والفرس ، وهي أول معركة تنتصر فيها القبائل العربية على الجيش الفارسي ، مما أعطاهم الثقة بأنفسهم وجراً القبائل الاخرى على الهجوم المباشر على بلاد الساسانيين الغنية ، وكانت بمثابة حركة استطلاعية ومقدمة للفتوح الاسلامية التي اكتسحت امبراطورية الساسانيين . فلا عجب أن يروى عن النبي انه قال « هذا يوم انتصف فيه العرب من المعجم » .

وعلى أثر معركة ذي قار التي وقعت في أطراف بادية الحيرة ، أقصى الفرس أياس بن قبيصة عن حكم الحيرة ، وعينوا عليها حاكما فارسيا يحكمها بصورة مباشرة^(٢) ، الا ان هذا لم يؤد الى تحسين العلاقة بين العرب والفرس .

(١) طبري ج ٢ ص ١٤٧ ، أغاني ج ٢ ص ١٣١ فما بعد آبن الاثير

ج ١ ص ١٩٦ - ٧ .

(٢) طبري ج ٢ ص ١٥٦ ، ابن الاثير ج ١ ص ١٩٩ .

أما المناذرة فقد حاول أحد أولاد النعمان واسمه المنذر الفرور أن يؤسس له دولة في البحرين وقد نجح فعلا في ذلك وحد من توغل النفوذ الفارسي في الجزيرة العربية ، ولكن نفوذه لم يكن مكيناً ، اذ كان لرؤساء القبائل سلطان قوي حد من سلطان المنذر ، ولما جاء الاسلام يبسط سلطانه على الجزيرة قاومه المنذر ولكن المسلمين تمكنوا من دحره وتشتيت قواته . فانصاعت البحرين الى الاسلام ولم تعد نسمع منذ ذلك الوقت عن المناذرة شيئاً كما سنفصل ذلك في الجزء الثاني .

أما الحيرة فلم يعد لها ذكر حتى جاء خالد بن الوليد العراق فهاجمها وتمكن من احتلالها بعد مقاومة بسيطة وفرض عليها مبلغا من المال تؤديه للمسلمين . يذكر المؤرخون انه ٩٠ ألف درهم^(١) وهو مبلغ ضئيل بالنسبة الى واردات العراق التي كانت تبلغ مائة مليون درهم . والواقع انهم لم يبدوا مقاومة فطلة وأسرعوا في مفاوضة خالد والاستسلام له ، وليس في الاخبار ما يظهر أنه كانت تقيم فيها آنذاك جالية فارسية ، بل ان وفد المفاوضة مع خالد كانوا من الحيريين النصارى .

ويبدو من حوادث غزوات خالد ان الحيرة كانت آنذاك مدينة صغيرة وفيها بعض القلاع والحصون والقصور المنبثة حولها وفيها كانت المقاومة ، كما كان حولها عدد كبير من الأديرة المسيحية . هذا الى بعض الترع والقنوات التي كانت تمتد حولها والتي لا بد انها كانت تروي الحقول والمزارع حولها .

وقد تأثرت الحيرة من انشاء الكوفة قريبا ، ولكنها لم تندثر اذ ظلت الحياة فيها قائمة نشطة فأفاد أهلها من الفتوح الاسلامية ومن نصرانيتهم . فقاموا بكثير من الاعمال التجارية وشراء الغنائم والصيرفة وربما أعمال البنوك^(٢) ، كما كانت مدينتهم مركزا للهو ومحلات شرب الخمر

(١) طبري ج ٤ ص ٥ .

(٢) ابن سلام : كتاب الاموال ص ٢٥٣ ، البيروني : الجماهر في

معرفة الجواهر ص ٦٨ - ٦٩ .

والأنس • هذا الى أن الصناعة فيها ظلت قائمة وخاصة صناعة البسط والوشي • وقد نزلها عدد من الخلفاء العباسيين عند مجيئهم الكوفة ونظم الشعراء كثيرا من القصائد في وصفها^(١) •

ولما أنشئت الدولة العباسية وبدأت حركة الترجمة قام سكان الحيرة بقسط وافر من ترجمة الكتب الى اللغة العربية ، وبهذا قدموا أساس الحركة العلمية في الاسلام ، كما أنهم قاموا بالتعليم • وتظهر الكلمات التي استعملوها في الترجمة مدى تفهمهم للغة العربية وأسرارها • ومدى قابلية اللغة العربية على الاستعمال في الفلسفة والعلوم والفنون •

حضارة المناذرة

تقع الحيرة عاصمة دولة المناذرة في أطراف العراق في منطقة سهلة منبسطة قريبة من الصحراء ، هواؤها جاف عذب صحي ، ويجري بالقرب منها نهر الفرات الذي يتفرع في أطرافها الى عدة فروع وتأخذ منه جداول وترع تروي تلك المنطقة ، فتجعلها من أخصب مناطق العراق وأكثرها إنتاجا • وكانت بعض هذه الانهار تصل الى الحيرة وخاصة نهر الحيرة ونهر برفس ونهر كافر • وتتجمع هذه الانهار في مجتمع الانهر • أو ما يدعوه الآراميون فرثا والبرانيون حاشير^(٢) وهي تصب في بحر النجف الذي كان مليئا بالماء وتصل اليه السفن البحرية فيما يذكر المسعودي^(٣) • وهكذا اجتمعت في هذه المنطقة نقاوة هواء الصحراء وخصب العراق وتجارة البحر • فلا عجب أن اتخذ المناذرة مقرهم فيها ، وقد دعى هذا المقر الحيرة • وهو في الاغلب مشتق من الكلمة الآرامية حرتا ومعناها المسكر والمقام • وهي قد تشير الى أنها كانت في البداية مصكرا لهم •

(١) أنظر يوسف غنيمة : الحيرة ص ١٢ فما بعد •

(٢) راجع المقال الذي كتب عن الحيرة في دائرة المعارف الاسلامية ، وما كتبه الواموزيل في كتابه « الفرات الاوسط » ص ٢٨٧ فما بعد (بالانكليزية) •

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ١٠٣ •

وقد اتخذها آل لخم عاصمة لهم • وليست لدينا تفاصيل عن أصلها أو عن تطوراتها التاريخية ، ولكن يبدو من ثايا الاخبار عن تاريخ المناذرة ان أغلب سكانها من العرب البدو • ويقسم المؤرخون سكانها الى ثلاثة أقسام عرب الضاحية والعباد والاحلاف^(١) فأما عرب الضاحية فهم من القبائل العربية التي استقرت في الحيرة أو في أطرافها • وكانت تسكن اما بيوت الشعر والخيام وتمتحن الرعي ، أو تستقر وتبني البيوت • ويطلق النسابون عليهم تنوخ ، والراجح ان تنوخ ليست في الاصل قبيلة واحدة كما يزعم النسابون • بل هي مجموعة قبائل تجمعت و « تنوخت » وكونت وحدة وعلى ممر الايام ظن النسابون انها قبيلة تربط أفرادها رابطة الدم • ولا نعلم بالضبط من هي القبائل التي اشتركت وكونت تنوخ وان كان من المحتمل أن يكونوا من مختلف القبائل المجاورة كطي وتميم وأسد وصعاليك القبائل الاخرى •

أما العباديون فهم قوم من النصارى على الارجح ينتمون الى قبائل شتى ويجمعهم الدين وعبادة الله والزهد ، ويبدو انه يشيع في تسميتهم اسم عبد • وقد عرفوا فيما بعد بنصرانيتهم وبظهور بعض الشعراء منهم كعدي ابن زيد • وقد لعب العباديون دورا كبيرا في مفاوضة خالد بن الوليد وفي مساعدة المسلمين عند الفتح الاسلامي^(٢) •

أما الاحلاف فهم القبائل العربية التي حالفت المناذرة واعترفت بسيادتهم وتجولت في أطراف الحيرة أو استقرت عندها • وهم غير ثابتين ، ويتوقف عددهم على مدى امتداد حكم المناذرة وتجول القبائل ، والراجح انه في أواخر أيام المناذرة كان أهم الاحلاف تغلب التي هاجرت بعد حرب

(١) طبري ج ٢ ص ٥٩ •

(٢) أنظر الاغانى ج ٢ ص ١١٦ ج ٨ ص ٧٦ ج ١١ ص ١٥٦ ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج ١ ص ١٣٥ ، ١٨٤ يوسف غنيمه ص ١٦ •

البسوس في أيام عمرو بن هند واستقرت على ضفاف الفرات شمال الحيرة ،
وكذلك بكر وخاصة بني عجل وشيبان •

وبجانب هؤلاء فقد كان النبط وهم سكان العراق الاصليون من بقايا
البابليين والسريريان وكانوا يمتنون الزراعة والفلاحة^(١) •

يضاف الى ذلك اليهود الذين استقروا بعد السبي البابلي في هذه
المنطقة وأنشأوا لهم مدارس وكان لجاليتهم رئيس خاص (راس جالوتا)
وفي هذه المنطقة كتب التلموذ البابلي الذي يعتبر من أعظم كتب الفقه
اليهودية^(٢) •

وبجانب هذا فقد أقام الفرس جالية لهم في الحيرة ، ولعل عددا من
اصحاب المهن والتجار أقام فيها أيضا •

وبامتداد التجارة الحيرية انتشر الحيريون في مختلف البلاد ويروي
بعض المؤرخين العرب « انك لا ترى بلدا في الارض ليس فيه حيري^(٣) » ،
ولعل هذا الانتشار قديم ولكن مصادرنا عنه قليلة •

وقد أبدى المناذرة للساسانيين مساعدات فأيدوهم عند تأسيس دولتهم
وساعدوهم في الحروب ضد البيزنطيين ، وصدوا القبائل العربية وضبطوها
وحاولوا جلبها الى جانب الفرس • وقد قدر الفرس هذه الخدمات العظيمة
وهذا الاخلاص ، فمنحوهم قسما وافرا من الاستقلال ولم يتدخلوا في
شؤونهم الداخلية أو يعرقلوا أعمالهم وأباحوا لهم أن ينشئوا لبلاطهم كثيرا
من التقاليد والمراسيم بل أن يزدجرت أرسل ولي عهده بهرام جور ليتربى
في الحيرة ، الامر الذي قوى من مركز المناذرة وامتعم بنفوذ خاص في
البلات الساساني • بل انهم كانوا في بعض الاحيان يلعبون دورا هاما في

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٩ •

(٢) نيومان : الحياة الزراعية ليهود العراق حسب ما جاء في التلموذ

(بالانكليزية) •

(٣) الهمداني : مختصر كتاب البلدان ص ٥١ •

الشؤون الساسانية • وقد رأينا كيف ان المناذرة كانوا العامل الاول في تغلب بهرام جور على خصومه وتمسكه عرش الاكاسرة •

وقد عزز هذا جانب ملوك المناذرة وقوى من مركزهم ونفوذهم ، وكانوا يلبسون التحان ولعلمهم كانوا يقيمون ستارة تحجبهم عن زوارهم ، فلا يظهر من شخصيا الا لأشد المقربين اليهم ، وقد اتخذوا لهم حجاباً ، وكانت تحيتم الخاصة بهم (أبيت اللعن) • وكانت لهم روادف وهم كالوزراء في الاسلام • فكان الملك اذا ركب يركب الرديف وراءه واذا جلس جلس الرديف عن يمينه ، واذا شرب سقى الرديف بكأسه بعده ، واذا غاب خلفه ، وكانت الرداقة مقصورة على بني يربوع • ولما أراد النعمان أبو قابوس تحويلها الى الحارث الدارمي ثار بنو يربوع عليه مما يدل على أهميتها^(١) •

أما جيشهم فقد رأينا ان النعمان السائح اتخذ جيشاً نظامياً كون منه كتيبتين هما الدوسر والشهباء ، فأما الدوسر فيبدو انها نظمت على الطراز الفارسي وانه كان لها قائدان كما قد يستدل من اسمها ، وقد ظلت الى عهد أبي قابوس حيث كانت تعتبر أحسن الكتائب وأشدّها بطشاً ، وكانت تجمع من مختلف القبائل العربية وخاصة من قبيلة بكر •

وأما الشهباء فلا نعلم عن أصلها شيئاً • ويرى المؤرخون العرب ان اسمها مشتق من البياض لان جنودها كانوا بيض الوجوه • ولكن يوسف غنية يرى انها مشتقة من شاه باي أي موطأ الملك • فكانها قد نظمت على الطراز الفارسي أيضاً وانها كانت كالبحرس الملكي • والواقع ان هذه الكتيبة كانت في زمن أبي قابوس مكونة من أخوته وبنى عمه وأتباعهم وأعوانهم •

وبجانب هذا فقد كان للمناذرة الرهائن وكانوا حوالي خمسمائة رجل يأخذهم الملك رهائن من قبائل العرب ليقموا عنده سنة ويستعملهم في حروبه وغزواته • وهم يتبدلون كل سنة •

(١) أغاني : ج ١٢ ص ١١ • ياقوت ج ٣ ص ٥١٩ •

ثم الصنائع وكانوا خواص الملك والمقرين اليه وهم من بني قيس بن ثعلبة وبني تيم اللات من بكر ولا بد ان هؤلاء قد نشأوا مؤخرا أي بعد هجرة بكر الى أطراف العراق •

ثم الودائع وهم حوالي ألف رجل من الفرس يضعهم كسرى تحت تصرف ملك المناذرة في الحيرة ويدلون كل سنة^(١) •

لقد رقيت الصناعة في الحيرة رقيا كبيرا فازدهرت فيها صناعة الانسجة • وقد ذكر عدد من الشعراء في أشعارهم نساجي الحيرة فقال عمرو بن كلثوم :
واذ لا ترجى سليمي أن يكون لها من بالخورنق من قين ونساج
كما اشتهرت الحيرة حتى العهد الاسلامي بالوشى بالقصب والتطريز بخيوط الذهب واشتهر عندهم أيضا نسيج الانماط والنطوع الحارية وقد ذكرت في الشعر أيضا فقال النابغة :

والأدم قد خيست فتلا مرافقها مشدودة برحال الحيرة الجدد
وقال آخر :

عقما ورقمما وحاريا يضاعفه على قلائص أمثال الهجانيع
وقال امرؤ القيس :

فلما دخلناه أضفنا ظهورنا الى كل حاري جديد مشطب

واشتهرت أيضا صناعة الأسلحة فاكسبت السيوف الحيرية سمعة بين العرب • كما ان الصاغة لابد وانها ازدهرت لتموين بلاط المناذرة بحاجاته من الحلبي والزينة والأدوات وكذلك لتموين الناس بما يحتاجونه • • •
وقد عرفوا كذلك في التجارة والتنجيد ، وفي صناعة الخزف وأواني الفخار والنقوش^(٢) • وان المكتشفات التي ظفرت بها بعثات الآثار في الحيرة وخاصة بعثة تالبوت رايس ورتلنكر لخير دليل على تقدمها فالآثار

(١) الميداني : ج ١ ص ٨٧ أنظر أيضا غنيمة ص ٩٨ •

(٢) راجع عن صناعة الحيرة ما كتبه يوسف غنيمة ص ٨١ - ٩٥ •

التي كشفوها في أطلال الحيرة سنة ١٩٣١ وجدوا أن معظم الغرف مزينة بزخارف من جص منقوش نقوشا جميلة ، ومصبوغ بألوان لطيفة بهية ، وأغلبها زخارف من رسوم الازهار والفواكه والبقول . وهي مزيج من الطراز الفارسي والروماني^(١) .

أما البناء فقد رقى رقىاً عظيماً ، فبنوا كثيراً من القصور وأهمها الخورنق الذي بناه النعمان الأعور لكي يقيم فيه بهرام جور . وقد أكثر الشعراء والكتاب من ذكره ونسجوا حول بنائه الأساطير . وقد بقي هذا القصر حتى العصر العباسي ولكن ليست لنا تفاصيل وافية عنه .

أما السدير فقد تردد ذكره أيضاً مقروناً بالخورنق وكان على ما يقال مكوناً من ثلاث غرف ولعله أساس طراز البناء الاسلامي المعروف بالحيري ذي الكمين . والذي يتكون من ايوان في صدره غرفة وفي جانبيه غرفتين وهو الذي ظل مستعملاً في العراق حتى السنوات الأخيرة .

وبجانب هذا توجد قصور أخرى منها قصر سنداد . والقصر الأبيض وقصر الفرس وقصر الزوراء التي بناها النعمان المنذر . وقصر العدسين وهو أول ما فتحه المسلمون^(٢) ، وقصر بني ببيعة ، هذا بجانب عدد كبير من الأديرة^(٣) . وقد ذكرت معظم هذه القصور عند الفتح الاسلامي .

عبد سكان الحيرة الاول الاصنام ، فقد روي أن جذيمة الأبرش قد تكهن وكان له صنمان يدعيان الضيزنين^(٤) . وقد ظل هذان الصنمان

(١) لقد نشر تالبوت رايس نتائج حفرياته في مجلة الجمعية الملكية لآسيا الوسطى سنة ١٩٣٢ .

(٢) طبري ج ٤ ص ٥٠ فلما بعد . انظر أيضاً ياقوت : معجم البلدان مادة قصر ويوسف غنيمه ص ١٩ - ٢٩ .

(٣) عن أديرة الحيرة انظر الشابشتي : كتاب الديارات طبع كوركيس عواد ، وياقوت الحموي مادة دير ويوسف غنيمه ص ٤١ - ٤٩ .

(٤) طبري ج ٢ ص ٢٩ - ٣٠ .

حتى أيام المنذر بن ماء السماء حيث نقلهما وأقامهما على باب الحيرة^(١) ،
ينحني لهما الداخلون الى المدينة • كما كانوا يحلفون بسد وهو صنم كان
في الحيرة^(٢) • ولا نعلم تفاصيل عن هذه الآلهة أو عبادتها • وبجانب هذا
فقد كانوا يعبدون العزى ، وقد رأينا كيف ان المنذر بن ماء السماء ضحى
لها بأربعمائة من الاسيرات الفسانيات •

وقد امتدت اليهم بعض الاديان الفارسية ، فقد حاول قباذ نشر الديانة
المزدكية ، ولما حاول المنذر مقاومته اقصاه عن الملك وأتى بالحارث السكندي
مكانه كي يعينه هذا على نشرها ، ولكن ذلك لم يدم اذ أن أنو شروان
أعقب قباذ فاضطهد المزدكية وأعاد المنذر الى العرش • ومن المحتمل أن
الزرادشتية كانت موجودة خاصة بين الجالية الفارسية وربما دان بها بعض
سكان الحيرة •

على ان أهم الديانات التي انتشرت في الحيرة هي المسيحية • ولاشك
ان بداية التبشير المسيحي في العراق ترجع الى القرن الأول المسيحي ، حيث
جاء اثنان من تلامذة المسيح لنشر الدعوة فيه ، وانشأ لهما مقراً في كسكر
(عند واسط) • وقد أخذت المسيحية تنتشر ببطء نظراً للعقبات التي كانت
تواجهها ، وقد امتدت الى الحيرة • ويدعي الطبري ان امرئ القيس أول
من تنصر من ملوك الحيرة • ولكن أخبار تنصر الملوك لا تأتي واضحة الا
من عهد المنذر بن ماء السماء الذي يقال انه تنصر وبنى عدداً من الاديرة
وتزوج بهند وهي نصرانية ينسب اليها دير هند •

وقد حدث منافسة بين النساطرة واليعاقبة على اجتذاب الحيريين اليهم ،
ولكن النساطرة تفوقوا على اليعاقبة ، فانتشر مذهبهم ، وكان لهم في الحيرة
اسقفية واشتركوا في المجامع الكنسية التي كانت تعقد في طيسفون مركز

(١) ابن سيدة : المخصص ج ١٣ ص ١٠٤ •

(٢) اغاني : ج ٢ ص ٢٠ •

البطيريركية • على ان اليعاقبة أنشأوا لهم أيضا مركزا دينيا في عاقولا (الكوفة) في طرف الحيرة^(١) •

ومن مظاهر انتشار المسيحية في الحيرة كثرة الاديرة التي كانت منبثة في أطراف الحيرة وقد ذكر في الاخبار أكثر من عشرين ديراً فيها • وقد كشف الحفريات عن آثار عدد من هذه الاديرة والآثار المسيحية • وكانت هذه الاديرة مراكز للتعليم الديني ، فتخرج منها عدد من رجال الدين المسيحيين الذين احتلوا مكانة عظيمة في تاريخ الكنيسة ، ولا بد ان هذا قد ساعد على رقي نظام التعليم عندهم ، ولدينا بعض الاوصاف للنظام التعليمي في الحيرة من القرن الثاني الهجري حيث كان يتميز باستعمال المختصرات وطريقة الاسئلة والاجوبة^(٢) •

وكان التعليم الديني يتطلب معرفة للفلسفة ومباحثها التي تتعرض للخالق وطبيعته وصفاته وطرق المعرفة ، لذلك أخذوا يتداولون الابحاث الفلسفية ويدرسون الفلسفة اليونانية التي كانت قد عالجت هذه المواضيع • والواقع انهم درسوا وترجموا كثيرا من الكتب الفلسفية والدينية الى اللغة السريانية التي كانت شائعة عندهم • ولما بدأ العرب بحركة الترجمة الى العربية في العصر العباسي الاول ، قام سريان الحيرة بالدور الاول فيها • فنقلوا مئات الكتب ، حتى ان حنين وحده ينسب اليه ترجمة أكثر من مائة كتاب الى العربية • ولم يكن عملهم مقصورا على الترجمة فحسب بل

(١) عن المسيحية في الحيرة انظر : لابور : المسيحية في الشرق في العهد الساساني •

• ناو : العرب النصاري في الجزيرة وسوريا في القرن السابع والثامن •
• كرستنس : ايران تحت حكم الساسانيين (وكلها بالفرنسية) •
• يوسف غنيمه : الحيرة ص ٢٩ فما بعد •
• اوليري : جزيرة العرب قبل محم ص ١٢٥ - ١٥٠ (بالانكليزية) •

(٢) انظر ما كتبه ماكس مايرهوف في مقدمة كتاب المقالات العشر في العين لحنين بن اسحق والفصل الذي كتبه في كتاب تراث الاسلام عن الطب والعلوم •

وعلى الشرح والتأليف والدرس سواء في الفلسفة أو الطب أو العلوم الأخرى ، وهكذا كان لهذه المدينة الأثر الأول في نقل تراث الفكر اليوناني الى العرب وفي ترويض اللغة العربية وجعلها أداة ممتازة للتعبير عن الفلسفة والعلوم^(١) .

ملوك المناذرة اللخمين^(٢)

اسم الملك	مدة حكمه
١ - عمرو بن عدى	٢٦٨ - ٢٨٨ يوسف غنيمه كوسن دي برسغال
٢ - امرىء القيس الاول	٢٨٨ - ٣٢٨ ٢٨٨ - ٢٨٨
٣ - عمرو الثاني	٣٢٨ - ٣٧٧ ٣٣٨ - ٣٦٣
٤ - أوس بن قلام العمليقي	٣٧٧ - ٣٨٢ ٣٦٣ - ٣٦٨
٥ - امرىء القيس الثاني	٣٨٢ - ٤٠٣ ٣٦٨ - ٣٩٠
٦ - النعمان الاول السائح	٤٠٣ - ٤٣١ ٣٩٠ - ٤١٨
٧ - المنذر الاول	٤٣١ - ٤٧٣ ٤١٨ - ٤٦٢ (**)
٨ - الاسود	٤٧٣ - ٤٩٣ ٤٧١ - ٤٩١
٩ - المنذر الثاني	٤٩٣ - ٥٠٠ ٤٩١ - ٤٩٨

(١) راجع الفهرست لابن النديم ففيه قائمة طويلة بأسماء ما ترجم الى العربية .

ماكس مايرهوف : من الاسكندرية الى بغداد (فصل في كتاب التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية) .

احمد أمين : ضحى الاسلام : الجزء الاول

(٢) نقلنا هذين الجدولين من كتاب الحيرة ليوسف غنيمه ص ٢٤٢

٣ - وهي تطابق القائمة التي أوردها جرجي زيدان في كتابه (ص ١٨٥ - ١٨٦) .

(**) يضيف برسيغال ملكا اسمه النعمان قبل حكم الاسود (٦٢)

- (٤٧١) حكم الحارث السكندي بين ٥٢٩ - ٥٣١ .

مدة حكمه

اسم الملك

يوسف غنيمه كوسن دي برسفال

٥٠٣ - ٤٩٨ ٥٠٤ - ٥٠٠

١٠- النعمان الثاني

٥٠٥ - ٥٠٣ ٥٠٧ - ٥٠٤

١١- أبو يعفر علقمة

٥١٣ - ٥٠٥ ٥١٤ - ٥٠٧

١٢- امرئ القيس الثالث

٥٦٢ - ٥١٣ ٥٦٣ - ٥١٤

١٣- المنذر الثالث بن ماء السماء

٥٧٤ - ٥٦٢ ٥٧٨ - ٥٦٣

١٤- عمرو بن هند

٥٧٩ - ٦٧٤ ٥٨١ - ٥٧٨

١٥- قابوس

— ٥٨٢ - ٥٨١

١٦- فيشهرت

٥٨٣ - ٥٨٠ ٥٨٥ - ٥٨٢

١٧- المنذر الرابع

٦٠٥ - ٥٨٣ ٦١٣ - ٥٨٥

١٨- النعمان أبو قابوس

٦٣١ - ٥١٤ ٦٣٢ - ٦٢٨

١٩- المنذر الغرور

الفصل السابع

كندة^(١)

لقد نشأت كندة في الجزيرة العربية وبسطت نفوذها على القبائل الموجودة فيها بالمحالفات والمصاهرات أو بالقوة . وحاولت توحيد هذه القبائل ونشر السلم والامن . وقد امتد حكمها فترة من الزمن الى الحيرة نفسها ، كما ظهر فيها أعظم شاعر جاهلي وهو امرئ القيس .

ويبدو من اسمائهم «شرحيل ومعد يكرب» . أنهم في الاصل من جنوب الجزيرة العربية ، ويؤيد هذا قول امرئ القيس :-

تطاول علينا الليل دمون دمون انا معشر يمانون وانا لاهلنا محبوبون

وليس لدينا معلومات عن أصلهم أو البلد الذي جاءوا منه ، اذ أن النقوش والمصادر الاغريقية لا تذكر بوضوح اسم قبيلة كندة في الجنوب ، سوى نقش في مأرب يذكر قبيلة اسمها (كدت) تقطن حضرموت ، الا أنه من الصعب الجزم بأن المقصود بهم قبيلة كندة . ومع اننا نعلم ان قبيلة كندة كانت تسكن عند ظهور الاسلام في حضرموت ، الا ان هذا لا يستلزم حتماً أن يكون أصل كندة من حضرموت اذ يجوز أن تكون قد جاءت الى حضرموت بعد سقوط دولتهم .

أما الاخبار العربية عن نشأتهم فمتباينة اذ أن ابن خلدون يروي أن

(١) اعتمدنا في البحث عن كندة على ما كتبه أبو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغانى ج ٨ ص ٦٠ - ٧٣ وابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء ص ٣٧ - ٥٦ ، واليعقوبي في كتاب التاريخ ج ١ ص ١٧٦ - ١٨١ ، وعلى كتاب أو ولندر عن « مملكة كندة واسرة آكل المرار » (بالانكليزية) .

التبابعة حاربهم ، وأما ياقوت الحموي فيروى ان حرباً نشبت بين حضرموت
والسكون وكدة انكسرت فيها كعدة واضطرت الى الاسحاب . وقد
أدى انكسارها الى التفافها حول ملك واحد^(١) ، ولكن ليس في النقوش ما
يؤكد هذه الاخبار . ولعل الكنديين كانوا في جنوب اليمن ثم هاجروا بعد
الانحطاط الذي أصاب اليمن من جراء تحول الطريق التجاري . غير اننا
لا نستطيع أن نعين بالضبط زمن هجرتهم سوى اشارة في معجم البلدان
لياقوت يذكر فيها عدة ملوك سبقوا حجر بحوالي قرن أو قرن ونصف من
الزمن ، ولما كان حجر قد ظهر في القرن الخامس ، فكون أول هجرة
الكنديين في منتصف القرن الثالث الميلادي .

وليس لدينا من أخبار ملوكهم الاول شيء سوى أسماء وسنى حياتهم
التي يذكرها اليعقوبي . فهو يقول بأن مرتع بن معاوية حكم (٢٠) سنة
وابنه نور مات في سن مبكرة ثم تلاه معاوية ثم الحارث الذي حكم (٤٠) سنة
ثم وهب الذي حكم (٢٠) سنة .

ويجمع المؤرخون العرب على أن حجراً كان أول ملوكهم ، ولكننا
لا نعلم شيئاً ثابتاً عن كيفية تعيينه فان ابن الكلبي يقول بأن تبعاً عنه عندما
كان في طريقه الى العراق . ويروى ايضاً بأن حسان تبع هو الذي عنه ،
غير اننا لا نعلم بالضبط من هو حسان تبع . ولعل كلمة تبع كانت لقباً
للملوك العظام ، ومهما يكن فان هذه الروايات تدل على وجود علاقة قوية
بين كدة ودولة حمير .

ويبدو أن حجراً وسع سلطته بطريق الزواج ، فيروى ابن الكلبي
بأنه تزوج هند بنت ظالم بن وهب بن الحارث ، كما تزوج بامرأة من حمير
وبزوجة ثلاثة هي أم أياس بنت عوف بن محلم الشيباني .

وكان موضع مملكة حجر الكندي بنجد ما بين طحيه وهى هضبة بنجد الى حمى خربة الى دارة جلجل ثم العقيق الى بطن نخلة الشامية الى حزنه الى اللقط الى افيع الى عمايه الى عمايتين الى بطن الجريب الى ملحوب^(١) .

يبدو أن حجراً اتخذ مقره في غمر كندة . وقام منها بحملات ضد القبائل الساكنة في الحجاز وشمال الجزيرة العربية والبحرين بل وصل في فتوحاته الى حدود دولة المناذرة متزعاً منها بمصر أراضيهم^(٢) . كما أنه بسط نفوذه على بعض أجزاء اليمامة حيث عين ابنه معاوية حاكماً عليها . ومن المحتمل أن بعض الفتوحات التي روى أنه قام بها قد نسبت اليه خطأ . وانها في الحقيقة فتوحات حفيده الحارث .

ليس لدينا دليل على تاريخ حكم حجر سوى أن حفيده مات سنة ٥٢٨م ، ويمكننا أن نقدر على أساس هذا التاريخ انه عاش في الثلث الاخير من القرن الخامس الميلادي .

وقد أعقبه ابنه عمرو المقصور الذي سمي بهذا الاسم لاقصراره على ملك أبيه ، على ما يقوله ابن الكلبي ، أي ان سلطته كانت محدودة جداً ومقصورة على قبيلة كندة ، اذ فقد سلطته على قبائل ربعة التي ظهر فيها في هذا الوقت قائد جديد هو كليب التغلبي . على انه حافظ على علاقته الطيبة مع الحميريين ، كما كان مرتبطاً مع المناذرة بأواصر الصداقة والقربى ، فكانت ابنته زوجة المنذر بن ماء السماء وأم النعمان الاسود الذي حكم الحيرة مدة أربع سنوات .

الا أن علاقته مع الفساسنة كانت غير وثيقة . فقد اشتبك مع الحارث ابن أبي شمر في حروب قتل فيها .

وقد أعقبه الحارث بن عمرو الذي يعتبر أقوى ملوك كندة وأبرزهم ، كما ان معلوماتنا عنه أوسع وأوضح ، وقد ورد ذكره في الكتب البيزنطية ،

(١) ياقوت ٢ : ٧٤٦

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١ ص ٣٧٥ .

فيقول ثيوفانس بأن رومانوس حاكم فلسطين في عهد الامبراطور انستاسيوس كسر سنة ٤٩٧م قائدين عربيين ، فطرد الحارث بن جبلة وأسر الحارث ، وبعد أربع سنين قام أخوه معد بكرب بهجوم انتقامي على فلسطين ، الأسر حمل انستاسيوس على أن يعقد صلحاً مع الحارث بن عمرو لتأمين المدن السورية . ولعل هذا الحلف موجه ضد الساسانيين والمناذرة ، ويشير ملالاس الى تاريخ وفاة الحارث .

وقد حكم الحارث مدة طويلة من الزمن تزيد على الاربعين عاماً ، وتوسط بين بكر وتغلب وعقد بينهما صلحاً انتهت به حرب البسوس التي دامت بينهما أربعين سنة انهكتهما جميعاً ، وقد بسط سيادته على قبيلة بكر بعد ذلك .

استغل الحارث فرصة ضعف ملوك المناذرة وسوء علاقتهم مع الساسانيين في زمن قباذ . فاستطاع أن يصبح ملكاً على الحيرة مدة من الزمن بتأييد من قباذ . ويبدو أن قباذ كان يريد أن يستغل نفوذ الحارث لاختضاع القبائل العربية ، وخاصة بكر وتغلب التي أخذت تنزح الى أطراف العراق ، على ان الحارث لم يتخذ الحيرة مركزاً له بل كان يتجول أطرافها ولعل ذلك راجع الى كره أهل الحيرة له ، والواقع انهم لم يذكروا اسمه في قائمة ملوكهم . ويقال أن قباذ حاول اقناعه باعتناق المزدكية ولكنه لم يفلح ، فعزله .

ثم حاول على أثر ذلك أن يتفق مع البيزنطيين ، كما تدل على ذلك الاقوال التي وصفه بها ثيوفانس وملالاس عند موته ، ولكن ليست لدينا معلومات واضحة عنه وعن علاقته بالحارث بن جبلة الذي عينه جستنيان ملكاً على العرب في دولة البيزنطيين . ويشير امرؤ القيس الى مطاردة أنو شروان له .

وبكى لي الملوك الذاھينا
يساقون العشية يقتلون
ولكن في ديار بني مرينا

الا يا عين بكى لي شنيئا
ملوكاً من بني حجر بن عمرو
فلو في يوم معركة اصبوا

وقد ارتبط الحارث مع عدة قبائل برابطة الزواج فتزوج أم قطام بنت سلمة بن الحارث بن معاوية فولدت له حجراً ، واختها أسماء فولدت له شرحبيل ومعد يكرب ، وجاريتهما فولدت له سلمة ، كما تزوج بنت عوف بن محلم فولدت له عمرو .

ولى الحارث ابان حكمه أولاده على القبائل التي يحكمها بعد أن احتفظ لنفسه بحكم كندة . وتتفق أغلبية الروايات على انه :
عين حجراً على أسد وكنانة وغطفان ، وهم يقطنون عند وادي الرمة بين جبل شمر وخيبر .

وعين شرحبيل على بكر وحنظلة والرباط وتميم ، وهم يقيمون في شرقي نجد بين الفرات والبحرين .

وعين سلمة على تغلب والنمر بن قاسط ومساكنهم بادية الشام .
ومعد يكرب على قيس عيلان وهم يقطنون في تهامة وأطراف الحجاز .

ومن هذا يتجلى مدى سعة سلطان الحارث وامتداد حكمه الى نجد وأطراف الحجاز والبحرين واليمامة .

لقد كانت مناطق حجر ومعد يكرب عند حدود الدولة البيزنطية ، لذا كانت لهما علاقة بها ، وقد ذكر ثيوفانس بأنهما قاما بحملة ضد فلسطين .
لقد كان حجر أكبر اخوته ، وكانت له بعض الاقدمية عليهم كما تدل على ذلك رواية ابن الكلبي التي يقول فيها بأن حجراً تقدم بجيش من كنانة وربيعه لاختضاع قبيلة أسد التي ثارت عليه .

وتختلف الروايات في كيفية مقتله ، فيروى ابن الكلبي والشياني وابن السكيت ان حجراً أرسل جباناً لأخذ الاتاة من أسد ، فرفضت هذه القبيلة ، فتقدم اليهم حجر بجيش من ربيعة وقيس وكنانة ، وأسر رؤسائهم وقتل كثيراً منهم بالعصا ، فسموا عبيد العصا ثم نهب أملاكهم وأمرهم بترك تهامة ، ولكن عبيد بن الابرص ألقى بين يديه قصيدة استعطفه فيها ، فعفا

عنهم • ثم أن كاهناً لأسد تنبأ بموت حجر فقويت مغنوياتهم وركبوا خيولهم وأعادوا عليه الكرة فقتلوه ، ودعوا كنانة وقيسا لمناصرة اخوانهم بدل أن يناصروا أجنبياً فثارت هاتان القيلتان ونهبت متاع حجر • ويقول أبو عمرو الشيباني بأن حجراً شعر بخطر أسد فأرسل ثقله الى بعض التميميين ووعد قبيلة أسد أن يتركها اذا سمحت له بمغادرة البلاد فرضوا بذلك ولكن بعض الاسديين قتلوه في طريق عودته • ويروي ابن السكيت ان حجراً زار أباه عند موته ، ثم عاد الى بني أسد فظلمهم ، فلما سمع بنو أسد بموت الحارث أبي حجر ثاروا ضد حجر وأسروه ثم قتله علباء • ويروي ابن الهيثم أن حجراً جهز جيشاً ليحارب أسدا ولكن علباء عاجله فقتله • ويروي اليعقوبي ان علباء هذا هو قائد الاسديين •

أما ابن قتيبة فيقول بأن حجراً ظلم أسد فدمرت منه ، وشعر بالخطر فطلب من قبيلة حنظلة المساعدة ولكن هذه اتخذت موقف الحياد ، مما أضعف مركز حجر فانكسر في المعركة ولكنه قتل أثناء هروبه • وقد أشار امرؤ القيس الى قتل علباء لحجر بقوله :

وقصده علباء بن قيس بن كاهل منية حجر في جوار ابن جدان

أما شرحبيل وسلمة فقد حكما ربيعة وتميم اللتين كانتا تقطنان شرقي نجد • وقد دب الخلاف بين الاخوين بعد موت أبيهما ، وربما كان للمنذر بن ماء السماء أثر في توسيع شقة الخلاف بينهما ، اذ يروي انه دس لكل من الاخوين من يفهمه أن الآخر يريد الاتفاق مع المنذر مما أثار ضغيتهما وقد أدى هذا الخلاف الى اشتباكهما في القتال •

أما معد يكرّب فيقال أنه جن •

وقد حاول امرؤ القيس ، وهو أصغر أولاد حجر ، أن يثأر لمقتل أبيه ويسترجع الملك ويعيد بثبات الكنديين ومن الغريب أن المؤرخين لا يذكرون أي أحد من اخوته حاول الثأر لمقتل حجر • وامرؤ القيس لقب به • أما اسمه الاصلى فمختلف فيه ، فهو يروي خندج أو عدي أو

ملیكة أو سليمان ، وأمه مختلف في اسمها فمنهم من يقول انها فاطمة أخت
كلب والمهلل التغلین ومنهم من يقول ان اسمها علباء . وقد ولد في
بنی أسد كما تدل على ذلك كثرة ورود أسماء بلادهم في شعره . وقد
غضب علیه أبوه لسبب يختلف الرواة في إیراده فابن الكلبي يروي ان أباه
غضب علیه لأنه أحب الشعر وابن قتيبة يروي ان سبب ذلك ما ذكره امرؤ
القيس بما حدث في يوم دارة جلجل . ولعل سبب غضبه علیه تكلمه في
زوجات أبيه ، فانضم الى صمالك العرب من طي وبكر وكلب . ويروي
ابن سلام بأنه التجأ بعد طرده الى عمه شرحبيل في بني دارم وظل هناك
الى أن قتل شرحبيل ، أما ابن الهيثم فيدعی بأن امرئ القيس كان مع أبيه
عند هجوم بني أسد علیه وانه فر على حصانه ، ويروي ابن الكلبي بأنه
ذهب الى دمون في اليمامة بينما يذكر الهمداني انها في حضرموت حيث كان
الكتلة ثار فيها . وقد ذكر امرؤ القيس دمون في شعره مرتين .

كأنني لم ألهو بدمون مرة ولم أشهد الغارات يوماً بضدل
تطاول علينا الليل دمون دمون انا معشر يمانون وانا لاهلنا محبوبون
ويضيف ابن الكلبي الى انه عند مقتل أبيه أرسل اليه رسول يبلغه
الخبر وقد أشار الى ذلك بشعره :

أنا نبي وأصحابي على رأس صيلع
فقلت لعجلي بعينه ما به
فقال أبيت اللعن عمرو وكاهل
حديث أطال النوم غني فأنعما
ابن أبي وبيّن لي الحديث المجمعما
أباح حمى حجر فأصبح مسلما

وصيلع على قول ياقوت تقع في جنوب جزيرة العرب .
أما الهيثم بن عدي فيقول بأن امرئ القيس كان في حنظلة عند قتل
أبيه ويلاحظ أن بقية أولاد حجر لم يحاولوا الثأر لأبيهم ولم ينضموا الى
امرئ القيس في محاولته .
حاول امرؤ القيس أن يجلب تغلبا وبكرا الى جانبه وقد أشار الى
الصعب بن عكابة في شعره :

يحملتنا والأسد النواهلا وحي صعب والوشيح الذابلا
ويقول ابن قتيبة انه استجد بذئ جدان الحميري ولكن يلاحظ ان
امريء القيس لا يشير في شعره الى أي حميري •

ومهما يكن فقد عرفت قبيلة أسد باستعدادات امريء القيس ، وحاولت
تفادي الحرب ، فأرسلت كبار رجالها يسترضونه ولكنه امتنع عن مقابلتهم
ثلاثة أيام فلما سألوا عن السبب أخبروهم بأنه يستعد للحرب • ويقول ابن
الكلبي بأن بني أسد لما قطعت أملها من استرضائه هاجرت من دارها فلم
يلقها امرؤ القيس وهاجم كنانة للثأر من أبيه وقد اشار الى ذلك بشعره :

ألا يا لهف هند أثر قوم هم كانوا الشفاء فلم يحياوا
وقاهم جدهم بني أبيهم وبالاثنين ما كان العقاب
وأفلتهن علباء جريضا ولو أدركه صنر الوطاب

وقد لحق امرؤ القيس بأسد وقتل بعضهم ، ولكن بكرا وتغلبا أبنا أن
تستمر بمطاردتهم لانهما رأيا انه قد أخذ بثأره • وقد ذهب امرؤ القيس
الى أزد شنوءة يطلب معونتها فرفضت معاونته ضد حليفها أسد فذهب الى
مرثد ذو جدن أحد أقبال اليمن • ولكن مرثدا مات وخلفه قرمل الذي
تلكأ في ذلك وحاول أن يصدّه فقال :

واذ نحن ندعو مرثد الخير ربنا واذا نحن لا ندعى عبيداً لقرمل

وقد اضطر قرمل بعد هذا أن ينجده بقوة سار بها للانتقام من أسد •
وقد مر بوادي بيشة فوقف يستخير ذا الخلصة • فلما كانت الاستخارة ضد
ما يريد ضرب الصنم وقال :

لو كنت ياذا الخلص الموتورا مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تته عن قتل العداة زورا

ولكنه لم يستطع أن ينتقم من أسد لان المنذر بن ماء السماء كان قد

بسط نفوذه على الجزيرة فاحتمت به أسد ، وخشى من معه من الجيش
بطش المذر وتفرقوا الا عدداً قليلاً من المخلصين ، فأخذ يتنقل في القبائل
يطلب معونتهم وعونهم دون جدوى ، فذهب الى أياد وطى وجديلة ونبهان
والى السموأل الذي أشار عليه بالذهاب الى امبراطور البيزنطيين . وقد
أشار في شعره الى استجاده بالعشائر ، وخاصة المعلى الجدلي :

كأنني اذ نزلت على المعلى	نزلت على البواذخ من شمام
فما ملك العراق على المعلى	بمقتدر ولا الملك الشامي
أصد نشاط ذي القرنين حتى	نولى عارض الملك النهمام
أقر حمى امري القيس بن حجر	بنو تيم مصابيح الظلام

وقد سار الى القسطنطينية مارا ببلبك وحمص وحماء وشيزر كما
ذكر ذلك في شعره :

لقد انكرتني ببلبك وأهلها	ولا بن جريح كان في حمص أنكرا
تقطع أسباب اللبانة والهوى	عشية جاوزنا حماة وشيزرا

لا يذكر امرؤ القيس فيما حفظ من شعره شيئاً من مقابلته للقيصر
ولكن الكتب العربية تروي بأن قيصر تلكاً في مساعدته ، وكان في
القسطنطينية بعض أنصار بني أسد أثاروا عليه القيصر ، فأعطاه حلة مسمومة
تسم جسمه منها بعدما لبسها . ولا ريب ان على حديثهم هذا مسحة
اسطورية وهو يدل على ان القيصر لم ينجده فمات هناك . ولعل القيصر
لم يرد أن يفاخر بارسال جيش مع عربي ليس له من يسنده ليحارب
لمصلحة هذا العربي فقط ، لا لمصلحة الروم أنفسهم . هذا الى ان الضئالة
كانوا لما يزالوا محالفين للروم يقومون لهم ببسط النفوذ على القبائل
ويعينهم في حربهم ضد المناذرة والساسانيين .

لا تدل الاخبار على انه كان لكندة مستوى راق من الحضارة المادية ،
أو انهم ادخلوا الى الجزيرة دينا أو ثقافة جديدة . كما ان نظمهم البدوية

لم تكن تختلف كثيراً عن نظم القبائل الأخرى • غير أنهم انتجوا أعظم شاعر عربي جاهلي هو امرؤ القيس الذي أدخل في الشعر العربي فنوناً وأبواناً جديدة • ولا ريب أن ظهوره في كندة يدل على أن الحركة الأدبية ونظم الشعر كان راقياً فيها ومن المحتمل أنهم كانوا موثلاً الشعراء وملجأهم • فلما انقضت دولتهم توجه الشعراء صوب المناذرة يقصدونهم • والواقع أن كل الشعراء الجاهليين البارزين نشأوا في مناطق كانت كندة تبسط نفوذها عليها • هذا إلى أن هؤلاء الشعراء لم يقصدوا المناذرة إلا بعد سقوط دولة كندة •

لم يحاول الكنديون في تنظيمهم السياسي أن يفسروا النظم السياسية القبلية ، فتركوا كل قبيلة تحتفظ بتنظيماتها وتقاليدها بل ورؤسائها مكفين بالاعتراف برئاستهم العليا ، وبذلك كونوا نوعاً من الاتحاد Confederation كانت كندة رأسه ومنظمته وموجهته ، فنظامها الذي اتبعته أقرب إلى مجلس هيئة الأمم ، أدى إلى نشر الأمن والسلم والحد من الخصومات والحروب الطاحنة في الجزيرة • فلما انقضت دولة كندة حلت دولة المناذرة محلها مدة قصيرة ثم سقطت فتفككت القبائل البدوية واستقل كل منها في شؤونها الداخلية وأخذت تتبع مصالحها الخاصة ، وكثيراً ما كانت تحارب القبائل الأخرى • مما أدى إلى اضطراب الأمن والنظام وأرهاب كثير من القبائل وتركها بحالة إعياء الأمر الذي ساعد الإسلام في محاولته لضم الجزيرة العربية إليه •

الفصل الثامن

مكة

اهميتها :

لمكة أهمية كبيرة في التاريخ العربي والاسلام ، فقد ولد فيها النبي وعاش وبلغ رسالته لمدة عشر سنوات ، وكان لأوضاعها الدينية والاجتماعية الاثر الأكبر في تكوين آرائه ومعتقداته . فقد أقر الاسلام بعضها ، وعدل بعضاً ، وهاجم الكثير مما كان سائداً فيها من معتقدات وأوضاع . فمعرفة أحوالها إذاً ضرورية لفهم الاساس الذي قام عليه الاسلام الاول . وقد كانت في مكة عند ظهور الاسلام ادارة خاصة لا تعتمد على السلطة التنفيذية بل على الاقناع ، كما كانت مركزاً تجارياً نشطاً وسع أفق نظر أهلها وأعانهم على الاطلاع على البلاد المجاورة وأحوالها ، هذا الى انها كانت من أكبر المراكز الدينية في الجزيرة ، يؤمها عدد كبير من مختلف انحاء الجزيرة من القبائل المختلفة ، وقد ساعد هذا على اكساب أهلها سعة نظر ومرونة في معاملتهم الناس . فكانت مكة مدرسة دربت اداريين استطاعوا بعد الفتح الاسلامي أن يديروا الامبراطورية الجديدة بنجاح وتوفيق .

مناخها :

وتقع مكة في منطقة جافة مناخها قاري حار جداً في الصيف . كان القرشيون يعذبون بعض المسلمين الاول بايقافهم في رمضان الصيف ياباً لهم . غير ان جفاف المناخ أدى الى جعلها صحية فكانت خالية من الأريثة ، وخاصة الملاريا التي كان يصابي منها سكان المناطق ذات المياه الرقيقة كخيبر ويثرب .

وأماطارها قليلة ، وقد تمر سنوات بدون أن يسقط أي مطر لذلك كانت مياهها شحيحة ، وأعتمد سكانها على مياه الآبار للشرب ، ولكن معظم هذه الآبار ذات مياه مالحة ، ومنها بئر زمزم . وقد ألفت قلة المياه على المسؤولين عن ادارة مكة عبء ايجاد المياه لها ، فحفروا فيها كثيراً من الآبار^(١) ، وعينوا رجلاً أودعوا له مهمة تدبير سقاية الحجيج ، وكثيراً ما كانوا يضطرون الى مزج الماء بالزيب كيما يجعلوه صالحاً للشرب^(٢) .

غير انه اذا سقطت الامطار ، وخاصة في الشتاء وأوائل الربيع ، فانها تكون غزيرة وتسيل المياه من الجبال الى الوديان والشعاب ، مكونة سيولا قوية جارفة تهدد الابنية في بطون الوديان ، وكثيراً ما كانت تجرف الكعبة ، وقد حاول البعض اقامة بعض السدود لايفاف السيول كي تقي محلاتهم ، فمن ذلك ردم بني جمح ودم آل عبدالله ، ثم أقام عمر بن الخطاب سداً كبيراً استعان في بنائه بمهندسين وبنائين من الفرس^(٣) .

لا تكفي هذه المياه للزراعة ، لذلك كانت مكة «في واد غير ذي زرع» الا انه قد تنبت بعض الاعشاب مدة قصيرة من السنة فتكفي لرعي المواشي ، وقد تنبت بعض الشجيرات الصحراوية في الجبال المحيطة بها . ويروى ان قصياً عندما أراد بناء الكعبة اقتطع شجيرات كانت قائمة هناك^(٤) . غير ان هذه لم تكن تكفي لسد حاجة السكان في المواد الغذائية . لذلك كانوا يضطرون الى استيراد الاغذية من البلاد الاخرى وخاصة من الطائف واليمامة ، مما حمل المواد الغذائية تتوفر فيها ، وقد أشار انقرآن الى ذلك « رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات » (البقرة ١٢٦) .

(١) الازرقى : اخبار مكة ج ١ ص ٦٤ - ٦٥ ج ٢ ص ١٧٢ - ١٨٣ خاصة .

(٢) كذلك ج ١ ص ٦٥ .

(٣) راجع عن السدود : الازرقى ج ٢ ص ١٤٢ - ٤ اما عن الردم

فراجع ما ذكره في ص ١٦٥ - ٦ .

(٤) ابن اسحق : في الطبري ج ٢ ص ١٨٤ سيرة ابن هشام ج ١

ص ١٢٧ .

التجارة :

وقد أدت هذه الاحوال الجغرافية الى اتجاه سكانها نحو التجارة ، وساعدها على ذلك كونها واقعة على الطريق التجاري البري بين اليمن والهلال الخصيب ، وهو يفضل طريق البحر الاحمر المعرضة سفنه لخطر الجزر المرجانية الكثيرة . وقد اصبحت منطقتها حرماً مقدساً منع فيه قتل الحيوان أو قطع الشجر ، وكانت مساحته عند ظهور الاسلام تبلغ حوالي ١٢٥ ميلاً مربعاً^(١) . وكانت تتخذ محطة للقوافل منذ قديم الزمن ، ولا أدل على قدسية هذا المكان من تسميته في كتب اليونان باسم مكارابو التي تعني بلغة الحميريين المقدس .

ويبدو ان أهميتها التجارية قد جلبت أنظار الدول المجاورة ، وخاصة البيزنطيين اليها ، فاستولى عليها أليوس كالوس في طريقه الى اليمن^(٢) ، كما ان قصيا عندما قام بانتزاع ملك مكة من خزاعة ، استعان بقضاة^(٣) التي نشأ فيها والتي كانت ضمن نطاق حكم البيزنطيين ، وقد حاول أبرهة الاستيلاء عليها بتحريض من البيزنطيين كما ان عثمان بن الحويرث الاسدي اعتمد على مساندة البيزنطيين عندما حاول ان يضع مكة تحت نفوذهم^(٤) . ويروي الطبري في تفسير آية « ألم غلبت الروم وهم من بعد غلبهم سيفلون » ، بأن قريشاً كانت تميل الى الفرس^(٥) ولعل ذلك راجع الى ارتباطهم في نوايا الروم .

وقد أخذت أهمية مكة بالازدياد منذ القرن الخامس عندما سقطت الدولة الحميرية بيد الاحباش ونشبت بين الفرس والبيزنطيين حروب دامية

(١) انظر في حدود الحرم : الازرقعي ج ٢ ص ١٠٤ .

(٢) انظر ص ١٧ .

(٣) الازرقعي : ج ١ ص ٥٧ - ٥٨ طبري ج ٢ ص ١٨٣ . ويقول ابن

قتيبة ان قيصراً (ملك البيزنطيين) هو الذي أعانه ، (المعارف ص ٢٧٩) .

(٤) مصعب الزبيري : نسب قريش ص ٢١٠ . شفاء الغرام للفاسي

ص ١٤٣ - ٤ .

(٥) الطبري : تفسير القرآن ج ٢١ ص ٣ - ٤ .

مما عرقل التجارة العالمية المارة بالعراق ، وحمل البيزنطيين على الاهتمام بطريق البحر الاحمر الذي لم يكن تحت النفوذ الساساني . ومع ان أنوشروان ارسل حملة احتلت اليمن ، الا أنه لم ينجح في ايقاف التجارة ، لان اليمن كانت بعيدة عن بلاد الفرس فلم يكن بمقدور الملك الساساني أن يوطد نفوذه فيها ويقضي على تجارة البيزنطيين . لذلك ظلت التجارة نشطة بين اليمن وسوريا تمر في مكة .

على ان المكين لم يكتفوا بأن تكون مدينتهم ممراً للقوافل فقط ، بل ساهموا بأنفسهم في النشاط التجاري ، ولا أدل على ذلك من كثرة التعابير المالية والتجارية التي استعملها القرآن كالحساب والميزان والقسطاس والذرة والمثقال والقرض^(١) ، وقد ساعدها ذلك كونها مركزاً دينياً يحج اليه سنوياً عدد كبير من العرب ، وبذلك يتيحون للمكين سوقاً تجارية للمبادلة والاستهلاك . كما انهم مدوا تجارتهم الى الاقطار الاخرى في سوريا واليمن والحبشة والعراق .

العراق :

فأما مع العراق فقد كانت تجارتهم بصورة خاصة مع الحيرة ، والواقع ان المناذرة استطاعوا أن يمدوا نفوذهم التجاري الى أواسط وجنوب وغربي الجزيرة العربية ، وكانوا يرسلون قوافل تجارية الى الاسواق الرئيسية ومنها عكاظ ، وكانت تسمى اللطائم وهي تحمل المسك والمنسوجات ، وربما بعض المتوجات التي يستعملها العرب . وكانوا يأخذون لها الادلاء والخفراء ويؤمنوها من هجمات القبائل الساكنة على طول الطريق التجاري^(٢) . وبجانب هذا فقد كان التجار المكين أنفسهم

(١) لقد جمع توري وحلل « التعابير التجارية في القرآن » بكتاب موسوم بهذا الاسم (بالانكليزية) .

(٢) راجع مصعب الزبيري ص ١٣٦ الاغانى ج ١٩ ص ٧٥ ج ٢٠ ص ١٣٤ ابن سعد ج ٢ ص ٦ وقد بحث لامنس في كتابه « مكة في ايام الهجرة » (بالفرنسية) وفي مقالته عن مكة في دائرة المعارف الاسلام احوال مكة ونشاطها التجاري بالتفصيل .

يذهبون الى الحيرة ليتاجروا معها حتى بعد انقراض دولة المناذرة ، ولدينا أسماء بعض من ذهب كأبي سفيان وابن جدعان وغيلان بن سلمة والمغيرة بن شعبة ومسافر بن ابي عمرو والحارث بن كلدة الذي يقال إنه درس الطب هناك •

الشام :

فأما مع الشام فقد كانت علاقتهم وثقى حيث كانوا يصدرون لها بضائع الهند واليمن ويستوردون منها الزيت والحبوب والخمر وربما الأسلحة والجواري والمنسوجات • والواقع انه كان في مكة عند ظهور الاسلام عدد من الاغريق العبيد والمحربين منهم صهيب وسان وزيد بن حارثة ربيب النبي • وكانت القوافل التجارية تذهب سنوياً في الصيف ، وكل قافلة تضم اعداداً ضخمة من الرجال ، وكانت تجارتهم تذهب الى غزة حيث دفن هاشم جد النبي ، والى أيلة وبصري ، فكانت الاولى ميناء فلسطين وربما كانت الثانية مركزاً تنقل منه البضائع الى مصر ولا يخفي انه كان للعرب تجارة مع مصر وكان المكيون يذهبون اليها كما نعلم ذلك من حياة عمرو بن العاص •

الجبشة :

ولم تؤثر غزوة أبرهة على تجارة مكة مع الجبشة كثيراً ، بل سرعان ما عادت الى الانتظام الذي كانت عليه في السابق ، فكانت أرض الجبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ورفاغاً من الرزق وأمنأ ومتجراً حسناً^(١) وكانوا يصدرون لها الادم^(٢) وقد اختارها المسلمون الاول ملجأ لهم من اضطهادات قريش ، كما ذهب وفد من أهل مكة الى النجاشي يطلب ردهم •

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣١٨ •

(٢) طبري ج ٢ ص ٢٣١ •

وقد ذهب إليها عمرو بن العاص كذلك^(١) . وكانت هذه التجارة تجري بطريق البحر ، فكانت الجار ميناء المدينة^(٢) والشعبية ميناء مكة^(٣) . وقد تردد ذكر السفن والجواري المنشآت في البحر في القران ، كما تردد فيه ذكر تجارة البحر وما إليها . والراجع ان المكين لم يكونوا ملاحين أو ملاكين للسفن ، ويبدو أنهم كانوا يجهلون الملاحة ويتهيئون ركوب البحر ، فأغلب السفن في البحر الأحمر لابد وان كانت مصرية أو حبشية أو عدولية^(٤) (ميناء الصومال) وقد بنى القرشيون الكعبة بأخشاب سفينة حبشية تحطمت على ساحلهم^(٥) ، وجاء عدد غير قليل من أهل اليمن الى الحجاز بالبحر .

اليمن :

أما تجارة اليمن فكانت تجري في الشتاء وكانت أغلبها من العطور والجلود والاقمشة والسيوف .

التجارة :

لقد اشتهر المكيون بالتجارة فمن لم يكن تاجرا لم يكن عندهم بشي^(٦) ، وقد قيل ان تسعة أعشار الرزق في التجارة . وكانت تجارتهم متنوعة . وقد عدد بعض المؤرخين التجارات التي كان يمتنها أشرف مكة

(١) طبري ج ٢ ص ٢٢٥ ج ٣ ص ١٠١ أغاني ج ٨ ص ٥٢ . سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣١٨ .

(٢) ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٥ ، البكري : معجم ما استعجم ص ٣٢٥ . ابن حوقل : المسالك والممالك ج ١ ص ٣١ .

(٣) انظر عن الملاحة البحرية عند ظهور الاسلام كتابي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ٢٢٤ فما بعد .

(٤) طبري ج ٢ ص ٢٠٠ الازرق ج ١ ص ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٤ .

(٦) أغاني ج ١١ ص ٦٧ .

فهي متنوعة فمنهم تاجر الارز والحبوب والخياطة والحياسة والخمر والزيت والاسلحة والسيوف والنبال^(١) . ولم تكن التجارة مقصورة على الرجال بل شاركت فيها النساء ، ولعل أبرز مثل على ذلك خديجة زوجة النبي وهند بنت عبدالمطلب . وقد نقل المهاجرون مهارتهم في التجارة معهم الى المدينة فجعلوها مركزاً تجارياً ينافس مكة بمد أن كانت بلداً زراعياً . وقد ضرب المثل بمهارة بعضهم في التجارة فقبل عن عبدالرحمن بن عوف انه كان يحصل الذهب من الحجارة^(٢) . ورغم انهم جاءوا المدينة ولا مال لهم فقد استطاعوا بمدة وجيزة أن يحصلوا على ثروات طائلة ، فاستطاع عثمان ان يجهز في حملة تبوك الف بعير^(٣) ، وجهز عبدالرحمن بن عوف عدداً من الجمال كذلك .

وكان بعض هؤلاء التجار يقوم بالتجارة لنفسه مستقلاً ، ولكن الغالب ان التجارة الخارجية كان يساهم فيها عدد كبير ، فالقافلة التي هاجمها المسلمون في ذي قرد بلغ خمسمائة عشرين الفا^(٤) ، اي ان تجاراتها كانت حوالي مائة الف ، كما ان القافلة التي هاجمها المسلمون في بواط كانت مكونة من الفين وخمسمائة بعير^(٥) ، ويقال ان القافلة التي أرادوا مهاجمتها في بدر لم يكن من قريش بيت الا وله فيها شيء^(٦) . وكان أصحاب التجارة يسرون مع القافلة أو يرسلون شريكاً لهم أو أجيلاً ، أو عدداً ، على أن القوافل كانت تنظم بصورة اجماعية ، فيعين لها رئيس وحراس وأدلاء وأناس يعملون فيها ، هذا الى عدد من التجار الذين يرافقونها ، ويمهد لسيورها عادة باتفاقات دبلوماسية مع رؤساء القبائل التي تمر فيها

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٤٩ .

(٢) ابن حنبل : المسند ج ٣ ص ٢٧١ ج ٦ ص ١١٧ .

(٣) أغاني : ج ١٣ ص ١ - ٥ .

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ قسم ٢ ص ٢٥ . المسعودي :

التنبيه والاشراف ص ٢١٠ .

(٥) ابن سعد : ج ١ قسم ٣ ص ٢ . المسعودي : ص ٢٠٢ .

(٦) ابن سعد : ج ١ قسم ٢ ص ٢ .

لكي لا تنهب أو يعتدي عليها • وكذلك تجري اتصالات مع الدول التي تقصدها ، وتدعى هذه الاتفاقات بالايلاف ، وقد ذكرها القرآن في سورة خاصة ، ويروى ان أول من أخذ الايلاف هاشم^(١) •

وكان بعض التجار يتخذون لهم شركاء بشروط مختلفة^(٢) لا نعلم عن تفاصيلها شيئاً سوى شركة القراض التي يعطى فيها الغني مالا لرجل يستعمله في التجارة على أن يقسما الربح بنسبة يتفقان عليها • ومن المحتمل أن بعضهم انشأ له فروعاً تجارية في البلاد التي كان يتاجر معها ، هذا الى أن بعض أهل البلاد الأخرى انشأوا لهم في مكة فروعاً تجارية مستقلة أو بالاشتراك مع المكيين • والراجح ان أغلب الحلفاء في مكة كانوا من هؤلاء الوكلاء التجاريين ، ولدينا أسماء عدد منهم •

الصيرفة :

لم يقتصر نشاط أهل مكة على التجارة فقط بل قاموا بأعمال الصيرفة كذلك • وقد استفادوا من موقعهم المتوسط بين الامبراطورية الساسانية التي تستعمل الفضة ، والبيزنطيين الذين كانت عملتهم ذهبية ، فأخذوا يقومون بأعمال الصيرفة • وكان لاستقلال مكة أثر في اعطائها حرية واسعة في مبادلة العملة بدون قيد ، اذ لم يكن يفرض على العملة سعر رسمي ، بل كانت تقدر قيمتها بحسب وزنها باعتبارها معدناً • وهكذا كانت النقود ، وخاصة الكميات الكبيرة منها تقدر بالوزن كالقنطار والواقية والنش والمثقال ، وأغلب ما ورد في القرآن عن الثروات ، كان يقدر بالوزن لا بالعدد كالقناطير والمناقل • وكانت النقود التي ترد مكة فضية

(١) طبري : ج ٢ ص ١٨١ ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٧ •

المحبر : ص ١٦ - ١٧ •

(٢) ابن ساعد : ج ٤ ص ٣٢ ، ٥١ ابن حنبل : ج ٤ ص ٦ • طبري :

ج ٣ ص ٩٦ •

من الساسانيين واليمن ، أو ذهبية من الدولة البيزنطية^(١) . ولا ريب أنه كان للدينار البيزنطي أهمية كبرى لدقة عياره وسكه وأهميته في التجارة الخارجية ، وخاصة مع الهند حيث كان يستخدم الذهب فقط في التبادل . ولم تكن مهمة الصراف هينة . إذ كان عليه أن يكون ذا معرفة بالمعادن ليميز جيدها من رديثها ، كما كان عليه أن يعرف وزنها ، وأن يعرف الاسعار العالمية لكي يقدر سعر التبادل ، وهذا أمر ليس بالسهل .

الربا :

لقد كان المشرون يقومون بأعمال التجارة والصيرفة بمفردهم أو يكونون شركات ولم تكن أعمالهم مقصورة على نوع واحد من التجارة . بل خيشما وجدوا الربح . وفي كثير من الأحيان يقومون بالاقتراض ولم يكن لهم على اقتراضهم ضمان الا الثقة . إذ لم تكن هناك سلطة تجبر المدين على دفع دينه وهذا قد يحمل المدين على العصيان وعدم الدفع . لذلك قلما كانوا يقرضون البدو لصعوبة استرجاع دينهم منهم . هذا الى أنهم كانوا يقرضون فوائد عالية على ديونهم ، وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » (آل عمران ١٣١) كما حرمه ووصفه « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فاتتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (البقرة ٢٧٥) « وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله » (الروم ٣٩) .

لقد كان على الدائن أن يسترجع دينه بنفسه ، وهذا لا يتم الا بعد الحاح شديد . وقد حفظ الادب العربي كثيراً من الاقوال والاشعار التي تصور الحاح الدائن وتهرب المدين .

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٥١ فما بعد .

يؤمنك منها طارق كل ليلة حيث كما وافى الغريم المداين^(١)
 وكل غريم حظه جحد ماله اذا شح يوما أو أساء التقاضيا^(٢)
 من أفلس الناس من دين ومن حسب وأظلم الناس طراً للمساكين^(٣)
 وقد حملت هذه المعاملة البعض على وصم التجار بأشنع الاوصاف
 فقالوا ان التجار هم الفجار •

الطوبوغرافيا :

قع مكة في وادي طويل تحيطه الجبال من معظم الجهات وتخفيه ،
 حتى ان أبنتها لا ترى للقادم الا اذا اقترب منها وأطل على الوادي ، وقد
 سهلت هذه الجبال على أهلها مهمة الدفاع عنها^(٤) • غير ان في هذه الجبال
 ودياناً وشعاباً تجري فيها السيول بعد الامطار ، وكثيرا ما تهدد أبنية مكة ،
 وقد اغرقت السكبة وهدمتها عدة مرات • كما ان هذه الشعاب كانت ملجأ
 لمن يكره أهل مكة أو يكرهونه ؛ وقد اتخذ المسلمون من بعض هذه الشعاب
 لهم مركزا يقيمون فيه طقوسهم الدينية وعباداتهم بمأمن من أعين النظار^(٥) ،
 كما لجأوا اليها عندما قاطعهم القرشيون •

السكان :

ويرجع تاريخ مكة الى عهود قديمة ، فقد ذكرها بطليموس باسم
 مكرايو^(٦) ، أي المقدسة مما يدل على قدم قدسيته ، ويزعم بعض النساين

(١) البكري : معجم ما استعجم ص ١٢٦٨ •

(٢) أغاني : ج ١ ص ١٣ ، ٣٧ •

(٣) البحتري : الحاسة ص ١٤١٥ •

(٤) الازرقى : ج ١ ص ٣٨ •

(٥) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٢٦٥ ، ٢٧٥ الطبري : ج ٢

ص ٢٣١ (عن ابن اسحق) •

(٦) جغرافية بطليموس الكتاب السابع (نقلا عن دائرة المعارف

الاسلامية مادة مكة) •

العرب ان آدم نزل فيها ، ويذكر القرآن ان ابراهيم نزل فيها ودعا رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات ، (البقرة ١٢٦) •

وقد ورد ذكرها في القرآن باسم مكة (الفتح ٢٤) ، وبكة (آل عمران ٩٦) ، وأم القرى (الانعام ٩٢) (الشورى ٧)^(١) كما سماها البلد ، وقد أشار القرآن الى المناطق التابعة لها وسماها حاضري المسجد الحرام (البقرة ١٩٦) •

ويذكر الطبري في تفسير هذه الآية ان حاضري المسجد الحرام هم عرفة وعرنة ومرو ضجنان والرجيع ونخلتان^(٢) •

وتروي المصادر العربية انه كانت السيادة في مكة في القديم لجرهم ، ثم انتزعها منهم خزاعة ، ثم انتزع قصي السيادة من خزاعة^(٣) ، وبذلك جعل لقريش المكانة الاولى ، ولكنه ترك بعض الوظائف الدينية بيد أصحابها القدماء كما سنتحدث في آخر هذا الفصل •

قریش :

لا نعلم تفاصيل عن مكانة قریش ونشأتها في القديم ؟ فان النسابين العرب يذكرون ان أصلهم يرجع الى ابراهيم الخليل ، حيث تحدروا من ابنه اسماعيل الذي أسكنته أمه في هذا الوادي غير ذي الررع • ويختلف النسابون اختلافا كبيرا في شجرة النسب^(٤) : ويظهر البعض ارتياهم في القيمة التاريخية للاسماء التي تذكر بين عدنان واسماعيل •

ومهما يكن فان القبائل الشمالية كلها تحدرت من نسل اسماعيل ، كما اختلفوا في تعيين أول من سمي باسم قریش ، وفي معنى هذه الكلمة ،

(١) انظر ايضا عن اسماء مكة : ابن الجاور ، المستبصر : ج ١ ص ٢ •

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن : ج ٢ ص ١٤٩ - ١٥٠ •

(٣) الازرقى : ج ١ ص ٥٩ - ٦١ ، ابن سعد : الطبقات ج ١ ص

٤٠ ، ابن هشام : ج ١ ص ١١٧ ، ١٣٠ •

(٤) راجع في اختلاف النسابين الطبري ج ٢ ص ١٩١ - ١٩٤ •

وقد اجمل الطبري ذلك في قوله « وقيل سميت قریش قریشا بقریش بن بدر بن یخلد بن الحارث بن یخلد بن النضر بن کنانة ، وبه سميت قریش قریشا لان عیر بني النضر كانت اذا قدمت قالت العرب قد جاءت عیر قریش ؛ قالوا وكان قریش هذا دلیل بني النضر في أسفارهم وصاحب میرتهم ، وكان له ابن یسمى بدرا •• وقال ابن الكلبي انما قریش جماع نسب ليس بأب ولا أم ولا حاضن ولا حاضنة ، وقال آخرون انما سمي بنو النضر بن کنانة قریشا لان النضر بن کنانة خرج یوما على نادى قومه فقال بعضهم لبعض انظروا النضر كأنه جمل قریش ، وقيل انما سميت قریش قریشا بدابة تكون في البحر تدعى القرش ، فشبّه بنو النضر بن کنانة بها لانها أعظم دواب البحر قوة ، وقيل ان النضر بن کنانة كان یقرش عن حاجة الناس فیسدها بماله ، والقرش فیما زعموا التفتیش ، وكان بنوه یقرشون أهل الموسم عن الحاجة فیسدونها بما یبلغهم •• وقيل ان النضر بن کنانة كان اسمه قریشا ، وقيل بل لم تزل بنو النضر بن کنانة یدعون بني النضر حتی جمعهم قصي بن کلاب فقیل لهم قریش من أجل ان التجمع هو التقرش فقالت العرب تقرش بنو النضر أي قد تجمعوا ، أو قيل انما قيل قریش من أجل انها تقرشت عن الغارات •• وعن محمد بن سعد •• سميت قریش قریشا حين اجتمعت الى الحرم من تفرقها فذلك التجمع التقرش ، قال عبدالمکک ما سمعت هذا ولكن سمعت ان قصياً كان یقال له القرشي ولم یسم قریشي قبله^(١) ••

ويتبين من هذا النص ان قریشاً ليس اسم شخص بل هو اسم سمكة أو طوطم ، أو سفة أطلقت اما على (١) قریش بن بدر بن یخلد ، ویؤكد هذه الرواية مصعب الزبيري^(٢) وابن حزم^(٣) • أو على (٢) النضر ویؤيد

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٨٧ •

(٢) مصعب الزبيري : نسب قریش ص ١٢ •

(٣) ابن حزم : جمهرة النسب ص ١٠ •

ذلك ابن دريد^(١) وابو الفرج الاصبهاني^(٢) والازرقى^(٣) . أو على
(٣) فهر ويؤيد ذلك ابن الكلبي^(٤) ، ومصعب الزبيري وابن قتيبة^(٥)
وأخيرا يدعى البعض انها تطلق على قصي^(٦) .

قصي :

ولا ريب ان أول رئيس بارز هو قصي الذي استطاع أن ينتزع
السيادة والادارة المكية من خزاعة ، بعد أن عاوته كنانة وقضاعة كما
ستحدث عند البحث عن نسب الرسول . وينسب اليه انه أول من قسم
قريش الى بطون ، وميز بين قريش الظواهر والبطاح^(٧) ، وعلى اننا لا نعلم
بالضبط طبيعة وماهية هذا التقسيم ، ولا الاساس الذي استند عليه ، ولا فيما
اذا كان قد اقتبسه من البلاد الاخرى أم أنه كان قائما على تنظيم القبائل
القائمة في عصره ، على انه من المؤكد ان الاسماء التي ترددها كتب النسب
لمن تحدر من النضر أو فهر عددها أقل مما يكفي للاعتماد عليه في القيام
بحركات مؤثرة لانتزاع السيادة من خزاعة ، فان الاسماء التي يذكرونها
هي أجداد العشائر التي كانت في زمن النبي ، ولا بد ان عددا كبيرا من
الاشخاص أغفلت اسمائهم .

لقد كانت قريش عند ظهور الاسلام منقسمة الى قسمين : قريش
البطاح وقريش الظواهر .

البطاح :

فاما قريش البطاح فهي البطون التي كانت تسكن في مكة نفسها ، ويحتكر

(١) ابن دريد : الاشتقاق ص ١٨ .

(٢) الاغانى : ج ١ ص ١٢ .

(٣) الازرقى : ج ١ ص ٦١ .

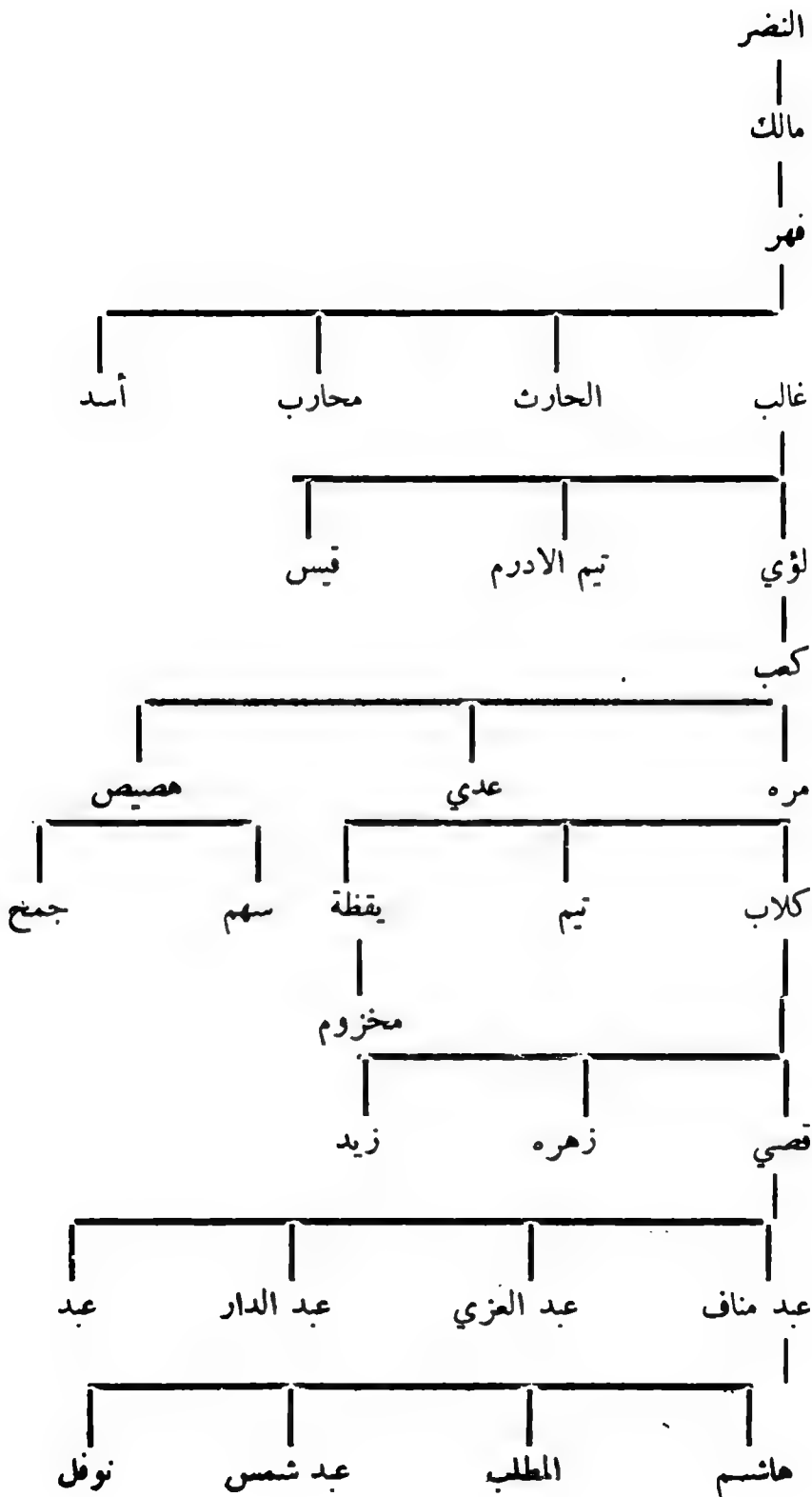
(٤) الطبري : ج ٢ ص ١٨٦ .

(٥) ابن قتيبة : المعارف ص ٣١ .

(٦) الازرقى : ج ١ ص ٦١ .

(٧) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ١ ص ٣٥ . المسعودي : مروج

الذهب ج ٢ ص ٥٨ .



رجالها الادارة والوظائف الكبرى ، ومنهم التجار والرأسماليون والمثرون الذين كانوا يقومون بالحركة التجارية وهم فيما يروي محمد بن حبيب السكري بنو عبد مناف ، وبنو عبدالدار ، وبنو عبد بن قصي ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم ، وبنو جمح أبناء عمرو بن هيصص ، وبنو عدي بن كعب ، وبنو حبل بن عامر بن لؤي ، وبنو هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وبنو هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث بن فهر^(١) . ويحذف المسعودي من هذه القائمة بني هلال بن أهيب ، وهلال بن مالك ، ولكنه يضيف في مكان آخر من كتابه^(٢) بني هاشم بن عبد مناف ، وبني المطلب بن عبد مناف . وبني الحارث بن عبد مناف ، وبني أمية بن عبد شمس ، وبني نوفل بن عبد مناف ، وبني الحارث بن فهر . ومما لاشك فيه ان هذه الاضافة الاخيرة تنطبق على عصر النبي ، وان قائمة البكري لا تنطبق كلها على زمن قصي اذ أن عبد مناف وعبدالدار وعندهم أولاد قصي ، فلا بد أنهم لم يكونوا عشائر في زمنه .

ولا ريب أنه كان هناك تداخل كبير بين هذه العشائر نتيجة التزاوج ، وسنأخذ عن عبدالمطلب وأولاده ، عند بحثنا عنه في حياة الرسول ، مثلاً يوضح مثل هذا التداخل .

كما اننا لا نستطيع أن نقدر عدد أفراد كل عشيرة ، فان كتب النسب لا تذكر لكل عشيرة الا أفراداً قليلين ، وبعضهم لا يتجاوز أصابع اليد ، كبني عبد بن قصي ، الامر الذي يحملنا على الاعتقاد بأن ما ورد في كتب الانساب من أسماء ، هي ناقصة جداً ، ولكن المصادر التي بين أيدينا ليس فيها أي دليل على عدد من حذف أو سبب حذفه .

(١) المحبر : ص ١٧٦ .

(٢) مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٨ ، ١٧٦ .

الظواهر :

أما قريش الظواهر فهي التي كانت تسكن أطراف مكة وهم بنو معيص بن عامر بن لؤي ، و تيم الادرم بن غالب بن فهر ، ومحارب ، والحارث ابنا فهر ؛ ويلاحظ انه ليس لهم صوت في الاحداث التي جرت عند ظهور الاسلام أو بعده ، غير انهم على ما يقول الزبير بن بكار كانوا في الجاهلية يفخرون على أهل الحرم بظهورهم للعدو واصحارهم للناس^(١) أي انهم يساهمون بالدفاع عن مكة .

وبجانب هذا كانت الاحلاف ، وهم قبائل بدوية لم تمثل في النظام القائم بمكة ، ولم تنضم الى قبائلها ، وهم خاصة من كنانة وكانوا يشاركون المسكين في معظم حروبهم ، ويسمون الاحابيش^(٢) .

كما كان يقيم في مكة عدد غير قليل من الاجانب المتمين الى شمل أو أم منوعة ، ولكنهم استوطنوا مكة لاسباب متعددة ، وكثيرا ما يسكنون الشباب ، ولبعضهم حق دخول دار الندوة^(٣) .

التنظيم السياسي والرؤساء :

لقد أدى اجتماع الناس في مكة واستقرارهم في مكان واحد الى تضحية بعض مظاهر التكتل القبلي وإلى ظهور الفردية ، كما يتجلى ذلك في انتشار الاسلام بين مختلف القبائل رغم معارضة المشركين كما ستحدث في الفصل الخاص بالدعوة الاسلامية ؛ وقد أدى الاستقرار والمصالح المشتركة الى تكيف الناس نحو المجتمع الجديد ، وخاصة في أوقات الشدائد والازمات التي تمس الغالبية العظمى ، حيث كانوا يجتمعون ويتناقشون . ومع أنفة الناس من السلطة العليا وعدم رغبتهم للانصياع والخضوع في الاوقات العادية ، إلا أنهم عند الشدائد كانوا لا يعارضون إتباع شخص أو أشخاص

(١) البكري ص ٢٥٧ .

(٢) أنظر ص ١١٦ .

(٣) النهاية : ٤٤ ، ٥٩ أسد : ٣٨١ .

تقدمهم مواهبهم وقابلياتهم الى الصف الاول ليقودوا الناس . وقد أشارت الاخبار الى بعض هؤلاء الرؤساء ، كقصي ، وعبد مناف ، وعبد المطلب ، الذين سنتحدث عنهم بتفصيل أوفى عند البحث عن الرسول . وقد أشارت الاخبار الى هشام بن المغيرة الذي كان سيدا مطعما ، ولما هلك نادي مناد بمكة اشهدوا جنازة ربكم^(١) ، وقيس بن عدي بن سهم الذي كان سيد قريش في زمانه^(٢) وعبد الله بن جدعان التيمي سيد قريش في الجاهلية وفي داره كان حلف الفضول^(٣) وكان عتبة بن ربيعة ، كبير قريش وسيدها المطاع^(٤) ، كما كان أبو سفيان شيخ قريش وكبيرها وسيدها المطاع الذي كان يقود القوافل ويتزعم الحروب ضد الرسول^(٥) . ويقول محمد بن حبيب السكري : فلما هلك حرب بن أمية ، وكان حرب رئيسا بعد عبد المطلب ، تفرقت الرياسة والشرف في بني عبد مناف ، فكان في بني هاشم : الزبير وأبو طالب والحزمة والعباس بنو عبد المطلب ؛ وفي بني أمية : أبو احيحة وهو سعيد بن العاص بن أمية وهو ذو العمامة كان لا يعتم أحد بمكة بلون عمامته اعظاما له . وله يقول الشاعر :

فتاة أبوها ذو العمامة منهم ومروان ما اكفاؤها بكثير

وفي بني المطلب : عبد يزيد بن هاشم بن المطلب ، وعبد يزيد هذا هو المحض لا قذى فيه ، وفي بني نوفل المطعم بن عدي بن نوفل ، وفي بني أسد بن عبد العزى : خويلد بن أسد ، وعثمان بن الحويرث بن أسد^(٦) .

(١) المحبر : ص ١٣٩ ، ٤٢٧ الاشتقاق : ص ٦٣ ، ٩٤ المعارف : ص ٣٢ ولمحمد حميد الله مقالة قيمة عن ادارة مكة نشرها في مجلة الثقافة الاسلامية سنة ١٩٤٣ (بالانكليزية) .

(٢) جمهرة النسب : ص ١٥٦ ، الاشتقاق ص ٥٧ .

(٣) اشتقاق : ص ٨٨ نسب قريش : ص ٢٩١ ، أغاني : ج ٨

ص ٢ - ٣ .

(٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٢ ، الطبري : ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٥) الطبري : ج ٣ ص ٤٤ ، ٧٧ .

(٦) المحبر : ١٦٤ .

ولما لم يكن من السهل عمليا في الاوقات الاعتيادية جمع كافة الناس ومناقشتهم في الامور العامة ، لذا كان لابد من اختيار ذوي القابليات الخاصة ليقوموا بأمر بحث الامور العامة ومناقشتها ، وقد أشار اليهم القرآن باسم الملأ .

دار الندوة :

كان هذا الملأ يجتمع منذ زمن قصي في دار الندوة التي كانت تقع قرب الكعبة من جهة الشمال^(١) ، ولعل الغرض من اقامتها قرب الكعبة هو اسباغ شيء من الحرمة عليها . ولو لم تكن دار الندوة من الابنية العامة ، بل هي ملك خاص لبني عبدالدار ، توارثوها حتى صارت لمكرمة بن عامر ابن هشام الذي باعها لمعاوية بن أبي سفيان بمائة الف دينار^(٢) . وليس في الكتب اشارة الى سلطة مالكي دار الندوة أو الرسوم التي كانوا يتقاضونها .

لقد كانت قريش لا تقضي أمرا الا في دار الندوة ، فهي أشبه بمجلس الشيوخ ، تجري فيها المناقشات والمباحثات في الامور المهمة كالاشتراك في الحروب أو عقد المعاهدات والاتفاقات أو تجهيز القوافل وتنظيمها ، ويروي أيضا ان الفتيات اذ بلغن أدخلن فيها فشقت جيوبهن^(٣) ومعنى هذا انه كان يجري فيها ما يشبه عند الاغريق الاقرار بالوصول الى سن المواطنة .

يروى ابن جريج وابن اسحق انه لم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصي الا ابن اربعين سنة للمشورة ، وكان يدخلها ولد قصي كلهم اجمعون ، وحلفاؤهم^(٤) . ولا ريب ان هذا النص قد ينطبق على الاوضاع

(١) الازرقى : ج ٢ ص ٧٤ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ٥٢٤ عن ابن الكلبي ، ويقول مصعب الزبيري ان حكيم بن حزام اشتراها من هشام ثم باعها لمعاوية (نسب قريش ص ٢٥٤) ، ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٤٥ . انظر ايضا ابن الاثير : اسد الغابة ج ٢ ض ٤١ ، وياقوت ج ٢ ص ٥٢٤ .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ٢٤٢ . الاشتقاق : ص ٩٧ .

(٤) الازرقى : ج ١ ص ٦١ .

أيام قصي حيث كان عدد أولاده محدوداً ولا يمكن أن ينطبق على أيام ظهور الرسول حيث أصبح عدد أحفاد قصي كبيراً • ويلاحظ أن كعب السيرة روت عن أحد اجتماعات دار الندوة للنظر في أمر المسلمين ، فقد حضرها ، حسب ما روى ابن اسحق ، من بني عبد شمس عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ؛ ومن بني نوفل بن عبد مناف طميم بن عدي وجبير بن مطعم والحارث بن عامر بن نوفل ؛ ومن بني عبدالدار النضر بن الحارث بن كلفة ؛ ومن بني أسد بن عبدالعزيز أبو البخري بن هشام وزمعة بن الأسود بن المطلب وحكيم بن حزام ؛ ومن بني مخزوم أبو جهل ؛ ومن بني سهم نبيه ومنبه أبنا الحجاج ؛ ومن بني جمح أمية بن خلف^(١) ، أي من كل قبيلة بين الواحد والثلاثة •

ولكن ذلك لم يكن ليراعي بدقة ، فقد دخلها حكيم بن حزام وعمره خمسة عشر سنة^(٢) • ودخلها أبو جهل وعمره ثلاثون سنة^(٣) •

لم تكن للملأ سلطات تنفيذية ، فكان لابد أن تكون قراراته بالاجماع اذا أريد تنفيذها ، ولكن بمقدور الاكثرية اذا أقرت قرارا أن تقاطع معارضتها أو تستخدم الضغط الاجتماعي ضدهم •

وبجانب هذا فقد كان لكل قبيلة ناد أو مجلس خاص تجري فيه المسامرات والمناقشات ، وقد أشار القرآن الكريم الى النوادي في بعض الآيات • فليدع ناديه سندع الزبانيه ، (العلق ١٧) • تأتون في ناديك المنكر ، (العنكبوت ٢٩) ؛ ويبدو ان لكل قبيلة رئيس فكان نبيه ومنبه ابنا الحجاج سيدي بني سهم^(٤) •

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٤٣ • ابن هشام : ج ٢ ص ٩٣ •

(٢) ابن عساکر : تاريخ دمشق ج ٤ ص ٤١٩ •

(٣) الاشتقاق : ص ٩٧ •

(٤) الاشتقاق : ص ٧٨ •

الوظائف الدينية :

ونظرا لان مكة مركز ديني مهم يحج اليه سنويا عدد كبير من الناس ، فان هذا دعا الى ظهور عدة وظائف للقيام بما يتطلبه الحج ؛ ومع ان هذه الوظائف متصلة بالدين وأموره ، الا انها ليست وظائف دينية بالمعنى الدقيق ، بل تتطلب مهارة وأسلوبا خاصا وقابلية منظمة ومالا للقيام بخدمات العدد الكبير من الحجاج .

وكانت أغلب هذه الوظائف قديمة جدا ، ولما ظفر قصي بسيادة مكة أبقى بعضها بيد أصحابها القدماء ، ويقول الطبري انه بعد جرحهم (وليت خزاعة البيت ، غير انه كان في قبائل مضر ثلاث خلال : الاجازة بالحج للناس من عرفة وكان ذلك الى الفوث بن مر وهو صوفة ، فكانت اذا كانت الاجازة قالت العرب اجيزي صوفة ، والثانية الافاضة من جمع غداة النحر الى منى ، فكان ذلك الى بني زيد بن عدوان ، فكان آخر من ولى ذلك منهم أبو سيارة عميلة بن الاعزل بن خالد بن سعد بن الحارث بن وابش بن زيد ، والثالثة النسب للشهور الحرم فكان ذلك الى القلمس وهو حذيفة بن قسيم بن عدي من بني مالك بن كنانة ثم بنيه ، حتى صار ذلك الى آخرهم أبي تمامة وهو جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن حذيفة ، وقام عليه الاسلام وقد عادت الحرم الى أصلها فأحكمها الله وابطل النسب) (١) .

ويروي الطبري أيضا عن ابن اسحق ان قصيا قد أقر للعرب في شأن حجهم ما كانوا عليه لانه كان يراه دينا في نفسه لا ينبغي له تغييره ، وكانت صوفة على ما كانت عليه حتى انقرضت صوفة فصار ذلك من أمرهم الى آل صفوان

(١) الطبري : ج ٢ ص ٩٩ . التفسير : ج ٢ ص ١٦ . المسعودي : ج ٢ ص ٥٧ . ابن هشام : ج ١ ص ٤٥ ، ويروي ياقوت (ج ١ ص ٩١٧) ان الاجازة كانت في خزاعة ثم الى عدوان ثم الى صوفة ، ويروي ابن قتيبة ان « من عدوان أبو اسامة الذي كان يفيض بالناس (المعارف ص ٣٦) » .

ابن الحارث بن شحنة ورائة ، وكانت عدوان على ما كانت عليه ، وكانت
النساء من بني مالك بن كنانة على ما كانوا عليه ومرة بن عوف على ما كانوا
عليه فلم يزلوا على ذلك حتى قام الاسلام فهدم الله به ذلك كله^(١) . ويقول
محمد بن حبيب السكري ان أئمة العرب بعد عامر بن الضرب (العدواني)
في مواسمهم وقصائدهم بعكاظ (بنو تميم) . وكان ذلك يكون في
أفخاذهم كلها ، ويكون الرجال يلبان هذا من الامرين جميعا ، عكاظ على
حدة ، والموسم على حدة ، فكان من اجتمع له الموسم والقضاء سعد بن زيد
مناة بن تميم ، ثم تولى ذلك حنظلة بن زيد مناة بن تميم ، ثم تولاه ذؤيب
ابن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، ثم
ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ثم معاوية بن شريف بن
جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم ، ثم الاضطرب بن قريع بن عوف بن
كعب بن سعد بن زيد مناة ، ثم صلصل بن أوس بن مخاشن بن معاوية بن
شريف بن جردة بن أسيد ، ثم سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن
حنظلة ؛ فكان سفيان آخر تميمي اجتمع له الموسم والقضاء بعكاظ ، فمات
سفيان فافترق الامر ، فلم يجتمع الموسم والقضاء لاحد منهم حتى جاء
الاسلام ، فكان محمد بن سفيان بن مجاشع يقضى بعكاظ ، فصار ميراثا لهم
فكان آخر من قضى بينهم الذي وصل الى الاسلام الاقرع بن حابس بن
عقال بن محمد بن سفيان وأجاز بالموسم بعد صلصل بن أوس العلق بن
شهاب بن لؤي ، من بني عوافة بن سعد بن زيد مناة ، فكان آخر من أفاض
بهم كرب بن صفوان بن جناب بن شحنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن
سعد بن زيد مناة^(٢) .

النسب :

أما الافاضة فستحدث عليها عند الكلام عن الحج ، وأما النسب

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٨٤ . أنظر أيضا نسب قريش ص ٣٣

المعارف : ص ٣١ .

(٢) المحبر : ص ١٥٦ - ١٥٨ .

فوظيفة يعلن فيها القائم عليها الاشهر الحرم • ومن المعلوم انه كانت هناك أربعة أشهر حرم لا يجوز فيها الحرب والقتال ، بل يسود السلم والامن ، وهي أحوال ضرورية للتنقل وممارسة التجارات وغيرها • وكانت أشهر الحرم في فريش هي ذو القعدة ذو الحجة والمحرم (المحج الأكبر) وصفر (المحج الأصغر والعمرة) • وقد أشار القرآن الكريم الى الاشهر الحرم بقوله تعالى « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض منها أربعة حرم » (التوبة ٣٦)^(١) ويظهر انه كان لقريش دور كبير في جعل العرب تحترم هذه الأشهر الحرم ، ولكنها لم تنجح نجاحا تاما في ذلك ، فلم تكن ختم وطي لترعاها^(٢) ، كما كانت لبعض القبائل الاخرى أشهر^(٣) حرم غير هذه ، فكان لطفان البسل وهي ثمانية أشهر حرم لهم من كل سنة من بين العرب •

ولما كانت العرب تستخدم الاشهر القمرية ، وهي تختلف عن الأشهر الشمسية ، لذلك كان الاعتماد عليها قد يخل بأمور التجارة التي تجري حسب فصول السنة ؛ لذلك « كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهرا وتسميه النسي »^(٤) ، أي انه كان يضاف شهر في كل ثلاث سنوات لكي تتطابق السنة الشمسية مع القمرية ، وهذا يؤدي الى تغير في الأشهر الحرم ، وكان المختص بالنسيء هو الذي يعين الشهر المضاف •

يروى الأزرقى ان النسيء كان في كندة ثم صار في بني مالك بين كنانة ؛ ولبنى القلمس منهم خاصة ، وقد ظلوا يقومون فيه حتى جاء الاسلام فحرمه^(٥) بعد فتح مكة على ما يظهر حيث نزلت الآية « انما النسيء زيادة

(١) تفسير الطبري : ج ١٠ ص ٨٨ فما بعد .

(٢) المحبر : ص ٣١٩ • اليعقوبي : ج ١ ص ٢٢٧ ، الطبري ج ٣

ص ٦٠٣ •

(٣) ابن هشام ج ١ ص ٤٣ •

(٤) المسعودي : ج ٢ ص ٢١٤ وانظر عن النسيء ما كتب عنه في

دائرة المعارف الاسلاميه •

(٥) الأزرقى : ج ١ ص ١١٨ •

في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونهُ عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما انزل الله » (التوبة ٣٧) ولا نعلم بالضبط الامور الاخرى الناجمة عن النسيء والتي أوجبت اعتباره زيادة في الكفر •

يروى ابن اسحاق ان قصياً كانت اليه الحجابة والرفادة والسقاية والندوة والمواء^(١) ، أي انه أخذ لنفسه الامور المالية والادارية والعسكرية ؛ وهناك اشارات في الكتب الى وظائف أخرى لا نعلم ما موقف قصي منها ، وهل انه هو الذي أوجدها أم أقرها أم ظهرت بعده •

الحجابة :

وأما الحجابة فكان القائم بها يمتلك مفاتيح الكعبة ، أي انه كان يأذن للناس بالدخول في الكعبة ، والراجع انها لا تتطلب أن يكون صاحبها عالماً في الدين ؛ كما لا ريب في انها كانت مورد رزق للقائمين بها • وقد أخذها قصي من خزاعة ، ثم صارت من بعده لابنه عبد الدار ثم لأولاد عبد الدار من بعده ، وقد أرجعها الرسول الى بني عبد الدار^(٢) بعد فتح مكة تطبيقاً لحكم الآية التي نزلت في ذلك • ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » (النساء ٥٨) •

عمارة البيت :

وقد أشار القرآن الى وظيفة أخرى هي عمارة البيت فقال تعالى : « أ جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله » (التوبة ١٩) • ويروي ابن حجر ان السقاية والعمارة كانت في الجاهلية للعباس^(٣) •

(١) الطبري : ج ١ ص ١٨٤ • ابن هشام : ج ١ ص ١٣٧ •

(٢) الازرقعي : ج ١ ص ٦٢ ، ٧٧ ج ٢ ص ١٢ • نسب قريش :

ص ٢٥١ • المعارف : ص ٣٢ • ابن سعد ج ٤ قسم ١ ص ١٠ ، ١٦ •

(٣) الاصابة ج ٢ ص ٣٦٣ (٤٥٠٧) •

الرفادة :

أما الرفادة فكانت « خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها الى قصي بن كلاب فيصنع منه طعاما للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ممن يحضر الموسم ، وذلك ان قصيا فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم به : يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم وان الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم احق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم شرابا وطعاما أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا ، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه اليه فيضعه للناس أيام منى فجرى ذلك من أمره على قومه في الجاهلية حتى قام الاسلام ، ثم جرى في الاسلام الى يومنا هذا فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينفذ الحجيج^(١) ، ؛ ويبدو ان مقدار هذه الضريبة يختلف تبعا لثروة الدافعين وهي قد تصل مائة دينار^(٢) . وكانت هذه الوظيفة لبني عبدالدار ، ثم أخذها منهم هاشم فكان « يطعم الناس في كل موسم بما يجتمع عنده من ترافد قريش ، كان يشتري بما يجتمع عنده دقيقا ويأخذ من كل ذبيحة من بدنة أو بقرة أو شاة فخذها فيجمع ذلك كله ثم يحرز به الدقيق ويطعمه للحجاج ، فلم يزل على ذلك من أمره حتى أصاب الناس في سنة جذب شديد ، فخرج هاشم بن عبد مناف الى الشام ، فاشترى بما اجتمع عنده من ماله دقيقا وكهكا فقدم به مكة في الموسم^(٣) .

ونظراً لقلة الاخبار ، لا نستطيع أن نعين مقدار ما كان يجبي منها أو من كانت تسند اليه ، فيروي ابن سعد أن وهب بن عبد بن قصي كان

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٨٥ . ابن هشام : ج ١ ص ١٤٤ ، ١٤٦ .

الازرقى : ج ١ ص ٦٢ ، ١٢٧ . ويروي المسعودي ان عبدالمطلب أول من

أقام الرفادة والسقاية للحاج (ج ٢ ص ١٢٧) .

(٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٥ .

(٣) الازرقى ج ١ ص ٦٣ .

صاحب الرفاة^(١) ، كما يروي مصعب الزيري ان الرفاة كانت في يد حميد بن زهير من بني أسد بن عبد العزى^(٢) . ويروي البلاذري انها صارت من بعد هاشم للمطلب ثم لعبد المطلب ثم للزير ثم لأبي طالب ، ثم أخذها العباس وظلت في أولاده^(٣) .

وما دام بحث الرفاة يتصل بالمالية ، فجدير أن نشير الى مصادر أخرى من الواردات ، منها ما كان يؤخذ من الحجاج ، مما يمكن استدلاله مما رواه ابن دريد من أن بني لؤي بن شمع (من ذبيان) ومن رجالهم ظويلم ويلقب مانع الحريم ، وانما سمي بذلك لانه خرج في الجاهلية يريد الحج فنزل على المغيرة بن عبدالله المخزومي ، فأراد المغيرة أن يأخذ منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهلية ولذلك سمي الحريم ، وكانوا يأخذون بعض ثيابه أو بعض بدته التي ينحر فامتنع عليهم ظويلم^(٤) . ولعل هذه هي من الضرائب التي كانت تؤخذ من تأجير ثياب الحاج من الحلة ، اذ كان على الحجاج من غير قبائل الحمس (وهم قريش وحلفائها) أن يؤجروا ثيابا خاصة ، أو يحجوا عرايا كما ستحدث عن ذلك عند البحث عن الدين .

ومن مصادر ماليتها كذلك ضريبة العشور على التجارات^(٥) ، وقد يعفى منها البعض لظروف خاصة مثلما اعفوا منها بحارة السفينة التي بنيت الكعبة من حطامها .

ومن مصادر ماليتها كذلك العطايا التي كانت تقدم للكعبة ، وكانت نودع في بني سهم^(٦) .

(١) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١٥٢ .

(٢) نسب قريش : ص ٢١٢ .

(٣) أنساب الاشراف : ج ٣ ص ٥٣٣ (مخطوطة القاهرة) .

(٤) الاشتقاق : ص ١٧٢ .

(٥) الازرقى : ج ١ ص ١٠١ . المسعودي : ج ٢ ص ٥٨ .

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٣ .

السقاية :

اما السقاية فهي حياض من ادم كانت في عهد قصي توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفه ، وتملاً بالماء العذب من الآبار على الابل ويسقاه الحاج^(١) . وهي لا ريب مهمة في بلد كمكة يقل فيها الماء العذب الصالح للشرب ، وكانت مثل هذه الوظيفة تدر في تدمير ثمانمائة دينار سنويا ، ولعلها كانت تدر في مكة أيضا أرباحا طيبة ؛ ومن المحتمل ان السقاية كانت تقتصر على الحجيج ، أما أهل مكة فلم يكونوا يدفعون شيئا عن الماء ، وكانت السقاية عند ظهور الاسلام مودعة للعباس الذي كثيرا ما كان يمزج الماء بالزبيب^(٢) . وكانت مشكلة الامن من الامور الهامة التي توجب الاهتمام في مكة نظرا لكثرة الخلفاء والصعاليك وسراق الحجيج الذين تدفعهم نزعاتهم الخاصة وسوء الاحوال الى ارتكاب الجرائم كالسرقة أو عدم مراعاة قدسية الحرم ، يضاف الى ذلك الاخطار الخارجية التي قد تهدد مكة من الغزوات ، أو قد تقوم مكة نفسها بحرب ضد أعدائها . لذلك كانت مضطرة الى اعداد جيش لمواجهة الاخطار ، ومع ان أهل مكة كان أغلبهم تجارا ، الا أنهم لم يغفلوا عن الاستعداد العسكري ، فكانوا يساهمون في الحروب التي تقوم بها مكة ، فضلا عن انهم عقدوا محالفات عسكرية مع القبائل كالقارة والحيا والمصطلق وبنو الحارث بن كنانة لكي تعاونهم في الحروب التي ينشوبونها . ويسمى هؤلاء الحلفاء الاحابيش^(٣) .

وبجانب هذا فقد كان المكيون يستخدمون المرتزقة وخاصة من السودان والاحباش الذين اشتهروا بحسن استعمالهم للحراب والسكاكين

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤١ ، ٤٥ .

(٢) ابن سعد : ج ٤ قسم ١ ص ١٦ . الازرقى : ج ١ ص ٦٥ - ٦٦ ،

ج ٢ ص ٤٧ .

(٣) نسب قريش : ص ٩ . الاشتقاق : ص ١١٩ . ابن سعد :

ج ٢ ص ٤٧ وص ٧٠ وفي انساب ابن حزم ، نشر عبدالسلام محمد هارون ، ص ٢٦٣ : ومن بني ثعلبة بن بهته بن سليم : حكيم بن امين بن حارثة بن الاوقص بن مره بن هلال بن فالج بن ذكران بن ثعلبة بن بهته بن كنانة كان بمكة في الجاهلية محتسبا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر وفي ذلك يقول بعض سفهاء قريش :

التي ترمى من مسافة ، ويدعي لامنس ان هؤلاء هم القسم الاعظم من الجيش المكي ، وانهم هم الاحابيش^(١) . ويستنتج من هذا ضعف شجاعة قريش وانعدام الروح العسكرية ، وهو رأي بعيد عن الصواب لان أخبار الحروب بين أهل مكة تظهر بوضوح ان قريشاً كانت تكون القسم الأكبر من الجيش وتقوم بانقسط الاعظم من الحرب . وكان منها المهاجرون الذين حاربوا مع الرسول في عدة وقائع ، كما ظهر منها عدد كبير من الرجال الذين قادوا الجيوش الاسلامية في معارك ناجحة ضد الروم والساسانيين في بلاد نائية .

ومما يتعلق بتنظيم الحروب عدة وظائف ، منها اللواء والقيادة والأعنة والحكومة .

فأما اللواء فكان العلم الذي يحمل في المعارك ، وتدور حوله المعركة ، وكان يسند الى بني عبددار ، وقد قل منهم في غزوة أحد سبعة وهم يدافعون عنه^(٢) .

أما القيادة فهي غير اللواء ، وكانت القيادة بيد بني أمية^(٣) ، فقد قاد حرب بن أمية الناس في الفجار وفي ذات نكيف ، كما قاد الناس في بدر عتبة بن ربيعة ، لان أبا سفيان كان في القافلة التي سببت المعركة ، وقاد أبو سفيان قريشاً في أحد والخندق .

وهناك ذكر للأعنة ، ويكون صاحبها المقدم على خيول قريش في الحرب^(٤) . والحكومة وهي الاموال التي يسمونها آلهمتهم ، وكانت عند ظهور الاسلام للمحارث بن قيس السهمي^(٥) .

(١) انظر في ذلك مقال لامنس عن الاحابيش والتنظيمات العسكرية في مكة الذي نشره في كتابه (العربية الغربية عند ظهور الاسلام) (بالفرنسية) .

(٢) نسب قريش : ص ٢٥١ - ٢ . الازرقى : ج ١ ص ٦٣ .

(٣) الازرقى : ج ١ ص ٦٣ ، ٦٦ .

(٤) ابن الاثير : أسد الغابة ج ٢ ص ١٠١ .

(٥) ابن الاثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٢٠٦ الاصابة ج ١ ص ٢٨٧ .

لم تكن في مكة وظيفة لقاض أو حاكم يفصل في القضايا التي تنشب بين الناس . فإذا حدث خلاف بين أفراد عشيرة واحدة فإن رئيس العشيرة هو الذي يحكم فيه . أما إذا حدث خلاف بين أفراد قبائل متعددة فإنهم كانوا يلجأون إلى الكاهن أو الهاتف أو العايف أو الاستقسام بالانصاب والايثار . وكان تقدير قيمة الخسائر يدعى الاشناق وهي وظيفة كانت تقوم بها أسرة أبي بكر^(١) . وقد أورد محمد بن حبيب السكري أسماء عدد من الحكام في قريش^(٢) .

غير أنه حتى في حالة حكم الحكم بقضية ما فإنه كان يترك ذلك لتراضي الناس وموافقتهم ، إذ لم تكن هناك سلطة تنفذ قرارات الحكام وقد أدى هذا إلى غبن الضعفاء وكثرة المظلومين . وقد استفزت هذه الحالة الخطرة بعض الناس فكونوا حلف الفضول لمساعدة المظلومين وحمايتهم من الظالمين . وكاد هذا يتطور إلى تكوين سلطة تنفيذية . ولكن مجيء الاسلام عوض عنه وحل محله في العمل .

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٣٠٣ ، انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٢٥ .
(٢) المعبر ص ١٣٢ - ٣ انظر أيضا نسب قريش ص ٢٩١ . شفاء الغرام للفاسي ص ١٤١ - ٢ .

القسم الثاني

الحياة البدوية ونظمها

الفصل التاسع

النظم البدوية قبيل ظهور الاسلام

اهميتها :

لقد انحلت قبيل ظهور الاسلام الدول العربية التي حاولت أن تقيم نظاما سياسيا عاما لا يقتصر على مجموعة صغيرة • وأصبح النظام القبلي هو السائد لا في الصحراء فحسب ، بل حتى في أغلب المدن الموجودة في أطراف الجزيرة •

في الدين الاسلامي :

ولم تقتصر النظم البدوية على تأثيرها في نظم الحياة عند ظهور الاسلام • بل كان لها تأثير في الاسلام نفسه • والواقع ان الاسلام وقف موقفا معاديا للبدو بصورة عامة فوصفهم بأنهم أشد كفرا ونفاقا • وأجدر ألا يعلموا حدود الله (التوبة ٩٧) « قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم » (الحجرات ١٤ أنظر أيضا سورة التوبة ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ الاحزاب ٢٠ ، الفتح ١١ ، ١٦) والواقع ان الاسلام حارب كثيرا من معتقداتهم ونظمهم الاجتماعية ومثلهم الاخلاقية • غير انه في نفس الوقت أقر بعض هذه العادات واعترف بها حرفيا ، أو بعد تعديل بسيط ، كما سيظهر لنا من سياق البحث • وهكذا دخلت كثير من النظم البدوية كجزء من الاسلام ، وأصبحت قانونا يسير عليه المسلمون حيثما كانوا ومتى عاشوا •

في الدولة الاسلامية :

غير انه حتى المظاهر والنظم التي شن عليها الاسلام حربا ، لم يقض عليها تماما ، بل ظل العرب يدينون بها أمدا طويلا ، ذلك ان هؤلاء البدو

كونوا مادة الاسلام الاولى والجزء الاعظم من الجيوش الاسلامية التي دحرت الفرس والروم وانشأت الامبراطورية الاسلامية ، حتى لقد كان الاسلام مقرونا بالعرب ، في أدواره الاولى ، وكان من الصعب التمييز بينهما . وكان للدور الذي لعبه هؤلاء البدو في الفتوح والانتصارات أثر في زيادة اعتدادهم بأنفسهم وبمثلهم الاخلاقية والروحية وبلغتهم وثقافتهم . فأصبحت هذه جزءا هاما من المدنية الاسلامية ومثلها .

في الفكر الاسلامي :

ثم ان اللغة العربية والشعر الجاهلي كانا صدى لحياة البداوة وممثلين لها ، يرسمان مثل البدو وغاياتهم كما كانت اللغة تعبر عن عواطفهم وخيالهم^(١) ، وقد أصبحت اللغة العربية أداة التعبير في الامبراطورية الاسلامية ، وصار الشعر الجاهلي مثالا يحتذى في طريقة نظمه وأسلوبه وأخيلته وأفكاره وظل كذلك أمدا من الزمن . وبهذا أدخل المثل البدوية في الحياة الثقافية الاسلامية .

في تاريخ الاسلام :

ويلاحظ كذلك ان البدو كانوا أهم عنصر في الامصار الاسلامية التي كانت أهم قواعد عسكرية وادارية في الامبراطورية الاسلامية . وقد تأثرت نظم هذه الامصار بالانظمة البدوية سواء في النواحي الادارية أو المالية أو السياسية أو القانونية . ولما ظهر الفقهاء في هذه الامصار دونوا معظم مظاهر الحياة فيها ، وبذلك سجلوا كثيرا من النظم البدوية باعتبارها جزءا من النظم الاسلامية ، وقد صارت بذلك هذه النظم البدوية جزءا من الشريعة الاسلامية المقدسة التي يسير عليها المسلمون . والتي يقوم القسم الاعظم منها على ما دونه فقهاء الامصار الاول^(٢) .

(١) أنظر في ذلك أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٦٢ فما بعد .

(٢) لقد وصفت في كتابي « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري » تنظيمات إحدى هذه الامصار وأشارت في مواضع مختلفة الى علاقتها بالفقهاء .

في التاريخ عامة :

والواقع ان النظم البدوية لم تقتصر على الفترة التي سبقت ظهور الاسلام ، بل يبدو أن تاريخها أبعد . اذ أن الاخبار القليلة التي لدينا عن نظم سكان الجزيرة في العصور السحيقة توحي بأن نظمها كانت نظما بدوية ، ولم تقتصر على سكان الجزيرة فقط بل وامتدت الى الشعوب السامية ، ففي شريعة حمورابي وحياة العبرانيين كثير من مظاهر النظم البدوية التي تشبه نظم البدو قبل ظهور الاسلام ؛ كما اننا لما نزل في الوقت الحاضر متمسكين بكثير من نظم البداوة في العراق لا في الصحارى والارياف فحسب بل في المدن كذلك .

فدراسة النظم البدوية اذاً مهمة جدا لفهم حياة الساميين عامة ، وكذلك لفهم القرآن والاسلام والمدنية الاسلامية والشعر والثقافة العربية بل ولفهم حياتنا الحاضرة أيضا .

عزلة الصحراء :

ونظرا لبيئة البدو الصحراوية التي لم تتغير منذ الازمنة التاريخية ، فقد أصبح البدوي منعزلا عن الامم الاخرى ، فلم يؤثر احتكاكه المحدود بالامم الاخرى بعاداته وأساليب حياته ، اللهم الا اذا خرج من الصحراء وسكن المناطق الغزيرة المياه وشيد له الحضارة بعد ترك البداوة . والواقع ان المؤثرات الاجنبية على الجزيرة العربية والتي وصفها وصفا طيبا كل من اوليرى في كتابه عن الجزيرة العربية قبل محمد وأحمد أمين في فجر الاسلام ، كانت مقصورة على أطراف الجزيرة وفي المناطق الزراعية التي تحضر أهلها ؛ كما ان هذه المؤثرات لم تتوغل في المدينة البدوية ، بل ظلت في الغالب سطحية محدودة ، فلم تنفذ الى الاعماق ، وظلت حياة البداوة تتسم بطابع خاص لا يزول الا بعد استقرار طويل في أرض معينة وممارسة الزراعة والاتصال الدائم مع الامم الاخرى .

صفات البدوي :

ويتسم البدوي بصفات عامة تميزه عن غيره ، ولكن يجدر قبل ذكرها أن نؤكد انها نتيجة وراثية اجتماعية لا بيولوجية ، وانها تولدت في الغالب نتيجة حياتهم الطويلة في الصحراء . هذا الى انها صفات عامة ، وبجانبها فوارق فردية كبيرة .

فأما صفاتهم الجسمية فهم في الغالب نحاف الاجسام ، متوسطو القامة ، ذوو أنف أفتى ، وعيون سوداء لوزية مفتوحة ، وشعر مسترسل وجمجمة مستطيلة ، غير ان عرب الجنوب هم ذوو رؤوس مستديرة وشعر اجعد ؛ ولهم قابلية كبيرة على الصبر وتحمل المشاق الجسمية من مشي طويل وغذاء يسير ، وهم يتميزون كذلك بالشجاعة والاقدام وانجاد الضعيف وحماية المرأة .

والبدوي عصبي المزاج ، مرهف الحس ، سريع التهيج ، يحب الحرية والمساواة ، ويتميز بالنظرة الواقعية ودقة النظر وقوة الذاكرة وقلما يهتم بما وراء الطبيعة والافكار الفلسفية العميقة ، هذا الى أنه يميل الى وصف المراتب ، وما البراعة التي اشتهر بها البدوي في القيادة الا مظهر من مظاهر دقة الملاحظة والاهتمام بالمظاهر المادية

ثم ان البدوي دقيق الملاحظة والحس ، يهتم بالجزئيات دون الكلّيات ، ويتميز تفكيره بالتنقل دون أن يهتم بالروابط بين الاشياء ، فاذا وصف بعيرا مثلا فقد يبدأ بذكر اذنه ثم ذيله ثم يعود الى وصف رأسه ورجله وسانمه ، وهو يدقق في وصف كل من هذه الاجزاء تدقيقا رائعا ، ولكنه لا يتبع طريقا منطقيا في تسلسل الاجزاء التي يصفها ؛ هذا الى انك لو قرأت وصفه للمعير ولم تكن قد رأيته فانك قلما تستطيع أن تصوّره من وصفه . ولا أدل على ما نقول من الشعر البدوي الذي نجده في قصائده الطويلة يطرق عدة مواضع لا رابط بينها ولا تسلسل .

وخيال البدو من نوع خاص فهو خيال تصوري لا سمعي ، صوره
منتزعة من الواقع لا من ابتكار الخيال وأوضح مثل على هذه التشبيهات التي
كانوا يذكرونها :-

فيقول امرؤ القيس :

له ابطالا ظبي وساقا نعامه وارحاء سرحان وتقريب تتفل
ويقول طرفة :

كأن حدود المالكية غدوة خلايا سفين بالواصف من دد
ويقول امرؤ القيس :

مكسر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

وهذه التشبيهات تختلف عن تشبيه الشاعر الهندي مشية البقر بمشية
المخمور بسكرة الشباب المفرور • أو تشبيه الولد ذاهبا الى أمه ساكنا كديب
الخيال • أو قوله مخاطبا النجم « تعال مع مركبك الذي هو أسرع من
طروق الخيال » وتشبيه شيلي القبرة بالفرح مجردا عن المادة •

ان هذه التشبيهات تختلف عن تشبيه شعراء البدو بعن الأرام بحب
الفلفل ، والشحم بهداب الدمقس المقتل ، وجيد الفتاة بجيد الريم ، وفرع
الشعر بقنو النخلة المتشكل ، وآثار الطلول بالوشم ، أو الرماح بأشطان البئر •

حقا ان هذه صور جديدة جميلة ، ولكنها مستمدة من الواقع وليس
فيها ابتكار ؛ انها أقرب الى المقارنة واستثارة الذاكرة عن شيئين متباعدين ؛
بل حتى الاشخاص الخرافيون لم يتصورهم العرب خارقين في شكلهم
أو قدرتهم •

ونعيد الذكر بأن تصورهم بصري وقلما يهتمون بالتصور السمعي
كأصوات الطيور وغيرها^(١) •

(١) انظر في ذلك أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٣٧ فما بعد •

محمد عبدالمعيد خان : الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٢٢

فما بعد •

القبيلة :

لقد كان النظام البدوي قائما على أساس القبيلة ، وهي جماعة من الناس ينتمون ، أو يزعمون انهم ينتمون ، الى جد واحد مشترك انحدروا منه ، ويسكنون عادة في منطقة واحدة ، واذا انتقلوا ساروا سوياً ، وهم يحملون واجبات مشتركة في الدفاع ودفع الدية . ومع ان خير ما يميز القبيلة عن غيرها هو اشتراك أفرادها في دفع الدية ، الا انه من الصعب جداً تحديد عددها ، والارجح ان عددها يتوقف على قدرتها على الدفاع وعلى قابلية المراعي على اعاشة مواشيها . فالقبيلة التي تقطن في أرض ممرعة ، يمكن أن يتزايد عدد أفرادها مع الاحتفاظ بوحدها ، أما اذا زاد عددها وعدد مواشيها عما يمكن أن تحتمله الأرض ، فانه ينخزع منها بعضها ويكونون لانفسهم وحدة مستقلة تتخذ لها أرضاً خاصة ، وتكون بذلك قبيلة مستقلة . الا انها تبقى متصلة بالقبيلة الأم برابطة النسب التي تعزز بها . أما اذا كانت هذه الوحدة المنخزعة صغيرة لا تستطيع الدفاع عن نفسها أو الاحتفاظ بكيانها ، فانها تندمج بالقبائل الأخرى ، والغالب انها تفضل الاندماج بأقرب القبائل نسباً منها . وهكذا فان عدد القبائل غير ثابت ، بل قد يزيد أو ينقص وقد تظهر قبائل جديدة ، أو تندثر قبائل أخرى أما بانقسامها الى قبائل أصغر منها ، اذا كانت كبيرة ، أو بانضمامها الى قبائل أخرى اذا كانت صغيرة لا تستطيع الدفاع عن كيانها .

ولا يمكن تحديد عدد أفراد كل قبيلة بالضبط ، فبعض القبائل صغيرة جداً ، وقد ذكر السكري عدداً من القبائل لا يزيد أفراد كل منها على أصابع اليد^(١) ، كما أن هنالك قبائل كبيرة العدد ؛ والغالب ان القبائل الكبيرة تقسم الى أجزاء تدعى العشيرة والطن والفخذ والفصيلة والرهط والحي ، ولكن حتى هذه الاقسام لا يمكن تحديدها بالضبط .

تطورها في الاسلام :

لقد حافظ العرب على نظامهم القبلي عندما استوطنوا الامصار الاسلامية . فكانت هذه الامصار مقسمة الى قبائل ، ولكل منها خطة خاصة يسكن أفرادها معاً فيها ، كما كانوا يستلمون عطاءهم سوية ، وعلى كل قبيلة عريف خاص بها ؛ والغالب ان أفرادها يحملون مسؤوليات مشتركة . فيدفعون دية القتل غير العمد الذي قد يرتكبه أحد أفرادها ، كما تكون لهم الشفعة أو حق الافضلية في شراء البيت الذي يباع في خطتهم ، ويرثون مال من لا وارث له في عشيرتهم ، ويتحملون مسؤولية أعمال المشايخين والتمرديين في عشيرتهم . وهكذا صار نظام القبائل هو أساس التنظيم الاجتماعي والاداري والمالي والجائي في الامصار الاسلامية .

غير انه نظرا لان كلا من هذه الامصار الاسلامية كانت تضم قبائل كثيرة متنوعة ، فقد اضطر الولاة أحيانا الى دمج القبائل الصغيرة بالكبيرة ، وعلى مر الايام أخذت هذه الوحدات الصغيرة تفقد كيانها المستقل . غير انه اذا كانت أفراد الوحدات المندمجة شديدة التماسك فانها تحافظ على كيانها ، ولكن تصبح من الناحية الادارية مندمجة في القبائل الكبيرة . واذ ذاك يقال ان عدادها مع القبيلة الكبيرة^(١) . ومن هذا يتبين ان الامصار وان كان تنظيمها قد قام على أسس قبلية ، الا أنه دخل فيها تعديلات غير قليلة .

نظرية سميث :

وقد حملت هذه التغيرات بعض المستشرقين وخاصة روبرتسن سميث على الاعتقاد بأن الانساب العربية مختلفة كلها منذ زمن عمر لكي ينظم توزيع العطاء^(٢) . ومما يقوي الشكوك في شجرات الانساب ان جميع

(١) في الفصل الاول من كتابي « عن التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية

في البصرة » ، شرح واف عن هذه التطورات .

(٢) روبرتسن سمث : القرابة والزواج عند العرب الفصل الاول

(بالانكليزية) .

ما خلف الينا منها كتب منذ منتصف القرن الثاني فما بعد . فهي اذا متأخرة ، كما انها متأثرة بأحوال المدن التي كتب فيها وخاصة الكوفة والبصرة ، فهي لاتعطي تفاصيل وافية أو مضبوطة عن قبائل وأنساب النواحي الاخرى من الجزيرة العربية كاليمن مثلاً ، هذا الى انها قد لا تمثل الاحوال التي كانت عليها قبل الاسلام ، يضاف الى ذلك ان شجرات النسب التي يذكرها هؤلاء النسابون قلما تذكر أكثر من ستة آباء بين أفراد القبيلة الذين عاشوا عند ظهور الاسلام وبين الجذ الأعلى لكل قبيلة ، واذا افترضنا ان كل جيل كان ٢٥ سنة ، كانت القبائل العربية حسب شجرات النسب أو أغلبها قد تفرع منذ القرن الرابع الميلادي وهو أمر لا تفره الأدلة التاريخية .

على أنه اذا كان ما ورد في كتب الانساب المتداولة بين أيدينا عما يتعلق بالعصور السحيقة قبل الاسلام غير مضبوط أو مغلوط ، فانه يجب أن لا ننكرها تماماً ، أو نعتقد انها اختلقت كلها في زمن عمر لكي تخدم المسلمين في توزيع العطاء ، وذلك لان الاخبار التاريخية عن حياة النبي وحروب الردة تؤيد وجود هذه القبائل كوحدات مستقلة في معظم أنحاء الجزيرة ، هذا الى أن الشعر العربي الجاهلي يرد فيه أسماء هذه القبائل ويلقي ضوءاً هاماً على العلاقات بينها ، بل نذهب أبعد من هذا فنقول ان التوراة قد ذكرت بعض القبائل العربية كسليم مثلاً ، كما ان النقوش اليمانية التي ترجع الى القرون الاولى قبل الميلاد تذكر الادوار المهمة التي لعبتها القبائل اليمانية كبكيل وحاشد وهمدان والتي ظلت الى العصر الاسلامي محتفظة بوحدتها .

اهمية النسب :

لقد كان الاهتمام بالنسب مهماً منذ العصر الجاهلي ، اذ هو المرآة التي تظهر فيها نقاوة دم الفرد وارتباطه بالقبيلة . وقد ظل الاهتمام به حتى بعد مجيء الاسلام فأصبح أساساً للتنظيم المدني والاجتماعي في الامصار العربية

وعند العرب ، يل حتى غير العرب كثيرا ما اضطروا عند سكناهم الامصار الى الانتساب الى القبائل العربية باعتبارهم موالي لها ، ثم أصبح كثير منهم على مر الايام يدعون بأنهم صرحاء في النسب • ولا أدل على الاهتمام بالنسب في الاسلام من الاحاديث التي تنسب الى النبي والتي يحض فيها على حفظ النسب^(١) •

ولا ريب ان للاهتمام بالنسب في الاسلام أهمية كبيرة ، فهو يوضح علاقة الانسان بالعرب الفاتحين الارستقراطيين ، ويوضح العلاقة بالنبي وأصحابه الذين أصبح الانتساب اليهم فخراً ، أو بالخلفاء والولاة الذين قد يؤدي الاقتراب منهم الى بعض المنافع ، هذا الى اهميته في الوراثة اذ ان الارث يتقرر حسب النسب ، هذا الى أن الزكاة تعطى للأقربين الذين هم أولى بالمعروف^(٢) • والمعروف الذي يحسن بالاغنياء أن يدفعوه الى الأقرباء تبعاً لما أمر الرسول « تعلموا أنسابكم ما تصلوا به أرحامكم » •

وان الاهمية الزائدة التي كانت للانساب في صدر الاسلام جعلتها تمتد الى غير العرب فرتبت لهم على مر الايام شجرات من النسب أوصلتهم بأجداد العرب القدماء جدا •

أسماء القبائل :

ان أسماء القبائل العربية مستمدة اما من الآلهة الوثنية القديمة كزيد انلات ووهب اللات وسعد مناة وعبد شمس ، أو من أسماء أشخاص ؛ ولكن أغلبها مستمدة من أسماء حيوانات مثل بكر ، أسد ، بهته (بقر الوحش) ، ثعلبة ، نور ، جحش ، جعدة (غنم) ، جمل ، حذاء ، حمامة ، حنش ، الأرقم ، دؤل ، دب ، ذئب ، ضبة ، ضيعة ، غزرة ، غراب ، فهد ، قرَد ، خندف ، فهد ، كلب ، نعام ، غبر ، هوازن ، يربوع ، جراد ، طبيان ، عقاب ، أوس ، قريش ، حمير ، حنظلة ، صخر ، بدن •

(١) ابن حنبل : المسند ج ٢ ص ٣٧٤ •

(٢) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٣ - ٦ •

الطوطمية :

ان كثرة أسماء الحيوانات في تسمية القبائل حملت المستشرق الانكليزي روبرتسن سميت الى الاعتقاد بأنها مظهر من مظاهر الطوطمية التي كانت سائدة عند العرب قبل الاسلام^(١)

والطوطم كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين أحد منها يسميه طوطمه . والطوطم قد يكون حيوانا أو نباتا ، وهو يحمي صاحبه ويبعث إليه الاحلام اللذيذة ، كما ان صاحبه يحترمه ويمدسه ، فاذا كان حيوانا فلا يقدم على قتله ، واذا كان نباتا فلا يقطعه ولا يأكله الا في الازمات الشديدة . والقبيلة تسمى باسم الحيوان ، وتعتبره أباً لها وتعتقد انها من سلالاته ، وهي تحترمه وتحرم لمسه أو النظر اليه والتلفظ به ، وتحفل بدفنه عند موته ، وتعتقد انه يدافع عن القبيلة عند الملهمات^(٢) .

وللتدليل على أن تسمية القبائل العربية بأسماء حيوانات هو مظهر من مظاهر الطوطمية يقول روبرتسن سمث بأن العرب اعتقدوا بأن بعض الحيوانات أصلها انسان ثم مسخت كالقردة والخنازير ولذلك حرمت أكلها ، ثم ان العرب عبدت بعض الاصنام التي تمثل الحيوانات ، فكان يغوث بشكل أسد ، ويعوق بشكل حصان ، ونسر بشكل نسر ، كما عبد الاسبيديون الفرس ؛ ولعل اسم ربيعة الفرس يدل على أن ربيعة كانت تعبد انفرس . كما ان الحمام كان بمكة مقدسا لا يجوز قتله^(٣) .

على ان روبرتسن سمث متطرف في استنتاجاته ؛ فانه لم يعرف عن العرب انهم عبدوا الحيوانات نفسها أو اعتقدوا أنهم منحدرون منها ، وليس مسخ الحيوان دليل على قدسيته ، كما ان نحت الصنم على شكل حيوان

(١) روبرتسن سمث : القرابة والزواج عند العرب الفصل السابع .

(٢) راجع الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٥٥ - ٨٥ .

(٣) جمعة : ص ١١٦ فما بعد .

لا يعني انهم عبدوا الحيوان نفسه ، ما عدا الاسبيذين • وليس هناك دليل على أن القبائل التي كانت تعبد النسر أو الفرس وغيرها كانت تسمى بأسماء هذه الحيوانات أو تدعي انها متحدرة منها^(١) •

يقسم النسابون القبائل العربية الى قسمين كبيرين هما القبائل القحطانية أو العاربة وأصل موطنها جنوب الجزيرة ، وخاصة اليمن ، والمستعربة وموطنها وسط وشمال الجزيرة ويذكر بعضهم ان بين هذين الفرعين خصومات منذ أيام الجاهلية • والواقع ان الاجزاء الجنوبية من الجزيرة يختلف سكانها بعض الاختلاف عن سكان الاجزاء الشمالية ، حيث ان رؤوسهم مستديرة وشعرهم مجعد وفي أنوفهم بعض الفطسة متأتية من اختلاطهم في الازمنة القديمة بسكان شرق افريقية ؛ بينما يتميز سكان الشمال بأن جماجمهم مستطيلة وشعرهم مترسل وأنفهم أفنى ولهجاتهم تختلف بعض الاختلاف عن لهجة سكان الجنوب^(٢) • إلا أنه ليس هناك دليل على الخصومات بين الطرفين بل ان الخصومات تنشأ عادة بين القبائل المتجاورة في محل السكن حتى ولو كانت من فرع واحد • بل الواقع ان أغلب أيام العرب التي ذكرت لنا في التاريخ^(٣) نشبت بين قبائل يعدها النسابون مقارنة مع بعضها في النسب • ثم ان التقسيم الذي يذكره النسابون ليس دقيقا دائما ، فهناك بعض القبائل كقضاة كانت في الاسلام تنتسب مرة الى قحطان ومرة الى عدنان ، ولكن مثل هذه القبائل محدودة والغالب ان سبب تغير نسبتها ترجع الى العصر الأموي حيث اشتدت الخصومة بين المضريين واليمانيين فأخذت بعض القبائل تنحاز الى أحد الجانبين لأسباب خاصة مدعية بأنها ترتبط فيها بصلة النسب •

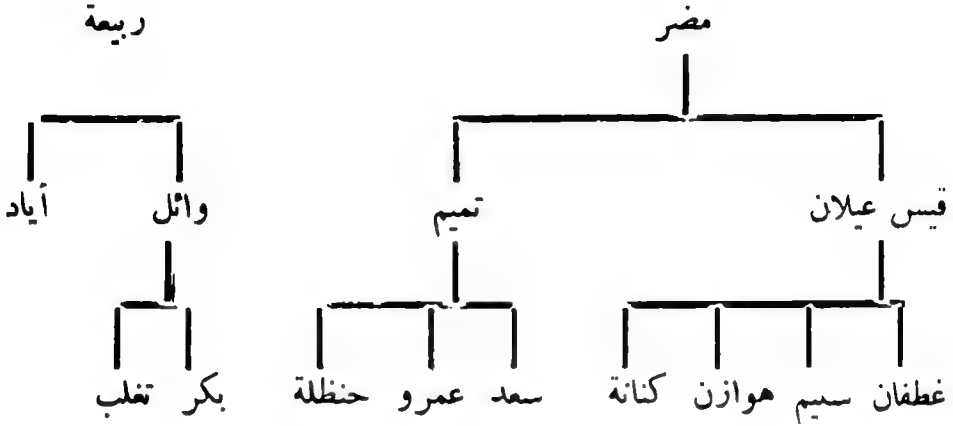
(١) راجع : جرجي زيدان : الانساب العربية القديمة •

(٢) فيليب حتي : تاريخ العرب ص ٣٠ (بالانكليزية) •

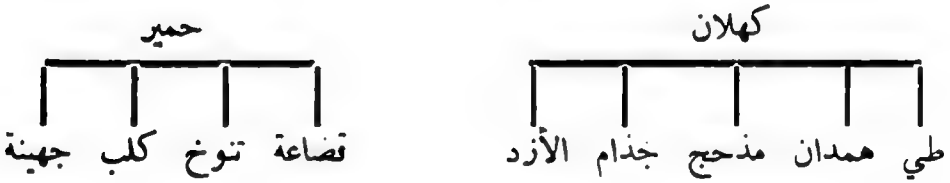
(٣) راجع عن أيام العرب : ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١

ان أهم القبائل على ما تقوله كتب النسب الشائعة هي المينة في الجدول التالي (١) :-

القبائل الشمالية (العدنانية)



القبائل الجنوبية (القحطانية)



(١) انظر في كتب النسب : نسب قريش لمصعب الزبيري ، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، الاشتقاق لابن دريد ، والانباء على قبائل الرواة لابن عبد البر . وقد نظم وستنفيلا جدولا مفصلا في أنساب القبائل وتفرعاتها .

الفصل العاشر

التنظيمات الاجتماعية عند البدو

الصلبية :

تعتبر القبيلة الوحدة الاجتماعية التي يقوم عليها النظام البدوي . وهي تتكون من العرب الصلبية والحلفاء والعبيد . فأما العرب الصلبية فهم جميعا متحدرين من أصل واحد مشترك هو الجد الأعلى للقبيلة ؛ لذا كانوا يعتبرون أنفسهم متساوين ، نظريا على الأقل . وكان كل فرد يعتز بشخصيته وفرديته ويرى لنفسه مكانته في القبيلة . الا أنهم في الواقع يتباينون في صفاتهم الجسمية والخلقية ، مما يجعل للبعض مكانة خاصة يعترف لهم بها الناس . وأهم الصفات الخلقية التي تكسب المرء مكانة هي المروءة والشرف^(١) ، وهي تعبيرات خلقية يصعب تحديدها بالضبط ، ولكن أهم متطلباتها هي الشجاعة وحب الحرية والثأر وحماية الجوار والدفاع عن العرض . وهذه لا ريب صفات شخصية تكسب صاحبها الشرف والرفعة وتميزه عن الذليل المهان . ولكنها لا تورث ، فلا يكون ابن الشريف شريفا الا اذا حافظ بأعماله على صفات المروءة ومتطلباتها .

الحلفاء :

أما الحلفاء فهم ليسوا متحدرين من الجد الأعلى للقبيلة ولا تربطهم بأفرادها رابطة الدم ، ولكنهم لجأوا الى القبيلة ووضعوا أنفسهم تحت حمايتها أو حماية أفرادها . وقد يكون الحليف فردا أو قبيلة . فأما حلف

(١) بشر فارس : الشرف عند العرب (بالفرنسية) ، مباحث عربية

القبيلة للقبيلة فستحدث عنه في الفصل التالي • أما حلف الافراد فان الغرض منه أن ينال حماية القبيلة التي يحالفها ويستطيع أن يعيش في كنفها بأمان • ومثل هؤلاء الحلفاء عادةً غرباء يأتون الى القبيلة ليتاجروا معها ، أو ليتزوجوا احدى نساؤها ويسكنوا مع قبيلة المرأة ؛ ولكنهم في الغالب من الخلفاء وهم الذين ارتكبوا جرائم القتل في قبائلهم الاصلية ، أو اساءوا السلوك لدرجة أصبح وجودهم بين القبيلة غير مرغوب فيه ، فتخلعهم وتطردهم • ولما كان من الصعب على الفرد أن يعيش بمفرده في الجزيرة ، لذلك كانوا مضطرين الى الالتجاء الى قبيلة أخرى يقومون في دخالها ويطلبون حمايتها^(١) ويكفي للفرد أن يدخل خيمة رجل أو يمسك جبل الخيمة^(٢) (الطنب) أو يرتني بين يدي المرأة^(٣) أو يذكر بأنه أصبح دخيلاً لكي يظفر بالدخالة والحماية • وكان على رجل القبيلة أن يحميه ويدافع عنه ، اذ أن رد الدخالة ليس من المروءة • ولكن يجوز للحامي أن يفسخ الجوار متى شاء ، على أن يعلن ذلك في المحلات العامة ويعطي الدخيل مهلة ليدبر أمره •

والحلف قد يكون موقتا أو دائما وتدافع القبيلة عن حلفائها باعتبارهم أفرادا منها ، وترثهم ان لم يكن لهم وارث في القبيلة^(٤) ، وتعينهم في دفع دية القتل غير العمد الذي قد يرتكبونه • كما انها تطالب بديتهم ان قتلوا ، ولكن ديتهم عادة نصف دية الصرحاء ، كما أن الحليف لا يقتل بالصريح^(٥) •

ويتم الحلف عادة بالقسم ليكتسب صبغة قدسية وقد يصحبه لمق الدم

(١) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء الساميين ص ١٤٨ فما بعد (وسنرمز اليه جمعة) ، محمد أحمد الحوفي : الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص ٣١٧ فما بعد •

(٢) أغاني : ج ١٩ ص ٨٠ •

(٣) المحبر : ص ٤٣٣ •

(٤) الاغاني : ج ٢ ص ١٦٧ •

(٥) الاغاني : ج ٣ ص ٤١ •

ليعوض الدم الملعوق عن الدم الموروث^(١) . وقد يغمس في الطيب كما حدث في حلف المطيين في مكة^(٢) .

لا يكون الحلفاء عادة مشاكل للقبيلة ، لان قبائلهم الاصلية قد تركتهم ونفضت أيديها منهم ، فلم تعد لهم علاقة بها ، ولذلك فهم يستطيعون تكوين علاقات جديدة مستقلة مع القبيلة الجديدة .

العبيد :

أما العبيد فأغلبهم من أسرى الحروب ولكن بعضهم نتيجة الشراء وخاصة من أفريقية ، أو الولادة أو الدين ، أو القمار ويعملون عادة في الاعمال اليدوية والحلب ولا يشتركون في الحروب ويعاونون أسيادهم في الاعمال التي تسند اليهم . ولما كان الرق المتولد من الاسر له حالة خاصة فان الرقيق فيه يكون من العرب وقد تكون له مكانة في قبيلته ، والغالب انه يحسن معاملتهم . كما أن قبائلهم الاصلية تفكهم بالفداء أو بمبادلة الاسرى ، اذ ليس من الشرف للقبيلة أن تترك أفرادها المأسورين ارقاء عند القبائل الاخرى .

المرأة :

لقد كان المجتمع البدوي يتبع نظام الابوة Patrimonial system^(٣) ، فللرجل السيادة والسلطة على البيت وعلى المرأة وعلى الاولاد قبل البلوغ . ولكن مع هذه الحقوق كانت للمرأة مكانة كبيرة تتناسب مع الخدمات التي تقوم بها اذ انها كانت تقوم بقسط كبير من العمل في البيت وخاصة في ذلك المجتمع القاسي الذي كان الرجال فيه يمتنون الحرب والرعي ، ثم ان المرأة هي الوسيلة الوحيدة لانتاج الرجال الذين يزيدون قوة القبيلة في

(١) الاغانى : ج ٧ ص ٢٦ وكذلك ابن منظور : لسان العرب مادة سم .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٤٢ - ٣ .

(٣) جمعة : ص ١٢ .

السلم والحرب • وخاصة اذا كان أولادها « نجباء » قادرين على أن يكونوا لانفسهم مكانة مرموقة في المجتمع • ولا ريب ان المرأة كانت تقوم بنفسها بدور في الحروب ، كتضميد الجرحى ورعايتهم وتزويد المقاتلين بالزاد والماء ؛ هذا الى أن المرأة قد تكون مصدر ربح لوليها الذي يأخذ عند زواجها صداقا • وأخيرا فان المرأة قد توحى للشعراء بالخيال وللرجال بالطموح وقد تدخل في البيت بهجة وحياء روحية جميلة^(١) •

وقد أعطتها هذه الخدمات مكانة مرموقة في المجتمع ، فكانت تعتبر من أهم عناصر الشرف ، والدفاع عنها من المروءة التي تستحق الفخر ، كما لا يجوز رفض من يستجير بها • ولا أدل على احترامها من مخاطبتها بالحرمة من الاحترام وبربة البيت كدليل على تقدير مكاتها فيه •
يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمي اليك رجال القوم والقربا^(٢)

السواد :

والواقع ان المرأة كانت تلقي على الرجال أعباءً ثقيلة في مداراتها والمحافظة عليها من اعتداء الآخرين أو من الفقر أو عاديات الزمن • وقد أدى بهم هذا الى الاغتيال من ولادتها وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك « واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم • يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب » (النحل ٥٧ - ٩) « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين • واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » (الزخرف ١٦ - ١٧) • وقد أدى هذا بالبعض الى أن يثد البنات تخلصاً مما قد تلقيه من مسؤوليات •

(١) الحوفي : الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص ١٥٧ • وعن مساهمة نساء قريش في بدر راجع سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٥ - ٦ ، وعن مساهمتهم في أحد ج ٣ ص ٧ ، ٥٨ •
(٢) الحوفي : المصدر السابق ص ١٥٥ - ٦ • المرأة العربية ص ١٦٠
فما بعد •

يروى البعض ان الواد حدث قبيل الاسلام عند بني تميم عندما حاربهم النعمان بن المنذر فأسر نساءهم ، ولما أرادوا اقتداءهن رفضت بنت قيس بن عاصم شيخ بني تميم ، أن تفدى من الأسر وفضلت البقاء مع آسرها ، فقرر مع قبيلته أن يثد كل بنت تلد^(١) . ولا ريب ان هذه النسبة غير دقيقة ، فهناك روايات تشير الى وجودها في قبائل أخرى ، فيروي الميداني عن الهيثم ابن عدي انه كان في قبائل العرب قاطبة يستعمله واحد ويتركه عشرة فجاء الاسلام وقد قل الا في بني تميم فانه تزايد فيهم قبيل الاسلام ، رغم ان جد الفرزدق بذل مجهودا في ابطاله حيث كان يشتري البنات التي يريد أهلهم وأدهن^(٢) ، ويقول السكري بأنه اشترى أربعمئة وأربعة جوار لافتدائهن من الواد^(٣) ؛ ويذكر القرطبي ان الواد كان في مضر وخزاعة^(٤) ، وقد تردد ذكر الواد في القرآن الى درجة توحى بأنه كان مألوفاً في الحجاز «واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب » (النحل ٥٧ - ٩) « يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبائعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزينن ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتاناً يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » (المتحنة ١٢) « واذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت » (التكوير ٨ - ٩) « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون . . » (الانعام ١٣٦) « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءاً على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » (انعام ١٤٠) « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق . نحن نرزقهم وايّاكم » (الاسراء ٣١) « ولا تقتلوا أولادكم من املاق . نحن نرزقكم وايّاهم » (انعام ١٥٠) .

(١) الاغانى : ج ١٢ ص ١٤٤ .

(٢) الاغانى : ج ١٩ ص ٢ - ٥ .

(٣) المحبر : ص ١٤١ .

(٤) تفسير القبطي : ج ٩ ص ١١٧ .

ان الآيتين الاخيرتين (الاسراء ٣١ ، الانعام ١٥٠) تظهران ان الوأد كان لعامل اقتصادي أما الآية الاولى (النحل ٥٧ - ٩) تدل على ان الدافع اليه اجتماعي ، أما الآية (١٣٦ ، ١٤٠ من سورة الانعام) فواضح منها ان الدافع ديني ؛ والواقع ان تقديم الضحايا البشرية للآلهة أمر معروف لدى الساميين ، فقد ذكر القرآن تقديم ابراهيم ابنه قربانا الى الله ، كما أشرنا من قبل الى تقديم المنذر بن ماء السماء الاربعمائة أسرى ضحايا للعزى^(١) ، وأراد عبدالمطلب أن يقدم ابنه عبدالله ضحية وقربانا^(٢) . وربما كان مما يتصل بالدين أن البنت توأد عادة عند ولادتها أو عندما تبلغ السادسة من العمر .

وكثيرا ما تعارض الأم في وأد البنت فيهددها الاب ، ويروي الطبري عن عكرمة في تفسير آية سورة الانعام انه « كان الرجل يشترط على امرأته أن تستحيي جارية وتؤد أخرى ، فاذا كانت الجارية التي توأد غدا الرجل أو راح من عند امرأته وقال لها انت على كظهر أمي ان رجعت اليك ولم تئديها فتخذلها في الارض خدا وترسل الى نساها فيجتمعن عندها ثم يتداولنها حتى اذا بصرتة راجعا دستها في حفرتها ثم سوت عليها^(٣) » .

مكانة المرأة :

على ان الوأد لا يمكن أن يكون دليلا على احتقار العرب للمرأة ، فان بعض الآلهة كن بنات . والواقع ان المرأة كانت لها حقوق غير قليلة ، فكان لها الحق أن تمتلك أملاكا خاصة ، وخير مثل على هذا خديجة زوجة النبي ، وجليلة بنت المهلهل التي كان لها غنم يرعاها أخوها زيد الخيل^(٤) . وهي

(١) انظر ص ٥٥ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٦٧ وانظر أيضا سمث : القرابة

والزواج ص ٢٩١ فما بعد .

(٣) تفسير الطبري : ج ٨ ص ٣٨ .

(٤) الاغانى : ج ١٦ ص ٤٩ - ٥٠ .

لا تفقد هذه الحقوق حتى بعد الزواج ، لان عقد الزواج كان يبيح للزوج حق الحياة مع الزوجة وحق انجاب الاولاد له ، لا حق تملكها . والغالب انها لا تزوج الا بعد أخذ موافقتها ولها الحق في رفض من لا تريده ممن يطلب ندها^(١) . كما انها تظل حتى بعد زواجها مرتبطة بقبيلة أهلها التي تحميها وتدافع عنها^(٢) . ولبعضهن حق الطلاق^(٣) ولذلك فهي تشعر بأن لها شخصية التي لا تذهب بعد الزواج رغم الحقوق الواسعة التي يتمتع بها الزوج . على انه لا ريب ان سلطتها تضعف كلما بعد محل سكني زوجها عن قبيلتها .

الامومة :

وقد حملت هذه المكانة السامية بعض الباحثين ، وخاصة روبرتسن سميث^(٤) ، على القول بأن العرب كانت تتبع في الازمنة القديمة نظام الامومة ، وهو النظام الذي تكون فيه المرأة هي صاحبة السيادة والسيطرة في المجتمع ، ويكون عادة سائدا في المجتمعات التي يمتنن رجالها الرعي والصيد ويقضون معظم أوقاتهم خارج بيوتهم . وقد استدلوا على ذلك من أن المجتمع البدوي العربي يمتنن أهله الرعي والصيد ، وانه يمكن أن نرى في اللغة العربية آثاراً لنظام الامومة : فالرحم تدل على القرابة فهم يقولون « وصل وقطع رحمه » ، والبطن تطلق على احدى الوحدات الاجتماعية في القبيلة ، وان كثيرا من القبائل تسمى بأسماء مؤنثة كخندف ومزينة وعاملة وعائدة ، كما ان كثيرا من الناس كانوا يسمون باسم أمهم . وقد ألف محمد بن حبيب السكري كتاباً قيماً فيمن سمي باسم أمه من

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤١ سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٨ .

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٧٦ . سمث : القرابة والزواج ص ١٦٦ .

فما بعد .

(٣) المحبر : ص ٣٩٨ .

(٤) سمث : القرابة والزواج ص ١٤٥ فما بعد أنظر أيضا ولكن :

الامومة عند العرب (ترجمة بندلي جوزي) محمد عبدالمعيد خان : الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٦٥ جمعة : ص ٧٩ فما بعد . الحوفي : المرأة العربية ص ٥٦ - ٦٧ .

اشعراء • بل يروى ان عوف بن محلم شرط على عمرو بن حجر عندما خطب هذا أم آياس بنت عوف أن • أزوجكها على أن أسمى بنيتها وأزوج بناتها فقال عمرو بن حجر أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا وأما بناتنا فينكحن اكفاؤهن من الملوك^(١) ، وجدير بالذكر ان أغلب الاشياء المهمة في الحياة كالشمس والارض مؤنثة^(٢) • هذا الى أن شخصيات نسوية بارزة ظهرت في المجتمع الجاهلي في الدين والسياسة كالزباء التدمرية وسجاح التميمية وهند زوجة أبي سفيان وخديجة زوجة النبي • كما انه كان للخال مكانة كبيرة في النسب وكان يعتقد ان أغلب صفات الولد تورث من خاله فالعرب تقول نزعه عرق الخال^(٣) ، ويقول الفرزدق • نزعك والام اللثيمة تنزع • ويقول جرير :

لا تطلبن خوؤلة في تغلب فالزنج اكرم منكم اخوالا

غير ان الادلة التي يسوقها ولكن وسميث غير كافية لاثبات وجود الامومة عند العرب بل هناك دلائل تنقض ذلك : فالمجتمع السامي منذ عرف في التاريخ كان يعتبر الاب هو رأس الاسرة • والبعل أو الزوج هو السيد ، والقبائل المنسوبة الى أمها قليلة جدا اذا قورنت بمن دعي باسم أبيه ، كما ان أصلها قد يكون سببه الزواج بامرأتين مما يجعل الاولاد ينتسبون لامهاتهم لكي يتميزوا ، يضاف الى ذلك ان صيغة التانيث للفظ القبيلة لا لاسمها • وان زواج المباضعة والمتعة أحوال شاذة^(٤) •

الزواج :

لقد ذكرنا ان الوظيفة الرئيسية للمرأة هي انجاب الاولاد ، وانه

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ١٩١ •

(٢) فنسبك نظرية الجنس في اللغات السامية (بالانكليزية) انظر في

الزواج أيضا : شترن الزواج في العهود الاسلامية الاولى •

(٣) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ٣٣٥ •

(٤) انظر : جرجي زيدان : الانساب العربية وجمعة ص ٧٥ فما

بعد ، ناشد سيفين : الامومة عند العرب (المقتطف سنة ١٩٣١) •

يتوقف عليها مستقبل العشيرة ومكانة الجيل الجديد ، فهي قد تنجب النجباء والسامين أو بالعكس ، هذا الى انها قد تقوم بدور سياسي واجتماعي هام فالزواج يؤدي الى ترابط الاسر البعيدة ، وقد يؤدي الى ترابط العشائر مع بعضها ؛ فان رابطة الفرد مع عشيرة أخواله قد لا تقل قوة عن رابطة مع أعمامه وفي هذا أثر كبير على تقارب الناس وتعاونهم •

لذلك كانت العرب تهتم باختيار الزوجة ، وكانوا يهدفون دائما أن تكون زوجتهم كفوءاً وأن تكون من النجيبات المتوفرة فيهن النجابة والذكاء والجمال • ويمكن أن نستنتج من أوصاف النساء المعجبات للشعراء بأن العربي كان يستدوق المرأة اذا كانت طويلة العنق فارعة القامة لينة الجسم ممثلة الذراعين والساقين عظيمة الوركين ناعمة البشرة طيبة رائحة الفم •

الزواج بالاباعد :

لقد كانت العرب تعتقد ان الزواج بالاباعد أدعى الى انجاب النجباء من الاولاد^(١) ، الا انهم قلما يميلون الى الزواج خارج العشيرة ، لان هذا يستلزم منهم أن يأخذوا من ترضى بترك عشيرتها وأهلها لتسكن مع عشيرة زوجها الغريبة البعيدة عنها ، والا فان الرجل اما أن لا يرى زوجته الا فترات قصيرة يزورها خلالها ، أو ان عليه أن يسكن مع عشيرة زوجته الغريبة عنه والتي قد لا تعطف عليه • لذا فان مثل هذا الزواج كان في الغالب مقصورا على رؤساء القبائل الذين يريدون مثل هذا الزواج لاسباب سياسية أو لكي يصاهروا من هو كفوء لهم • وقد يتزوج الخلعاء أيضا مثل هذا الزواج من خارج قبيلتهم الاصلية ، ويختارون زوجاتهم من القبيلة التي تجبرهم ، وهو أغلب شيوعا • وتستطيع المرأة الطلاق لمجرد تغيير باب خباتها او تضع عليه حجابا •

الزواج الداخلي :

فالزواج الشائع عند العرب اذاً هو الزواج في داخل العشيرة ، فهو

(١) الحوفي : المرأة العربية ص ١٢٦ •

أدعى الى أن تحافظ العشيرة على انسجامها ووحدتها ، ويتم عادة بأن يخطب الرجل ، أو من يرسله ، البنت من أبيها أو وليها وهو أقرب أقربائها الكبار . وتستشار المرأة عادة في الزوج ، وقبلما تجبر على الزواج بمن لا ترغب . وليس من الضروري أن تكون موافقتها بالنطق ، بل ان سكوتها يكون دليلاً على رضاها . وقد تخطب الفتاة عند الطفولة ، وتكون ملزمة أدبياً بالزواج عندما تكبر ، ولكن يحق لها أن ترفض من يتقدم لطلب الزواج منها .

المهر :

وعلى الخطيب أن يدفع بعد الموافقة مهراً لأبيها ، ويختلف مقداره باختلاف مركز الخطيب وابيه أو الفتاة وأبيها^(١) . ولا ريب ان العرب كانت تراعي في تزويج بناتها الاكفاء . وقد تعطى المرأة صداقاً أو هدية لها . ولا يحق للرجل استرداد الصداق ، ولكن يحق له رد المهر اذا لم يتم الزواج ، بل انه كان الزوج أحياناً يطلب رد المهر اذا ماتت زوجته ، أو قد يطلب من أبيها أن يزوجه باختها بعد موتها .

واذا مات الرجل فلائنه الاكبر حق الزوج بها من دون مهر لان الاب كان قد دفع المهر . ويدعى هذا الزواج زواج الضيزن وقد حرمه القرآن بقوله تعالى « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » (النساء ٢٢)^(٢) .

كما ان القرآن منع استرداد ما يعطى للمرأة (الطلاق مرتان ، فامسك بمعروف أو تسريح باحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله . (البقرة ٢٢٩) . وان طلقتموهن من قبل

(١) الحوفي : المرأة العربية ص ١٤٩ ، ١٥١ جمعة : ص ٤٤ فما بعد ،

سمث : القرابة والزواج عند العرب القدماء ص ٥٠ فما بعد .

(٢) تفسير الطبري : ج ٤ ص ٢١٧ . مصعب الزبيري : نسب

قريش ص ١٠ ، ٩٩ . ابن قتيبة : المعارف ص ٥٠ - ٥١ . المحبر : ص ٣٢٥ .

أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا أن يعفون أو يعفو
الذي بيده عقدة النكاح » (البقرة ٢٣٧) « وان أردتم استبدال زوج مكان
زوج وأنتم احداهن قطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً
مبيناً . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقاً
غليظاً » (النساء ٢٠) .

وقد يستعاض عن المهر بأن يدفع الخطيب أخته لأخ خطيبته بدل
المهر ، ويدعى مثل هذا الزواج زواج الشغار ، وقد حرمه الاسلام فقال
تعالى « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه فكلوه
هنيئاً مريئاً » (النساء ٤) (١) .

تعدد الزوجات :

وللرجل حق الزواج بأكثر من واحدة . ولا ريب ان تعدد الزوجات
موجود عند معظم الشعوب القديمة والابتدائية ، وله أهمية كبرى في تكثير
عدد المولودين ، وتصريف النساء الفائضات في المجتمع الذي يزيد فيه عدد
النساء على الرجال ، هذا الى أنه قد يحل مشكلة العقم . أي ان الرجل
يحتفظ بزوجه العاقر اذا كان راضياً عنها ، ويتزوج بجانبها من تنتج له
نسلاً . ويقول الطبري نقلاً عن الضحاك انه كان للرجل أن يتزوج
عشرًا (٢) ؛ ويعدد السكري أسماء عدد من الثقيين تزوج كل منهم
عشرًا (٣) . وقد حدد الاسلام عدد الزوجات بأربعة « وان خفتم الا
تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ،
(النساء ٣) . وكان يجوز الجمع بين الاختين فحرم الاسلام ذلك « حرمت
عليكم امهاتكم . . وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف » (النساء ٢٣) .

(١) تفسير الطبري : ج ٤ ص ١٦٢ . أما عن الاحاديث النبوية عن
الشغار فانظر فنسنتك : الفهرتس المفصل لالفاظ الحديث النبوي مادة شغار ،
جمعة : ص ٤٠ - ٤١ .

(٢) تفسير الطبري : ج ٤ ص ١٥٧ .

(٣) المحبر : ص ٣٥٧ وانظر أيضا جمعة ص ٥٩ فما بعد .

التسرى :

وللرجل أن يمتلك ما شاء من الاماء . وقد أقر الاسلام تملك الجواري « وان ختمت ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان ختمت ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم » (النساء ٣) « حرمت عليكم امهاتكم .. والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم .. ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » (النساء ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥) (انظر أيضاً النساء ٣٦ ، النحل ٧١ ، المؤمنون ٦ ، النور ٣١ و ٣٣ ، ٥٨ ، الروم ٢٨ ، الاحزاب ٥٠ ، ٥٢ ، الماعز ٣٠) . ولكن مكانة الاماء والسراي أقل من مكانة المرأة الحرة ، وأولادها اخط مكانة من أولاد الحرائر .

غير انه رغم فوائد تعدد الزوجات ، فانه لم يكن عاماً ، لأنه كان يلقي على الرجل عبئاً اقتصادياً ، فضلاً عما يخلقه من مشاكل عائلية واجتماعية ، وما يحدثه من خصومات بين الضرائر .

نكاح الرهط :

والسائد في الجاهلية أن يختص المرء بزوجته ، ولكن هناك نوعاً من الزواج يدعى زواج المشاركة أو الرهط يشترك فيه عدة رجال بزوجة واحدة . ولعل أصل منشئه الاسرى وصعوبة توزيعهن فتعطى لكل جماعة فتاة من الاسرى يشتركون فيها . وقد يكون منشؤه الصعوبات المالية في الزواج فيشترك الاخوة في زوجة واحدة . أو قد يكون بسبب الوراثة ، اذ يرث الاولاد زوجة أبيهم . يشتركون فيها ، وقد روى البخاري عن عائشة انها ذكرت أربعة أنواع من الزواج ، أحدهما هو نكاح الرهط وهو (أن يجتمع الرجال ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فاذا حملت ووضعت ومر ليل بعد أن تضع حملها أرسلت اليهم فلم يستطيع رجل منهم أن يمتع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم قد عرفتم الذي من

أمركم وقد ولدت فهو ابنك يافلان تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل^(١) . وفي مثل هذا الزواج تختار الام عادة الاب من بين أزواجها المتعدين ، أو قد يسمى الولد باسم أمه . ولا ريب ان هذا النوع من الزواج كان قليل الانتشار وشاذاً ، وكان يتطلب من الرجل تضحية كبيرة في عواطف الابوة ، والانانية التي هي عماد الحياة الزوجية .

المتعة :

والزواج عقد دائم بين الرجل والمرأة ، غير أنه كان في بعض الاحيان يحدد الزواج بمدة معينة يكون خلالها الاتصال حلالاً ، فإذا انتهت المدة حرم اتصال الرجل والمرأة . وتختلف مدة العقد حسب رضاء الطرفين ، ولكن يجوز تمديده بموافقة المرأة ، ويكون الاولاد تابعين عادة لأهمهم ، فهي التي تسميهم وتسبهم .

وفي القرآن آية قد يفهم منها المتعة ، وان لم تكن صريحة في ذلك « والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيما نكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة و لا جناح عليكم فيما تراضيتن من بعد الفريضة » (النساء ٢٤) .

وقد أباح الرسول المتعة فترة من الزمن ، في غزوة بني المصطلق وفي نزع مكة لمدة ثلاثة أيام^(٢) ، ثم حرمت فيما بعد^(٣) . والمتعارف ان الذي

(١) البخاري : كتاب النكاح الباب الخامس عشر . وانظر ايضا سمث : القرابة والزواج عند العرب القدماء ص ١٤٥ فما بعد ، جمعة : ص ١٤ فما بعد .

(٢) عن ترخيص الرسول بنكاح المتعة انظر كتب النكاح في البخاري : الباب ٣١ ، النسائي الباب ٧١ ، مسلم ٣ - ١٥ ، ابن ماجة الباب ٤٤ ، الدارمي الباب ١٦ ، ابن حنبل ج ١ ص ٤٢٠ ، ٤٣٢ ج ٣ ص ٣٢٥ ، ٣٥٦ ، ٣٩٣ ، ٣٧٠ ج ٤ ص ٤٧ ، ٥١ .

(٣) البخاري : كتاب المغازي : الباب ٣٨ ، كتاب النكاح =

شدد في تحريمها هو عمر الذي استند على شهادة شهود في تحريم الرسول لها^(١) . ولا ترى الشيعة ان هناك دليلاً ثابتاً على تحريم الرسول لها ، ولا تعترف بصحة الاحاديث المنسوبة الى النبي في تحريمها ، كما لا تعترف بأن تحريم عمر لها يقر الالتزام الشديد في المنع ، فهي لذلك لا تنكرها . والواقع ان المتعة تحل مشكلة العلاقات الجنسية وخاصة في المجتمعات التي تتخذ موقفاً صلباً تجاهها كالاسلام ، وخاصة في الاحوال التي يضطر فيها المرء الى الاقامة موقفاً بعيداً عن أهله . ولكنها لا تحقق انفاية الاساسية من الزواج وهو ايجاد حياة اجتماعية مستقرة دائمية .

لقد كان الطلاق مباحاً وهو أنواع : منه الطلاق المعروف ، والعادة أنه يتم الاتفاق بين الزوج وابي الزوجة لكي يسترد الزوج الصداق . ولكن الزوج أحق بمطلقته من غيره اذا أراد الزواج بها . ويقول السكري : (انه كانت عند الجاهلية ثلاث تطليقات . وقد أقر الاسلام ذلك ، وحرم جواز الرجوع الى الزوجة بعد انتطليقات حتى تنكح زوجاً غيره) « الطلاق مرتان فامسك بمعروف أو تسريح بإحسان » . فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ، فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقبوم يعلمون ، (البقرة ٢٢٩ - ٢٣٠) .

وهناك أنواع أخرى من الطلاق منها الظهار^(٢) ، وهو أن يقول

= الباب ٣١ ، كتاب الذبائح : الباب ٢٨ ، كتاب الحيل : الباب ٤ ، مسلم : كتاب النكاح ٢١ - ٣٢ ، ابن حنبل : ج ١ ص ٧٩ ، ١٠٣ ، ١٤٢ ، ج ٢ ص ٩٥ ، ١٠٣ ج ٣ ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ ج ٤ ص ٥٥ .

(١) مسلم : كتاب النكاح ص ١٦ - ١٧ . ابن حنبل : ج ٣ ص ٣٠٤ ، ٣٢٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣ ، ٣٨٠ . المسعودي : مروج الذهب ج ٥ ص ١٨٦ - ٩ . ويذكر السكري ان خالد بن عبد الانصاري وزيد بن ثابت وسلمة بن الاكوع وعبدالله بن عباس كانوا من أصحاب النبي ويرون المتعة (المحبر : ص ٢٨٩) .

(٢) البخاري : كتاب الطلاق : الباب ٢٣ . ابن حنبل : ج ٤ ص ٣٧ ، ج ٦ ص ٤١٠ .

الرجل لزوجته أنت علي كظهر أمي أو اختي فتحرم عليه ، وقد أشار إليها القرآن « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا » (المجادلة ٣ ، ٤) « ما جعل الله لرجل من قليلين في جوفه وما جعل أزواجكم اللاتي يظاهرون منهن امهاتكم » (الاحزاب ٤) .

ومن أنواع الطلاق الايلاء وهو أن يقسم الرجل يميناً بالآيئها^(١) ؛ وقد أقره الاسلام ، ولكن حدده بأربعة أشهر يقرر بعدها الرجل فيما اذا كان يبقى المرأة أم ينفصل عنها « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فان فاؤا فان الله غفور رحيم ، وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم » (البقرة ٢٢٦ - ٢٢٧) .

وقد تبقى الزوجة في عصمة الرجل ولكنه لا يمسه ، يريد بذلك أن يخرجها ويستغلها مادياً لترجع ما دفعه لها وقد حرم القرآن ذلك « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف » (البقرة ٢٣٠ - ٢٣١) « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كثرهن ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة » (النساء ١٩) .

واذا مات الرجل فلا يحق للمرأة الزواج الا بعد أن تربص سنة فلا تتزين خلالها^(٢) ، وقد اشار القرآن الى ذلك بأسلوب يفهم منه اقراره لذلك « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا الى الحول غير اخراج فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف » (البقرة ٢٤٠) .

(١) البخاري : كتاب الطلاق : الباب ٢٣ .

(٢) تفسير الطبري : ج ٢ ص ٣١٦ - ٣١٩ ، ٣٦١ . المحبر :

ويبدو ان صداقة النساء للرجال ومخادنتهن كانت معروفة عند العرب ، ذكرها القرآن في معرض الانكار « محصنات غير مسافحات ولا متخذات اخدان » (النساء ٢٥) . كما ان القصص الكثيرة التي يرويها الشعراء عن أيام الانس التي قضوها مع صديقاتهم اللواتي كثيراً ما تذكر اسمائهن ، وخاصة في شعر امرئ القيس ، انما هو دليل على الحرية الواسعة التي كانت تعطى لمثل هذه العلاقات . والغريب اننا قلما نسمع بشاعر قتل أو هدد لوصفه ليالي الانس وتمتعه بخديناته ، وقد ظلت آثار ذلك بعد الاسلام كما يظهر من دراسة حياة عمر بن أبي ربيعة وغيره من شعراء الحجاز .

أما الزنا فقد كان موجوداً ، وان كنا لا نعلم مدى انتشاره ، وقد ذكره القرآن وشدد في تحريمه بعدة آيات « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلاً » (الاسراء ٣٢) « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليسهد عذابهما طائفة من المؤمنين . الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين » النور (٢ - ٣) « يا ايها النبي اذا جاءك المؤمنات يبائعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين بهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » (الممتحنة ١٢) « والذين لا يدعون مع الله الاها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً » (الفرقان ٦٨) .

وفي القرآن تعبير آخر عن الفاحشة ، وقد تكررت في القرآن اربعاً وعشرين مرة ، مقرونة بالكبائر وبأنها من عمل الشيطان ، وان الله لا يأمر بها ، وهم يفعلونها لانهم وجدوا آباءهم عليها ، وتأتي النساء بالفحشاء ، « واللاتي يأتون الفاحشة من نساءكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سيلاً »

(النساء ١٥) و « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن • الا أن يأتين بفاحشة مبينة » (النساء ١٩) « ومن يأت منكم بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » (الاحزاب ٣٠) « يا أيها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله » (الطلاق ١) وكل هذه الآيات تدل على ارتكاب بعض النساء الفحش الذي هو عمل وجدوا آباءهم عليه (انظر الاعراف ٢٨) ويدلهم عليه الشيطان (انظر البقرة ١٦٩ ، ٢٦٨) وهي حرام (الانعام ١٥١ ، ٣٣) ؛ ومع أن الزنا فاحشة ومقت وساء سبيلا (الاسراء ٣٢) الا أنه يصعب الجزم بأن الفاحشة مرادفة للزنا ، بل الأرجح ان اسم الفاحشة اسم عام لرذائل اجتماعية كانت موجودة ولا نعرف تفاصيلها •

وقد أشار القرآن ايضاً الى السفاح وهو الاتصال الجنسي غير الشرعي ، وتردد ذكره مقابل المحصن « واحل لكم ما وراء ذلك أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين » (النساء ٢٤) « •• اذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان » (المائدة ٥) « وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات » (النساء ٢٥) •

لقد كان البغاء موجوداً ، وقد ورد ذكره في القرآن « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصناً » (النور ٣٣) وقد وردت كلمة الفتيات في آية اخرى بمعنى الامة « فمما ملكت أيما نكم من فتياتكم المؤمنات » (النساء ٢٥) ، ويورد الطبري في تفسير هذه الآية أسماء عدد من البغايا ومن كان يملكهن ، مما يدل على وجوده^(١) • والراجح انه يكثر في الاسواق والمدن كمكة والطائف ، وكان لبيوت البغايا عادة رايات يعرفن بها

(١) تفسير الطبري : ج ١٨ ص ١٠٠ - ١٠٤ • انظر ايضا اغاني

ج ١٣ ص ١٣٤ • الفاكهي : أخبار مكة ص ٣ • ياقوت ج ٢ ص ١٧٥٣ •

ولذا كان يطلق عليهن أحياناً أصحاب الرايات^(١) . ولا ريب أنه لم يكن ينظر اليهن نظرة احترام ، والراجع أن أصل معظمهن من الجواري أو العبيد . وينسب ولد البغي عادة إلى أمه . ولكنه قد ينسب إلى من تختاره أمه ممن اتصل بها ، ولعل أشهر ولد لبغي هو زياد الوالي المشهور الذي كان يسمى باسم أمه سمية ، ثم استلحقه معاوية بنسبه فصار يسمى زياد بن أبي سفيان .

(١) المحبر : ص ٣٤٠ . تفسير الطبري ج ١٨ ص ٥٥ - ٥٧ .

الفصل الحادي عشر التنظيمات السياسية عند البدو

القبيلة :

القبيلة هي الوحدة السياسية عند البدو ، وهي كما رأينا ، جماعة من الناس ينتمون أو يعتقدون أنهم ينتمون الى أصل واحد مشترك ، ويرحلون ويقيمون سوية ، وتربطهم رابطة العvisية وهي كما قال ابن خلدون :

« ولا يصدق دفاعهم وزيادهم الا اذا كانوا عvisية وأهل نسب واحد ، لانهم بذلك تشدد شوكتهم ويخشى جانبهم ، اذ نعمة كل أحد على نسبه وعvisيته أهم ، وما جعل الله في قلوب عباد من الشفقة والنعمة على ذوي أرحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم^(١) » .

ويتضح من تعريف ابن خلدون هذا أن العvisية هي شعور التماسك بين من تربطهم رابطة دم نقية ، فهي لا توجد الا حيث يوجد المجتمع المعزول ، وانها دافع غريزي في الانسان ، قائمة على أساس رابطة الدم ، فهي دائمية ثابتة ، طبيعية لا مكتسبة ، وفيها عنصر أخلاقي يجعلها قوة اجتماعية وسياسية ، ولها أهمية كبرى ، اذ انها قوة سياسية دفاعية تربط بين الناس وتكتلهم فتعمل بذلك على بقاء المجتمع وتحفظ كيانه . فالعvisية اذاً تشبه الشعور القومي في عصرنا الحاضر . ولكن رابطة الدم فيها أقوى وأوضح مما في القومية .

وتستوفي القبيلة كافة مقومات الدولة سوى الارض المعينة الحدود . ذلك ان فيها شعباً يرى انه ينتسب الى أصل واحد ، ولها سيادة تامة ، كما

ان لها تقاليد وعرفاً تتبعه كالدستور ولا ينقصها الا أرض مثبتة الحدود •
اذ أن القبيلة قلما تثبت في مكان واحد أمادا طويلة • بل تتجول من مكان الى
آخر ، وان كانت في غالب الاحيان تكون لها منطقة خاصة تتجول في نطاقها
وهي ما تدعى بالدار • أو قد تنشئ لنفسها حى أي منطقة ثابتة من الارض
لا يجوز لغيرها أن يخترقها أو يستعملها^(١) •

الفردية والتماسك :

والبدوي يعتز بفرديته وشخصيته ، ويرى نفسه مساوياً لغيره من
الافراد في الاصل والحقوق والواجبات ، وينفعل اذا حاول أحد مس هذه
الفردية أو جرح شعوره بالمساواة • الا أن فرديته منسجمة مع الجماعة
فهو متماسك مع جماعته ينصر اخوانه ظالمين أو مظلومين ويلبي دعوتهم
اذا طلبوا النجدة أو اذا دهم القبيلة خطر يهددها بل انه يرضى عن طيب
نفس أن يتحمل بعض مسؤولية أعمال غيره فيساهم في دفع الدية عنهم
ويشارك في الحروب التي قد تنشب نتيجة سوء تصرف أحد أفراد قبيلته أو
نتيجة الاعتداء عليهم • والواقع أن الباقيين ينظرون اليه كجزء لا ينفصل
عن القبيلة ، فقد يحملونه جريرة غيره ويقتلونه مقابل قتل لهم أحد
أفراد قبيلته^(٢) •

ففردية البدو اذن ليست مظهرا للتفكك السياسي بل هي في نفس الوقت
يرافقها الشعور بالجماعة الذي يزداد قوة وقت الخطر فيحمل البدوي أن
يتناسى هذه الفردية تجاه المجموع ، وبدون هذا التعاطف لا تستطيع القبيلة
أن تعيش وتندوم •

على انه رغم ان أساس التماسك في القبيلة هو العصية أو الشعور
برابطة الدم ، الا أن هذا لا يجعلها ثابتة جامدة ، كلا بل هي قابلة للتوسع

(١) انظر لوكجارد : الضرائب الاسلامية في الازمنة الاولى ص

(٢) انظر في طبيعة البدوي : أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٣٧

فما بعد • بشر فارس : مباحث عربية ص ٧٥ فما بعد • لامنس : مهد
الاسلام القسم الثالث (بالفرنسية) •

أو الانقسام • إذ أن حجم القبيلة يتوقف على المراعي ، وإن عددها إذا ازداد لدرجة لا تحمله مراعي مواشيتها ، فأنها تشطر الى أجزاء صغيرة • وبجانب هذا فإن القبيلة يمكن أن تقبل في عضويتها بعض الغرباء ليكونوا أخلافا فيها • ويحملون واجبات وحقوق مشتركة • ولكنهم يحق لهم مغادرة القبيلة متى شاءوا فدرجة عصبيتهم أضعف وحقوقهم أقل •

العلاقات السياسية :

والعلاقات السياسية البدوية ذات صبغة أخلاقية ، فهي تتمثل بالشعور التعاوني الذي يعبر عن نفسه بواجب العصية والاخوة وتحمل الفرد ، وأن يرحم الضعيف ويزور المريض ويطعم الفقير ويرعى الارملة ويشيع الموتى ويبدل في أيام القر والضنك لاطعام الضعيف • وواجباته تكون في الدرجة الاولى نحو أقربائه ثم نحو العشيرة التي يجب عليه أن يلبي نداءها في الحق والباطل • والعشيرة بدورها تقوم ببعض الواجبات عن الافراد كأن تفك العاني وتعين على دفع دين المدين ، أو تدفع الدية أو تأخذ الثأر • وهذه الصبغة الاخلاقية لا تقتصر على العلاقات الداخلية ، بل تشمل حتى العلاقات الخارجية ، إذ رغم عدم وجود قوانين دولية أو قوة عليا ملزمة تطيعها العشائر ، فانه كانت هناك تقاليد خلقية متينة من الوفاء ورعاية المهود والانفاقات • وكثيرا ما تكون مصطبغة بصبغات دينية ، لذا تكون قوية •

غير انه لا ريب وجد بعض من لا يخلصون في واجباتهم نحو أفراد العشيرة بل يتبعون مصالحهم الذاتية ويقومون بأعمال قد تجر للقبيلة عدة مشاكل كافتراء جرائم القتل أو حماية المجرمين أو انتهاك الحرمات • فالحرية الفردية التي يتمتع بها البدوي اذا لا يحدها قانون الزامي ، والمسؤولية الاجتماعية لم تكن واحدة بل هي أقوى تجاه العائلة منها تجاه بقية أفراد العشيرة •

ان زمالة الدم هي مبث كافة الالتزامات السياسية والحربية في القبيلة • فعلاقة الفرد بالقبيلة كعلاقته بعائلته • وليس هناك فرق بين الشيء العام والخاص • بل ان الافراد ، نظريا على الاقل ، لهم جميعا نفس الحقوق

والواجبات ، ويقومون بواجباتهم نتيجة شعورهم بالمسؤولية نحو روح الاخوة والجوار ، لا نتيجة الزام سياسي أو قانوني ، اذ لم يكونوا ليحتملوا وجود طبقة مصطنعة فوقهم تحكمهم فلم تكن هناك محاكم ادارية • ولا ارادة مركزية للحكومة • ولا ضرائب أو واردات أو موظفون خاصون للجباية • اذ أنهم يشتركون جميعا في ادارة وظائف المجتمع^(١) •

المجلس :

لكل قبيلة عادة مجلس هو ندوة لهم^(٢) • يستطيع كل فرد من أفراد القبيلة حضوره والتحدث فيه متى كان مجتمعا • وليس هناك أوقات معينة لاجتماعه • والغالب أن يجتمع يوميا في المساء في بيت شيخ القبيلة ، وقد يجتمع في النهار ، أو قد يرسل مناد ينادي الناس للاجتماع • فهو لهم كالبرلمان •

يتحدث الناس في المجلس في مختلف الشؤون الخاصة ، ويبحثون الامور والمسائل التي تخص القبيلة ويناقشون الامور السياسية والخارجية فيه ، ولكل فرد فيه الحق في ابداء رأيه والدفاع عنه • ولكن الغالب أن يسود ذاقو اللسان أقوىاء التفكير والمنطق والحجة في المناقشات ، وذلك بحكم مواهبهم لا بجكم القانون • ومن مصادر الفخر أن يكون الانسان من المتحدثين في المجالس • كما ورد ذلك في أشعارهم :

ولكن سبكني خطوب ومجلس	وشعث اهينوا في المجالس جوع
حمل الوية شهاد اندية	قوال محكمة جواب افلاق
حمل الوية هباط اودية	شهاد اندية للجيش جرار

(١) انظر في ذلك المقال القيم الذي كتبه ولهاوزن عن المجتمع البدوي في الجزء السادس من تاريخ العالم للمؤرخين (بالانكليزية) •

(٢) اعتمدنا في بحث المجلس والرئيس وواجباته على البحث المفصل الذي كتبه لامفس في القسم الثالث من كتابه (مهد الاسلام) والذي وقى فيه ذكر الاشارات في الكتب العربية عن هذه الامور • ولنالينو بحث قيم في النظام السياسي البدوي •

إذا سيد منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فصول
لكم نائل غمر وأحلام سادة والسنة يوم الخطاب مسالقي
وفي هذا المجلس ينشد الشعراء أشعارهم • ويظهر الخطباء مواهبهم •
ويسمع الناس الآراء الطريفة والاحاديث الطيبة ، فهو إذاً مدرسة أدبية
تربي الأفراد على قوة البيان واللغة وتكشف المواهب الادبية والسياسية •
وتتخذ قراراته بعد المناقشات ، بالاغلبية • والغالب ان المعارضة تدعن لهذه
القرارات •

الرئيس :

تتجلى وحدة القبيلة بوجود شخصية عليا يطلق عليها أسماء مختلفة
كالأمير والرب والرئيس والشيخ • فأما الرب فكان يستعمل قبل الاسلام
للمالك أو الحاكم • فيقال رب الشام ورب الحجاز ورب الخورنق كما
يقال رب انقبة ورب الرافضات الى منى ورب الداميات نحورها وأرباب
المقول والخطاب • ولكن منذ هجرة النبي وسيادة الاسلام بدأ هذا التعبير
يتحدد في الله • اما تعبير الامير فكان عادة يستعمل للجيش فيقال أمير
السرايا وأمراء الشام ، واستعمل لقب امير المؤمنين فيما بعد باعتبار ان المؤمنين
كانوا محاربين •

ولقب الرئيس استعمل في الغالب مرادفاً للقائد ، فهو بمثابة الرأس
للقبيلة فيقال (رئيس ورئيس فارس • ورئيس ربيعة) •
اما الشيخ فكان المقصود فيه عادة الكبير السن سواء ساد أم لم يسد •
واكثر الالقاب اطلاقاً هو السيد • ولما كان السيد عادة كبير السن
وقائد القبيلة فكان أحياناً يوصف بالشيخ أو الرئيس أو الامير •

صفات الرئيس :

وكان المطلوب ممن يرأس أن يتصف ببعض الصفات الخلقية التي
تعد حيوية للمجتمع البدوي • وقد عددها الجاحظ فقال • كان أهل
الجاهلية لايسودون الا من تكاملت فيه ست خصال : السخا والنجدة والصبر

والحلم والتواضع والبيان » • وقد أجاب قيس بن عاصم لما سئل كيف
سودك قومك؟ فقال « بئذ الندى وكف الاذى ونصرة المولى وتمجيد القرى •
فأصبحت في أمر العشيرة كلها كذى الحلم يرضى ما يقول ويعرف
وذلك اني لا اعادي سراحهم دلا عن اخي حراتهم اتكف
واني لأعطي سائلي ولربما اكلف ما لا أستطيع فاكلف
واني لأعفو عن سفيهم واحلم عن جاهلهم وأسمى في حوائجهم
وأعطي سائلهم^(١) » •

وقد رويت أقوال كثيرة تمتدح سخاء الرؤساء وبذلهم وخاصة أوقات
الشدة • وذلك لا ريب أمر هام في المحيط البدوي الفقير والمعرض لمعاديات
الدهر ونكبات الطبيعة • اما البيان فضروري للانفصاح عن الرأي والاقناع
والادارة في مجتمع ليس فيه سلطة الزامية •

واما الحلم فيتطلب الذكاء والتسامح والنصح ، والنشاط ، وهي
ضرورية لشعب يشعر بفرديته المتطرفة وينقاد لمواظفه العنيفة وليس للرئيس
عليه سلطة قانونية أو عقاب •

وتتم الرئاسة بانتخاب حر بين الافراد لا بالوراثة • واذا حدث
وانتخب رجل بعد أبيه فان ذلك يكون عادة لما يتصف به الرئيس الجديد
من مميزات تؤهله للمنصب ، لا لبنوته للرئيس القديم • والواقع ان العرب
لم تكن تفضل أن يخلف الابن أباه لما يجره ذلك من تقرير مبدأ الوراثة
في الرئاسة وما قد يؤدي اليه من تقييد حرية البدوي • وليس في تاريخ العرب
قبل الاسلام أكثر من أربع أسر تتابع فيها أربعة أحفاد بالتعاقب على
الرئاسة^(٢) •

على انه لا بد للرئيس المنتخب من عصية له في داخل العشيرة ، وقراة

(١) الالوسي : بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ج ٢ ص ١٨٧ •

(٢) مقدمة ابن خلدون : (فصل في ان نهاية الحسب في العقب الواحد

أربعة أباه) ص ١٣٠ - ١٣١ • انظر كذلك الاغانى : ج ١٧ ص ١٠٦ •

تشد ازره وتسنده وتعينه على تنفيذ مطالبه • ومثل هذا السند يعتمد على القوة العددية وعلى الحسب والشرف • ومثل هذا الشرف لا يتوقف على فعال الخير فقط • بل على نقاوة الدم أيضا • وعلى هذا فلا تتم الرئاسة الا للصليبة أما الموالي والخلعاء فلا مجال لهم للحصول عليها^(١) •

واجباته :

كانت على الرئيس وجائب غير قليلة ، فعليه أن يعين الضعفاء ويواسي المنكوبين ويفتح في بيته مضيفا للضيوف والوافدين ومندوبي العشائر الاخرى • ولكنه لم يحتكر هذه الاعمال التي قد تستنزف ثروته ، فقد يقوم أي فرد في العشيرة بهذا العمل •

وعليه أن يدير المناقشات في المجلس • ويتولى المفاوضات الدبلوماسية مع القبائل الاخرى أو يبدي رأيه ، ولكن ليست له سلطة قانونية لمنع أحد من الكلام أو اقرار رأي دون آخر أو أن يفرض رأيه الا بقدر ما له من حجة في الاقتناع •

وعليه أن يفض المنازعات ويحكم في الخلافات اذا لجأ اليه المتخاصمون ، ولكنه لا يحتكر وظيفة القضاء ، فقد يلجأ المتنازعون الى غيره من الحكام والعارفة الذين يشتهرون بدقة الحكم والتمييز والعدالة سواء في العشيرة أو خارجها •

وهو يقود العشيرة في أوقات الحرب • ولكنه لا يحتكر هذا • فقد يظهر قائد مبرز أو فارس شجاع يقوم بالقيادة •

وهو يقسم الغنائم بين المحاربين وله فيها حقوق أجملها البيت التالي :-

لك المرباع منها والصعايا وحكمك والنشيطه والفضول

(١) مقدمة ابن خلدون : (فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية) (فصل في أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم) ص ١٢٥ - ١٣٠ •

فالمرباع هو ربع الغنيمة • والصفايا هي الاشياء التي يصطفها الرئيس لنفسه من خير ما يظن والحكم هو أن يبارز الفارس فارساً قبل التقاء الجيشين فيقتله ويأخذ سلبه فالحكم في ذلك للرئيس ان شاء رده في جملة المظن • والنشيط ما أصاب الجيش في طريقه قبل أن يصل الى هدفه • والفضول ما يفضل من الغنيمة فلا ينقسم • وقد أشارت المصادر الى بعض ذوي المرباع كعمد بن حاتم^(١) ورواحه بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤي كان سيداً يسير بالمرباع في قومه وولد الحارث بن رواحه بن منقذ عبد الحارث وعبد مناف بن عبد الحارث وسار بالمرباع فولد عبد مناف عبد سار بالمرباع أيضا •

وهو يقوم بكل هذه الوظائف والواجبات معتمداً على قوة الاقتناع وقوة شخصيته ونفوذه اذ لم تكن له سلطة الزامية يجبر بها أفراد القبيلة على تنفيذ قراراته ، فلم تكن له شرطة لتنفيذ أوامره أو سجون يسجن بها من يعصيه • انه يفاوض أفراد القبيلة ويمارس ضغطاً معنوياً • وهو الاقدم بين أقرانه Primus inter pares له سلطات واسعة ولكن ليست له قوة حاكمة • وهذا ولا ريب لا يكفي لتسيير الشؤون الداخلية أو الخارجية للمجتمع • فعندما تعلن القبيلة الحرب مثلاً لا يستطيع أن يعلن التجنيد الاجباري أو يفرض الانضباط أو يطلب طاعة مطلقة من الافراد • وكلما يستطيع عمله هو الهزء والسخرية والهزاء لمعارضيه ، غير ان صعوباته تكون عادة في تمشية المشاكل الداخلية أما عند حدوث خطر خارجي فيندر أن يمتنع الافراد أو يعصوا رئيسهم •

وقد جرت في الجزيرة محاولات لانشاء نوع من الملكية ، فيما عدا ما قام به المناذرة والفساسة وأهل اليمن فيروي الطبري ان هوزة بن علي الحنفي لبس التاج^(٢) ، ويروي الاصبهاني ان عباس بن أنس الدعلي كانت

(١) طبري ج ٦ ص ٥ ، ابن حزم : الانساب ص ١٦١ •

(٢) الطبري ج ٢ ص ١٣٣ •

بنو سليم أرادوا عقد التاج على رأسه^(١) ، وفي يوم برزه كان « مالك بن خالد بن صخر بن الشريد وهو ذو التاج كان بنو سليم بن منصور توجوه ثم ملكوه عليهم فغزى بني كنانه وأغار على بني فراس بن مالك^(٢) » ، كما ان عبدالله بن ابي كان « قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم »^(٣) . ولاريب ان هذا التويج يعني ان لذوي التاج سلطات أوسع مما للشيوخ ، غير ان المعلومات القليلة لا تكفي لتحديد مدى الصلاحيات أو لتوضيح ماهية مناصبهم .

العلاقات الخارجية :

لقد كانت القبيلة تعد نفسها مستقلة استقلالاً تاماً . وفي حالة حرب دائمية مع غيرها . يباح لها أو لافرادها أن تأخذ كل ما تحصل عليه من الغير . فالغزو أمر طبيعي وقانوني عندهم . ودوافعه متعددة . منها الحاجة : فان اجداب الجزيرة العربية وأخطار الطبيعة قد تأتي على ما تملكه القبيلة فتضطر الى الغزو لتذهب من القبائل الاخرى أموالها ومواشيها . وقد تكون دوافع الغزو حب السيطرة والسيادة . ومن هذا القليل معظم الحروب التي شنها المناذرة والفساسنة وكندة . أو قد يكون الغزو نتيجة عامل شخصي كأن يكون رئيس القبيلة حاقداً على قبيلة أخرى لسبب من الاسباب .

وقد حفظت لنا كتب التاريخ والادب أسماء عدد غير قليل من هذه الحروب أو أيام العرب^(٤) كما يدعونها ، ولا ريب ان ما حفظ أقل بكثير من الحروب التي كانت تنشب سنوياً وغفل عن ذكرها الرواة .

وعند دراسة أيام العرب التي يذكرها الرواة تجد ان أغلب هذه

(١) اغاني ج ١٧ ص ٥٥ .

(٢) ياقوت ج ١ ص ٥٦٤ .

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٢١٦ .

(٤) انظر في أيام العرب : نقائض جرير والفرزدق . ابن عبد ربه :

العقد الفريد (الجزء الثاني) . ابن الاثير : الكامل في التاريخ (الجزء

الاول) .

الحروب كانت تنشب بين فروع القبائل الكبيرة ، وقليل جدا منها قامت بين القبائل الكبيرة ، أو بين القبائل اليمانية والمضرية . فان الخصومة بين اليمن ومضر حدثت بعد الاسلام لا قبله .

ثم ان أغلب هذه الحروب وقية أو غزوات قلما تدوم مدة طويلة ، أو تؤدي الى اباده أحد الطرفين أو طرده من أراضيه أو تولد نتائج ثابتة معينة كأن تبقى قبيلة بكاملها خاضعة ومستعبدة لقبيلة أخرى ، فأثارها المادية من قتل وتدمير تافهة اذا قورنت بالحروب الحديثة ولكنها ولا ريب أدت الى حدوث حالة من القلق في الجزيرة . كما أن النهب والاسر الذي يصحبها يؤدي الى عدم الاستقرار في الجزيرة . وكان لها أثر كبير في ظهور تقاليد وعرف يشبه القانون الدولي اليوم ويتعلق بمعاملة الاسرى وفكاكهم وكيفية الحروب . ومثل هذه التقاليد قائمة على مبادئ أخلاقية هي مبادئ الشرف والمروءة . وكانت من أهم المصادر التي كونت قوانين السلم والحرب في الاسلام .

وقد حملت أخطار الحرب وتهديدات الغزو المستمر في الجزيرة بعض القبائل وخاصة الصغيرة والضعيفة منها الى أن تحالف القبائل القوية وخاصة المجاورة لها لتتقي شرها ، أو لتضمن المعونة والمساعدة اذا دهمها خطر مهده . ويكون الحلف اما موقتا وهو الاغلب ، أو دائما وكثيرا ما تسبقه مفاوضات وتمهيدات دبلوماسية وبعض المراسيم كالقسم ولعق الدم وغير ذلك لتوكيده (١) . أو قد يرافقه زواج الرؤساء .

وقد يكون غرض مثل هذه المخالفات التوسع ، أو قد يكون تثبت مركز شخصية بارزة ، ويكون للمتحالفين عادة حقوق وواجبات متبادلة . ولا ريب انه كان للحلف بين القبائل أثر كبير في نشر الامن والسلام في بعض ربوع الجزيرة العربية ، كما كان عاملا مهما في تكوين دول أو شبه دول بينها ، هذا الى ان كثيرا من القبائل الكبيرة تكونت بواسطة التحالف ثم خلقت نسبها لتبرر التحالف .

(١) انظر في الامثلة على ذلك جمعة : ص ١٤٧ فما بعد .

الفصل الثاني عشر

المفاهيم القانونية عند البدو

لم يكن للبدو قانون منظم مكتوب ، بل كانت لهم تقاليد بسيطة واضحة يتمسكون بها أشد التمسك ومفعولها يقتصر على العشيرة ولا يتعداه الى العشائر الاخرى ، وهي تقاليد على بساطتها صلبة جامدة الموهما ويصعب تغييرها ، اذ ان العربي بطبيعته محافظ على سنن آباءه لا يميل لتغييرها ، وقد لقي الرسول مقاومات شديدة عندما كان يريد تغيير سنتهم ، وتجد صدق ذلك في القرآن حيث يذكر في آيات كثيرة بمعرض الذم والسخرية • انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم لمقتدون ، (الزخرف ٢٣) •

ولما لم تكن هناك سلطة تنفيذية تقتص للفرد أو تنزل العقاب بالجاني ، فقد كان يترك للمجنى عليه ان يقتص لنفسه ، وقد تعاونه العشيرة في ذلك ، الا ان الجرم كان يعتبر دائما حقا خاصا وليس هناك حق عام ، فاذا اعفى المجنى عليه لم يكن على الجاني أي عقاب •

والفكرة الاساسية في القانون الجنائي هو القصاص أو الانتقام ، فليس هناك اثر للعقاب الذي يستهدف الاصلاح وما الى ذلك فاذا جرح شخص آخر كان للمجنى عليه ان يطلب أن يجرح الجاني أو يقطع منه عضوا جريا على مبدأ العين بالعين والسن بالسن ، أو قد يطلب تعويضا عن الجرح يتناسب مع الجرح أو القطع وأثره • ذلك ان اساس العقاب هو التعويض عن الخسارة التي الحقت بالمجنى عليه • وقد اتبع هذا المبدأ بالجنايات والجراحات في الاسلام •

اما في حالة القتل ، فانه اذا قتل شخص آخر من عشيرته فان القبيلة تخلمه وتقصيه عنها ، فيفادرها ويصبح خليفا أو طريدا^(١) ، فانه يضطر الى

(١) الاغاني : ج ١٣ ص ٢ العقد الفريد : ج ٢ ص ٧٢ • وقد =

أن يصبح صعلوكاً^(١) سارقاً قاطع طريق ، أو قد يلجأ الى الاماكن المقدسة ليعيش في أمن حرمة ، أو الى قبيلة يحالف رجالاً فيها ، والواقع ان عدداً غير قليل من الحلفاء كانوا من هؤلاء الخلفاء .

واذا قتل رجل رجلاً من غير قبيلته ، فان قبيلة المقتول ترى من واجبها أن تثار له وتقتص من القاتل دون تمييز بين القتل العمد أو غير العمد ، ولكن قبيلة القاتل عادة لا تسلمه بل تحميه ، الامر الذي قد يسبب توتر العلاقات بل واشتعال الحرب بين القبيلتين ، ولكن قد ينتهي الامر بالسلم فيدفع مبلغاً من المال دية لعشيرة المقتول .

وتختلف الدية باختلاف مكانة القاتل أو المقتول ، وحدهما الاقصى ألف بعير وهي التي تدعى دية الملوك . ولما لم يكن هناك تدقيق واضح في مقدار الدية ، فانه قد يحدث خلاف ، اذ قد تغالى عشيرة المقتول بمركزه وقيمه وتأبى الا أخذ مبالغ كبيرة ، بل قد تصر على أن تثار للمقتول بقتل القاتل ، أو من يعدله مكانه الامر الذي لا يحسم . فعندما قتل جساس كلياً أرسل التغليون رجلاً منهم الى بني شيان فأتوا مرة بن شيان وهو في نادى فومه « فقالوا له انكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كلياً وقطعتم الرحم واتهكتم الحرمة ، وانا نعرض عليك خللاً أربعاً لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع اما أن تحيي لنا كلياً أو تدفع الينا قاتله جساساً فنقتله به أو هيأماً فانه كفء له أو تمكنا من نفسك فان فيك وفاءً لدمه ، فقال لهم اما احيائي كلياً فليست قادراً عليه ، واما دفعي جساساً اليكم فانه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا أدري أي بلاد قصد ، واما همام فانه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة

= يخلع الفرد لسوء سلوكه . انظر البخاري : التاريخ الكبير ج ١ قسم ٢ ص ٨٧ ، ابن قتيبة : المعاني الكبير ج ١ ص ٢٠٨ ، الاغانى : ج ٨ ص ٥٢ - ٥٣ ج ١٩ ص ٧٥ ، الجاحظ : الحيوان ج ١ ص ٧٦ ، البكري : ص ٥٣١ .

(١) الاغانى : ج ١٣ ص ٢ وانظر أيضاً أحمد أمين : الصعلكة والفتوة عند العرب .

كلهم فرسان فلن يسلموه بجريرة غيره ، واما أنا فما هو الا أن تجول
الخيـل جولة فأكون أول قتيل فما اتعجل الموت ، ولكن لكم عندي
خصلتان اما احدهما فهؤلاء أبنائي الباقون فخذوا أيهم شتم فاقتلوه بصاحبكم ،
واما الاخرى فاني أدفع اليكم ألف ناقة سود الحـدق حمر الوبر ، فغضب
القوم وقالوا قد أسأت ببذل هؤلاء وتسومنا اللبن من دم كليب^(١) ، •

وكثيرا ما يلجأ في مثل هذه الحالات من الخلاف الى الحكم أو
العارف^(٢) ممن عرفوا بالاتزان واصالة الرأي والتمييز ، وقد يلجأون الى
السكمان^(٣) وليس من الضروري أن يكونوا شيوخ عشائر ، أو ذوي مراكز
سامية ولكنهم يصدرن قراراتهم بعد دراسة الوضع ، ولكن رأيهم
استشاري ، فليست لهم سلطات أو قوة تلزم الفريقين بطاعته وتنفيذه اذا لم
يريدا من تلقاء نفسيهما الرضوح • فهؤلاء الحكام اذاً ليسوا قضاة بالمعنى
المفهوم الآن •

وقد عدل الاسلام من هذه النظم فحـسن الدية وجعلها ثابتة معينة يستوي
في مقدارها الجميع لا فرق بين فرد وآخر ، كما جعل تنفيذها بيد السلطة
العليا أي بيد الدولة ، فلا يجوز للفرد أن يقتص بنفسه ، وقد أبقى الاسلام
المسؤولية المشتركة ، فأوجب أن تشترك القبيلة في دفع دية القتل غير
العمد^(٤) ، وبذلك منع الثأر وما يجره من مشاكل وويلات •

أما في حالة السرقة فان على من سرق منه شيء أن يفتش عن المسروق ،
والعادة ان البدوي لا يرى في السرقة ما يناقض المروءة ، لذا قلما يظهر

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١ ص ٢١٨ • ويروى ابن
عشام عن رجل من بني الديل انه « كان بنو الاسود بن رزن يؤدون في
الجاهلية ديتين ديتين وتؤدى دية دية لفضلهم فينا » ابن هشام : سيرة
النبي ج ٤ ص ٤ •

(٢) انظر ص ١٠١ •

(٣) ابن هشام : سيرة النبي ج ٢ ص ١٤٨ •

(٤) انظر كتابي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة

ما سرقه ، ولكن الرجل المسروق يستطيع أن يعلن اللعنة على السارق ،
اذ أن البدوي يخشى اللعان ويخاف شرها والغالب انه يعيد الشيء المسروق •
أما الوراثة فان العادة ان الرجال وحدها ترث ، أما البنات فلا يرثن^(١) ،
ويقتسم الارث بين البنين بالتساوي ، وللرجل حق الوصية والهبة • وقد
قرر الاسلام انه • للرجال نصيب مما ترك الوالدان وللنساء نصيب ، (النساء
٧) وان للذكر مثل حظ الانثيين •

(١) تفسير الطبري : ج ٤ ص ١٥٣ ، ١٨٥ • ابن حجر : الاصابة
في معرفة الصحابة ج ١ ص ٩٢ •

الفصل الثالث عشر

الدين الجاهلي (١)

المعبودات

الدين هو الاعتقاد بكائنات غيبية ذات قوى مؤثرة والقيام بطقوس وعبادات لها • وهو يتوقف على عقلية الناس وحالة الافراد • فكان له في القديم دور كبير • نظرا لان البشر كانوا آنذاك أشد محافظة ، كما ان فهمهم لمسيبات الحوادث كان يختلف عن فهمنا ، فكانوا يرون ان وراء كل حركة أو ظاهرة قوة غيبية تسيروها • وهكذا كانوا يعتقدون ان للقوى الغيبية تأثيراً أوسع مما نعتقد له اليوم •

والدين يتطلب خبرة نفسية والقيام ببعض الاعمال للآلهة • فهو ليس بعمل فردي أو محاولة شخصية لاطهار الروحانية الانسانية ، بل يشمل عملية حية متبادلة بين الانسان والقوى فوق الطبيعة • ومع ان للفرد في الدين أهمية كبيرة الا انه في الغالب كانت الاديان القديمة اجماعية تتعلق بالقبيلة كلها • فالاله للقبيلة كلها يحميها كلها ويشمل برعايته كافة أفرادها •

علاقة الآلهة بالمجتمع :

وللناس علاقة وثيقة بالآلهة ، والمرء يرث هذه العلاقات ويتأثر سلوكه بها باعتباره عضواً في المجتمع ، فلا فرق بين نظام الحياة والدين ، والاعمال

(١) استندنا في دراسة هذا الموضوع من الابحاث التالية :

(أ) روبرتسن سميث : محاضرات في اديان الساميين (بالانكليزية) وسنرمز اليه سميث •

(ب) مقالة نولدكه عن الدين الجاهلي في دائرة معارف الدين والاخلاق (بالانكليزية) وسنرمز اليها نولدكه •

(ج) محمد عبدالمعيد خان : الاساطير العربية قبل الاسلام • وسنرمز اليها الاساطير العربية •

الاجتماعية العامة لها علاقة بالآلهة والبشر على السواء ؛ وهناك علاقة متبادلة فالاله يحمي القبيلة أو المجتمع ويدافع عنه ، وقد يضطر أحيانا أن يحارب الالهة الاخرى اذا اشتبكت القبيلة مع القبائل الاخرى . ولهذا لم يكن يستطيع المرء تغيير ديانتة الا اذا غير قبيلته أو خرج عنها ، وهو أمر ليس من السهل القيام به .

وفي حالة ما اذا اختلطت القبائل أو الشعوب ذات الآلهة المختلفة فان اختلاطها يؤدي الى اختلاط الآلهة . وهذا يتخذ أشكالا متعددة فقد يقتصر هذا التغير على تغير صفات الاله الاصلي ، أو ان تضاف اليه صفات اخرى ، أو قد يصبح له اسمان ، وقد تجعل آلهة القبائل الاخرى أولادا أو اخوة لآله القبيلة الاصلية ؛ ومن هذا نشأت فكرة تعدد الآلهة .

الاساطير :

وتنشأ عادة حول الآلهة قصص وأخبار تشرح طبيعتها وأعمالها . وقد يتوارث الخلف هذه القصص ؛ وهي في الاصل ليست جزءاً من العبادات أو الدين ، ولا يجبر الناس على الاعتقاد بها ، فهي ثانوية بالنسبة للدين ، مستمدة من العبادات ومتنوعة . والغالب انها تفسر الاعمال والعادات الدينية ولكنها ملذة تثير الخيال وتشوق للعبادة ، وتتمو عندما تضعف الطقوس الدينية . وقد تنشأ الاساطير نتيجة فلسفة قديمة تفسر الكون ، أو قد تخلق لغرض سياسي يراد به جمع شمل الناس العباد ضمن وحدة واحدة ، أو قد تنشأ بمجرد الخيال والادب . ولا ريب انها ليست أساسية في الدين ، ولكنها تضيف حياة جديدة وأهمية جديدة على الاشكال القديمة .

ولا ريب ان الاساطير تتضمن ما يميل الناس لتصديقه ، وهي كما ذكرنا ليست من جوهر الدين ولا تقتصر على الآلهة فقط ، بل قد تنسج حول الاشياء العادية ، وليس لها صفة رسمية بل قد تتغير .

العقلية البدائية :

ويلاحظ ان الانسان البدائي يخلط بين الواقع والتخيل ، فلا يميز

تميزاً دقيقاً بين ما يراه حقيقة وما يتصوره ، كما انه يميل دائماً الى التعميم .
وقد بدأ حياته العقلية بمعرفة المادة والماديات ولاحظ مظاهر الحياة ، ثم
اتسعت فكرته في معرفة مظاهر الحياة على وجه التعميم ، فظن انه لا فرق
بينه وبين الموجودات في العصر الذي عرف فيه نفسه ، فظن ان للحيوان
والجماد حياة حقيقية ، ولما رقت مداركه ظن ان الجمادات تحل فيها الحياة
أحياناً ؛ أي ان لها شخصيتين ، احدهما جامدة والاخرى فيها حياة ، مثل
حالتنا في الحلم حيث نكون في حالة النوم ساكنين ولكننا قد نرى أحلاما
نبدو فيها متحركين وما نحن بمتحركين .

ويسمى المبدأ الاول الذي تعتبر فيه الجمادات حية المذهب الحيوي
Animism . والمذهب الثاني الذي يعتقد ان الجمادات قد تحل فيها الحياة
المذهب الفتيشي fetishism . ونجد كلا المذهبين لهما آثارهما عند
العرب . فالمذهب الاول يتجلى فيما روى عن اعتقادهم بأن الدم والهواء هما
الحياة . وانهما مخلوقات حية كالطير ؛ وان اسافاً ونائلة كانا بشرين ثم
مسحاً . وان الضب كان انساناً ثم مسح ، وان بوادي حضرموت قوم يقال
لهم الصعر تنقلب فرقة منهم ذئاباً ضارية أيام القحط ، هذا الى اعتقادهم
بأن جبل قبيس يزبل وجع الرأس ، وان للنخل حياة . ومن مظاهر المذهب
الثاني هو الاصنام التي هي جمادات يعتقدون ان الآلهة تحل فيها^(١) .

مصادر دراسة الدين الجاهلي :

معلوماتنا عن الديانة العربية قبل الاسلام قليلة مشوهة ، لان الهدف
الاول للاسلام كان محاربتها وازالتها ، كما ان المسلمين المتدينين لم يروا
من الخير رواية أخبارها ، هذا الى انه لم تجر في الجزيرة العربية ، عدا
اليمن وبلاد الهلال الخصيب ، حفريات منظمة قد يظهر فيها بعض التماثيل
أو الكتابات التي تلقي عليها ضوءاً .

غير ان الاسلام الذي طمس أخبار الديانة الجاهلية لم يمحها تماماً .

(١) راجع ما كتب عنهما في الاساطير العربية ص ٤١ - ٥٥ .

فقد بقي لها ذكر غير قليل • ففي القرآن اشارات الى بعض الاصنام والمعتقدات الجاهلية ذكرت في معرض الرد عليها وتفنيدها ، هذا الى ان الاسلام لم يمح كل آثارها ، اذ أقر بعضها بعد أن عدلها أو حور الغايات منها ، كالحج والحرم وما الى هذا ؛ يضاف الى ذلك ان الشعر العربي الجاهلي الباقي لنا يتردد فيه أحيانا ذكر للآلهة القديمة وما يتعلق بالديانة • كما أنه بقيت في كتب الادب والتاريخ والاحبار أخبار متناثرة عن الديانة العربية القديمة والاصنام • ولعل أقدمها وأوسعها هو كتاب الاصنام لابن الكلبي ، وما رواه المفسرون فيما يتعلق بالآيات التي تذكر الاصنام أو ما روى في معرض سيرة النبي وخاصة في سيرة ابن هشام أو اخبار مكة للازرقمي أو في بعض المعاجم اللغوية والجغرافية • وجدير بالملاحظة ان هذه الكتب تصف في الغالب الاصنام والاوئان وهي من المظاهر الفيشية ، وانها قلما توضح طقوسها وعقائد الناس فيها أو مدى عمق عبادتها أو مدى انتشارها ؛ ثم ان بعض المسلمين الذين لم يشبعوا بروح الاسلام حافظوا لا اراديا على بعض المظاهر الوثنية حتى بعد اسلامهم ، ومن الممكن بعد دراستها وتحليلها ومقارنتها بما عند الساميين ، أن تكمل لنا الصورة عن الديانة العربية قبل الاسلام •

وربما كان من آثار الديانة القديمة انتشار أسماء أعلام مسبوقة بعبد وهي تدل في بعض الاحيان على أسماء آلهة قديمة ، كاسم عبد مناف ، وعبدالشارق ، وعبد شمس ، وعبدالعزي ، وعبد مناة • غير ان المضاف اليه في هذه الاسماء المركبة ليس من الضروري أن يشير الى الآلهة ، فلا نزال في العراق نسمي عبدالزهرة وعبدالامير وعبدالحسين ، احتراماً لهم لا لعبادتهم ؛ كما أن هذه الاسماء قد تكون مرادفات ، كما نقول عبدالقادر وعبدالرزاق وعبدالمجيد ، وكلها مرادفات لاسم الله تعالى • ثم ان هذه الاسماء مختصرة جدا ، وغير كافية لالقاء نور واضح على الآلهة القديمة أو طبيعتها •

ان المعلومات الموجودة في المصادر الآتفة الذكر تعطينا صورة تقريبية لديانة الجاهليين قبل الاسلام • ويبدو منها آثار لمعتقدات متنوعة كانت

موجودة جميعا ، كاللذهب الحيوي والطوطمي والفتيشي • غير انه من الصعب جدا اظهار مدى أهمية وآثار كل من هذه المعتقدات والدور الذي لعبته ، اذ أن أغلب المعلومات السالفة الذكر تتعلق بديانات أهل الحجاز أو عن الوثنية عند ظهور الاسلام ، كما اننا لا نعلم شيئا مفصلا عن تطورها التاريخي ، اذ كل ما يذكر عن أصولها وتاريخها هو مجرد أساطير مختصرة غامضة يصعب فهم أصولها ومع ان الحفريات والمكتشفات الاثرية في اليمن وبلاد الهلال الخصيب قد كشفت عن وجود كثير من الآلهة ، وألقت ضوءاً على طقوسها ومراسيمها وأفكارها ، الا انه من الصعب جدا أن نوضح العلاقة بينها وبين آلهة الجاهليين ، أو التثبت مما اذا كانت العقوس والعبادات المتعلقة بهذه الآلهة هي واحدة • كما اننا لا نعرف بالدقة والتفصيل التوزيع الجغرافي للآلهة ، وأي القبائل كانت تعبد اي اله ، وأي الآلهة تشترك فيها القبائل وعدد القبائل التي تشترك في عبادة هذه الآلهة العامة. ، وطقوسها ، والعلاقات القائمة بينها •

لذلك فان دراستنا عن ديانة العرب قبل الاسلام لا تزال ناقصة وكل محاولة في هذا الشأن ، ما هي الا محاولة أولية ناقصة ، رغم انها ضرورية لفهم الديانة الاسلامية التي كان هدفها الاول محاربة تلك الديانة •

الاديان الخارجية :

وجدير بالملاحظة ان الجزيرة العربية لم تكن منعزلة تماما بل تعرضت الى كثير من المؤثرات الخارجية • فقد جاءتها البعثات التبشيرية المسيحية من العراق وسوريا والحبشة ، وانشأت لها في القطر مطرنة كما انشأت لها عدة كنائس في اليمن وكانت عند ظهور الاسلام منتشرة في البحرين واليمامة واليمن وعند الضاسنة والمناذرة وطبي وبكر وتغلب وكانت فرقا متعددة ولكن أغلبها من الناطرة واليعاقبة • وقد تطرقنا الى انتشارها في اليمن وعند المناذرة والضاسنة •

أما اليهودية فلا نعلم بوضوح زمن دخولها الجزيرة أو تطورها^(١) ، ولكن يبدو انها جاءت بموجات متعاقبة ، واستوطن اليهود في الواحات الخصبة من الحجاز ، كفدك وتيماء ووادي القرى وخيبر والمدينة ، كما انتشروا في اليمن واليمامة والبحرين وربما في عمان . ومع ان الديانة اليهودية قومية غير تبشيرية وصلبة شديدة الطقوس الا انها انتشرت أيضا بين عدد من العرب وخاصة في المدينة كما سنتحدث في الجزء الثاني .

وهناك اشارات الى أديان فارسية دخلت الجزيرة ، ففي البحرين كان بنو دارم التيميون يدينون بالاسبذية ، واسمها مشتق من الاسب أي الفرس أو الحصان^(٢) . ويدل اسمها على انها فارسية ، وان كنا لا نعلم تفاصيل هذا الدين أو من أين اخذت ، اذ لم يعرف عن العرب انهم عبدوا الحصان .

واليمن ومكة أحوال دينية خاصة فأما اليمن فقد كشفت عنها الحفريات وأوضحت كثيرا من أخبارها ومعالمها وأما مكة فإن الكتب والقرآن أوردت عنها معلومات واسعة كما ان لها علاقة وثقى بالاسلام لذا سنفرد لها بحثا خاصا .

ديانة مكة :

ويلاحظ ان القرآن يقدم عن الدين الجاهلي صورة تختلف تماما عما تقدمه كتب التاريخ والادب ؛ والمعلومات التي فيه قلما يقدم الشراح والمفسرون عنها معلومات اضافية مكمله ، كما ان القرآن لا يتردد فيه ، بل وحيانا لا يشير الى ما يتردد في كتب التاريخ والادب . وجدير بالملاحظة

(١) راجع عن اليهودية في جزيرة العرب : مارجوليوث « العلاقات بين الاسرائيليين والعرب قبل الاسلام » (بالانكليزية) . وولفنسون « تاريخ اليهود في بلاد العرب » .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٩٨ . ابن سلام : الاموال ص ٢٠ - ٢١ . ياقوت ج ١ ص ٢٣٧ ، ويذكر السكري في المحبر ص ١٣١ أسماء زنادقة قريش . كما يقول صاعد ان الزندقة كانت في قريش (طبقات الامم ص ٤٤) .

ان المؤرخين القدماء والمحدثين لم يحاولوا دراسة دين الجاهلية كما وصفه القرآن ، اللهم الا ما قام به حديثا محمد عزة دروزة في كتابه عصر الرسول •
وسنحاول هنا ايراد الصورة التي تتجلى في القرآن عن عبادة الجاهليين
من أهل مكة ثم نذكر ما تورده المصادر التاريخية والادبية •

الله :

وفي القرآن آيات كثيرة تذكر بصراحة ان المشركين كانوا يعبدون
الله « قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون • سيقولون لله قل أفلا
تذكرون • قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم • سيقولون
لله قل أفلا تتقون • قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار
عليه ان كنتم تعلمون • سيقولون لله قل فأنى تسجرون » (المؤمنون
٨٤ - ٨٩) « ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض وسخر الشمس
والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون » (الانعام ٦١) « ولئن سألتهم من نزل من
السماء ماءً فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم
لا يعقلون » (النكبات ، ٦٣) « ولئن سألتهم من خلق السموات
والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » (لقمان ٢٥
والزمر ٣٨) « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون »
(الزخرف ٨٧) •

« هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين
بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ربيع عاصف وجاءهم الموج من كل مكان
وظنوا انهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه
لنكونن من الشاكرين » (يونس ٢٢) « واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن
جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم » (فاطر ٤٢) « وما بكم من
نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون • ثم اذا كشف الضر عنكم
اذا فريق متكلم بهم يشركون » (النحل ٥٣ - ٥٤) « أم من خلق
السماوات والارض وانزل لكم من السماء ماءً فانبثنا به حدائق ذات

بهجة ما كان لكم أن تثبتوا شجرها أله مع الله بل هم قوم يعدلون • أم من جعل الارض قراراً وجعل خلالها انهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون • أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أله مع الله قليلاً ما تذكرون • أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أله مع الله تعالى عما يشركون أم من يُبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين • (النمل ٦٠ - ٤) •

الشركاء :

غير انهم • وجعلوا لله اندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار • (ابراهيم ٣٠) •

• قل أئنكم لتفكرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له انداداً ذلك رب العالمين • (فصلت ٩) • وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له انداداً • • • (سبا ٣٣) • ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله • (البقرة ١٦٥) •

• وجعلوا لله شركاء قل سموهم • (الرعد ٣٣) • وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون • (يوسف ١٠٦) • أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم • (الرعد ١٦) • ذلكم بانه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الحكيم • (غافر ١٢) •

بنات الله :

وهؤلاء الشركاء هم • أو معظمهم بنات الله • وجعلوا له من عباده جزءاً ان الانسان لكفور مين • أم اتخذ مما يخلق بنات واصفاكم بالبنين • واذا شر أحدكم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم • أو من يُنسئوا في الحلية وهو في الخصام غيرمين • وجعلوا الملائكة الذين هم عباد

الرحمن أناثاً اشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون » (الزخرف ١٥ - ١٩) • « فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون • أم خلقتنا الملائكة أناثا وهم شاهدون • ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون • اصطفى البنات على البنين » (الصافات ١٤٩ - ١٥٣) « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون • واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم • يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون » (النحل ٥٧ - ٥٩) « ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله الهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً • افاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة أناثاً انكم لتقولون قولا عظيماً » (الاسراء ٣٩ - ٤٠) « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون » (انعام ١٠٠) « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون • لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون • يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن أرتضى وهم من خشيته مشفقون • ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين » (الانبياء ٢٦ - ٢٩) •

• وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئا اداً • تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا • ان دعوا للرحمن ولدا • وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ، ان كل من في السموات والارض الا آتى الرحمن عبداً ، (مريم ٨٨ - ٩٣) •

وهذه الآلهة التي عبدوها ليست في سويته تعالى بل هي من دون الله أي أقل منه مركزاً ورتبة ، وهم شفعاء لعابديهم عند الله • ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبون بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون ، (يونس ١٨) • أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ، (الزمر) • ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه اولياء

ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون .
ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار ، (الزمر ٣) • • واذا مس الانسان
ضر دعا ربه منيباً اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو اليه من قبل
وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب
النار ، (الزمر ٨) •

الجبّ والطاغوت :

وفي القرآن أيضاً ذكر للجبّ والطاغوت • لا اكراه في الدين قد
تبين الرشd من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة
الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم • الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من
الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور
الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، (البقرة ٢٥٦ - ٧)
• ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبّ والطاغوت ،
(النساء ٥١) • ألم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما أنزل اليك وما
أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا
به ، (النساء ٦٠) • الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون
في سبيل الطاغوت ، (النساء ٧٦) • قل هل انبؤكم بشر من ذلك مثوبة
عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت
أولئك شر مكاناً واضل سبيلاً ، (المائدة ٦٠) • ولقد بعثنا في كل أمة رسولا
أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، (النحل ٣٦) • والذين اجتنبوا الطاغوت
أن يعبدوها وأناابوا الى الله لهم البشرى ، (الزمر ١٧) •

ويلاحظ أن الجبّ ذكر مرة واحدة مع الطاغوت الذي ورد ذكره في
ثمان آيات سبع منها مدنية ، وقد ورد بصيغة المفرد المذكر مرة ، والمؤنث
الجمع مرتين • وهو ولي الذين كفروا ، يضلهم ، ويتجنبه من يعبد الله ،
ويؤمن به الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، ويريدون أن يتحاكموا اليه ،
وهم يعبدونه ويقاتلون في سبيله •

وقد اورد المفسرون في معنى الطاغوت روايات متعددة ، منها انه
اليوت المقدسة ، أو كعب بن الاشرف ، أو صنما قريش أو صنمها الذي
يحتكمون اليه^(١) . ولا ريب ان تفسيرهم الطاغوت باليوت المقدسة أو كعب
الاشرف لا ينطبق على منطوق الآية ، والراجع انه احد آلهة قريش ولما
كان هبل هو الذي كانوا يستقسمون عنده ويحتكمون اليه ، فالراجع انه
هو المقصود بالطاغوت . أما الرد على ذلك بعدم ذكر اسم هبل صراحة في
القرآن فهو غير كاف لان القرآن لم يرد فيه ذكر لأي صنم أو اله كان في
مكة أو ما يجاورها مما ذكره المؤرخون كهبل وأساف ونائلة ونهيك
ومطعم الطير .

الجن :

لقد ذكر القرآن الكريم ان العرب عبدوا الجن ، قالوا سبحانه
أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم به مؤمنون ، (سبا ٤١)
وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ،
(الانعام ١٠٠) وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة انهم
لمحضرون ، (الصافات ١٥٨) .

وقد أشارت الكتب الى بعض القبائل التي كانت تعبد الجن ، فيقول
ابن الكلبي ان بني مليح الخزاعين كانوا يعبدون الجن^(٢) ، ويقول الطبري
ان بني مالك بن اقيش كانوا من الجن^(٣) وان آل عسر هم قبيلة من الجن^(٤)
ويقول الازرقعي ان بني سهم سموا الغياطة لانهم قتلوا الجن^(٥) ، كما
يروى ان عمار بن ياسر قاتل الجن^(٦) .

(١) انظر عن الجبت والطاغوت تفسير الطبري ج ٣ ص ١٣ ج ٥
ص ٨٣ ، ٩٦ - ٩٧ .

(٢) ابن الكلبي : الاصنام ص ٣٤ (وسنرمز اليه دائما الاصنام) .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٤) ياقوت : ج ٣ ص ٦٧٢ .

(٥) الازرقعي : ج ٢ ص ١٢ .

(٦) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١٧٩ .

لقد تصور العرب الجن كائنات غيبية ومخلوقات غريبة تملأ الارض وتصوروها تشبه البهائم ، ذات شعور طويلة ، وأحيانا تشبه بعض الحيوانات كالنعام أو الحية ، ولها قوة غريبة على الظهور والاختفاء بل وعلى تغيير أشكالها وظهورها أحيانا بأشكال انسانية . وإذا اعتدى عليها أحد فأنها تنتقم بمسه فيصبح به جنة اي مجنوناً ، وقد يصاب بالامراض .

والجن في الغالب لا تعيش في المجتمعات الانسانية ، بل تعيش في البراري والقفار ، ولها مناطق خاصة بها كوادي عقر . ولكن هذه المناطق ليست حرماً مقدسة ؛ وكان الناس يقدمون لها أحيانا الهدايا ، ومن الجدير بالملاحظة ان كلمة الجن هم اسم جنس لا اسم علم^(١) .

لا تبحث كتب التاريخ والادب فيما بينا ، بل تذكر وجود الاصنام في مكة ومن الجدير بالذكر أن القرآن لم يرد فيه ذكر الاصنام التي في داخل مكة ، كما ان الكتب لم تذكر لنا عن فهمهم وتصورهم لله تعالى أو الملائكة ؛ أما الاصنام التي ذكرت في مكة فأهمها :-

هبل :

وهو « أعظم أصنام قريش^(٢) » ، وكان على بشر في جوف الكعبة تجمع فيه الهدايا^(٣) . وكان شعار قريش يوم أحد (اعل هبل^(٤)) . لا نعلم بالضبط معنى كلمة هبل أو اشتقاقه^(٥) وربما كان مشتقاً من

(١) انظر عن الجن ما كتبه المسعودي في مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٥ - ١٦٠ . البكري : ص ٤٠٥ ، ٤١١ ، ٤٧٦ ، ٩١٧ ، ٩٣١ . وما كتبه سميث ص ١١٩ فما بعد ، و٥٣٨ فما بعد .

(٢) ابن هشام : سيرة الرسول ج ١ ص ٨٦ (وسنرمز اليها سيرة هشام) . الطبري : ج ٢ ص ١٢٧ ، ١٧٣ (عن ابن اسحق) .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ٢١١ . الازرقى : ج ١ ص ٢٤ ، ٦٧ ج ٢ ص ٣٧ .

(٤) انظر عن هبل ما كتبه نولدكه ، وما جاء في الاساطير العربية ص ١١٤ - ١١٧ .

(٥) الاصنام ص ٨ . الازرقى : ج ١ ص ٢٧ ، ٥٤ ، ٦٩ . ويقول المسعودي وابن اسحق انه جنيء به من البلقاء (مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٨) .

بل وهو إله معروف في بلاد الهلال الخصيب ستحدث عنه فيما بعد • ومما يجلب النظر ان هبل وضع في الكعبة ، مع أن الكعبة بيت الله •

يروى ابن الكلبي ان عمرو بن لحي الخزاعي جاء بهبل من هيت من العراق ونصبه على بئر الاخسف في بطن الكعبة ، وكان من عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد ، فجعلت يده من ذهب^(١) • وكانت حجاج قريش تطوف حوله وتحلق رؤوسها وتلبى عنده (ليك اللهم ليك • اتنا لقاح حرمتنا على أسنة الرماح يحسدنا الناس على النجاح^(٢)) • ويروي ابن سعد عن ابن الكلبي ان خزيمة بن مدركة هو الذي وضع هبل موضعه فكان يقال له صنم خزيمة^(٣) •

وكان عند هبل سبعة أقداح ، كل قدح منها فيه كتاب : قدح فيه العقل اذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة ، وقدح فيه نعم للامر اذا أرادوه يضرب به ، فاذا خرج قدح نعم عملوا به • وقدح فيه لا ، فاذا أرادوا أمراً ضربوا به في القداح ، فاذا خرج قدح النعم عملوا به • وقدح فيه لا ، فاذا أرادوا أمراً ضربوا به في القداح ، فاذا خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الامر • وقدح فيه منكم ، وقدح فيه ملصق وقدح فيه من غيركم • أو قدح فيه الحياة ، اذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به • وكانوا اذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً أو شكوا في نسب أحد منهم ذهبوا به الى هبل وبمائة درهم وجزور فاعطوها صاحب القداح الذي يضربها ، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا يا الهنا هذا فلان قد أردنا به كذا وكذا فاخرج الحق فيه ، ثم يقولون لصاحب القداح اضرب ، فيضرب ،

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٢ •

(٢) المحبر : ص ٣١٥ • وكلما سنورده من صبيغ التلبية مستمد مما أورده هذا الكتاب ص في ٣١١ - ٣١٥ • وقد أورد اليعقوبي صيغة أخرى لتلبيات العرب (التاريخ ج ٢ ص ٢١٢) •

(٣) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ١ ص ٣٩ (وسنرمز الـ

الطبقات) •

فإن خرج عليه منكم كان وسيطاً ، وإن خرج عليه من غيركم ، كان حليفاً ، وإن خرج عليه ملصق كان على منزلته منهم لا نسب له ولا حلف ، وإن خرج من شيء سوى هذا مما يعملون به فقد عملوا به ، وإن خرج لا أخروه عامهم ذلك حتى يأتوا به مرة أخرى فينتهون في أمورهم إلى ذلك مما خرج فيه القداح^(١) . ويروي الأزرقى أن قربانه مائة بعير^(٢) يعطونها لغاضرة بن حبشية بن سلول الخزاعي^(٣) .

ويقول السكري أن هبل كان لبني بكر ومالك ومليكان وسائر بني كنانة وكانت قریش تعبد صاحب بني كنانة وبني كنانة يعبدون صاحب قریش^(٤) .

أساف ونائلة :

أما أساف ونائلة ففي الرواية العربية أنهما في الأصل رجل وامرأة فسقا فمسخا حجرين فاخرجا من الكعبة ، فنصب أحدهما على الصفا والآخر على المروة ، وانما نصبا هناك ليعتبر بهما الناس ويزدجروا عن مثل ما ارتكبا لما يرون من الحال التي صاروا إليها ؛ فلم يزل الأمر يدرس ويتقدم حتى صاروا يمسحان ، يتمسح بهما من وقف على الصفا والمروة ، ثم صاروا وثنيين يعبدان ، فلما كان عمرو بن لحي أمر الناس بعبادتهما والتمسح بهما ، وقال للناس إن من كان قبلكم كان يعبدهما ؛ فكانا كذلك حتى كان قصي بن كلاب نصارت إليه الحجابة وأمر مكة ، فحولهما من الصفا والمروة ، فجعل أحدهما بلصق الكعبة وجعل الآخر في موضع زمزم ، ويقال جعلهما جميعا في موضع زمزم^(٥) .

(١) الأزرقى : ج ١ ص ٢٧ ، ٦٧ ، أنظر أيضا سيرة ابن هشام :

ج ١ ص ١٦٤ - ٥ . الطبري : ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) الأزرقى : ج ١ ص ٦٩ .

(٣) الأزرقى : ج ١ ص ١٢٥ .

(٤) المعبر : ٣١٨ .

(٥) الاصنام : ص ٢٩ . الأزرقى : ج ٢ ص ٣٤ . سيرة ابن هشام :

ج ١ ص ٨٦ .

وكان أهل الجاهلية يَمرون بأساف ونائلة ، ويتمسحون بهما ، وكان الطائف اذا طاف بالبيت بدأ بأساف فيستلمه ، فاذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها ، فكانا كذلك حتى كان يوم الفتح ، فكسرها رسول الله (ص) مع ما كسر من الاصنام^(١) . وكان يطرح بينهما ما يهدى للكعبة وينحر عندهما ويحلقون رؤوسهم . ولم تكن تدنو منهما امرأة طامت^(٢) ، وكانت قریش تذبح عندهما الذبائح^(٣) .

ويروي الشعبي والسكري ان أساف ونائلة كانا على الصفا والمروة^(٤) . ونحن نرجح رواية الازرقى لانه أوسع اطلاعا على أحوال مكة وشؤونها . وكانت أساف ونائلة ، على ما يروي السكري ، لقریش والاحابيش . أما ابن الكلبي فيروي عن ابن عباس ان عبادها كانوا خزاعة وقریشاً ومن حج البيت بعد من العرب^(٥) . وكان نسكهم لأساف (ليك اللهم ليك لا شريك لك ، الا شريك هو لك تملكه وما ملك) .

نهيك ومطعم الطير :

ويروي الازرقى عن ابن اسحاق ان عمرو بن لحي نصب على الصفا صنما يقال له نهيك مجاود الريح ، ونصب على المروة صنما يقال له مطعم الطير^(٦) .

اصنام منى :

ويروي الازرقى عن ابن اسحاق « ان عمرو بن لحي نصب بمنى

(١) الازرقى : ج ١ ص ١١٢ . ويرى الازرقى « ان في دار العباس هذه حجران عظيمان يقال لهما اساف ونائلة كانا يعبدان في الجاهلية في ركن الدار » ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) الازرقى : ج ١ ص ٤٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ج ٢ ص ١٨ .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٧٤ .

(٤) رواية الشعبي في تفسير الطبري : ج ٢ ص ١٧ . ورواية

السكري في المحبر : ص ٣١١ .

(٥) الاصنام : ص ٩ .

(٦) الازرقى : ج ١ ص ٧٣ ، الفاسي : ص ٦ .

سبعة أصنام : نصب صنما على القرين الذي بين مسجد منى والجمرة الاولى على بعض الطريق ، ونصب على الجمرة الاولى صنما ، وعلى المدعا صنما ، وعلى الجمرة الوسطى صنما ، ونصب على شفير الوادي صنما ، وفوق الجمرة الوسطى صنما ، وفوق الجمرة العظمى صنما ، وقسم عليهن حصي الجمار احدى وعشرين حصاة يرمى كل وثن منها ثلاث حصوات . ويقال للوثن الذي يرمى أنت أكبر من فلان ، الصنم الذي يرمى قبله^(١) . غير أننا لا نعلم أسماء هذه الاصنام . كما ان القرآن لم يذكر اطلاقاً أي صنم من الاصنام في مكة .

مناف :

ومعناه العلو ، وقد تسمى به عدد غير قليل من الناس ، منهم عبد مناف أحد أجداد النبي ، ويقول الطبري انه كان أعظم أصنام مكة^(٢) ، كما يروي ابن حجر عن عمر بن شبة ان بني سلمة كانت تعبد منافا^(٣) . غير أننا لا نعلم شيئاً عن مكانه أو أمره شيئاً .

قزح :

لم تذكر الكتب العربية ان قزحا كان الالهاً أو صنماً ؛ بل تذكر انه موقع على المزدلفة ، وكانت الحلة والحمس تجتمع عنده في الحج ، وفي الاسلام يقف عنده بالامام ، وعنده توقد النيران في الحج^(٤) . ويسمي العرب قوس قزح بالنسبة له ، ويرى كوكبه انه هو الاله كوز الادومي^(٥) ، فكان قزح كان اله المطر ، وان الطيف الذي يظهر بعد الامطار هو قوسه ، وان الناس في الحج كانت تتجمع عنده ، فاذا صبح ذلك فمعناه

(١) الازرقى : ج ٢ ص ١٤٢ .

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٨١ .

(٣) الاصابة : ج ١ ص ٢٤٥ .

(٤) الازرقى : ج ١ ص ٣٢ ، ١٢٣ ج ٢ ص ١٥٠ - ١٥١ ، ١٥٤ .

البكري : ص ٣٩٢ - ٣ . ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١١٨ ج ٤ ص

٨٥ . ام ج ٢ ص ١٨٠ .

(٥) انظر الاساطير العربية قبل الاسلام ص ١٣٢ - ١٣٣ .

اما أن تكون عبادته قد نسبت عند ظهور الاسلام أو ان المسلمين اطمسوا ذكره نظرا لان موضعه أصبح من طقوس الحج الاسلامية •

لقد ورد في القرآن ذكر لعدد من الآلهة الجاهلية كان مقرها خارج مكة ، وأوردت عنها كتب التاريخ والادب والجغرافية معلومات غير قليلة • وأهم هذه الآلهة هي اللات والعزى ومناة والشعري ؛ وقد ذكرت في سورة النجم ؛ وبعل وقد ورد في سورة الصافات ، وود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا • وقد وردت في سورة نوح •

العزى :

وهي من الآلهة التي عبدها أهل مكة وتسموا بها ، وكان يعبدها اللخميون أيضا ، وقدم المنذر بن ماء السماء اربعمائة من أسرى الفساسنة ضحايا لها • ويقول بروكوبيوس ان هذه الضحايا قدمت لأفروديتي ، مما يحمل على الاعتقاد بأن العزى كانت تقابل أفروديتي أو نجمة الصباح • ويقول الطبري ان الزهرة عند العرب هي بالفارسية اناهيدا^(١) ، وهذه النجمة هي التي تقابل عشتروت^(٢) ، غير انه من الصعب الجزم بأن العزى هي عشتروت أو نجمة الصباح (الزهرة)^(٣) لان اسمها مشتق من العزة ، أي القوة والرفعة • ولم يرو في الكتب العربية أي دليل يشير الى نوع اختصاص العزى وعملها والهة أي شيء كانت •

لقد كان العزى في بطن نخلة « بواد من نخلة الشامية يقال له حراض بازاء الغمير عن يمين المصعد الى العراق من مكة وذلك فوق ذات عرق الى البستان بتسعة أميال » • ويروي ابن الكلبي ان الذي اتخذها ظالم بن

(١) تفسير الطبري : ج ١ ص ٣٦٣ •

(٢) انظر في ذلك ما كتبه نولدكه ، والاساطير العربية : ص ١١٩ -

١٢٥ • وما كتبه بوهل عن (العزى) في دائرة المعارف الاسلامية •

(٣) لقد كانت الزهرة تدعى عند أهل اليمن يلمفة والمق (بكري :

ص ١٣٩٨ عن الهمداني) •

اسعد ، أما ابن اسحاق فيقول ، فيما يروي الازرقعي ، ان عمرو بن لحي هو الذي جاء بها ؛ وأما الازرقعي فيروي ان أول من دعا لعبادتها هو عمرو بن ربيعة والحارث بن كعب . ويروي محمد بن حبيب السكري انه عبدتها غطفان وقريش وغني وباهلة ، بينما يروي الطبري عن ابن زيد أن ثقيفاً عبدتها . وفي رواية للازرقعي ان نصرأ وجشم وسعد بن بكر وهم اعجاز هوازن كانوا يعبدونها . ويروي الازرقعي عن ابن اسحاق ان العزى كانت لحزاعة وأن قريشاً وكنانة كانت تعظم العزى . ويروي ابن الكلبي انها احدث من اللات ومناة وانها كانت تسمى بها وكانت أعظم الاصنام عند قريش وان قريشاً حمت لها شعباً من حراض يقال له سقام يضاهون به حرم السكبة وانه كانت قريش تخصها بالاعظام ولم يكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الاصنام اعظامهم العزى ثم اللات ثم مناة فأما العزى فكانت قريش تخصها دون غيرها في الزيارة والهدايا لقرب مكانها منها . ويروي الازرقعي عن ابن اسحاق انهم كانوا اذا فرغوا من حجهم وطوافهم بالسكبة ، لم يحلوا حتى يأتوا العزى فيطوفون بها ويحلون عندها ويعكفون عندها بها ، ويقول ابن الكلبي ان قريشاً كانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبيح وانه كان لها منحر يذبحون فيه هداياها ، ويقال له الغبغب فكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها ، وكان عندها^(١) وكانت تليتها (ليك اللهم ليك لينك وسعديك ما احبنا اليك) .

يروي الازرقعي عن ابن اسحاق وابن الكلبي ان سدنتها بنو شيان ابن مرة السلميون وان آخر سدنتها منهم دية بن حرسى السلمي ، وكان قبله على ما يروي الازرقعي أفلح بن النضر السلمي ، ولكن السكري وابن الكلبي يرويان أيضاً ان سدنتها بنو صرمة ابن مرة . وقد هدمها خالد بن الوليد وقتل سادتها^(٢) .

(١) الاصنام : ص ١٨ - ٢٧ . الازرقعي : ج ١ ص ٧٤ ، ٧٨ ، ٢٣١ .

وسيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٧ ، ٨٩ .

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٢٨ .

اللات :

لقد كانت اللات من الآلهة البابلية ، وهي تمثل فصل الصيف ، كما كانت عند النبطيين بشكل صخرة بيضاء مربعة وهي تمثل ربة البيت كما كانت تعبد في تدمر وتسمى بها وهب اللات ابن أذينة •

وهي في العربية مؤنثة كلمة الله ويقول ابن الكلبي انها أحدث من سناة • وكانت صخرة مربعة في الطائف ، وكان لها على ما يروي السكري بيت يسترونه وواد يحرمونه •

وكانت قريش وجميع العرب تعظمها الا أن ثقيفاً كانت تخص اللات كما كانت قريش تخص العزي ، وكانت تلية من نسك لللات (لييك اللهم لييك لييك كفى بيتنا بنية ، ليس بمهجور ولا بلية ، لكنه من تربة زكية ، أربابه من صالحى البرية) وقد أرسل الرسول خالد بن الوليد لهدمها^(١) •

مناة :

لقد كانت ماناتو من الآلهة البابلية وكانت ماناتو عند النبطيين الهة القدر والموت •

أما في العربية فقد يكون اشتقاقها من القوة أو القطع أو من المنية أي الموت ، وقد اقسمت بها العرب • ويروي الازرقعي عن ابن اسحاق « ان عمرو بن لحي نصب مناة على ساحل البحر مما يلي قديداً وهي التي كانت للأزد وغيسان ؛ يحجونها ويعظمونها ، فاذا طافوا بالبيت وافاضوا من عرفات وفرغوا من منى لم يحلقوا الا عند مناة • وكانوا يهلون لها ، ومن أهل لها لم يطف بين الصفا والمروة لمكان الصنمين اللذين عليهما نهيك مجاود الريح ومطعم الطير ، فكان هذا الحي من الانصار يهلون بمناة وكانوا اذا

(١) أنظر عن اللات : الاصنام ص ١٦ - ١٧ • الازرقعي : ج ١ ص ٧٥ • سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٤٨ ، ٩١ ، وكذلك مقالة بوهل عن اللات في دائرة المعارف الاسلامية ، ونولدكه ، والاساطير العربية ص ١١٧ - ١١٩ •

أهلوا بحج أو عمرة لم يظل أحد منهم سقف بيت حتى يفرغ من حجته أو عمرته ، •

ويؤيد ابن الكلبي ما أورده الأزرقى اذ يقول ان مناة كانت منصوبة على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة ، وهي قريبة من المدينة ، وان القبائل الساكنة بين مكة والمدينة ، يعظمونها ويذبحون لها ، ولكن الأوس والخزرج كانت أشد اعظاماً لها ، فكانوا اذا حجوا الى مكة يتمون طقوس الحج كلها ، الا حلق الشعر ، حيث يحلقون عنده ، ولا يرون لحجتهم تماماً الا بذلك • وكانت تلبية من نسك لها (ليك اللهم لييك لييك ، لولا ان بكراً دونك يبرك الناس ويهجرونك ما زال حج ثمج يأتونك ، انا على عدوانهم من دونك) •

يروى ابن الكلبي ان مناة كانت أقدم الآلهة وقد تسمى بها عدد من مختلف القبائل ، وكانت احدى قبائل تميم تسمى بها (سعد مناة وزيد مناة) ولكن الغريب ان الأوس والخزرج لم ينتشر فيهم ولا في قريش هذه التسمية • ولقد كان لمناة بيت وكان سدنته الفطاريق من الأزدي وقد بعث الرسول لهدمه سعيد بن عبيد الأشهلي ، وفي رواية أخرى علي بن أبي طالب^(١) •

لقد ذكرت هذه الآلهة الثلاثة في القرآن « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى • ألكم الذكر وله الانثى • تلك اذا قسمة ضيزى • » (النجم ١٩ - ٢٣) ان هذه الآيات لا تنص بوضوح على انهن كن بنات الله ؟ ولكن سياق الاسلوب القرآني المكى يحملنا على القول بأن الآيه الثانية ذات صلة بالآيات الاولى ، وان أهل مكة كانوا يعبدونها بنات الله •

(١) بالاضافة الى تولدكه ، ومقالة بوهل عنها في دائرة المعارف الاسلامية والاساطير العربية ص ١٢٥ - ١٢٩ ، انظر أيضا الاصنام : ص ١٣ - ١٦ • سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٩٠ - ٩١ • الأزرقى : ج ١ ص ٧٨ • تفسير الطبري : ج ٢ ص ٢٩ - ٣١ ، ج ٢٧ ص ٣٥ • المحبر : ص ٣١٦ • ياقوت ج ٤ ص ٦٥٢ •

ولقد بينا انهم كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله وشفعاؤهم عنده • ولكن لا تشير الاخبار المتوفرة لدينا الى اعتقاد العرب بأن هذه الالهات الثلاث كن ملائكة ، كما لا يوجد في القرآن ولا في كتب التاريخ والادب واللغة ما يشير الى اختصاص هذه الآلهة أو الآلهة الأخرى أو العلاقات بينها ، ومن الصعب قبول ادعاء ان المسلمين تعمدوا طمس أخبارها لانها تناقض الاسلام ، فقد وردتنا بعض الاخبار عنها وألف ابن الكلبي فيها كتابا ، كما أورد ابن اسحق أخبارا عنها ، وقد روي من الشعر الجاهلي ما لا يطابق روح الاسلام ، فلماذا لا يذكر عن هذه الآلهة شيء ولو بمعرض السخرية والرد ؟ وجدير بنا أن نؤكد ان هذه الآلهة لم تذكر في القرآن الا مرة واحدة عرضية كما ذكرت أصنام أخرى بصورة عرضية ، وانها لم تكن الآلهة الوحيدة في مكة أو في الجزيرة بل ذكرت أيضا آلهة أخرى فيها •

الشعري :

فاما الشعري فهي التي تسمى العبور^(١) ، ويذكر مصعب الزبيري ان وجره بن غالب وهو من خزاعة ، وهو أول من عبد الشعري ، وكان وجره يقول أن الشعري تقطع السماء عرضاً فلا أرى في السماء شيئاً ، شمساً ولا قمرأ ولا نجماً ، يقطع السماء عرضاً • ووجره هو أبوه كبشة الذي كانت قريش تنسب رسول الله (ص) اليه ، والعرب تظن أن أحداً لا يعمل شيئاً الا بعرق ينزعه شبهه ، فلما خالف رسول الله (ص) دين قريش قالت قريش نزعه أبو كبشة ، لأن أبا كبشة خالف الناس في عبادة الشعري • وكانوا ينسبون رسول الله (ص) اليه وكان أبو كبشة سيداً في خزاعة^(٢) • ويذكر محمد بن حبيب السكري ان الحارث بن غبشان كان يعبد الشعري ، كما يذكر صاعد الاندلسي ان عبد قيس كانت تعبد الشعري^(٣) •

(١) تفسير الطبري : ج ٢٧ ص ٤٥

(٢) نسب قريش : ص ٢٦١

(٣) المحبر : ص ١٢٩ • طبقات الامم ص ٤٣

الشمس :

فأما الشمس فقد ذكر القرآن ان أهل سبأ كانوا يعبدونها « ووجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » (النحل ٢٤) • والواقع ان عبادة الشمس قديمة ، انتشرت عند معظم الامم القديمة ، وكان الاله شماس وشمس من أكبر الآلهة البابلية واليمانية ، كما يذكر سترابو ان أهل بطرا كانوا يعبدون الشمس • وقد انتشرت تسمية عبد شمس عند العرب ، وكانت عبادته في بني تميم ، وكان له بيت ، وكانت تصده بنواد كلها : ضبة وتميم وعدي وعكل وثورا ، وكان سدنته من بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم ، وكانت تلبية من نسك له « ليك اللهم ليك ليك ، ما نهارنا نجره ، ادلاجيه وجره وقره ، لا نتقي شيئاً ولا نضره ، حجاً لرب مستقيم بره ، وقد هدمه هند بن أبي هالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن^(١) •

ولعل مما يتصل بالشمس الشارق^(٢) ، الذي تسمى به العرب وعبدته بعضهم وان لم تكن لدينا معلومات عن عبادته •

بعل :

أما بعل الذي ذكره القرآن باعتباره الهاً كان يعبده قوم الياس « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » (الصافات ١٢٥^(٣)) فهو من أشهر الآلهة القديمة ، فقد كان اله الأرض عند البابليين ، ثم أصبح اله الخصب عند الاسرائيليين ، واله المياه الباطنية عند اليمانيين ، وتستعمل كتب الفقه الاسلامية عند تصنيف الاراضي الزراعية « ما سقي بالبعل ، أي الأرض

(١) المحبر : ص ٣١٦ •

(٢) الزبيدي : تاج العروس مادة شرق •

(٣) وقد وردت كلمة بعل بمعنى زوج في موضعين بالقرآن (النساء

التي تسقى بالآبار^(١) ، فكأن هذا التعبير من آثار ما قبل الاسلام ، أي ما سقاه الاله بعل •

لقد ذكرت ان القرآن ذكر « ودأ وسواعا ، ويفوث ويعوق ونسراً باعتبارها من آلهة قوم نوح » •

ود :

أما ود فكان من أكبر الآلهة المعينية ، وقد ورد ذكره في النقوش الثمودية ، فأما عند ظهور الاسلام فكان موضعه بدومة الجندل ، وكان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربـة فيها لواء ووفضة (أي جعبة) فيها نبل^(٢) ؟ وهذا الوصف يوحى بأنه كان اله الحرب ، ولكن لاتشير الكتب العربية الى اختصاصه ، كما ان تليتيه لا توحى بشيء فقد كانت تلية من نسك اليه « ليك اللهم ليك ليك معذرة » • وكان يقدم اليه اللبن ، ولا تشير المصادر الى أية علاقة بينه وبين ودان التي هي قرية في الحجاز •

كانت سدنة الاله ود من بني عامر الاجدار ، وقد بعث اليه الرسول خالد بن الوليد لهدمه ، ولكن بنو عبد ود وعامر الاجدار قاوموه فاشتبك معهم وانتصر عليهم ثم هدمه •

سواع :

فأما سواع ، فتسميته غامضة ، وكان يرهاط من أرض ينبع ، وكانت تعبده بنو كنانة وهذيل ومزينة وعمر بن قيس بن عيلان ؟ ولكن هذيل

(١) ابن سلام : الاموال ص ٤٧٦ ، ٤٧٨ • انظر عن بعل ما كتبه نولده ، وما كتبه الاستاذ طه باقر في كتابه مقدمة في حضارة وادي الرافدين ص ٢٤٦ •

(٢) الاصنام : ص ١٠ • سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ • المحبر : ص ٣١٢ ، ٣١٦ ، وكذلك نولده ، وكتاب الاساطير العربية ص ١٢٩ • ١٣٢

اختصت به أكثر ، فكانوا يقدمون إليه الذبائح ، وقد ذكر ابن سعد خبراً ذكر فيه ان بقرة قدمت لسواع ، وكانت تلبية من نسك اليه « ليك اللهم ليك ليك ، ابنا اليك ، ان سواع طلبنا اليك » .

لقد كانت سدنة سواع من بني لحيان ، وكان سادنه عند ظهور الاسلام غاوي بن ظالم . وقد هدمه عمرو بن العاص^(١) .

يفوث :

أما يفوث فان اسمه مشتق من الفوث أو النجدة ، واسمه يشبه اسم الاله العبري يعوش ، مما حمل روبرتسن سمث على اعتبارهما الالهاً واحداً . وكان عند ظهور الاسلام في اليمن تبعده مذحج وأهل جرش ، ويذكر محمد بن حبيب السكري انه كان في انعم وكان لمذحج كلها ، فقاتلهم عليه غطيف من مراد ، حتى هربوا به الى نجران ، فأقروه عند بني النار من الضباب من بني الحارث بن كعب واجتمعوا عليه جميعاً ، وكان سادنه عند ظهور الاسلام العوامل بن جهيل الهمداني المسلمي . وكانت التلبية اليه « ليك اللهم ليك ليك احبنا بما لديك ، فنحن عبادك ، قد صرنا اليك »^(٢) .

يعوق :

أما يعوق فاسمه يدل على الاعاقة والمنع ، ولعل المقصود منع الشر ، فهو الحارس من الشرور ، وكان في قرية خيوان التي تبعد ليلتين شمال صنعاء ، ولم يسم به أحد ، والتلبية اليه « ليك اللهم ليك ليك بغض الينا الشر ، وجب الينا الخير ، ولا تبطرنا فناشر ، ولا تفدحنا بمشبار »^(٣) .

-
- (١) الاصنام : ص ٩ - ١٠ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ .
الازرقى : ج ١ ص ٧٨ ، وانظر عن سدنته : المحبر : ص ٣١٦ . ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٤٨٢ .
(٢) الاصنام : ص ١٠ ، ٥٧ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ ، المحبر : ص ٣١٦ وعن سدنته ج ٣ ص ٤١ .
(٣) الاصنام : ص ١٠ ، ٥٧ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ .
المحبر : ص ٣١٦ ياقوت ج ٤ ص ١١٢٢ .

نسر :

ونسر اله قديم ، فقد وجد في نقوش ممفيس ما يفهم منه ان نسرآ اله عربي ، وقد عبده الكلدانيون وتسمى به أشهر ملوكهم نبوخذ نصر ، كما عبده الآراميون في سوريا ، وكان اله الحضر الاكبر •

أما عند الاسلام فكان في غمدان ، تعبده حمير وتعظمه وتدين له وتلبي له • ولكن لم يتسم أحد به ولم يذكر في الشعر^(١) •

يتبين مما تقدم ان الآلهة التي ذكرت في القرآن باعتبارها آلهة قوم نوح ، كانت عند ظهور الاسلام يعبد أكثرها في اليمن ، والواقع أن المصادر الادبية لم تقدم عنها معلومات وافية ؛ كما أن القرآن لم يشر الى عبادات أو معبودات أهل اليمن ، ولم يذكر كثيراً من الاصنام التي يرد ذكرها في الكتب وهي غير قليلة ، بعضها اجرام سماوية ، فيذكر صاعد الاندلسي ان تمياً عبدت الدبران ، وعبدت لخم وجذام المشتري ، وعبدت طي سهيل ، وعبدت أسد عطارد •

وهناك معبودات بأسماء الاماكن كذي شري وذي خلصة •

ذو شري :

فأما ذو شري فيبدو أن اسمه مشتق من جبل السراة ، وقد عبده الانباط وسموا كثيراً من أولادهم به كعبد ذو شري ، وكان عندهم صخرة مربعة ارتفاعها أربعة أقدام وطولها قدمان ، ويسفح عليها أو أمامها دم الضحايا ، ويقول ابيفانوس انه كان يقام لها عيد في ٢٥ كانون الاول أي يوم الانقلاب الشتوي ، فاذا صح هذا فمعناه ، انه كانت لها علاقة بالشمس وكان عند ظهور الاسلام يعبده بنو الحارث بن يشكر الازديون على ما يقول ابن الكلبي^(٢) •

(١) انظر في ذلك نولدكه وكذلك ياقوت ج ١ ص ٧١٤ ج ٤ ص ٧٨٠ •

(٢) الاصنام : ص ٣٨ وانظر أيضاً نولدكه •

الخلصة :

أما ذو الخلصة فكان صخرة بيضاء عليها كهيئة التاج ولها بيت ، وكانت بتبالة بين مكة واليمن ، وكانت خثعم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن يعظمونها ويهدون اليها ويلبسونها القلائد ويهدون اليها الشعير والحنطة ويصبون عليها اللبن ويذبحون لها كما كانوا يستقسمون عندها بالازلام ، وقد استقسم عندها امرؤ القيس . وكانت سدنتها بني امامة من باهلة بن اعصر ، وقد هدمها جرير البجلي بعد أن اشتبك مع سدنتها وعبادها بمعركة غيفة ، وانشئ مكانها مسجد العبلات بتبالة^(١) .

الفلس :

وهناك آلهة بأسماء أعضاء الجسم أو بشكل انسان مثل ذي الفلس الذي كان تنوءاً بارزاً في جبل اجا يشبه تمثال انسان ، وكانت طي تعبده وتهدي اليه وتعتر عنده العائثر ، ولا يأتيه خائف الا أمن عنده ، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها اليه الا تركت له ولم تخفر حويته . وكان سدنته بني بولان . وقد هدمه علي بن أبي طالب بعد أن وجد عنده سيفين اهداهما اليه الحارث بن أبي شمر الفساني .

آلهة اخرى :

وقد ذكر ابن الكلبي عدة آلهة أخرى منها ذو الكفين وكان لبني منهب بن دوس ، ورضا وكان بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة ، وسعد وكان صخرة طويلة بساحل جدة توقف عليه الابل وتهراق عليه الدماء وكان للملك وملكان ابني كنانة . والا قيصر وهو لقضاة ولخم

(١) الاصنام : ص ٣٥ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٩١ . الازرقى :

ج ١ ص ٧٣ وقد الحق ناشر الكتاب ملحقاً طويلاً عنها في نهاية الجزء الاول ، وانظر ايضاً الاساطير العربية ص ١٠٤ . ياقوت ج ٢ ص ٤٦٢ البكري ص ٥٠٨ .

وجذام وعاملة وغطقان وكانوا يحجون له ويحلقون رؤوسهم عنده ،
ويخلطون شعرهم بالدقيق • ونهم وكان لمزينة وبه كانت تسمى هذه القبيلة
عبد نهم وكانت تذبح عنده العتائر ، وله سادن من بني عداء المزنيين اسمه
خزاعي •

وعاتم وهو لأزد السراة وقد ذكره زيد الخيل •
وسمير لغزة •

وعميناس وكان لخلولان ، وفيه نزلت آية • وجعلوا لله مما ذرأ من
الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان
لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء
ما يحكمون • (الانعام ١٣٦) •

وقد ذكر محمد بن حبيب السكري^(١) آلهة أخرى منها جهار
وكان لهوازن ومحارب بمكاظ في سفح جبل اطحل وكان سدنتها آل
عوف النصريين •

والسعيدة وكانت بأحد تبعدها الأزد وسعد هذيم وقضاعسة الا بني
وبرة وكان سدنتها بني العجلان^(٢) •

وذو اليا بالمشقر ، في البحرين ، وتبعده عبد القيس وسدنته بنو عامر •
والمحرق بسلمان لبكر بن وائل ، وله أولاد موزعون على قبائلها
ففي غزاة بلج بن المحرق ، وفي عميرة وغفيلة عمرو بن المحرق ، وسدنته
آل الاسود العجليون •

وذريح بالنجير ، في جنوب اليمن ، لكندة •
ومرحب بحضرموت •

والمنطبق ، وكان صنما من نحاس ، وهو للسلف وعك والاشعريين •
(وهو من نحاس يكلمون من جوفه كلاماً لم يسمع بمثله فلمما كسرت
الاصنام وجدوا فيه سيفاً فاصطفاه رسول الله (ص) وسماه مزدما^(٣) •

(١) المحبر : ص ٣١١ - ٣١٩ • معجم البلدان ج ٥ ص ١٦٧ •

(٢) ياقوت : ج ٣ ص ٩٣ •

(٣) ياقوت : ج ٤ ص ٦٦٥ •

ويذكر البكري عن ابن اسحق صنما اسمه ضمار كان لبني سليم يعبدونه وقد ورد في شعر عباس بن مرداس^(١) .

كما ذكر ياقوت اوال صنم كان لبكر بن وائل^(٢) ، وذو الرجل وهو في الحجاز^(٣) ، وحلال اسم صنم لبني فزاره^(٤) ، وععب وهو صنم كان لقضاة ومن يقاربهم^(٥) .

وأغلب ما يستعمل في الكتب العربية لوصف ما ذكرناه صيغة الضمير ، فيقولون (اتخذوا) أو (وكان لهم) دون أن يذكروا ماهيتها ، غير ان بعض مؤلفات المتدينين تصفها بأنها أصنام أو أوثان ، أما القرآن فيصفها بأنها آلهتهم أو أربابهم (المزيفة طبعا) ولا ريب ان عدم استعمال الكتب العربية لكلمة آلهة هو خشية مؤلفيها من أن يلتبس هذا التعبير بالاله الحقيقي وهو الله تعالى .

الاصنام :

يعرف ابن الكلبي الصنم بأنه (اذا كان معمولا من الخشب أو الذهب أو فضة صورة انسان فهو صنم ، واذا كان من حجارة فهو وثن^(٦)) . ويقول ابن الاثير ان الفرق بين الصنم والوثن هو ان الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الارض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمي تعمل وتصيبه فتعبد والصنم الصورة بلا جثة . ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقها على المعنيين قال وقد يطلق الوثن على غير الصورة ، ويقول شمران ان الاوثان عند العرب كل تمثال من خشب أو حجارة أو فضة أو نحاس أو نحوها وكانت العرب تنصبها وتعبد^(٧) ، وقد لاحظنا ان هذه

(١) البكري : معجم ما استعجم ص ٨٨١ .

(٢) ياقوت ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) ياقوت ج ٢ ص ٧٥٥ .

(٤) ياقوت ج ٢ ص ٣٠٢ .

(٥) ياقوت ج ٣ ص ٦٠٦ .

(٦) الاصنام : ص ٥٣ .

(٧) ابن منظور : لسان العرب ج ١٤ ص ٤٣٣ ج ١٥ ص ٢٤١ .

الآلهة بعضها بشكل انسان كهبل ، وان بعضها كان مجرد صخرة مربعة أو مستطيلة وان بعضها من الحجارة وبعضها من العقيق •

والراجع ان هذه الاصنام لم تكن هي الآلهة بل كانت سكناً لهم ولارواحهم فهي تمثل استقرار القوى الروحية في الاشياء المادية ، وهي ليست من الضروري أن تكون بصورة الآلهة ، ولكنها عندما تسف العقليات، تحاط ذاتها بالتعظيم كأنها الآلهة •

وقد ورد ذكر الاصنام في القرآن « فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، (الاعراف الآية ١٣٨) « رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الاصنام ، (سورة ابراهيم ٣٥) •

« واذ قال ابراهيم لأبيه آزر اتخذ أصناماً آلهة ، (انعام ٧٤) قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ، (الشعراء ٢٧١) « وتالله لا يكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، (الانبياء ٥٧) وكل هذه الآيات تتعلق بالاقوام القديمة اذ لم ترد في القرآن آية تصف العرب عند ظهور الاسلام بأنهم يعبدون الاصنام أو بأن لهم أصناماً •

الاوثان :

أما الاوثان فقد ذكرت في ثلاث آيات ، « وابراهيم اذا قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون • انما تعبدون من دون الله اوثاناً وتخلقون افكا ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتنفوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له واليه ترجعون ، (الانكسوت ١٦ ، ١٧) • وقال ابراهيم « انما اتخذتم من دون الله اوثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ ، (الانكسوت ٢٤) « ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وَاَحْلَلْتُ لَكُمْ الْاَنْعَامَ اِلَّا مَا يَتْلِي عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْاَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ، (الحج ٣٠) • ولا ريب ان الآتين

الاولين تتعلقان بقوم ابراهيم ، أما آية الحج فتطبق على عرب الجاهلية وحجهم ، وتتطلب تنقيته وهو كما سنرى ، يتم في منطقة فيها عدد كبير من الآلهة والاصنام والانصاب وغيرها •

وليس في هذه الآية ما يشير الى أي نوع منها ، أما الآيتان الاوليان فيجدر أن نلاحظ ان قوم ابراهيم وصفوا في القرآن بأنهم عباد الاصنام ، فكأن الاوثان والاصنام في القرآن مترادفة •

ويروي الازرقعي انه « أول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل انه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم الا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة وبالكعبة ، حيثما حلوا وضعوه فطافوا به كالطواف بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم الى أن كانوا يعبدون ما استحسنا من الحجارة وأعجبهم من حجارة الحرم خاصة ، حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره فعبدوا الاوثان وصاروا الى ما كانت عليه الامم من الظلالات ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدى البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيهم ما ليس منه ^(١) » •

الانصاب :

أما الانصاب فقد ذكرت في القرآن في ثلاثة مواضع « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على انصب » (المائدة ٣) « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان » (المائدة ٩٠) « يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون » (المعارج ٤٣) وتعلق كافة هذه الآيات بالعرب عند ظهور الاسلام •

(١) الازرقعي : ج ٢ ص ٦٢ ، انظر أيضا الاصنام : ص ٦ ، سيرة

ابن هشام : ج ١ ص ٨٢ •

يقول ابن الكلبي انه كانت للعرب حجارة غير منصوبة ، يطوفون بها ويعترونها عندها ، يسمونها الانصاب ، ويسمون الطواف بها الدوار^(١) ، ويروي الطبري عن ابن جريج ان النصب ليست بأصنام الصنم يصور وينقش ، وهذه حجارة تنصب ، ثلاثمائة وستون حجر ، منهم من يقول ثلاثمائة منها بخزاعة ، فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة ، فقال المسلمون يا رسول الله كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم ، فحنن أحق أن نعظمه فكان النبي (ص) لم يكره ذلك فأنزل الله لن ينال الله لحومها ولا دماؤها (الحج ٤٣) • ويروي عن قتادة ان النصب حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فهي الله عن ذلك ، ويروي عن مجاهد أنهم كانوا يذبحون عليها ، وعن ابن عباس والضحاك بن مزاحم انها حجارة كانوا يهلون لها ويذبحون عليها^(٢) •

وقد ورد ذكر النصب في الشعر الجاهلي فقال عمرو بن جابر الحارثي :

حلفت غطيف لا تنهه سربها وحلفت بالانصاب أن يرعدوا

وقال المثقب العبدى :

يطيف بنصبهن حجن صغار فقد كادت حواجهن تشيب

وقال الفزاري :

أسوف بدلى محقبا انصابي هل لي من قومي من أزياب

وقال المتلمس :

اطرتني حذر الهجاء ولا واللات والانصاب لا مثل

وقال عامر بن وائلة :

فانك لا تدريين ان رب غارة كورد القطا ريعانها متابع

(١) الاصنام : ص ٤٢ •

(٢) تفسير الطبري : ج ٦ ص ٤٨ - ٤٩ ، وانظر أيضا لسان العرب :

نصبت لها وجهي وورداً كأنه
وقال زهير :

حلفت بأنصاب الاقصر جاهداً
وقال رشيد بن رميض :

حلفت بمائرات حول عوض
وقال طرفة :

وأقسمت عند النصب اني لهالك
وقال أيضاً :

اني وجدك ما هجوتك والـ انصاب يسفح بينهن دم^(١)

يتضح مما ذكر أعلاه ان الانصاب هي أحجار ، وليس من الضروري أن تكون مصقولة أو بشكل تماثيل تشبه الآلهة ، ولكنها ذات علاقة وثيقة بالآلهة ومنها يتقبل الاله الهدايا المقدمة له^(٢) ، كما قد تقام حول الحرم ، والواقع ان الانصاب التي كانت حول حرم مكة ظلت في زمن الاسلام ، فأمر الرسول ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان بتجديدها^(٣) .

ولكن الغالب أن تقام النصب حول الاصنام ، وقد يطوف الناس حولها ، وكثيراً ما تقدم عليها الهدايا ، أو تذبح عليها الضحايا للآلهة ، ويسيل دم الضحايا عادة في كهف أو حفرة خاصة تدعى الغيب^(٤) ولعل الناس كانت تعتقد ان الغيب مكان مقدس له علاقة بالآلهة ، وان الدم الذي

(١) الاصنام: ص ٤٢ - ٤٤ ، وانظر أيضاً الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص ٣٠٣ فما بعد . أما عن الانصاب المكتشفة في الجزيرة فانظر جمعة : ص ١٥٧ فما بعد .

(٢) سمت : ص ٢٠٧ .

(٣) الازرقى : ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٤) الاصنام : ص ٢٠ . انظر أيضاً لسان العرب : ج ٢ ص ١٢٨ .

يسيل فيه أو يسفك على النصب يمسّه الآله ، وإن اللحم الذي يضحي على النصب يكون للآله منه نصيب ، وبذلك تصبح بين مقدم الضحية علاقة دموية تستلزم من الآله أن يحمي المهدي وقد نفى القرآن الكريم ذلك عن الله تعالى في ضحايا المسلمين « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرناها لكم لكتبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين » (الحج ٣٧) وكثيراً ما كان العرب يقسمون عندها •

والانصاب كثيرة في الجزيرة ، وهي لا تبقى ثابتة بل تتغير وتبدل ، ويروى انه كان في الكعبة يوم الفتح ٣٦٠ صنماً ولا ريب ان الكعبة لا تتسع لتل هذا العدد من الاصنام ، كما لم يذكر العرب اسم أي صنم بالكعبة أو قربها غير هبل وأساف ونائلة والراجح أن المقصود بذلك الانصاب وانها لم تكن في داخل الكعبة بل حولها وفي مكة نفسها •

ليس في المصادر العربية ما يوضح العلاقة بين الاصنام والانصاب والآله ذاته •

الاشجار المقدسة :

لقد كانت بعض الاشجار مقدسة ومنها ذات أنواط ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب ، وهي شجرة عظيمة خضراء يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعفون عندها يوماً ، وكان من حج منهم وضع زاده عندها ويدخل بغير زاد تعظيماً لها^(١) •

وكان في بيت العزي ثلاث شجرات كانت تعلق عليها الهدايا ، كما كان أهل نجران قبل دخول المسيحية يلبسون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد في كل سنة وإذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحل النساء ثم خرجوا اليها فعلقوا عندها يوماً^(٢) •

(١) الأزرقى : ج ١ ص ٧٧ - ٧٨ • ياقوت ص ٣٩٣ الطبري :

التفسير ج ٩ ص ٢٩ •

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٢ ، وانظر أيضاً الاساطير العربية

ص ٥١ - ٥٢ •

ويلاحظ أن الشجرات المقدسة لم تعبد الا في الاماكن المنعزلة أما في الحرم أو الارض الخصبة فقد منع قطع شجرها • ولم يرو أنها عبت ، والواقع ان الرسول خرق هذا التقليد فقطع نخل بني النضير فأنار كلام الناس حتى نزلت الآية التي تحل لهم ذلك « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » (الحشر ٥) •

وقد قطع عمر بن الخطاب الشجرة التي عاهد تحتها المسلمون النبي على القتال في الحديبية والتي أشار اليها القرآن بقوله « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة » (الفتح ١٨) وكان سبب قيامه بهذا العمل هو خشيته من تقديس الناس لها •

ويلاحظ أن الاشجار تنبت عند الينابيع والاماكن الخصبة حيث توجد الآلهة وهي تعتمد في حياتها على نفس سر الحياة الذي ينبعث من الينابيع فالشجرة ليست مقدسة لذاتها ، ولكن بسبب أنها المنتج الطبيعي في الاماكن التي تعبد الاله الذي يرسل مجاريه التي تحيي الارض بعد موتها وليس هناك نوع خاص يقدر من الاشجار •

الحرم :

لما كان الاله مقدساً فقدرته سرية عادة على الامكنة والاشياء التي حوله ، وتعتبر تلك الاماكن حراماً والغالب أن يكون الحرم عاماً لكل القبائل وأحياناً يكون مقصوراً على القبيلة أو الاسرة التي ترعى الحرم •

وللحرم عادة حدود طبيعية واضحة تحدها ، كالوديان والتلوي أو الجبال وهي في الغالب تشمل البلاد التي يسكنها عابدين الآلهة أو ما يسري عليه تأثير الاله كمدى امتداد المناطق الزراعية^(١) ، ويروي السكري « ان الشرى ما كان حول الحرم وهي أشراء الحرم »^(٢) •

(١) راجع عن الحرم سمث : ص ١١٥ فما بعد • أما عن حرم مكة.

فراجع الازرقعي : ج ٢ ص ٩٦ فما بعد •

(٢) البكري : ص ٧٨٦ •

وللحرم مصالح عامة ، ففيها مجلس عام وخزينة عامة ومحل اجتماع عام ، والواقع ان بعض الفقهاء في الاسلام حرموا كراء بيوت مكة • فكأنهم كانوا يعتبرون كل مكة ملكية عامة • ولكن نظرتهم لم تطبق فقد ظلت فيها ملكية خاصة ، والواقع انه منذ العصر الجاهلي كانت فيها ملكيات خاصة بل حتى دار الندوة كانت ملكية خاصة^(١) •

وفي الحرم يعطى الاشخاص أو الاشياء الموجودة فيه نوعاً من الحماية القانونية وهي حماية محدودة في المكان ، ولكنها دائمية وهي في الغالب مطلقة وغير مقيدة ، وتكون هذه الحماية مصطبغة بصبغة دينية اذ أن الفرد يكون تحت حماية الاله • فمن دخل الحرم كان آمناً^(٢) ، ومن أحدث حدثاً في بلد غيره ثم لجأ اليه فهو آمن اذا دخله •

وتسري هذه الحماية على النبات والشجر فلا يجوز قطع شجرة وكذلك على الحيوان فلا يجوز الصيد فيه •

وتمتد هذه الحماية الى حرية الكلام ، ولعل أوضح مثل على ذلك حالة الدعوة الاسلامية حيث قام الرسول يسفه آلهتهم ويعيبها ولكن لم تجر محاكمة رسمية له ولم يصدر قرار بمنعه أو بمعاقبته • غير ان هذه الحماية تقتصر على الامتناع عن القتل والاعتداء البدني فكان من سنتهم ان الرجل يحدث الحدث بقتل الرجل أو يلطمه أو يضربه فيربط لحا من لحا الحرم قلادة في رقبته ويقول أنا ضرورة ، فيقال دعوا الصرورة نجهله وان رمى بحضرة في رجله فلا يعرض له أحد • فقال النبي (ص) لا ضرورة في الاسلام وان من أحدث حدثاً أخذ بحدثه^(٣) •

لقد ذكرت أن الحرم نشأ حول المياه عادة ، ويبدو انه كان حول كل

(١) انظر ص ١٠٨ •

(٢) انظر تفسير الطبري : ج ٤ ص ١٠ •

(٣) الازرقعي : ج ١ ص ١٢٥ • انظر ايضا لسان العرب : ج ٦

بئر حيثما كان حرم صغير ، وقد أقر الاسلام حريم البشر بخمسين ذراعاً^(١) . ولا ريب أن هذه سنة جاهلية أقرها الاسلام وكان الدافع لحدوثها على الأرجح منع حدوث اشتباكات ومنازعات حول الآبار .
وبما أن أغلب المناطق المقدسة تكون حول الآبار ، لذا تنشأ حولها حياة مستقرة مدنية ، وتكون لها نظم تختلف عن نظم أهل الوبر .
تقد ورد في الاخبار ذكر لعدد من الحرم كحرم الفلس^(٢) وجلسد في حصرموت^(٣) والعزى في وج^(٤) ولكن أشهر حرم هو حرم مكة الذي لدينا عنه تفصيلات أوفى والذي مستمد منه ما ذكرناه من معلومات عن الحرم .
وقد أوجد الاسلام للمدينة حرماً^(٥) . كما أقر حرم مكة ، وحرم وج^(٦) . ولكن آثارها زالت ما عدا حرم مكة .

البيوت المقدسة :

لما بنى الناس البيوت في الحرم أقاموا بيوتاً للآلهة ، فالبيوت المقدسة إذاً هي أحدث من الحرم ، وهي تختلف عن النصب من حيث أنها ثابتة ، لا يمكن أن تتحرك ، وكثيراً ما تكون فيها الانصاب والاصنام ، وهي ليست من الضروري أن تكون مسقفة أو مسورة ، إذ قد يكتفى بتحديددها .
وتحاط البيوت عادة باحترام كبير ، كما نستدل عليه من تسمية بعض الناس باسم عبدالدار وعبدالبيت .

-
- (١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٠٠ - ١٠٢ ، وهو يذكر حديثاً عن الرسول بأن حريم البئر أربعون ذراعاً ، وحريم الناضح ستون ذراعاً ، وحريم العين خمسمائة ذراع . انظر أيضاً ابن حنبل : المسند ج ٢ ص ٤٦٤ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٩١٢ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٠ .
(٤) الاصنام : ص ١٩ .
(٥) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٢٢ ، وأما عما ورد عنها في كتب الحديث فانظر : فنسكك الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي مادة حرم .
(٦) سنن أبي داود : كتاب المناسك ٩٣ . محمد حميد الله : الوثائق السياسية في عصر النبي ص ١٢٣ .

وقد ذكرت الاخبار عدداً من البيوت المقدسة ، كبيت العزى ، وبيت اللات ، وكعبة سداد ، وبيت رثام ، والسعيدة ، وذوي الكعبات الذي كانت تحجه ربيعة في الجاهلية^(١) ، وبساء وهو « بيت بنته غطفان وسمته مضاهاة للكعبة هو من قولهم لا افعل ذلك ما ابس عبد ربه وهو طوفانه حولها ليجبها »^(٢) .

غير ان أشهر بيت وردتنا عنه معلومات وافية هو الكعبة وهي بيت الله ، وقد ورد ذكره في القرآن باسم الكعبة « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة » (المائدة ٩٥) « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض وان الله بكل شيء عليم » (المائدة ٩٧) كما سميت بالبيت العتيق ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ، (الحج ٢٩) « لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق » (الحج ٣٣) . كما سميت البيت الحرام « ولا آمين البيت الحرام يتفون فضلاً من ربهم ورضوانا » (المائدة ٢) « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » (المائدة ٩٧) . ولكنها ذكرت في عدد من الآيات باسم البيت « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمانا » (البقرة ١٢٥) « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » (البقرة ١٢٧) « فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » (البقرة ١٥٨) « ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ، (آل عمران ٩٦) « وما كانت صلاتهم عند البيت الا مكاءاً وتصدياً » (الانفال ٣٥) « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً » (الحج ٢٦) « فليعبدوا رب هذا البيت » (قريش ٣) « ربنا اني أسكنت

(١) انظر الاصنام : ص ٩٩ ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٧ - ٩٤ ،

البكري : ص ٦٩ ، ٦٢٠ . ياقوت : ج ٣ ص ٩٣ .

(٢) ياقوت : ج ١ ص ٦٠٩ ، ٦٢٢ .

من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، (ابراهيم ٣٧) •

ويتضح من الآية الاخيرة ان الكعبة هي بيت الله ، كما يتضح من الآية ١٢٧ من سورة البقرة ان بناءه يرجع الى زمن ابراهيم الخليل ، ولذلك صار البيت العتيق •

ليست لدينا معلومات وافية عن تاريخ الكعبة وتطوراتها قبل الاسلام ، وأول المعلومات الواسعة عنها تأتي في السنة الخامسة قبل البعثة النبوية وقد فصل أخبارها الازرققي وهي مجملة في احدى الروايات التي أوردها فقال : (جلس رجال من قريش في المسجد الحرام فيهم حويطب بن عبد العزى ومخرمة بن نوفل فتذاكروا ببيان قريش الكعبة وما هاجهم على ذلك وذكروا كيف كان بناؤها قبل ذلك فقالوا : كانت الكعبة برضم يابس ليس بمدر^(١) ، وكان بابها بالارض ولم يكن لها سقف وانما تدلى الكسوة على الجدر من خارج وتربط من أعلى الجدر من بطنها • وكان في بطن الكعبة عن يمين من دخلها جب يكون فيه ما يهدى الى الكعبة من مال وحليبه كهيئة الخزانة^(٢) • وكان يكون على ذلك الجب حية • فلم تنزل كذلك حتى بنت قريش الكعبة • وكان قرنا الكبش الذي ذبحه ابراهيم خليل الرحمن معلقين في بطنها بالجدر تلقاء من دخلها ، يخلقان ويطييان اذا طيب البيت ، فكان فيها معاليق من حلية كانت تهدي الى الكعبة ، فكانت على ذلك من أمرها • ثم ان امرأة ذهبت تجمر الكعبة فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها^(٣) وكانت الكسوة عليها ركاماً بعضها فوق بعض • فلما احترقت الكعبة توهنت جدرانها من كل جانب وتصدعت • وكانت الخرنج الاربعة عليهم مظلة والسيول متواترة ، ولمكة سيول عوارم ، فجاء سيل عظيم على تلك الحال فدخل الكعبة وصدع جدرانها وأخافهم ففرغت

(١) أنظر أيضا الازرققي : ج ١ ص ٩٩ ، الطبري : ج ٢ ص ١٩٨

(عن ابن اسحق) •

(٢) أنظر كذلك الازرققي : ج ١ ص ٢٥ ، ١٠٠ ، ١٢٨ •

(٣) أنظر أيضا الازرققي : ج ١ ص ٢٨ •

من ذلك قريش فزعا شديدا ، وهابوا هدمها وخشوا أن مسوها أن ينزل عليهم العذاب . قال فيناهم على ذلك يتناظرون ويتشاورون اذا أقبلت سفينة للروم ، حتى اذا كانت بالشعبية وهي يومئذ ساحل مكة قبل جدة ، انكسرت فسمعت بها قريش ، فركبوا اليها ، فاشتروا خشبها ، وأذنوا لأهلها أن يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من متاعهم على أن لا يعشروهم . قال وكانوا يعشرون من دخلها من تجار الروم كما كانت الروم تعشر من دخل منهم بلادها . فكان في السفينة رومي نجار بناء يسمى باقوم .

فلما قدموا بالخشب مكة قالوا : لو بنينا بيت ربنا ، فاجمعوا لذلك وتعاونوا عليه وترافدوا في النفقة وربعوا قبائل قريش ارباعا ، ثم اقترعوا عند هبل في بطن الكعبة على جوانبها ، فطار قدح بني عبد مناف وبني زهرة على الوجه الذي فيه الباب وهو الشرقي . وقدح بني عبد الدار وبني أسد ابن عبد العزي وبني عدي بن كعب على الشق الذي يلي الحجر وهو الشق الشامي . وطار قدح بتي سهم وبني جمح وبني عامر بن لؤي على ظهر الكعبة وهو الشق الغربي . وطار قدح بني تيم وبني مخزوم وقبائل من قريش ضموا معهم على الشق اليماني الذي يلي الصفا وأجباد ؟ فنقلوا الحجارة ، ورسول الله يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي . فلما اجتمع لهم ما يريدون من الحجر^(١) والخشب وما يحتاجون اليه عدوا على هدمها . فهابت قريش هدمه وقالوا من يبدأ فيهدمه ؟ فقال الوليد بن المغيرة أنا ابدؤهم في هدمه . فهدمت قريش معه حتى بلغوا الاساس . فلما جمعوا ما أخرجوا من النفقة قلت النفقة عن أن تبلغ لهم عمارة البيت كله ، فتشاوروا في ذلك ، فأجمع رأيهم على أن يقصروا عن القواعد ويحجروا ما يقدرون عليه من بناء البيت ويتركوا بقيته في الحجر عليه جدار مدار يطوف الناس من ورائه ففعلوا ذلك ، وبنوا في بطن الكعبة

(١) لقد جاؤا بالحجارة من حراء وثبير والمقطع والخندمة وجبل حلحلة ومقلع الكعبة (الازرقى ج ١ ص ١٤٥ - ٦) أي من معظم الجبال المحيطة بالكعبة .

أساسا ينون عليه من شق الحجر • وتركوا من ورائه من فناء البيت في الحجر ستة أذرع وشبرا ، فبنوا على ذلك ، فلما وضعوا أيديهم في بنائها قالوا : ارفعوا بابها من الأرض واكسبوها حتى لا تدخلها السيول ولا ترقا إلا بسلم ولا يدخلها إلا من أردتم ، أن كرهتم أحدا دفعتموه ففعلوا ذلك • وبنوه بساف من حجارة وساف من خشب بين الحجارة حتى انتهوا الى موضع الركن فاختلفوا في وضعه وكثر الكلام فيه •• فبنوا حتى رفعوا أربعة أذرع وشبرا ، ثم كبسوها ووضعوا بابها مرتفعا على هذا الذرع ، ورفعوها بمدماك خشب ومدماك حجر حتى بلغوا السقف ، فقال لهم باقوم أتحبون أن تجعلوا سقفها مكبسا أو مسطحا ؟ فقالوا بل بيت ربنا مسطحا ، فبنوه مسطحا وجعلوا فيه ست دعام في صفين في كل صف ثلاث دعام من الشق الشامي الذي يلي الحجر الى الشق اليماني ، وجعلوا ارتفاعها من خارجها من الأرض الى أعلاها ثمانية عشر ذراعا ، وكانت قبل ذلك تسعة أذرع ، فزادت قريش في ارتفاعها في السماء تسعة أذرع وأخر وبنوها من أعلاها الى أسفلها بمدماك من حجارة ومدماك من خشب ، وكان الخشب خمسة عشر مدماكاً والحجارة ستة عشر مدماكاً ، وجعلوا ميزابها يسكب في الحجر ، وجعلوا درجة من خشب في بطنها في الركن الشامي يصعد منها الى ظهرها ، وزرقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعامها ، وجعلوا في دعامها صور الانبياء وصور الشجر وصور الملائكة ؛ فكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحمن شيخ يستقسم بالازلام ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين^(١) • فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله (ص) البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبدالمطلب فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب قبل بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور فطمست • قال ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام وقال :

(١) لقد ورد ذكر الصور في الكعبة في بعض كتب الحديث : انظر

مثلاً البخاري : كتاب الحج الباب ٥٤ ، كتاب الانبياء : الباب ٦٠ ، كتاب

الغازي : الباب ٤٨ • انظر أيضا ابن حنبل ج ١ ص ٢٧٧ ، ٣٣٤ ، ٣٦٥

ج ٣ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٨٣ • انظر أيضا المسعودي : مروج الذهب ج ٢

ص ٢٧٨ •

امحوا جميع الصور الا ما تحت يدي ، فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه^(١) ، ونظر الى صورة ابراهيم فقال قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالازلام : ما لابراهيم وللازلام وجعلوا لها باباً واحداً فكان يفلق ويفتح ، وكانوا قد أخرجوا ما كان في البيت من حلية ومال وقرني الكبش وجعلوه عند أبي طلحة عبدالله بن عبد العزي بن عثمان بن عبد الدار بن قصي ، وأخرجوا هبل وكان على الجب الذي فيه نصب عمرو بن لحي هناك ، ونصب عند المقام حتى فرغوا من بناء البيت فردوا ذلك المال في الجب ، وعلقوا به الحلية وقرني الكبش ، وردوا الجب في مكانه فيما يلي الشق الشامي ، ونصبوا هبل على الجب كما كان قبل ذلك وجعلوا له سلماً يصعد عليه الى بطنها وكسوها حين فرغوا من بنائها حبرات يمانية^(٢) ، وقد ظلت الصور في الكعبة حتى احترقت الكعبة في زمن ابن الزبير^(٣) حين احترق قرنا الكبش أيضاً^(٤) .

وعندما بنت قريش الكعبة وضعت فيه الحجر الاسود ، وهو حجر ناري متوسط الحجم وكان على جبل أبي قيس في الاضل ، فكان يضيء لأهل مكة في ليالي الظلم كما يضيء القمر ، فلما كان قبل الاسلام بأربع سنين ، وقد كان الحيض والجنب يصعدون اليه يمسحونه ، فاسود ، فأنزلته قريش من أبي قيس^(٥) ، وقد وضع في الجانب الشمالي .

(١) يروي الازرقى أقوالاً عن عطاء وعمرو بن دينار وداود بن عبد الرحمن والزهرى وابن اسحق ان في الكعبة صورة ، وان الرسول لم يمسح صورة عيسى (الازرقى ج ١ ص ١٠٦ - ١٠٧) ولكنه يروي في مكان آخر انه ازالها كلها (ج ١ ص ١٤٥) .

(٢) الازرقى : ج ١ ص ١٩٩ - ١٠٦ . وقد تردد في كتب الحديث ان قريشاً قصرُوا في بناء الكعبة عن قواعد ابراهيم وان الرسول قال عند دخوله الكعبة في حجة الوداع أن لولا قريشاً حديث عهدهم لنقض بناء الكعبة وأعادها الى قواعد ابراهيم . انظر مثلاً كتاب العلم الباب ٤٨ . كتاب الحج الباب ٤٢ . كتاب التمني الباب ٩ . انظر أيضاً ابن حنبل ج ٦ ص ٥٧ .

(٣) الازرقى : ج ١ ص ١٠٨ .

(٤) الفاسي : شفاه الغرام ص ١٩ .

(٥) ابن سعد : ج ١ ص ١٢ ، وكذلك ص ١٦ .

وفي داخل الكعبة بشر يسمى الاخسف عمقه ثلاثة أذرع ، ينسب حفره الى ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل . وكان خزانة الميث يلقى فيها الحلبي والمتاع الذي يهدى للكعبة ، وقد نصب عند هذا البئر جبل الصنم الذي كانت قريش تعبده وتستقسم عنده بالازلام^(١) ويقع بالقرب من الكعبة بشر زمزم^(٢) .

وكانت الكعبة تكسى ، ويروي ابن حجر ان العباس بن عبدالمطلب ضاع وهو صغير ، نذرت امه ان وجدته أن تكسو البيت الحرير فوجدته فكست البيت الحرير فهي أول من كساه ذلك وكان اليه في الجاهلية السقاية والعمارة^(٣) .

لقد كانت الكعبة غير منتظمة الاضلاع ، فقد كان الاساس الذي وضعه ابراهيم له ، جعل طوله في السماء تسعة أذرع ، وعرضه في الارض اثنين وثلاثين ذراعا من الركن الاسود الى الركن اليماني الذي عند الحجر من وجهه ، وجعل عرض ما بين الركن الشامي الى الركن الغربي الذي فيه الحجر اثنين وعشرين ذراعا ، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي الى الركن اليماني أحد وثلاثين ذراعا ، وجعل عرض شقها اليماني من الركن الاسود الى الركن اليماني عشرين ذراعا^(٤) ، أي أنها كانت شبه منحرف غير منتظم ، ولما بنتها قريش قبيل البعثة جعلت حجمها أصغر ، فقصرت من كل ضلع حوالي سبعة أذرع ، ولكن ابن الزبير عندما أعاد بناءها أرجعها الى حجمها الأصلي^(٥) .

ويبدو أنها كانت تحيطها ساحة مكشوفة غير مسورة ، ليس عليها

(١) الازرقعي : ج ١ ص ٢٧ ، ٤٤ ، ٦٧ ، ١٦١ - ٣ .

(٢) الازرقعي : ج ٢ ص ٣٠ فما بعد . والذي كشفه عبدالمطلب

(طبري ج ٢ ص ١٧٩) .

(٣) الاصابة : ج ٣ ص ٣٦٣ .

(٤) الازرقعي : ج ١ ص ٢٧ .

(٥) الازرقعي : ج ١ ص ١٣٤ . وانظر في وصف الكعبة الحديث

كتاب الرحلة الحجازية للبيب البتنوني .

جدران محاطة ، انما كانت الدور محدقة به من كل جانب غير ان بين الدور أبوابا يدخل منها الناس من كل نواحيه^(١) ، • ولما انتشر الاسلام وازداد عدد معتقيه ، ضاق المسجد الحرام بالمصلين ، فوسع بضع مرات في زمن عمر وعثمان وابن الزبير والوليد والمنصور والمهدي^(٢) ، حتى أصبح بعد كل هذه التوسيعات بشكل شبه منحرف طول اضلاعه على التوالي ٤٠٤ ، ٣٠٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٨ ذراعا^(٣) ، أي ان حجمها قبل ذلك كان أصغر من هذا بكثير •

لم تكن الكعبة تفتح يوميا ، بل كانوا في الجاهلية يفتحونها يوم الاثنين والخميس وكان حجابها يجلسون عند بابه فيرتقي الرجل اذ كانوا لا يريدون دخوله فيدفع وي طرح وربما عطب • وكانوا لا يدخلون الكعبة بحذاء ، يعظمون ذلك ويضعون نعالهم تحت الدرجة^(٤) •

وروى محمد بن يحيى عن الواقدي عن أشياخه قالوا : لما فرغت قريش من بناء الكعبة كان أول من خلع الخف والنعل فلم يدخل بهما الوليد بن المغيرة اعظاما لها فجرى ذلك سنة •

وروى محمد بن يحيى بن عبدالعزيز بن عمران عن عبدالله بن أبي سليمان عن أبيه : ان فاختة ابنة زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزي وهي أم حكيم بن حزام دخلت الكعبة وهي حامل فأدركها المخاض فيها فولدت حكيم في الكعبة ، فحلت في نطع وأخذ ما تحت مشبرها ففصل عند حوض زمزم وأخذت ثيابها التي ولدت فيها فجعلت لقا ، أي هدية الكعبة^(٥) •

(١) الازرقى : ج ٢ ص ٥٤ •

(٢) الازرقى : ج ٢ ص ٥٤ فما بعد •

(٣) الازرقى : ج ٢ ص ٦٥ •

(٤) سعد : ج ١ قسم ١ ص ٩٨ •

(٥) الازرقى : ج ١ ص ١١١ اما عن اللقا فانظر لسان العرب ج ٢

ص ١٢٢ • وتروي بعض المصادر انه كان حول الكعبة عند فتح مكة ٣٦٠

صنما (ازرقى ج ١ ص ٧٠ ، الفاسي ص ٦) •

الفصل الرابع عشر

الدين الجاهلي (٢)

الطقوس والعبادات ورجال الدين

تعريف الحج :

لما كانت الآلهة تستقر في أماكن هي بيوتها التي تقيم فيها دائما أو مؤقتا فمن الواجب على عابديها أن يزوروها في تلك البيوت • وقد تكون هذه الزيارات غير منظمة في مواعيدها وأشكالها • أو تكون منظمة حسب مراسيم وطقوس معينة وفي أوقات محددة وتسمى الحج •

ويبدو أن هناك عددا من الآلهة كان يحج إليها • فالأزد (كانوا يحجون في مكة ويقفون مع الناس المواقف كلها ولكنهم لا يحلقون رؤوسهم فإذا انتهوا من ذلك أتوا مائة فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماما إلا بذلك^(١)) • وكانت قريش تزور « العزى » وتهدي لها وتتقرب عندها بالذبايح^(٢) • كما كانت قضاة ولخم وجذام وأهل الشام يحجون إلى الأقصر ويحلقون رؤوسهم عنده^(٣) • وكانت « مذحج » تحج إلى يفوث^(٤) ، كما كانت طي تعبد الفلس وتهدي إليه^(٥) • وقد ذكر محمد بن حبيب السكري نص تلييات العرب لاساف والعزى والملا وجهار وسواع وشمس ومجرق واللبا ومرحب وذريح وذو الكفين

(١) الاصنام : ص ١٤ • تفسير الطبري ج ٢ ص ٢٩ •

(٢) الاصنام : ص ١٨ ، ٢٧ •

(٣) الاصنام : ص ٤٨ • معجم البلدان ج ١ ص ٣٤٠ •

(٤) الاصنام : ص ٥٧ •

(٥) الاصنام : ص ٥٩ •

وهبل^(١) مما قد يحمل على الاعتقاد بأنه كان يحج إليها كلها .
الا أنه لا تتوفر المعلومات الا عن الحج الى مكة نظراً لأصلته الوثيقة
بالاسلام ولذكر القرآن لبعض مناسكة في معرض الاقرار أو التعديل أو
الابطال ، ونظراً لان الحج في الاسلام كانت مناسكه تشبه الحج الجاهلي
في كثير من النواحي .

مؤلفه :

لقد كان الحج الى مكة يتم في أشهر معينة وقد أشار القرآن الى ذلك
بقوله تعالى : الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث
ولا فسوق ولا جدال في الحج ، (البقرة ١٩٧) .

ويروي الطبري عن ابن عباس والنخعي والشعبي والسدي ونجيج
وابن عمر في تفسير هذه الآية ان الاشهر المعلومات التي أشار إليها القرآن
هي شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة^(٢) وهي من الاشهر الحرم الاربعة
التي تشمل ايضاً رجب . غير أن الحج يستلزم تثبته في وقت معين معلوم
يعرفه الناس مقدماً ليشتركوا فيه ، وكان ذلك الموعد في الايام العشرة الاولى
من ذي الحجة ، أما الاشهر الاخرى الباقية فلا تعلم بالضبط ما اذا
كانت تتم فيها العمرة فقط أم تجري فيها عبادات لم تصلنا عن انبائها
معلومات وافية .

وللمحج في الاصل علاقة بالمواسم والحياة الاقتصادية ، ويمكن أن
نلمح ذلك من الآية الكريمة : واذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى
كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم

(١) المحبر : ص ٣١٠ - ٣١٤ .

(٢) تفسير الطبري : ج ٢ ص ١٥٠ - ١٥٣ وقد أشار القرآن الى
الاشهر الحرم في آيات اخرى (سورة البقرة ١٩٤ ، ٢١٧ المائدة ٢ ، ٩٧
التوبة ٥) . انظر عن الاشهر الحرم ايضاً سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٥ .
لسان العرب ج ٦ ص ٢٧٢ ج ١٥ ص ١٠ . مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٠٥ .
البخاري : كتاب الحج الباب ٣٣ ، ٣٤ كتاب العمرة الباب ٩ كتاب مناقب
الانصار الباب ٣٦ . ابن حنبل ج ٢ ص ٩٥ .

الله عليه في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا
البائس الفقير • ثم ليقتضوا تفهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق • ،
(الحج ٢٨ ، ٢٩) • ونرجح انه كان ثابتاً معيناً في أحد مواسم السنة ، أي انه
يتبع السنة الشمسية ، ولما كانت العرب تتبع النظام القمري فقد وجد النسيء
للتوفيق بين السنة الشمسية والقمرية وذلك باضافة شهر كل ثلاث سنوات^(١) •
ولا نعريف بالضبط في أي فصل من السنة كان يحدث ذو الحجة ،
ولكننا يمكن أن نستنتج موعد حدوث الاشهر العربية من تسمياتها :
فالربيعان يدل اسمهما على حدوثهما في الربيع بين شباط ونيسان ، ورمضان
الحار في شدة الصيف أي في آب ، وعلى هذا ترتب الاشهر :-

ربيع الاول : شباط - آذار	رمضان : آب - ايلول
ربيع الثاني : آذار - نيسان	شوال : ايلول - تشرين الاول
جمادى الاولى : نيسان - أيار	ذو القعدة : تشرين الاول - تشرين الثاني
جمادى الثانية : أيار - حزيران	ذو الحجة : تشرين الثاني - كانون الاول
رجب : حزيران - تموز	المحرم : كانون الاول - كانون الثاني
شعبان : تموز - آب	صفر : كانون الثاني - شباط ^(٢)

فإذا صح هذا الترتيب كان الحج الأكبر يقع في الخريف ، وهو
فصل معتدل المناخ نسبياً ، والحياة الاقتصادية نشطة نظراً لحاجة الناس
المتزود من الحاجات الشتوية • كما ان الحج الاصغر يحدث في حزيران
وهو بداية فصل الصيف • ويتم الحج الحقيقي في أيام التشريق •

الحلة والحمس والطلس :

لم تكن طقوس الحج الى مكة واحدة لكافة القبائل ، بل كانوا
يختلفون • ويصنفهم المؤرخون الى صنفين عامين هم الحلة والحمس ،

(١) انظر ص ١١١ - ١١٣ •

(٢) انظر رائجن : رحلة الحج الى مكة ص ٦٠ (بالالمانية) •

ويضيف السكري صنفاً ثالثاً فرعياً هم الطلس^(١) .

أما الحمس فيما يروي ابن سعد عن الواقدي ، والازرقى عن ابن اسحق عن الكلبي عن ابن عباس ، فهم قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب . ويضيف ابن اسحق في روايته الاوس والخزرج وجشم وربيعه وجذام وذكروان وثقيف وعمر واللات وغطفان وعدوان وعلاف وقضاعة . أما السكري فيذكر ان قبائل الحمس هي قريش كلها وخزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشاً وكل من نزل مكة من قبائل العرب ، فمن ولدت قريش كلاب وكعب وعامر وكلب وبنو ربيعة بن عامر بن صعصعة والحارث بن عبد مضاة بن كنانة ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة بنزولهم حول مكة وعامر بن مناة بن كنانة ومالك وملكان بن كنانة وثقيف وعدوان ويربوع بن حنظلة ومازن بن مالك بن عمرو بن غيم وعلاف (من قضاعة) وجناب بن هبل .

أما الحلة فالمفروض انهم بقية القبائل الا أن السكري يميزهم عن صنف ثالث هم الطلس فيذكر ان الحلة هم تميم ما عدا يربوع ومازن وضبة وحميس وظاعنة والفوث بن مرة وقيس عيلان بأسرها ما عدا ثقيف وعدوان وعامر بن صعصعة وربيعه بن نزار كلها وقضاعة كلها ما خلا علاف وجناب والاهصار وخثعم وبجيلة وبكر بن عبد مناة بن كنانة وهذيل بن مدركة وأسد وطى وبارق .

أما الطلس فهم سائر أهل اليمن وأهل حضرموت وعك وتجب وأياد .

الحمس :

يروى الازرقى عن ابن اسحق عن الكلبي عن ابن عباس بأن

(١) راجع عن الحلة والحمس الازرقى : ج ١ ص ١١٣ فما بعد .
المحبر ص ١٧٨ - ١٧٩ تفسير الطبري ج ٢ ص ١٧٠ . سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٦ . ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٤١ . لسان العرب ج ٨ ص ٣٥٨ . البخاري : كتاب الحج : الباب ٩١ ، كتاب التفسير : الباب ٣٥ . مسلم كتاب الحج : ص ١٥١ - ١٥٣ . ابن حنبل ج ٤ ص ٨٠ . ياقوت ج ٤ ص ٦٢٠ - ٦٢١ . البكري ص ٢٤٥ .

• الحمس لم يكونوا يمخضون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرماً ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجون به وإنما يستظلون بالادم ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها ويطوفون في البيت وعليهم ثيابهم • وكانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الاسلام فإن كان من أهل المدر - يعني أهل البيت والقرى - نقب نقباً في ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج ولا يدخل من بابه • وكانت الحمس تقول لا تعظموا شيئاً من الحل ولا تجاوزا الحرم في الحج فلا يهاب الناس حرمكم ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم • فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل ، فلم يكونوا يقفون بسبه ولا يفيضون منه ، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرة بين المازمين يقفون به عشية عرفة ويظلون به يوم عرفة من الأراك من عرفة ويفيضون منه الى المزدلفة فإذا عمت الشمس رؤوس الجبال دفعوا • وكانوا يقولون نحن أهل الحرم لا نخرج من الحرم ونحن الحمس ، فتحملت قريش ومن ولدت^(١) • وكانت الحمس من دينهم إذا أحرموا أن لا يدخلوا بيتاً من البيوت ولا يستظلوا^(٢) تحت سقف بيت ، ينقب أحدهم نقباً في ظهر بيته فمنه يخرج ولا يدخل من بابه ولا يجوز تحت اسقفه باب ولا عارضة ، فإذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم تسوروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح ثم ينزلون من حجرتهم ثم يمرون تحت عتبة الباب^(٣) ، فانزل عز وجل • وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها ، (البقرة ١٨٩) •

الحلة :

أما الحلة فكانوا في قول السكري يحرمون الصيد في النسك ولا

(١) الأزرقى : ج ٢ ص ١٥٨ •

(٢) الأزرقى : ج ١ ص ١١٦ - ١١٧ • انظر أيضاً تفسير الطبري :

ج ٢ ص ١٦٨ - ١٧٠ ، الواحدى : أسباب النزول ص ٣٦ •

يحرمونه في غير الحرم ويتواصلون في النسك ويمنح الغنى ماله أو أكثره في نسكه فيملاً فقرائهم السمنة ويجتزون من الاصواف والابواب والاشعار ما يكتفون به ولا يلبسون في نسكهم الجدد ولا يدخلون من باب دار ولا من باب بيت ولا يأويهم ظل ما داموا محرمين وكانوا يدهنون ويأكلون اللحم وأخصب ما يكونون أيام نسكهم ، فاذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ، ثم اشتركوا في ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها الا في ثياب جدد ، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء ، يباشرونها بأقدامهم ، فان لم يجدوا ثياباً طافوا عراة • وكان لكل رجل من الحلة حرص من الحمس يأخذ ثيابه ، فمن لم يجد ثوباً طاف عريانا وانما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم الى البيت ، لأنهم كانوا اذا خرجوا حجاجا لم يستخل أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم ، الا اللحم • وكان رسول الله (ص) حرص عياض بن حمار المتجاشعي اذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله^(١) (ص) •

يتبين مما تقدم ان الحلة لم تكن تنقيد بما تنقيد به الحمس • ولعل هذا هو السبب الذي أغفل فيه كافة المؤرخين والرواة الذين لم يذكرروا صنف الطلس صفاتهم ودمجهم بأهل الحلة • ويلاحظ من هذه الاوصاف أيضاً أن الحمسى لم يكونوا يقومون بأعمال البدو والرعاة من اقط الاقط وسل السمن والزبد أو غزل الشعر والوبر مما يختص به البدو • ولا ريب ان أهل مكة وهم جوهر الحمس وأساسه لم يكونوا رعاة • على أن الخلافين الرئيسين بين الحلة والحمس هما اولاً الوقوف في عرفة عند بداية الحج ، وهو ما لم تكن تفعله الحمس ، لأن عرفة تقع خارج حرم مكة • والثاني هو لباس الاحرام •

وفي لباس الاحرام تختلف الروايات اختلافاً كبيراً ، فيروي ابن عباس انه كانت الحلة تطوف بالبيت أول ما يطوف الرجل والمرأة في أول حجة يحجها عراة وكانت بنو عامر بن صعصعة وعك ممن يفعل ذلك فكانوا اذا

طافت المرأة منهم عريانة تضع احدى يديها على قبلها والاخرى على دبرها
ثم تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا احله

فكانت قبائل من العرب من بني عامر وغيرهم يطوفون في البيت عراة ،
الرجال بالنهار والنساء بالليل ، فاذا بلغ أحدهم باب المسجد قال للحمسى
من يعير مصوناً ؟ من يعير معوزاً ؟ فان أعاره حمسى ثوبه طاف به والا
لقى ثيابه بباب المسجد ثم دخل للطواف فطاف بالبيت سبعاً ، فكانوا يقولون
لا تطوفوا في الثياب التي فارقنا فيها الذنوب ، ثم يرجع الى ثيابه فيجدها
لم تحرك . وكان بعض نسائهم تتخذ سيوراً متعلقة في حقونها وتستر بها
حقونها ، الا أن يتكرم منهم متكرم فيطوف في ثيابه ، فان طاف فيها لم يحل
له أن يلبسها أبداً ولا ينتفع بها ويطحرها لقا ، واللقا هي الثياب التي
يطوفون فيها ويرمون بها بباب المسجد فلا يمسها أحد من خلق الله حتى
تبليها الشمس والامطار والرياح ووطء الاقدام وفيه يقول ورقة بن نوفل
الاسدي :

كفى حزنا كرى عليه كأنه لقي بين ايدي الطائفين حريم^(١)

أما مجاهد فيروي انه كان مما سنوا به انه اذا حج الصرورة من غير
الحمس ، رجلا كان أو امرأة ، لا يطوف بالبيت الا عريانا ، الصرورة
أول ما يطوف في ثوب حمسى ، اما عارية أو اجارة يقف أحدهم بباب
المسجد فيقول من يعير مصوناً ؟ من يعير ثوبا ؟ فان أعاره حمسى ثوبا أو
أكراه طاف به ، وان لم يعيره القى ثيابه بباب المسجد من خارج ثم دخل
الطواف وهو عريان يبدأ باساف فيستلمه ثم يستلم الركن الاسود ثم يأخذ
عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه فاذا ختم طوافه سبعا استلم
الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها

(١) الازرقى : ج ١ ص ١١٧ - ١١٨ . أما عن الطواف عراة فراجع
تفسير الطبري : ج ٢ ص ١٧٠ ج ٨ ص ١١٤ ، ١٢٠ ابن سعد ج ١ قسم
١ ص ٤١ لسان العرب ج ١٥ ص ٩ البخاري : كتاب الحج : الباب ٩١
ياقوت ج ٤ ص ٦٢١ .

لم تمس فآخذها فليسها. ولا يعود الى الطواف بعد ذلك عريانا . ولم يكن يطوف بالبيت عريانا الا الصرورة من غير الحمس . فأما الحمس فكانت تطوف في ثيابها فان تكرم متكرم من رجل أو امرأة من غير الحمس ولم يجد ثياب احمسي يطوف فيها ومعه فضل ثياب يلبسها غير ثيابه التي عليه فطاف في ثيابه ثم جعلها لقا يطرحها بين اساف ونائلة فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها أحد حتى تبلى من وطء الاقدام والشمس والرياح والمطر^(١) وقد انزل القرآن لتحريم ذلك آية : يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد واكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المرففين . قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة ، (الاعراف ٣١ - ٣٢) .

الطلس :

اما الطلس فيقول السكري انهم بين الحلة والحمس يصنعون في احرامهم ما يصنع الحلة . ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس . وكانوا لا يتعرون حول الكعبة ولا يستعيرون ثيابا ويدخلون البيوت من أبوابها وكانوا لا يثدون بناتهم وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون^(٢) . ومن هذا يتبين ان الطلس هم كالحلة سوى انهم لا يتقيدون باللبسة أو في الدخول بالبيوت .

مراسيم الحج :

لدينا معلومات مفصلة نسبياً عن الحج في مكة ، وقد اجمل الازرقعي وصفه في كتابه (اخبار مكة) فقال : (فاذا كان الحج من الشهر الذي يسمونه ذا الحجة خرج الناس الى مواسمهم ، فيصبحون بمكاه يوم هلال ذي القعدة فيصبحون به عشرين ليلة تقوم فيها اسواقهم بمكاه . والناس على مداعيمهم وراياتهم متحازين من المنازل ، تضبط كل قبيلة اشرافها

(١) الازرقعي : ج ١ ص ١١٤ وراجع عن الصرورة لسان العرب ج ٦

ص ١٢٣ .

(٢) المحبر : ص ١٨١ .

وقادتها ، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء ، ويجتمعون في بطن السوق . فاذا مضت العشرون انصرفوا الى ذي المجنة فأقاموا بها عشرا اسواقهم قائمة ، فاذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا الى ذي المجاز فأقاموا به ثمان ليل اسواقهم قائمة ، ثم يخرجون يوم التروية من ذي المجاز الى عرفة فيتروون ذلك اليوم من الماء بنذي المجاز وانما سمي يوم التروية^(١) ، لترويه من الماء بنذي المجاز ، ينادي بعضهم بعضا ترووا من الماء ، لانه لا ماء بعرفة ولا بالمزدلفة يومئذ . وكان يوم التروية آخر اسواقهم . وانما يحضر هذه المواسم بمكاظ ومجنة وذى المجاز التجار - من كان يريد التجارة . ومن لم يكن له تجارة ولا بيع يخرج في أهله متى أراد . ومن كان من أهل مكة ممن لا يريد التجارة خرج من مكة يوم الترويه . فتزل الحمس أطراف الحرم من نمرة يوم عرفة وتزل الحلة عرفة . فاذا جاءوا عرفة أقاموا بها يوم عرفة ، فتقف الحلة على الموقف من عرفة^(٢) عشية عرفة ، وتقف الحمس على أنصاب الحرم من نمرة ، فاذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الحمس من أنصاب الحرم وأفاضت الحلة من عرفة حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً . وكانوا يدفعون من عرفة اذا طفلت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم . فاذا كان هذا الوقت دفعت الحلة من عرفة ودفعت معها الحمس من أنصاب الحرم حتى يأتوا جميعاً بمزدلفة فيبتون بها حتى اذا كانت في الغلس وقفت الحلة والحمس على قزح ، فلا يزاولون عليه حتى اذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم دفعوا من مزدلفة^(٣) ، وكانوا يقولون أشرق ثير كيما نغير^(٤) ، أي أشرق

(١) عندما قرن الرسول بين العمرة والحج ، أتم العمرة ثم أهل للحج يوم التروية (البخاري كتاب الحج الباب ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٨٢) .

(٢) يلاحظ أن عرفة ليست من الحرم .

(٣) كان يجيزهم صوفه انظر ص ٩٤ - ٩٥ .

(٤) يقول الشافعي في الاسلام (قدم الله المزدلفة قبل ان تطلع الشمس وآخر عرفة الى أن تغيب الشمس) (الام ج ٢ ص ١٨٠ انظر أيضا ياقوت ج ١ ص ٩١٧) .

بالشمس حتى ندفع من المزدلفة ، فانزل الله في الحرس ، ثم افيضوا من حيث أفاض الناس ، (البقرة ١٩٩) - يعني من عرفة^(١) - والناس الذين كانوا يدفعون منها أهل اليمن وربيعه وتميم^(٢) .

ان هذا النص يقف عند هذا الحد . على انه يمكن اكمال وصف الحج الجاهلي من دراسته مناسك الحج الاسلامي ، فالمعروف ان ابراهيم الخليل هو الذي سن مناسك الحج^(٣) ويقول ابن الكلبي في المشركون (وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة واهداء البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه^(٤)) وهذا يدل على ان طقوس الحج الاسلامي تشبه ما سبقتها مع تنقيتها من انشوائيات وجعلها لله تعالى .

وقد أشار القرآن الكريم الى الحج الاسلامي في سورة البقرة فقال تعالى : ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وأن كنتم من قبله لمن الضالين ثم افيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم . فاذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذا ذكركم آباءكم أو اشد ذكرا . . . واذكروا الله في ايام معدودات فمن تعجل في يومين فلا أثم عليه ومن تأخر فلا أثم عليه لمن اتقى ، (البقرة ١٩٨ - ٢٠٣) .

ويروي الطبري في تفسير الآية الاولى أنهم لم يكونوا يتبايعون فأباح تعالى ذلك في الاسلام كما انه نقل عن قتادة انه : كان هذا الحي من

(١) انظر أيضا الازرقى : في ٢ ص ٢٢٦ البخاري : كتاب الحج : الباب ١٠٠ الترمذي كتاب الحج : الباب ٦٠ . ابن حنبل ج ١ ص ٣٩ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٢ .

(٢) الازرقى : ج ١ ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٣) الازرقى : ج ١ ص ٢٨ فما بعد .

(٤) الاصنام : ص ٦ .

العرب لا يرجعون على كسبر ولا ضالة ليلة النفر وكانوا يسمونها ليلة الصدر ولا يطلبون تجارة ولا بيعاً فأحل الله عز وجل ذلك كله^(١) ، •

والمشعر الحرام هو ما بين جبلي المزدلفة^(٢) أي وادي محسر • وكانت تسمى جمع^(٣) ، وفيه قرح الذي كان يتجمع فيه الناس ، وكانت عليه اسطوانة من حجارة مدورة يبلغ محيطها اربعاً وعشرين ذراعاً وعلوها اثني عشر ذراعاً ، وهي على أكمة عالية^(٤) ، وكانت توقد عليه النيران منذ زمن قصي حتى العصر العباسي ليلة جمع^(٥) •

أما الأفاضة فقد بينا من قبل ان الحمس كانت لا تقف في عرفة قبل الاسلام^(٦) ، وقد أمرهم تعالى أن يقفوا في عرفة ، وهذا يشير الى أن الناس كانت تتجمع وتفيض حسب القبائل ، أي تقف كل قبيلة على حدة وتفيض متكئة ، إذ أن ذلك أكثر ملائمة لروح التنظيم الاجتماعي الجاهلي القائم على الاسس القبلية ، ومما يؤيد هذا ان الانصار لم تكن تسمى بين الصفا والمروة^(٧) •

يتضح من هذه الآية انه بعد الافاضة الى المشعر الحرام تقضي المناسك أي تذبيح الذبائح^(٨) • وهي تذبيح في منى قرب المشعر الحرام^(٩) •

(١) تفسير الطبري : ج ٢ ص ١٦٥ •

(٢) معجم البلدان : ج ٤ ص ٥٤٠ •

(٣) الازرقى : ج ١ ص ٥٨ معجم البلدان ج ٢ ص ١١٨ البكري :

معجم ما استعجم ص ٣٩٢ - ٣ •

(٤) أنظر الازرقى : ج ١ ص ٣٢ ، ١٢٣ ج ٢ ص ١٥١ ، ١٥٤

معجم البلدان : ج ٤ ص ٨٥ ، ٥٢ •

(٥) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤١ قسم ٢ ص ٦٩ وانظر أيضا

الازرقى : ج ٢ ص ١٥١ معجم البلدان ج ٤ ص ٨٥ •

(٦) أنظر ص ٢١١ •

(٧) أنظر ص ١٧٧ - ١٧٨ •

(٨) أنظر عن معنى النسك : تفسير الطبري ج ٢ ص ١٣٧ لسان

العرب ج ٢٢ ص ٣٨٩ •

(٩) لقد روى عن الرسول أنه قال كل منى منحر : أنظر كتاب =

لقد أمر تعالى المسلمين بعد أن يقضوا المناسك أن يذكروا الله
كذكركم آباءهم ، ويذكر الطبري في سبب نزولها أن أهل الجاهلية كانوا
إذا قضوا مناسكهم وقفوا عند الجمرة وذكروا أيامهم في الجاهلية وفعال
آبائهم^(١) وفي سورة البقرة آية أخرى توحى بأنه كان يجري على أثر
الحج جدال • الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا
فسوق ولا جدال في الحج • (البقرة ١٩٧) ويذكر الازرقى أن في مكة
شعباً يسمى صفى السباب^(٢) • وكل هذا يلقي ضوءاً على ما كان يتم في
أواخر الحج من جدل ونقاش وتفاخر •

إن الأيام المعدودات التي أشارت إليها الآية الكريمة السابقة هي أيام
التشريق وهي تسمية غير واضح أصلها فيقول ابن منظور (••• كانت
الشمس تسمى الشارق ••• وشرقت أشرفت اللحم شبرفته طولاً وشررته
في الشمس ليحرف لأن لحوم الاضاحي كانت تشرق فيها بمعنى •••
وتشريق اللحم تقطيعه وتقديده وبسطه ومنه سميت أيام التشريق • وأيام
التشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، لأن لحم الاضاحي يشرق فيه للشمس
أي يشرر ، وقيل سميت بذلك لأنهم كانوا يقولون في الجاهلية أشرق
ثبير كيما نغير ، الاغارة الدفع ، أي ندفع للفر • حكاه يعقوب • وقال ابن
الاعرابي سميت بذلك لأن الهدى والضحايا لا تنحر حتى تشرق الشمس
أي تطلع وقيل بل سميت بذلك لأنها كلها أيام تشريق لصلاة يوم النحر
قال وهذا أعجب القولين لي • وكان أبو حنيفة يذهب بالتشريق إلى التكبير
ولم يذهب إليه غيره ••• وكانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس فخالفهم
رسول الله ••• وفي حديث مسروق انطلق بنا الى مشرقكم يعني المصلى
وسأل اعرابي اين منزل المشرق يعني الذي يصلى فيه والمشرق العيد سمي
بذلك لان الصلاة فيه بعد الشارقة أي الشمس وقيل المشرق مصلى العيد

= الحج في : البخاري الباب ١١٦ مسلم الباب ١٤٩ أنظر أيضا ابن حنبل
ج ١ ص ٧٦ ، ٨١ ، ٩٨ ، ١٥٦ ج ٣ ص ٣٢٠ ج ٤ ص ٨٢ •
(١) تفسير الطبري : ج ٢ ص ١٧٢ - ١٧٤ •
(٢) الازرقى : ج ٢ ص ٢٢١ •

بمكة وقيل مصلى العيد ولم يقيد بمكة^(١) (٠٠٠) .

يتبين من هذا الشرح المجمل مدى عدم وضوح أصل تسمية التشريق ، وإن كان جذرها اللغوي يحمل على الاعتقاد بصلتها بشروق الشمس ، كما توضح ذلك بعض التفسير التي أوردها ابن منظور ، وقد ورد في بعض الاحاديث النبوية ان أيام التشريق تدعى أيام بعال ، مما قد يدل انها كانت في الجاهلية متصلة ببعل .

لقد ورد في القرآن الكريم « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » (البقرة ١٥٨) ويروي الطبري ان سبب نزولها هو ان الانصار لم تكن تطوف بهما^(٢) . والواقع أن صيغة الآية توحي بأن الطواف لم يكن فرضاً .

ان الآية الكريمة التي ذكرناها من قبل عن طقوس الحج لا تذكر زيارة الكعبة وقد حمل ذلك بعض الباحثين ومنهم ولها وزن الى القول بأن زيارة الكعبة لم تكن قبل الاسلام ضمن طقوس الحج^(٣) . وهو رأي غير مضبوط لأن القرآن أشار الى حج البيت في آيتين « فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » (بالصفا والمروة) (البقرة ١٥٨) « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » (آل عمران ٩٧) ويتجلى من الآية الاولى ان حج البيت يختلف عن العمرة كما ان الآيتين تبينان ان الحج للبيت^(٤) . وقد رأينا فيما سبق القيود التي كانت تفرضها

(١) لسان العرب : ج ١٢ ص ٤٠ - ٤٣ أنظر أيضا مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٠ اما عن ذكر أيام التشريق في الاحاديث النبوية فانظر عن مواضعها في فنسناك الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي مادة شرق .
(٢) تفسير الطبري : ج ٢ ص ٢٩ . ويذكر الطبري فيها روايات بأن المسلمين ارادوا ترك السعي بين الصفا والمروة لما كان عليهما في الجاهلية من اصنام فامرهم تعالى بالطواف لانها من شعائر الله .
(٣) انظر رايه في المقال الذي كتبه باريت في دائرة المعارف الاسلامية عن العمرة .
(٤) أنظر ص ٢١٦

قريش على ألبسة الطائفين بالبيت • غير اننا لا نعلم متى كانت تتم زيارة البيت • وإن كان وصف الازرقى للحج الجاهلي يوحى بأن زيارة البيت كانت تتم بعد أيام التشريق •

العمرة :

يروى ابن الكلبي أن العرب قد ظل فيهم من دين ابراهيم بقايا منها العمرة^(١) ، الامر الذي يدل على قدمها • وقد وردت العمرة في القرآن في سورة البقرة • واتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذى في رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا آمنتكم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا إن الله شديد العقاب ، (البقرة ١٩٦) كما ورد في القرآن ايضاً • إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم ، (البقرة ١٥٨) •

إن هاتين الآيتين تذكران العمرة باعتبارها مؤسسة متميزة عن الحج ومختلفة عنه • كما ان الآية الاخيرة توضح ان السعي بين الصفا والمروة لم يكن جزءاً من الحج والعمرة قبل أن يأمر به الاسلام • غير انهما لا توضحان طريقة العمرة أو موعدها •

وتلقي كتب الحديث ضوءاً كبيراً على العمرة كما كانت في عهد الرسول كما تشير إلى التغييرات التي أدخلها على العمرة • ومن هذه الاشارات يمكن أن نستنبط ما كانت عليه العمرة الجاهلية • والواقع أن الرسول اعتمر ثلاث مرات وقرن الحج بالعمرة في حجة الوداع^(٢) وأشار

(١) الاصنام : ص ٤ •

(٢) روى البعض ان الرسول اعتمر ثلاثاً ، ويروي آخر انه اعتمر =

على المعتمرين من أصحابه أن يحلوا بعد الطواف إذا لم يكن معهم هدي^(١)،
الامر الذي يحمل على الاعتقاد بأن العمرة لم يكن من شروطها الأساسية
الهدي والاضاحي .

لقد طاف الرسول في العمرة بالبيت سبع مرات ثم طاف بين الصفا
والمروة سبع مرات ثم أحل وبذلك انتهت العمرة . فالعمرة إذا كانت
الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة . وجدير بنا أن نشير الى أن السعي بين
الصفا والمروة لم يكن عاماً في القبائل فلم تكن الانصار تقوم به ، وقد أدخله
القرآن كجزء من الحج والعمرة في آية البقرة (١٥٨) التي ذكرناها آنفاً،
ولا بد من ملاحظة ان الآية التي تذكر الصفا والمروة وتشير الى انه لا جناح
عليه ان يطوف بهما ، أي لا مانع وهو تمير قد يوحى بالاباحة لا بالالزام .
والواقع ان البخاري يشير الى أن بعض الناس فهموا ذلك وسألوا عائشة
عنه فأجابت بأن هذه الاباحة تقتضي الالزام^(٢) . وان تساؤلهم قد يحملنا
على الاعتقاد بأن السعي والطواف بين الصفا والمروة لم يكن في الجاهلية
ملزماً أو جزءاً من العمرة ، وان العمرة كانت متصلة بزيارة الكعبة فحسب .

لقد وصفت كتب الحديث كيفية طواف النبي فيقولون انه رمل ثلاثاً
(أي خب أو هرول) ومشى أربعاً^(٣) كما يروون انه قبل اخراج الاسود^(٤)

= أربع مرات ، ويروي فريق ثالث انه اعتمر مرتين . ويروى كذلك انه
اعتمر في رجب ، وينفي آخرون انه اعتمر في رجب . أنظر الى هذه الاحاديث
ومواضعها من كتب الصحاح الستة : مفتاح كنوز السنة مادة عمرة .

(١) ابن حنبل : ج ١ ص ٢٣٦ ، ٢٥٣ ، ٣٤١ ج ٢ ص ٤ ، ١٢ ،
٤١ ، ٦٥ ، ١٥١ ج ٣ ، ٧١ ، ٧٥ .

(٢) تفسير الطبري : ج ٢ ص ٢٩ . ويقول مالك : « من أفاض فقد
قضى الله حجه » (موطأ ج ١ ص ٢٢٦) .

(٣) البخاري : كتاب الحج : الباب ٥٥ . كتاب المغازي : الباب ٤٣
ابن حنبل : ج ٢ ص ٤٠ ، ٥٩ ، ٧١ ، ١٠٠ ، ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧
ج ٥ ص ٤٥٥ - ٤٥٦ .

(٤) البخاري : كتاب الحج : الباب ٥٠ ، ٥٧ ، ٦٠ . ابن حنبل :
ج ١ ص ١٦ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ .

وانه استلم الركن اليماني^(١) . ويذكر البخاري أحاديث تشير إلى أن الرمل كان مظاهرةً أمام كفار قريش لظهار قوة المسلمين البدنية بعد أن شاع أن الحمى قد أنهكتهم^(٢) ، الأمر الذي يدل على أن الرمل لم يكن أساسياً قبل ذلك .

لقد قام الرسول بعمراته في ذي القعدة وشوال وفي ذي الحجة ، ويروي البخاري أنه « قدم النبي وأصحابه صبيحة رابعة (من ذي الحجة) مهلين بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة فتعاطم ذلك عندهم ، فقالوا يارسول الله أي المحل قال حل كله^(٣) » ، ويروي ابن عباس أنه ما أمر رسول الله عائشة ليلة الحصة إلا قطعاً لأمر أهل الشرك ، كما يروي أنهم (أي المشركين) كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض ويجعلون المحرم صفراً ويقولون إذا برد الدبر وعفا الأثر ودخل صفر فقد حلت العمرة لمن اعتمر^(٤) » .

واضح من هذه النصوص إن جعل النبي العمرة في ذي الحجة كان ضد التقاليد الجاهلية التي كانت تجعلها بعد شهر المحرم أي في صفر .
لم يكن يباح للحائض القيام بالعمرة ولكن كان يباح لها الحج^(٥) .

الهدايا أو الهدى :

ذكر القرآن أن المشركين كانوا يقدمون بعض مدخولاتهم للآلهة

(١) يروي أن النبي لم يستلم الركنين الغربيين من الكعبة أنظر ابن حنبل : ج ١ ص ٣٧ ، ٤٥ ، ٧٠ ، ٢١٧ ، ٢٤٦ ، ٣٧٢ ، ج ٢ ص ٣
١٧ ، ٨٩ ، ١١٠ ، ج ٤ ص ٩٧ ، ٩٨ . ويروي أنه استلم الركن بالمحجن (البخاري : كتاب الحج : الباب ٥٨) ابن حنبل : ج ١ ص ٢١٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٨ ج ٥ ص ٤٥٤ .

(٢) البخاري : كتاب المغازي : الباب ٤٣ . سيرة ابن هشام . ج ٣ ص ٤٢٥ .

(٣) البخاري : كتاب الحج : الباب ٣٤ .

(٤) ابن حنبل : ج ١ ص ٢٥٢ ، ٢٦٢ .

(٥) موطأ : ج ١ ص ٢٤٩ ، ٢٦٦ ، ٢٨٦ . البخاري : كتاب الحج :

الباب ٣١ ، ٣٤ ، ٧٧ ، ٨١ . وانظر مقال باريت عن العمرة في دائرة المعارف الإسلامية .

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون » (الانعام ١٣٦) ويتبين من هذه الآية انه كانت هناك حصة معينة ثابتة يجب على العباد دفعها سواء كانوا زراعاً أو أصحاب مواشي • وكانت هذه الاموال المخصصة للآلهة توزع بين الاله الاكبر والآلهة الصغرى • فهم فيه شركاء ، ومع ان القرآن لا يشير الى كيفية توزيع هذه الاموال أو ما يخص لكل من الاله الاكبر والآلهة الصغرى ، إلا أن الراجح ان حصة الاله الاكبر هي أكبر من حصة الآلهة الصغرى •

وتشير هذه الآية الى سوء التصرف بهذه الاموال المخصصة فان حصه
الاله الاكبر كانت تعود بدورها فتصرف للآلهة الصغرى وهم شركاؤها ،
وبذلك لا يقدم للاله الاكبر شيء . ولكن واضح من هذه الآية ان هذه
الاموال هي اجبارية أو شبه اجبارية ، وانها تصرف للآلهة ، اذ ان كلمة
اشركاء في هذه الآية يقصد بها الصغرى التي كانوا يدينون بها . ويزعم
ابن الكلبي ان هذه الآية نزلت في حق الصنم عيباس الذي كان
لخولان^(١) . هــ ان نص الآية لا يدل على هذا التخصيص مطلقاً ، ثم
انه لم يثبت لدينا ان خولان كانت تدين بعبادة الله وتشرك به ؛ فالراجع
ان تعليله غير صحيح .

لقد فرض قصي ضريبة الرفاة على أهل مكة لتصرف على الآلهة كما كانت تقدم للآلهة ايضاً هدايا • وارجح ان القرآن في هذه الآية يشير الى هذه الضريبة والهدايا التي كانت تقدم لله وللمن اشركوهم به ولكنها تصرف عملياً على بقية الآلهة • والنواقع اننا لا نسمع باهتمام مشركي قريش والعرب بعبادته تعالى بل كانوا يكفرون به وينكرون ما انعم عليهم وينهزمون بالآلهة الاخرى فيما انه تعالى كان الاله الاكبر باعتقاد المشركين من أهل مكة وبما انهم كانوا يكفرون به فالراجح ان هذه الآية كانت تنطبق على اعمالهم وهي تتفق مع المقصود بكلمة الكفر بمطابق القرآني •

انواع الهدايا :

لقد كانت الهدايا التي تقدم للآلهة متنوعة ، وهي تتوقف على وسيلة التبادل الاقتصادي ، ففي المجتمع الذي يقوم التبادل فيه على النقود تكون الهدايا من النقود أو المعادن الثمينة ؛ وفي المجتمع الزراعي تكون الهدايا من المحاصيل النباتية ، وفي المجتمع الرعوي تكون الهدايا من المواشي •

ففي مكة كان في الكعبة بشر ترمي فيه الهدايا^(١) ، مما يدل على انها كانت تقدم من النقود أو الالبسة أو المعادن الثمينة ، كما ان الضريبة التي فرضها قصي على الرفادة كان بعضها يجبي بالنقود^(٢) وهذا طبيعي في ذلك المجتمع التجاري الذي أساس ثروته النقود • اما هدايا الالبسة فتجلى فيما كان يرميه أهل الحلة كما تحدثنا^(٣) •

وهناك مناطق تقدم لآلهتها هدايا من المحاصيل النباتية وقد ذكرنا من قبل آية سورة الانعام التي يقول فيها تعالى « وجعلوا لله مما ذرأ من الحنث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا » (الانعام ١٣٦) وهو ذكر صريح الى ان بعض التقدّمات تكون من المحاصيل النباتية • وقد ذكرنا ايضا ان ذا الخلصة كانوا يهدون اليه الشمير والحنطة^(٤) ، وهي من المحاصيل الوافرة في وادي بيشة حيث يقع بقربه هذا الصنم •

ويروى انه كان لبني حنيفة صنم من تمر فأصابتهم مجاعة فأكلوه فقال الشاعر يميهم في ذلك :-

أكلت حنيفة ربها يوم التملح والمجاعة

ولا ريب انه لا يعقل صنع صنم من تمر نظراً لان التمر لا يمكن

(١) انظر ص ٢٠٧ •

(٢) انظر ص ١١٦ - ١١٧ •

(٣) انظر ص ٢١٤ - ٢١٦ •

(٤) انظر ص ١٩١ •

أن يدوم طويلاً • والارجح إن التمر المأكول هو الهدايا التي قدمت
للآلهة • ومن المعقول أن تقدم بنو خيفسة التمر نظراً لتوفر التخيل في
بلادهم •

ولما كانت أغلب بلاد الجزيرة صحارى ومراعي تقوم الحياة الاقتصادية
فيها على الرعي والمواشي وخاصة من الابل والغنم ، فلا بد أن تكون
أغلب هذه الهدايا الحيوانات وخاصة الحيوانات الداجنة •

لقد ذكر القرآن أنواعاً من الهدايا الجاهلية في معرض الإنكار لها
« ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا
يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » (المائدة ١٠٣) •

البحيرة :

وقد اختلف الرواة في شرح مفاهيم هذه الامور : فأما عن البحيرة
فان قتادة والسدي والضحاك وابن عباس يقولون بأن البحيرة هي الناقصة
اذا انتجت خمسة ابطن نحروا الخامس إن كان ذكراً ، أما اذا كان انثى
فانهم يشقون اذننها ويستحيونها فلا يشربون لبنها ولا يجزون وبرها ولا
يركبون ظهورها ، فاذا ولدت ولدأ ميتاً أو ماتت ، تشترك في أكل اللحم
انساء والرجال ، أما الولد الخامس فلا يأكل لحمه إلا الرجال • ويقول
ابن المسيب ان البحيرة من الابل هي التي يمنع درها للطواغيت ، أما ابن
الاحوص فيقول إن البحيرة هي انثى ولدت خمسة ابطن ثم تركت •

السائبة :

أما السائبة فيعرفها الزهري وقاتادة وابن عباس وابن الاحوص
والسدي والضحاك بأنها ما يسيبه الرجل من الانعام فلا يعرض لها أحد
حيثما حلت • أما مجاهد فيقول إن السائبة هي ما ولدت من ولد بينها وبينه
سته أولاد كان على هيئتها فاذا ولدت في السابع ولدأ ذكراً أو انثى أو
ذكرين ذبحوهم فأكله رجالهم دون نسايتهم •

الحامي :

أما الحامي فهو في رواية قتادة وابن عباس والسدي الفحل من الأبل الذي يلقح عشرة فينتج له عشرة أولاد أو إذا ركب أولاد أولاده على ما يروي الشعبي والضحاك ، وهو بذلك يترك فلا يركب ظهره ولا يجز وبره .

الوصيلة :

أما الوصيلة فالخلاف على تعريفها واسع فيقول الزهري أنها التي تأتي بولدين متابعين أنثى فتذبح للطواغيت أو تجدع ، وفي رواية أخرى أنها إذا اتأمت بطناً بذكر وأنثى قيل وصلت الأنثى أخاها بدفعها عنه الذبح ، ويروي الشعبي أنها إذا ولدت أربعة أبطن ثم ولدت الخامس ذكراً أو أنثى وصلت أخاها .

ويقول الضحاك وقاتدة أن الوصيلة هي الشاة إذا ولدت سبعة أبطن ذبحوا السابع إذا كان جدياً ، وإن كان عناقاً (أنثى) فاستحيوه ، وإن كان جدياً وعناقاً استحيوهما كليهما ، وقالوا أن الجدي وصلته اخته فحرمته علينا . ويزيد قتادة أن الجدي السابع يأكله الرجال دون النساء وأنه إذا كان السابع ميتاً اشترك في أكله النساء والرجال . أما السدي فيقول أن الوصيلة من النغم هي الشاة إذا ولدت ثلاثة أبطن أو خمسة فكان آخر ذلك جدياً ذبحوه وأهدوه لبيت الآلهة وإن كانت عناقاً استحيوها وإن كانت جدياً وعناقاً استحيوا الجدي من أجل العناق فإنها وصيلة وصلت أخاها^(١) .

راي ابن اسحاق :

ولابن اسحاق في هذه الأشياء تعريفات تختلف عما ذكرنا فهو يقول « أن السائبة أناقة إذا تابعت بين عشر أنثى ليس بينهما ذكر سييت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف . أما البحيرة فهي بنت

(١) تفسير الطبري : ج ٧ ص ٥٧ - ٦٠ . أنظر أيضاً المحبر : ص

٣٣٠ - ٣٣٢ ، المستبصر لابن المحاور ج ٢ ص ٢١٢ .

السائبة فما نتجت السائبة بعد البطن العاشر من اثني شقت اذنها ثم خلتي سبيلها مع امها ، فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها الا ضيف . أما الوصيلة فهي اشارة اذا اتأمت عشر اناث متتابعات في خمسة ابطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة ، قالوا قد وصلت ، فكأن ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون اناثهم الا أن يموت منها شيء فيشتركون في أكله ذكورهم واناثهم . أما الحامي فهو الفحل اذا انتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمي ظهره فلم يركب ظهره ولم يجز وبره وخلتي في ابله يضرب فيها ولا ينتفع منه بغير ذلك . . غير ان ابن هشام لا يرى رأي ابن اسحق ويقول معلقاً : « وهذا كله عند العرب على غير هذا الا الحامي فانه عندهم على ما قال ابن اسحق (١) » .

وقد أشار القرآن الى الهدايا الجاهلية في عدة آيات منها الآية (١٠٣) من سورة المائدة التي ذكرناها قبلاً وكذلك قوله تعالى « وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم » (الانعام ١٣٩) « قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله أذن لكم أم على الله تفترون » (يونس ٥٩) « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين نَبِّئُونِي بِعِلْمِ ان كنتم صادقين » ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدي القوم الظالمين » (الانعام ١٤٣ - ١٤٤) .

الاضاحي :

لقد ذكرنا في بحث التنظيمات الاجتماعية ان العرب قبيل ظهور الاسلام كانوا يمتدحون ان الاشتراك في الطعام يولد أو يقوي العلاقات بين الذكائن ،

ويخلق أو يثبت الالتزامات الاجتماعية المتبادلة • فلاشتراك في أكل الخبز والملح كان يؤدي الى خلق نوع من الحلف المعنوي ، وهي فكرة لا يزال يدين بها الكثير من الناس حيث يستهجنون خيانة من يأكل الزاد عندك ولا يؤيدك • ومن الوصمات الشنيعة عند كثير من الناس حتى اليوم أن يتهم شخص بأنه خان الملح والعيش (الخبز او الاكل) • ويروي الاصفهاني ان زيد الخيل- أبي أن يقتل لصاً لان هذا اللص شرب من قرية أبيه قبل السرقة^(١) •

فإذا كان الطعام المشترك يولد بين الناس مثل هذا الحلف والتعاون المتبادل بينهم فاحرى به أن يخلق مثل ذلك بين الناس والاهمهم ، أي اذا اشتركوا في طعام واحد يصبحوا متحالفين ، وعلى كل فريق منهم أن يعين الآخر ويساعده في الشدائد والملمات •

ولقد ذكرنا أنه كانت للدم أهمية كبرى في العلاقات الاجتماعية ، فالدم المشترك يستلزم التعاون والنصرة المشتركة • وليس من الضروري أن تكون علاقة الدم طبيعية بالوراثة ، بل يمكن خلقها بأن يلمق الفرد من دم الآخر أو يشتركان بلمق دم من اناء واحد ، كما حدث ذلك في حلف لعقة الدم الذي حدث في مكة عندما تأزم الوضع بين هاشم وبني عبدالدار • فإذا اشترك الاله مع القبيلة في الاكل أو في شرب الدم فانه تتكون بينهما علاقة دم تلزم كل فريق أن يدافع عن الآخر وينصره ويؤيده •

ولنلاحظ أن العشيرة كلها كانت تشترك في الاصل أو في العبادة ، فإذا اشتركت في الاكل كان ذلك توثيقاً للعلاقة بينهم وتقوية لتكتلهم ولتماسكهم • واذا قدمت الضحية للاله فانها تعقد الصلة بينه وبين مقدم الضحية •

ويمكن تقديم الضحية في مكان بعيد عن الاله ونصبه ، على أن يقدم على ما له صلة بالاله ، فقد روى ابن الكلبي انه ... (كان الرجل اذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذته رباً ، وجعل

ثلاث أنافي لقدره ، وإذا أرتحل تركه فاذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك •
فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها ، وهم على ذلك عارفون
بفضل الكعبة عليها يحجونها ويعتصرون إليها) •

الا ان خير مكان لتقديم الاضاحي هو حيثما تكون ، أو ينتظر أن
تكون ، الآلهة وهو عادة عند الصنم أو النصب ، وقد أشار القرآن الكريم
الى ما كان يذبح على النصب وحرم على المسلمين آكله (انظر سورة المائدة
الآية ٣) كما ذكر ابن الكلبي ان سعد صنم بني مالك وملك الكنانين
كانت نهراق عليه الدماء^(١) ، وروى في مكان آخر بعض الابيات التي تشير
الى الذبائح التي تذبح على النصب^(٢) وكثيراً ما يكون عند المذبح كهف أو
حفرة يسيل فيها دم الضحية ويسمى الغيب^(٣) ولعلهم كانوا يفهمون من
ذلك ان الدم الذي يسيل في الغيب كان يذهب للاله فتتعد الصلة بينه وبين
مقدم الضحية •

والضحايا عادة من ذوات الروح • ولا شك ان أروع الضحايا وأشدها
وقعاً هي التي تكون من البشر فقد قدم ابراهيم الخليل ابنه ضحية قرباناً لله
تعالى ، كما قدم عبدالمطلب ابنه عبدالله ضحية ، وقدم المنذر بن ماء السماء
اربعمائة ضحايا للعزى •

ولكن يجوز ابدال الضحايا البشرية بضحايا من الحيوان فان الله
تعالى فدى ابن ابراهيم « بذبح عظيم » (الصافات ١٠٧) كما ان عبدالمطلب
فدى ابنه بمائة من الابل^(٤) • فمن الطبيعي أن تكون أغلب الضحايا من
الحيوانات الداجنة وهي تكون عادة من الاغنام أو البقر أو الجمال تبعاً
لتوفرها •

(١) الاصنام : ص ٣٣ •

(٢) الاصنام : ص ٣٦ •

(٣) الاصنام : ص ٢٠ - ٢١ •

(٤) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٦٧ •

تقدم الاضاحي عادة في مواسم العبادات كالحج وتسمى ضحايا الاغنام (العنائر^(١)) وكانت تقدم عادة في رجب وتسمى الرجبية^(٢) . ومع ان شهر رجب من الاشهر المقدسة وكان يقع في أواخر الربيع الا ان المصادر التي بين ايدينا لا تتحدث عن سبب قدسيته أو ذبح العنائر فيه .

الهدى :

أما اضاحي الحج الى مكة فكانت تدعى الهدى وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم « واتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا أتمتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب » (البقرة ١٩٦) « يا ايها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم » (المائدة ٢) « يا ايها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مسكين ... » (المائدة ٩٥ - ٩٧) « هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوثا أن يبلغ محله » (الفتح ٢٥) .

ومع ان الهدى يمكن أن يكون من الغنم والبقر ، الا ان الغالب أن يكون من البدن أي الابل^(٣) . وقد ورد ذكر البدن في القرآن الكريم

(١) الاصنام : ص ٣٤ .

(٢) ابن حنبل : ٢ ص ١٨٣ ، ج ٥ ص ٧٦ لسان العرب ج ٦ ص

٢١٠ . انظر أيضا سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٠٨ .

(٣) انظر لسان العرب : ج ٢٢ ص ٢٣٤ اما عن هدايا الشاة =

• والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون • لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم • (الحج ٣٦ ، ٣٧) •

الاشعار والتقليد :

والبدن التي تهدى تشعر وتقلد ، فاما الاشعار فهو ان (يشق جلدها ويطعنها في اسنمتها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه حتى يظهر منها الدم ويعرف انها هدى^(١) • وقد وردت عدة أحاديث ان الرسول أشعر البدن في السنام الأيمن^(٢) • واما التقليد فهو (أن يجعل في عنقها عروة مزادة أو خلق نعل فيعلم انها هدى ، وكانوا أيضا يقلدون بلحاء شجر الحرم يعتصمون بذلك من أعدائهم • وكان المشركون يفعلون ذلك فأمر المسلمون بألا يحلوا هذه الاشياء التي يتقرب بها المشركون الى الله ثم نسخ ذلك^(٣)) وقد رويت عدة أحاديث عن تقليد بدن رسول الله التي أهداها للبيت وروى عن عائشة انها قالت (فقلت قلائد بدن رسول الله ثم قلدها وأشعرها ثم وجهها الى البيت^(٤) • ومن المحتمل ان جلال البدن كانت تهدى للكعبة ؛ والواقع ان عبدالله بن عمر كان يجلل بدنه القباطي والأنماط والحلل ثم

= والبقر في زمن الرسول فانظر عن مواضعها في كتب الصحاح : فنسبك : الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي : مادة شاة ، بقر •

(١) لسان العرب : ج ٦ ص ٨١ - ٨٢ •

(٢) ابن حنبل : ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٥٤ ، ٢٨٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٤ ،

٣٤٧ ، ٣٧٢ انظر أيضا عن الاحاديث النبوية التي ورد فيها الاشعار : فنسبك : الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي مادة اشعر •

(٣) لسان العرب : ج ٤ ص ٣٦٩ • وكان أهل مكة يقلدون باشجار

جبل المقطع الازرق ص ١٥٥ طبع وستنفلد •

(٤) الموطأ : ج ١ ص ٢٤٩ ابن حنبل ج ٦ ص ٣٥ ، ٨٧ ، ٨٢ •

وانظر أيضا عن التقليد : الموطأ ج ١ ص ٢٥١ ، ٢٧١ أما الاحاديث فقد ذكرت مواضعها من كتب الصحاح الستة : فنسبك : مفتاح كنوز السنة مادة اضاحي •

يبحث بها الى الكعبة فيكسوها آياها ، فلما كسيت الكعبة صار يتصدق بها^(١) . ومن المحتمل ان الناس أو بعضهم ، كانوا يفعلون ذلك قبل الاسلام أيضا ويظهر انه لم يكن يباح ركوب الهدى من البدن فأمر النبي بركوبها حتى تصل الى المنحر .

كان تقليد البدن وأشعارها يتم عند الاهدال أي عند بداية القيام بالسفر لاجل الحج ، وقد قلد الرسول بدنه وأهل بها من الجمرانة . وكانوا يسرون بها الى الحج ، وبعد انجاز طقوسه ينحرونها في منى ، وتنحر فيما يظهر قائمة . والاغلب ان المضحي يقوم بذلك بنفسه . ولا ينبغي للحاج أن يحل الا بعد النحر^(٢) .

والبدنة الواحدة قد تجزي عن عدة الاشخاص . ففي حجة الوداع نحر الرسول مائة بدنة عن الصحابة وعددهم سبعمائة ، أي ان كل بدنة اجزت عن سبعة ، وفي بعض الروايات انها اجزت عن عشرة^(٣) .

خلق الشعر :

من أهم مظاهر انجاز الحج والاحلال منه هو قص الشعر الذي يتم بعد النحر مباشرة ولا يجوز أن يتم قبله والافسد الحج^(٤) . ولا يقتصر ذلك على الحج الى مكة بل يمتد الى بقية الآلهة ، فكان الاوس يعظمون مناة

(١) الموطأ : ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) أنظر عن الاحاديث المتعلقة بها : فنسك : الفهرس المفصل

لألفاظ الحديث النبوي مادة بدن .

(٣) عن الاحاديث الكثيرة المروية في هذا الموضوع راجع : فنسك

مفتاح كنوز السنة مادة اضاحي . حج . والفهرس المفصل مادة حج . بدن . شعائر . حل . حرم . أما عن الاضاحي عند الامم السامية عامة فأوسع بحث هو الذي كتبه روبرتسن سمث في كتابه محاضرات عن دين الساميين .

(٤) راجع عما ورد في الحلق من احاديث : فنسك : مفتاح كنوز

السنة ، والفهرس المفصل مادة خلق .

وكانوا (يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم فإذا نفرُوا أتَوْهُ فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا لا يرون لحجهم تماماً الا بذلك^(١)) . وكانت قضاة ولخم وجذام يحجون للاقيصر ويحلقون رؤوسهم عنده ، فكان كلما حلق رجل منهم رأسه القى مع كل شعرة قرّة من دقيق^(٢) .

ويبدو ان للشعر أهمية دينية خاصة عند كافة الساميين لان قصه كان يتم بمراسيم دينية^(٣) ، فالطفل عندما يقص شعره تقدم للآلهة بمض الهدايا وتحاط بمراسيم دينية . ولعل سبب ذلك هو ان نمو الشعر دليل على نمو الطفل بنعمة الآلهة التي حرسته ، وان حلق شعر الطفل دليل على نضجه ونموه وتحمله ، أو قرب تحمله ، المسؤولية الدينية ، ومن هنا كان يحاط ببعض الطقوس الدينية ، وتقدم الهدايا للآلهة التي أنتمت ورعته . ويطلق اسم العقيدة على الهدايا والتقدمات المقدسة عند حلق شعر الطفل^(٤) .

رجال الدين :

تطلب طقوس العبادات اناساً يتدربون عليها ويتفهمون أهدافها وفلسفاتها وشعائرها ويوجهون الناس إليها ويرشدونهم . وقد ذكرت في مكة أعمال دينية كالأجازه والأفاضة والحجابه وقد تحدثنا عنها عند البحث عن مكة لانها لم تذكر في مكان آخر من الجزيرة كما ذكر السدنة أيضاً . ومع ان وظائف كل هؤلاء متصلة بالدين الا انها لا تستلزم من القائم بها أن يكون عالماً بشؤون الدين أو متبحراً فيه . ومن الغريب اننا في أخبار مكة أو أخبار الدعوة الاسلامية فيها لا نسمع ذكراً لرجال الدين مطلقاً . وليس هناك دليل على ان مقاومي النبي كانوا من رجال الدين .

(١) الاصنام : ص ١٦٠ .

(٢) الاصنام : ص ١٤ .

(٣) أنظر سميت : ص ٣٢٣ فما بعد .

(٤) عن الاحاديث النبوية عن العقيدة راجع فنسك : مفتاح كنوز

السنة مادة عقيدة .

والسادن كما يعرفه ابن منظور * هو خادم الكعبة وبيت الاصنام ويروى عن ابي عبيد ان سدانة الكعبة خدمتها وتولي أمرها وفتح بابها واغلاقه والسادن هو الخادم ويروى عن ابن بري ان الفرق بين السادن والحاجب ان الحاجب يحجب واذنه لغيره والسادن يحجب واذنه لنفسه أي ان السادن فوق الحاجب^(١) . *

وقد ذكر سدنة عدد من الآلهة الجاهلية ، فكان سدنة اللات من بني معتب الثقفيين ومنهم مسعود سادن اللات الذي قاد ثقيفاً في حرب الفجار ، وبنو شيان (من سليم) سدنة العزى ، وبنو لحيان سدنة سواع ، وبنو امامة سدنة الخلصة ، وبنو عامر الاجدار سدنة ود ، وخزاعة بن عبد نهم المزني سادن نهم ، والعموام بين جهيل سادن يغوث^(٢) ، والسعيدة وكان سدنتها بنو عجلان^(٣) . اما سدانة الكعبة فكانت لبني عبدالدار .

وكثيراً ما يكون السدنة من عشائر غير التي تسكن في الحرم ، فاذا كانت كذلك فتكون أقدم العشائر الاخرى في الغالب . والغالب ان السدانة تكون ورائية ومحصورة بأسرة معينة ، على انها قد تنتزع منها بالقوة أو التهديد كما فعل قصي عندما انتزع سدانة الكعبة وسيادة مكة من خزاعة .

(١) لسان العرب : ج ١٧ ص ٦٩ .

(٢) لقد ذكرت سدنة الآلهة السالفة الذكر في كتاب الاصنام ص ٢٢ ، ١٠ ، ٣٥ ، ٥٥ ، ٣٩ على التوالي . كما ورد ذكر سدنة اللات في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٧ وذكر ابن حجر في كتابه : الاصابة في تمييز الصحابة سادن نهم (ج ١ ص ٤٢٩) وسادن يغوث (ج ٣ ص ٤١) .

(٣) ياقوت ج ٣ ص ٩٣ .

ويروي ابن هشام ان عمرو بن قيس اخي بني غنم بن مالك بن النجار وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية (السيرة ج ٢ ص ١٥٠) غير اننا لا نعلم بالضبط المقصود بصاحب الآلهة .

الكهان والعرافون :

أما الكهان فهم اشخاص وقعوا تحت تأثير الآلهة وبمقدورهم التنبؤ بالحوادث أو القيام بالأعمال الخارقة ، وقد اتهم النبي بأنه كاهن فرد القران على ذلك بمدة آيات ، وقد يكون بعض الكهان من السدنة • ويروي السكري انه لا يكون كاهناً حتى يكون له شيطان تابع له ليوحى اليه^(١) • وكانت العرب تستشيرهم وخاصة قبيل الحملات وتتأفر عندهم وتحاكم اليهم^(٢) • وتنسب الى الكهان حكم وتنبؤات مصاغة بجمل قصيرة مسجوعة • وكثيراً ما يكون الكهان من النساء ككاهنة حدس^(٣) ، والفيطلة كاهنة بني سهم^(٤) ، وكاهنة خثعم فاطمة بنت مر التي مرّ بها عبدالمطلب عندما أراد أن يتزوج ابنه عبدالله أبو الرسول^(٥) •

(١) المحبر : ص ٣٩٠ •

(٢) راجع ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٥٢ ، الطبري : ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٨٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ • راجع أيضاً مروج الذهب : ج ١ ص ١٦٨ ، ١٧٥ فما بعد •

(٣) الطبري : ج ٣ ص ١١٠ ، ابن هشام ج ٣ ص ٤٣٨ •

(٤) ابن سعد ج ٤ قسم ١ ص ١٦ •

(٥) الطبري : ج ٢ ص ١٧٥ •

القسم الثالث

حياة الرسول

والدعوة الإسلامية في مكة

الفصل الخامس عشر

مصادر دراسة حياة الرسول

ان حياة الرسول واعماله وتطور نشأة الاسلام يمكن بحثها من ثلاثة مصادر رئيسية هي : القرآن ، وكتب الحديث والسنة ، وروايات المؤرخين ومؤلفاتهم .

القرآن :

أما القرآن فهو كتاب الله المنزل باللفظ والمعنى على الرسول ، واختلاف القراءات فيه قليل نسبياً ومقتصر على بعض الكلمات ، فنصه عموماً مضبوط يقر الجميع بصحته . ولو تجرأ شخص على التلاعب فيه أو تغييره لحل عليه غضب الناس والله جميعاً لان الله تعالى يقول « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر ٩) .

لم ينزل القرآن جملة واحدة ، بل نزل منجماً في بحر عشرين سنة . وقد ذكر في آياته بعض الحوادث التي واجهها الرسول والاسلام وفصل في بعضها ، كما انه عرض الافكار الاسلامية وقدم البراهين والحجج والادلة عليها ، وكذلك رد على معارضي الاسلام والكفار والمشركين ومنذ آراءهم وحججهم وافكارهم المتباينة والمتنوعة والمختلفة باختلاف الاحوال والظروف والاشخاص . لذا فان القرآن يلقي ضوءاً ساطعاً على المشاكل التي واجهها الرسول والعقبات التي اعترضته والصعوبات التي واجهته كما يتبين من وجهات نظر المعارضين .

وقد عبر القرآن عن كثير من الازمات التي كان يلاقيها الرسول والمسلمون واقترح الاجابات والحلول لها وهي آزمات متنوعة، متبدلة بعضها قوي لبويل الأمد وبعضها مؤقت قصير الأجل . ويمكن القول عموماً ان تكرار الموضوع الواحد في القرآن دليل على انه لاقى كثيراً من المقاومة والنقاش . فالقرآن هو المصدر الاول لدراسة نشأة الاسلام وعقائده نظراً لاصالته ولما فيه من اشارات وأخبار عن عصر الرسول وما لاقته الدعوة .

غير ان الاستفادة من القرآن في دراسة تاريخ الرسول والدعوة الاسلامية ليست سهلة ، نظراً لانه لم يشمل بالذكر كافة الحوادث التي مر بها الاسلام ، أو كل الاعمال التي قام بها الرسول ، أو كافة من اتصل بهم واحتك فيهم من الاشخاص . والواقع انه لم يرد فيه الا اسم شخصين فقط أحدهما مشرك هو أبو لهب عم النبي والثاني مسلم هو زيد بن حارثة ربيب الرسول . ثم ان كثيراً من الاوضاع والمؤسسات والنظم الجاهلية التي أشار إليها القرآن زالت بعد مجيء الاسلام واندست ولم يبق لها أثر مما أدى الى اختلاف الشراح والمفسرين في توضيحها حتى انه يصعب علينا اليوم انجزم في صحة واحد من هذه التفاسير أو تفضيله على غيره .

ولعل أكبر صعوبة تصادفنا عند محاولة الاستفادة من القرآن في الدراسة التاريخية لحياة الرسول والاسلام وخاصة في الدور المبكي هي معرفة زمن نزول الآيات . ذلك ان العلماء المسلمين الذين بحثوا أسباب النزول اكتفوا بذكر سبب نزول آيات معينة محدودة تشير في الغالب الى احكام أو حوادث أو أشخاص معينين . كما ان الباحثين في النسخ والنسوخ درسوا في الغالب تعاقب نزول الآيات النسخة والنسخة خاصة في الاحكام القضائية وهي آيات محدودة العدد نسبياً في القرآن ، أما بقية الآيات فلم يتطرقوا لها رغم أهميتها الكبرى في دراسة تطور الدعوة الاسلامية وما لاقته .

لقد بحث العلماء المسلمون أيضاً في تعاقب نزول السور ورووا ترتيبها حسب نزولها وقد اختلفوا في ابحاثهم اختلافات كبيرة^(١) ؛ ومع ذلك فان دراستهم غير كافية لان السورة الواحدة لم تنزل مرة واحدة بل كثيراً ما تكون في السورة الواحدة آيات مكية وأخرى مدنية ، أو تكون السورة

(١) أنظر رواية ابن عباس في ترتيب نزول السور في السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ١١ مقدمتان في تاريخ القرآن ص ٨ ، ورواية علي بن أبي طالب في مقدمتان ص ١٤ ، ورواية الواقدي في : ابن النديم . الفهرست : ص ١٨ . أما ترتيب تولده وكرمه وكايتاني فانظرها في بيل : مقدمة للقرآن ص ١١٠ - ١١٤ (بالانكليزية) .

الواحدة مكية خالصة ولكن آياتها نزلت في فترات متباعدة ثم جمعت في سورة واحدة^(١) . فالاعتماد على هذه الروايات غير كاف .

وقد حاول بعض المستشرقين دراسة زمن النزول ؛ ولعل أبرزهم ثيودور نولده كه في كتابه تاريخ القرآن الذي اتخذ الاسلوب معياراً لمعرفة زمن نزول السور ، واعتبر السور الاولى آياتها قصيرة مسجوعة ، أما السور المتأخرة فأياتها طويلة غير مسجوعة في الغالب . ولكن دراسته ناقصة شأن دراسة العلماء المسلمين من حيث ان آيات السورة الواحدة قد تكون نزلت في أوقات متباعدة .

وقد قام المستشرق الانكليزي ريتشارد بل بدراسة أخرى حيث ترجم القرآن ودرس كل آية وحاول تحديد زمن نزولها من معانيها ومواضيعها واسلوبها . ولاشك ان بحثه طريف وبعض استنتاجاته عن زمن نزول الآيات يثير التفكير . ولكن احكامه ليست نهائية .

ربما كانت هذه الصعوبات من أهم الاسباب التي أدت بمؤرخي السيرة النبوية ألا يستفيدوا من دراسة القرآن الاستفادة الكافية رغم أهميته الكبرى وبذلك خسر الفكر خسارة كبرى . وقد حاول بعض المحدثين وخاصة من المستشرقين أمثال شبرنجر وموير وكايتاني وبوهل معالجة ذلك والاستفادة من القرآن في دراسة حياة الرسول . أما العرب فلا أعلم من حاول ذلك بصورة شاملة الا محمد عزة دروزة في كتابه عصر الرسول وبيته ، وسيرة الرسول .

لقد حاولت في بحثي عن الدعوة الاسلامية أن اجمع الآيات التي تدور حول الموضوع الواحد محاولاً تعيين زمن التأكيد على ذلك الموضوع مستعيناً بما رواه المؤرخون عن خطوات الدعوة وما يقتضيه منطق الحوادث في استنتاج سير تطورها ، حيث يبدو ان الدعوة بدأت بالتأكيد على بثها بين قومه بلسان عربي والدعوة الى عبادة الله الواحد الأحد والنظر في آياته

(١) انظر في ذلك : السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص

وأعماله ، ثم التأكيد على يوم القيامة والبعث والحساب وقصص الانبياء للعبرة والتوضيح ، ثم عيب آلهة الشرك وعبادها ثم المقاطعة ثم التشيت . وقد اجلت دراسة الآيات المتعلقة بالطقوس والمواضيع الاخرى الى الجزء الثاني . ومع اعترافي بأن هذه المحاولة أولية الا اني أرجو أن يكون دليلاً منيراً لدراسة الدعوة من الآيات القرآنية .

الاحاديث والسنة :

أما سنة الرسول فهي كل ما قاله الرسول أو عمله أو أقره أو رآه فلم ينكره . ويختلف الحديث عن القرآن من حيث كون القرآن منزلاً من الله لفظاً ومعنى وان الحديث مصدره الرسول . والسنة لم تدون في زمن الرسول ، وهناك روايات بأن الرسول وعمر بن الخطاب نهيا عن محاولة تسجيل سنة الرسول وأحاديثه . وأقدم محاولة رويت لتسجيل أحاديث الرسول كانت في زمن عمر بن عبدالعزيز ، أي في نهاية القرن الاول الهجري^(١) .

وأقدم الاحاديث المدونة الباقية هي موطأ مالك وقد وصلنا في عدة روايات أهمها رواية سخنون وفيها ١٧٢٠ حديثاً ورواية محمد بن الحسن الشيباني وفيها ١١٧٩ حديثاً ، غير ان أقوال الرسول وأحاديثه منها لا يزيد عن ٨٢٢ في رواية سخنون و٤٢٩ في رواية الشيباني والباقي أقوال للمصحابة والتابعين وآراء للمالك نفسه .

وقد أورد كل من ابي حنيفة وابي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وانشاعى عدداً من الاحاديث فيما ألفوه وقد جمعت أحاديث كل منهم في

(١) أنظر عن نشأة وتطور علم الحديث : أحمد أمين : فجر الاسلام ، ضحى الاسلام ج ٢ ، ولجولدزيهر بحث قيم نشره في كتابه « دراسات اسلامية » (بالألمانية) ثم ترجم حديثاً الى الفرنسية ، وانظر أيضاً « الباعث الحثيث في تدوين الحديث » ص ١٤٧ - ٩ ، وعبد السلام هارون : جمع النصوص ص ٩ حيث يشير ان الى تدوين الحديث زمن النبي .

مجاميع أو مساند وأكثرها مطبوع ولكن هذه الاحاديث هي قليلة نسبياً ولا تشمل كل أقوال الرسول وأعماله •

وجدير بالملاحظة ان هؤلاء المؤلفين هم فقهاء تناولت أبحاثهم المشاكل الفقهية بالدرجة الاولى ، كما ان كثيراً منهم لم تشمل أبحاثهم تفاصيل مختلف القضايا الفقهية • لذا يمكن القول بأن الاحاديث المروية عنهم تؤكد على ما يتصل بالفقه وانها أوردت لتخدم هذا العلم فهي ليست خالصة لأحاديث الرسول ولا يرد فيها كافة ما يعرف عن حياة الرسول •

ان مركز الرسول العظيم كقدوة للمسلمين في حياتهم كما قال تعالى « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة » (الاحزاب ٢١) وتزايد اهمية السنة في التشريع دفعت الناس من غير الفقهاء الى الاهتمام بأحاديث الرسول ودراستها كما أدت الى اختلاق كثير من الاحاديث ونسبتها الى الرسول • وقد أدى كل هذا الى انفصال الحديث تدريجياً عن الفقه والى اهتمام العلماء ، وخاصة منذ القرن الثاني الهجري ، في تدقيق الاحاديث وغربلتها وتنقيتها من العناصر الغريبة والمختلقات والاكاذيب • ومع ان هؤلاء العلماء بذلوا جهداً عظيماً رائعاً ، الا ان اهتمامهم كان منصباً بالدرجة الاولى على النقد الظاهري دون الباطني ، أي على الرواة ورجال السند دون نصوص الحديث • ومع ان هذه المحاولات أدت الى غربلة كثير من الاحاديث الا انها لم تؤد الى تنقيته التامة فظلت كثير من الاحاديث مثار نقاش حول مدى صحتها وديقتها •

ومن أهم نتائج توسع الاحاديث وانفصالها عن الفقه وغربلتها ، ان ظهرت مجموعات من كتب الحديث الصرفة وأهمها عند السنة ستة هي صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي وسنن ابن ماجة وسنن ابي داود (يضاف اليها موطأ مالك) • ولصحيح البخاري وصحيح مسلم مكانة خاصة نظراً لشدة تدقيق صاحبهما وقلة الشوائب فيهما بالنسبة للباقية •

تبحث هذه الكتب عن سيرة الرسول وأعماله وما أقره من أحكام في

مختلف نواحي الحياة السياسية والمالية والادارية فضلا عن أحكام الدين والطقوس والعبادات • ومروياتهم عن حياة الرسول وأعماله السياسية والادارية ذات أهمية الا انها قليلة نسبياً ، رغم انها جوهر التاريخ ، ثم ان الاحاديث المتعلقة بحياة الرسول لا تختلف كثيراً عما أورده المؤرخون الاولون • ومن الملاحظ ان اصحاب كتب الصحاح لم يتحرروا تماماً من تأثير الفقهاء الذي يتجلى في زيادة اهتمامهم بالمسائل الفقهية وترتيب كتبهم على نمطها •

ثم ان كتب الحديث تورد نص الحديث وسنده ولا تفسره أو تحلله ، فهي مجموعة نصوص فحسب ولا بد من تحليلها وايجاد الصلة بينها وتفسيرها • وقد قام كثير من العلماء القدامى في شرح الاحاديث وتفسيرها الا انه لم تقم محاولة جديده لايجاد الصلة الزمنية بينها أو ربطها وتفسيرها واستخدامها لاعطاء صورة للاوضاع التاريخية • نظراً لأن محاولات الاقدمين في دراسة هذه الاحاديث اقتصرت على شرح كل حديث دون محاولة تحليله أو ربطه مع غيره وبذلك كانت محاولاتهم مفككة لا تكون وحدها تاريخاً متصلاً •

ويلاحظ أيضاً ان هذه الاحاديث غير مرتبة ترتيباً زمنياً وقلما يشار الى زمن نزولها ، مما يخلق صعوبة كبرى لدارس التاريخ الذي يقوم بحثه على أساس ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً •

ان هذه المصاعب من أهم العوامل التي جعلت كثيراً من دارسي حياة الرسول يتحاشون قراءتها ولا يستفيدون منها بمهارة أو كفاية ، رغم أهمية ما فيها من معلومات • وبذلك كانت محاولاتهم واضحة النقص •

المؤرخون (١) :

أما المؤلفات التاريخية عن حياة الرسول ، وتسمى عادة كتب السيرة ، وهي مشتقة من السير في الحياة ، فقد بدأ الاهتمام بتدوينها بعد منتصف

(١) هذا البحث عن مؤلفي السيرة هو ملخص لمقال « ديلافيدا » =

القرن الاول الهجري أي بعد وفاة الرسول بخمسين سنة وأكثر ، وساهم في تدوينها العرب والموالي ، وكانت في البداية بسيطة تتناول بعض نواحي حياة الرسول واعماله ، وهي متأثرة بالفقه والادارة اذ تهتم بقوائم أسماء المسلمين الاول ، أو المشتركين بالغزوات الاولى ، كما تتطرق الى أحكام الرسول وقضاياه ؛ أما اسلوبها فبسيط واضح أقرب الى الاسلوب القصصي وتروي خلال سردها الحوادث بعض القصائد والاشعار ، وهي صورة عامة مفككة غير مترابطة ولا تعبر الاسناد أهمية كبرى .

ابان بن عثمان :

وأول من رويت عنه أخبار السيرة هو ابان بن الخليفة عثمان بن عفان ، وقد ولد حوالي سنة ٢٠هـ وعين في زمن عبد الملك بن مروان والياً على المدينة حيث ظل في هذا المنصب سبع سنوات كان يتولى خلالها امارة الحج كل سنة تقريباً ، وكانت له صلات طيبة بكبار الصحابة والتابعين ، وتوفي في خلافة الوليد على ما يروي البخاري أو في زمن يزيد الثاني على ما يروي ابن سعد . وقد رويت عنه بعض الاحاديث مما يدل على مكانته الطيبة عند المحدثين . وكان يميل الى الدعابة والفكاهة وله تذوق للشعر . وقد روى عنه الطبري في تاريخه وتفسيره ، كما روى عنه مالك في الموطأ ، وابن سعد في الطبقات . ولكن ابن اسحق والموافدي لم يرويا عنه .

عروة بن الزبير :

ويتلو ابان في الترتيب الزمني عروة بن الزبير بن العوام الذي ولد حوالي سنة ٢٣هـ وتوفي سنة ٩٤هـ وقضي حياته في المدينة محباً للعلم ومهماً

= عن السيرة في دائرة المعارف الاسلامية ، ولمقال يوسف هورفتز عن « مؤرخي السيرة الاولى » الذي نشره بالانكليزية في مجلة الثقافة الاسلامية سنة ١٩٢٦ ولخصه أحمد أمين في الجزء الثاني من « ضحى الاسلام » ، كما ترجمه حسين نصار الى العربية بعنوان « المغازي الاولى ومؤرخوها » ، ثم ضمنه في كتابه « نشأة الكتابة الفنية في الاسلام » بعد أن اضاف اليها بعض المعلومات .

به وكان له أصحاب يجلسون في حلقة بمسجد المدينة يتداولون الاخبار منهم عبد الملك بن مروان قبل تسنمه منصب الخلافة .

لم يندفع عروة في شؤون السياسة أو يساهم فيها مساهمة فعالة كما فعل أخواه عبدالله ومصعب ، لذا احتفظ بمكانته الطيبة عند الامويين وقد قضى في مصر سبع سنوات كما زار الشام في عهد عبد الملك والوليد . وكان من فقهاء المدينة السبعة المشهورين ، وله شهرة بمعرفة الحديث .

لقد دون عروة معلوماته عن تاريخ الرسول بشكل أجوبة لأسئلة وجهها اليه عبد الملك وابن أبي هنيذة كاتب الوليد . وهذه الأجوبة تتعلق بالهجرة الى الحبشة وهجرة الرسول الى المدينة وبغزوة بدر وفتح مكة ووفاة خديجة وزواج الرسول باخت الاشعث بن قيس . وهو يحلي كتاباته بمقتطفات من الشعر ولا يهتم كثيراً بذكر رجال السند .

شرحيل بن سعد ووهب بن منبه :

والاسم الثالث في تاريخ سيرة الرسول هو شرحيل بن سعد مولى بني خطمة ، وقد ولد في أواخر عهد عمر أو أوائل عهد عثمان وتوفي سنة ١٢٣ هـ بعد أن ناهز المائة . ويقول عنه سفيان بن عيينة انه لم يكن أحد أعلم بمغازي البدرين منه ، ولكنه كان متهماً في أمانته لذا لم يرو عنه ابن اسحق والواقدي أما ابن سعد فقد روى عنه حديثاً واحداً .

والاسم الرابع هو وهب بن منبه الذي اشتهر بكتاباتهِ عن الشعوب والامم القديمة ولكنه كتب أيضاً في سيرة الرسول ، وقد حفظت من كتاباته قطع تتعلق باجتماع دار الندوة والهجرة وغزوة بني خيصة .

ابن حزم وعاصم :

ويتلو هؤلاء حسب الترتيب الزمني عبدالله بن أبي بكر بن عمر بن حزم وكان جده والياً للرسول على نجران وأبوه قاضياً في المدينة ثم والياً

عليها زمن سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبدالعزيز • أما عبدالله بن أبي بكر فلم يتولى منصباً رسمياً بل اهتم بالحديث وبالمغازي وبشباب الرسول والأعوام الاولى من حياته وبوفود القبائل الى الرسول ، كما روى أخباراً عن ردة القبائل العربية وعن أواخر أيام عثمان وقد روى أيضاً كتب الرسول الى بعض أهل اليمن والى عمرو بن حزم • لقد استمد ابن حرم كثيراً من معلوماته من خالته عمرة وهو لا يهتم بالسند وقلما يورده ولكنه يورد الشعر في مغازيه •

أما عاصم بن عمر بن قتادة الظفري الانصاري فهو لم يتول منصباً رسمياً ولكنه زار بلاط الامويين بضع مرات يستمد منهم بعض المعونة المالية • وقد حدث أهل دمشق عن المغازي في زمن عمر بن عبدالعزيز واهتم بتفاصيل أخبار شباب النبي والفترة المكية عامة • وهو أكثر اهتماماً بالأسانيد وذكرها لها من عبدالله بن حزم ، ويروي في أخباره الاشعار ويبيدي أحياناً آراءه الخاصة •

الزهري وتلامذته :

ومن أبرز مؤرخي السيرة محمد بن مسلم الزهري الذي ولد حوالي سنة ٥٠ هـ وهو قرشي من قبيلة زهرة ؛ كان جده قد جرح الرسول في غزوة احد أما ابوه فكان مماتاً لابن الزبير ، ولكن صاحبنا كان ذا علاقة طيبة بالامويين فقد وفد على عبد الملك واستوطن دمشق فترة من الزمن واجرى عليه الامويون راتباً معيناً ثم ساءت علاقته معهم فعاد الى الحجاز • لقد كتب الزهري عن مواضيع كثيرة فتناول أسنان الخلفاء أي أعمارهم ، كما تناول حياة الرسول كما يتجلى ذلك من اقتباس الطبري وابن سعد منه • وهو يميل الى جمع أسماء رواة الخبر الواحد وتوحيدهم ثم رواية الخبر فهو لا يدقق بالاسناد ويدخل الشعر فيما يروي •

لقد كان للزهري عدة تلاميذ بارزون كلهم من الموالي أبرزهم موسى ابن عقبة الذي ولد حوالي سنة ٥٠ هـ وكان مولى للزبيريين فلم يتول أي منصب لدى الامويين ولم يصلنا من كتاباته الا قطع ، وقد شمل بحثه المغازي والهجرة وروى خاصة عن الزهري كما اقتبس منه كثيراً ابن سعد وخاصة

في المجلد الثالث والرابع من الطبقات ، ويظهر من هذه الاقتباسات ان كتابه كان يحوي على قوائم المهاجرين الى الحبشة والمشركون في بيعة العقبة والمقاتلين في بدر وقد اهتم بتاريخ الراشدين والامويين وأعار السند أهمية كما استشهد بالشعر قليلا واعتمد عليه الواقدي والطبري .

أما معمر بن راشد فهو مولى الحدان وقد ولد ونشأ في البصرة حوالي سنة ٩٦هـ ثم رحل الى اليمن واستقر فيها . وهو محدث ، وقد ذكر له ابن النديم كتاب المغازي الذي لم تصلنا منه الا فقرات رواها الواقدي وابن سعد والبلاذري والطبري واكثر رواياته عن الزهري . وقد روى كثيراً عن تاريخ أهل الكتاب والرسل الأولين . وروى عنه ابن سعد اخباراً عن عهد عثمان ومعاوية .

ابن اسحق :

يحتل ابن اسحق مكانة خاصة بين مؤرخي السيرة نظراً لأن معظم ما كتبه عنها وصلنا عن طريق ابن هشام والطبري ، وهي تمثل اوسع ما كتب حتى ذلك الوقت . وكان تاريخ السيرة عنده يمثل جزءاً من تاريخ العالم واستمرارا له ، كما انه اعتمد على أهل الكتاب ولم يقتصر على رجال السند بل اهتم بالشعر ايضا فكانت طريقته مزيجاً بين طريقة المحدثين ورواة أيام العرب .

لقد كان ابن اسحق مولى تحدر من يسار الذي كان من أسرى عين التمر الذين جاء بهم خالد بن الوليد من العراق الى المدينة . وقد ولد محمد حفيده سنة ٨٥هـ واهتم بالحديث فروى عن أبيه ثم اتصل بعدد من العلماء امثال عاصم بن عمر وعبدالله بن أبي بكر والزهري . ثم ذهب سنة ١١٥هـ الى الاسكندرية حيث سمع من يزيد بن أبي حبيب ثم زار المدينة وقابل سفيان بن عيينة . ولكن خاصمه هشام بن عروة ومالك أنس فرحل الى الكوفة والجزيرة والري وبغداد . ولم يتصل بالامويين كما انه لم يتأثر بالعباسيين . والواقع انه ذكر العباس بن عبدالمطلب ، وهو جد العباسيين ، بين أسرى بدر .

الف ابن اسحق كتابه في السيرة وهو يتكون من ثلاثة أقسام المبتدأ

والمبعث والمغازي • لم يصلنا هذا الكتاب مباشرة بل وصلنا برواية ابن هشام ، وفي هذه الرواية بعض التحوير للكتاب حيث ترك تاريخ أهل الكتاب من آدم الى ابراهيم ، كما انه لم يذكر من سلالة اسماعيل غير اجداد النبي المبشرين ، كما حذف ما لا علاقة له بالرسول وأنكر بعض مما رواه ابن اسحق من الشعر أو ما يؤذي الناس ذكره ، كما أضاف اليه كثيرا من الاضافات في الانساب واللغة وقد أشار الى اضافاته ومحذوفاته ، كما ان الطبري في التاريخ وفي التفسير حفظ كثيرا مما حذفه ابن هشام من الانباء ، وحفظ الازرقعي كثيرا مما حذفه ابن هشام عن مكة •

يمكن تقسيم المبتدأ الى أربعة أقسام أولها يمتد من الخليفة الى المسيح ، وقد عني فيه بروايات وهب بن منبه وابن عباس واخبار اليهود والنصارى ونصوص الكتاب المقدس والعرب البائدة التي ورد ذكرها في القرآن خاصة • والقسم الثاني من المبتدأ يشمل تاريخ اليمن وقصة اصحاب الاخدود وأصحاب الفيل • والقسم الثالث القبائل العربية والاصنام التي تعبدتها • أما القسم الرابع فيبحث عن أجداد النبي والديانة المكية • والاسناد في المبتدأ نادر • والقسم الثاني من الكتاب هو حياة الرسول في مكة والهجرة • ويهتم ابن اسحق في هذا القسم برواية الاسناد وبذكر قوائم أسماء المسلمين الأولين والمهاجرين وأول المؤمنين من الانصار والمشاركين ببسطة العقبة والمؤاخاة وبوثيقة النبي في المدينة •

والقسم الثالث هو المغازي ويهتم فيه بذكر الاسناد ويعتمد على الزهري وعاصم بن عمر وعبدالله بن أبي بكر ويورد قوائم أسماء المشتركين في بدر والقتلى والاسرى فيها وفي أحد والخندق وخيبر ومؤتة والطائف والمهاجرين من الحبشة •

لابن اسحق عدة تلامذة أشهرهم البكائي الذي روى عنه ابن هشام ، وسلمة بن الفضل الذي روى عنه الطبري^(١) •

(١) أنظر عن سيرة ابن اسحق ورواياتها المقدمة التي كتبها الفردجيوم لترجمة سيرة ابن هشام الى الانكليزية • وانظر عن رأي العلماء في ابن اسحق : ابن سيد الناس « عيون الاثر » •

الواقدي :

الواقدي وابن اسحاق هما الوحيدان اللذان سلمت مؤلفاتهما من انضياح . والواقدي ، واسمه محمد بن عمر ، مولى للاسلميين . ولد في المدينة سنة ١٣٠ هـ وسمع أشهر رجال احديث في المدينة وكان عالماً بالآثار فصار مرشداً للرشيـد في حجه وكان ذلك سبب اتصاله بالبرامكة وبالخليفة العباسي . وقد ولاء الرشيد والمأمون القضاء . وقد انف كثيرا من الكتب في الفقه والتاريخ الجاهلي لمكة والمدينة وطفولة النبي وحياته وأزواجه ووفاته وعن الاوس والخزرج وابي بكر والجمال وصفين والحسن والحسين وقتوح الشام والعراق وضرب الدنانير ومراعي قريش وعن الطبقات وتاريخ الفقهاء .

معظم اساتذة الواقدي من أهل المدينة كالزهرري ومعمري وابي معشر وموسى بن عقبة . وقد اهتم بالغزوات وهو يتبع نمطاً خاصاً في ذلك ، فيذكر سنة خروج الرسول ورجوعه ثم اخبار الغزوة ثم نائب الرسول في المدينة ثم يروي بعض الاشعار . وهو يحدد التواريخ ويبدى أحياناً آراءه الخاصة في الاحداث . ويظهر تحيزه للعباسيين من حذفه اسم جدهم العباس من قائمة اسرى بدر .

ابن سعد :

ولد محمد بن سعد في البصرة سنة ١٦٨ هـ وعاش مدة من الزمن في المدينة وكتب في السيرة والطبقات كتابين رواهما تلامذته من بعده حتى استقرت نهائياً على يد الحسن بن فهم (٢١١ - ٢٨٩ هـ) .

لقد بحث ابن سعد في الجزء الاول من كتابه عن الرسول ، فبدأ باجداد النبي وطفولته والدعوة حتى الهجرة ، كما بحث في القسم الثاني من ذلك الجزء عن العهد المدني وعن أوامر النبي ووفود العرب .

وبحث في الجزء الثاني عن عادات الرسول واخلاقه وسفاراته وعن علامات النبوة . ولا ريب ان له عن التاريخ نظرة أوفي نظراً لاهتمامه

بالنواحي الادارية والاجتماعية والاقتصادية ، دون الاقتصار على النواحي السياسية والحروب •

يعتمد ابن سعد في بحث أجداد الرسول على أهل الكتاب وعلى ابن الكلبي ، أما عن حياة الرسول فيعتمد على الواقدي بالدرجة الاولى ولكنه يضيف اليه معلومات عن ابن اسحاق وابي معشر وموسى بن عقبة • وهو يهتم برجال السند ويروي بعض الشعر •

مؤلفون آخرون ، رواية ابن النديم :

ذكر ابن النديم عدداً من المؤلفين عن الرسول وأورد أسماء كتبهم ولعل أهمهم علي بن محمد المدائني الذي ألف عدداً من الكتب في امهات النبي وصفته وأخبار المناقبين وتسمية المناقبين ومن نزل القرآن فيه منهم ومن غيرهم وفي الذين يؤذون النبي وتسمية المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضيض وفي رسائل النبي وكتب النبي الى الملوك واقطاع النبي وصلح النبي وآيات النبي وخطب النبي وعهود النبي والمغازي والسرايا والوفود ودعاء النبي وخبر الافك وأزواج النبي وعماله على الصدقات وما نهى عنه وأمواله وكتابه ومن كان يفد عليه بالصدقة والخاتم والرسل وخطبه^(١) •

ويتبين من هذه القائمة مدى اهتمام المدائني بالنواحي الاجتماعية والادارية غير انه من سوء الحظ لم تحفظ هذه الكتب ولم يشر اليها المؤلفون الذين تطرقوا الى هذه المواضيع ولم تدرس بعد أسباب ذلك •

وقد ذكر ابن النديم ايضاً أسماء عدد من المؤلفات عن حياة الرسول منها : (١) كتاب المغازي لنجيج المدني (٢) كتاب صفة النبي لابن البخري (٣) كتاب المغازي للوليد بن مسلم (٤) كتاب مغازي النبي وسراياه وذكر أزواجه لأحمد بن الحارث الخزاز (٥) كتاب المغازي لاسماعيل بن اسحق القاضي (٦) كتاب المغازي لعبد الملك بن عمرو بن حزم (٧) كتاب المغازي

لابراهيم الحربي (٨) كتاب المغازي لعبدالرزاق الصنعاني (٩) كتاب الوفود
لمهشم بن عدي (١٠) كتاب مزاح النبي للزبير بن بكار (١١) كتاب المبدأ
والمبعث والمغازي والوفاة والسقيفة والردة لأبان بن عثمان بن يحيى بن
زكري اللؤلؤي الاحمر البجلي (١).

رواية ياقوت :

وقد ذكر ياقوت الحموي كتباً أخرى عن حياة الرسول هي (١)
كتاب تفسير أسماء النبي وكتاب سيرة النبي لأحمد بن فارس اللغوي (٢)
كتاب مغازي النبي وكتاب بنات النبي وأزواجه لأحمد بن عبدالله الرقي (٣)
كتاب اخبار النبي ومغازيه وسراياه لإسماعيل بن مجمع الاخباري (٤) كتاب
المغازي لعلي بن ابراهيم القمي (٢).

رواية السخاوي :

ويروي السخاوي ان ممن انف في السيرة ابن حيان وابن فارس وابن
حزم وأبو أحمد الديماطي وعبدالفني النابلسي والقطب الحلبي وأبو عبدالله
الذهبي وأبو الفتح ابن سيد الناس الذي الف عيون الاثر وكتب عليه
البرهان الحلبي تعليقاً في مجلدين سماه نور النبراس وللعلاء علي بن محمد
بن ابراهيم البغدادي ايضاً وكذلك الظهير علي بن محمود الكازروني ثم
البغدادي والمنجب الطبري والقاضي عز الدين بن جماعة والشمس البرمادي
وكذلك للعلاء علي بن عثمان التركماني الحنفي وأبي امامة بن النقاش
والشمس بن ناصر الدين والمقريري (وقد طبع الجزء الاول من كتابه

(١) لقد ذكرت هذه الكتب في الفهرست في الصفحات التالية بالتتابع :

(١) ص ١٣٦ (٢) ص ١٤٧ (٣) ص ١٥٩ ، ٣١٨ (٤) ص ١٥٣ (٥) ص
٢٨٢ (٦) ص ٣١٦ (٧) ص ٣٢٣ (٨) ص ٣١٨ (٩) ص ١٤٥ (١٠)
ص ١٦١ .

(٢) لقد ذكرت هذه الكتب في معجم الادباء في الصفحات التالية

بالتتابع : (١) ج ٤ ص ٨٤ (٢) ج ٤ ص ١٣٥ (٣) ج ٧ ص ٤٥ (٤) ج
١٢ ص ٢١٥ .

الامتناع) وابن درباس الماراني وكتابه الفوائد النيرة في جوامع السيرة
والابشيطي . كما وابن المرحل والجماعيلي الحنبلي .

وقد ذكر السخاوي أيضاً أسماء عدد ممن نظموا السيرة أو ألفوا في
دلائل النبوة والشمال النبوية والاخلاق النبوية والهدى^(١) .

رواية حاجي خليفة :

وقد روى حاجي خليفة أسماء عدد من الكتب المؤلفة في شرح سيرة
ابن هشام منها الروض الأنف للسهيلي (المتوفى سنة ٥٨١) وكشف اللثام
في شرح سيرة ابن هشام لبدر الدين محمود بن أحمد العيني الحنفي
(المتوفى سنة ٨٥٥) كما نظمها كل من أبي نصر الخضراوي القصري
(المتوفى سنة ٦٦٣) وهبة العزيز الديريني (المتوفى سنة ٦٩٧) وأبي اسحق
الانصاري التلمساني وفتح الدين ابن الديماطي (المتوفى سنة ٧٠٥)
والكازروني (المتوفى سنة ٦٩٤) والشامي الذي يقول عنه ان كتابه أوسع
كتب السيرة ؛ كما ذكر من مؤلفي السيرة الحافظ مغلطاي ولخصها ابن
قطلوبغا والحافظ عبدالمؤمن الديماطي (المتوفى سنة ٧٠٥) والخلاطي وابن
أبي طي (المتوفى سنة ٦٣٠) وابن جماعة الكناني (المتوفى سنة ٧٦٦)^(٢) .

ومنذ القرن الثالث بدأت تظهر المدونات التاريخية التي يشمل بحثها
التاريخ العام وإن كانت تعطي بعض التفصيل ولعل أهم هذه المدونات الاولى
هي تاريخ اليعقوبي ، ومروج الذهب للمسعودي ، وتاريخ الامم والملوك
لمحمد بن جرير الطبري الذي يحتل مكانة خاصة نظراً لانه أورد في كتابه
مقتطفات من معظم المؤلفين القدماء الذين أوردنا أسماءهم في صدر هذا
الفصل ، ووضعها بحسب ترتيبها الزمني مع بعضها بحيث يمكن مقارنتها .
وقد اعتمد على الطبري معظم المؤلفين المتأخرين أمثال ابن الاثير وابن كثير
وابن خلدون والذهبي .

(١) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٨٧ - ٩٢ .

(٢) كشف الظنون : ج ١ ص ١٠١٢ - ١٠١٣ .

كتب البلدان :

وفي الكتب الجغرافية بعض المعلومات عن الاماكن التي لها علاقة بالسيرة وكثيراً ما تورد أخباراً هامة عن حياة الرسول وأعماله وأهم هذه الكتب هي كتاب مكة وأخبارها وجبالها وأوديتها للزرقي ، ومكة وأخبارها في الجاهلية والاسلام للفاكهي ، وكلاهما مطبوعان ، وهناك كتب أشار اليها ابن النديم ولكنها مفقودة ألفها كل من أبي عبيدة والواقدي والمدائني وابن شبه وابن مخراق والبلخي وأبي اسحق العطار . كما ألف عن المدينة عدد من الكتاب منهم الزبير بن بكار وابن شبه والمدائني وابن زباله وعبيدالله بن أبي سعيد الوراق^(١) . ولكن لم يطبع إلا كتاب وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى الذي أورد فيه مؤلفه السهمودي معلومات واسعة قيمة مستمدة من المؤلفين الاول عن المركز الثاني للرسول .

إن أغلب الكتب التاريخية التي أوردنا أسماءها مفقود أو غير مطبوع ، وهي تعتمد على كتاب سيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبري ، وطبقات ابن سعد التي شملت كتب المؤرخين الاول ؛ وهي ولاشك أقل تفصيلاً من المؤلفات المتأخرة ، ولكن يمكن القول بأنها أدق نظراً لقدمها .

أبحاث المستشرقين :

وقد تناول المستشرقون الغربيون حياة الرسول فيما تناولوا من الأبحاث عن التاريخ الاسلامي . ولا شك ان التعصب والتحامل كانا يطفيان على كتابات المستشرقين القدامى ، نظراً لتأثرهم بروح التعصب الديني الذي كان مسيطرأ ومتبلوراً بتأثير الحروب الصليبية ، ونظراً لضعف معرفتهم

(١) لقد ذكرت هذه الكتب في الفهرست في الصفحات التالية بالتتابع : ٨٠ ، ١٤٤ ، ١٦٣ ، ١٥١ ، ١٦٥ ، ١٩٩ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٦٨ .

باللغة العربية وقلة المصادر المتوفرة لديهم • غير انه لم يخل الغرب منذ أوائل العصور الحديثة من مفكرين معتدلين ، امتدحوا الاسلام^(١) •

ولكن منذ القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بدراسة المخطوطات العربية وطبعها ؛ وأخذ المستشرقون يدرسون تاريخ الشرق لذاته ، منبعين الطريقة العلمية التي كانت قد قطعت شوطاً كبيراً في التقدم في الغرب ، كما ان كثيراً منهم كانت لهم عن التاريخ نظرة جديدة ، فاهتموا بدراسة نواح من حياة الرسول يهتم لها المشاركة • ومع ان فريقاً منهم لم يتقن كل ذلك ؛ الا ان عدداً غير قليل كان يتميز بسعة الاطلاع وبعد النظر وعمق التفكير مما ساعدهم على انتاج مباحث تستثير التفكير والتقدير ، رغم انه لا يمكن القول بأن احكامهم نهائية • ولعل من أبرز هؤلاء الذين كتبوا عن حياة الرسول في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هم وليم موير ، وشبرنجر ، وجرمة وكايتاني الذي اتبع طريقة الحوليات فكان يورد كافة الروايات المعروفة عن كل حادثة ، ويتلوها بايراد آراء كافة من بحث فيها من المستشرقين ، ثم يحللها ويستخلص منها ما يراه • وبذلك كان كتابه من أوسع الكتب وأشملها ، وإن لم تكن تفاصيل أبحاثه نهائية أو متفقاً عليها •

وقد ظهر بعد الحرب العالمية الاولى عدد من الابحاث عن الرسول وحياته تتميز بالاعتدال وبحسن التقدير للنواحي الروحية بالاستفادة من القرآن ؛ ومن أهمها ابحاث بوهل التي لخصها في مقاله عن الرسول والقرآن في دائرة المعارف الاسلامية ، وتور اندريه في كتابه (محمد : الرجل وايمانه) والذي يعتبر من أرزن ما كتبه المستشرقون ، وكذلك بيل الذي تناول في كتابه مقدمة للقرآن ، تطور كثير من الافكار الاسلامية كما تتجلى من القرآن • أخيراً موتجمري وات الذي لخص في كتابه (محمد في مكة) كثيراً من مباحث المستشرقين مع اضافات قيمة • وقد استفدنا من هذه الكتب الاخيرة فائدة كبرى •

(١) أنظر عنهم تور اندريه (محمد ص ٢٤٣ - ٢٤٧) (بالانكليزية) •

الابحاث الحديثة :

أما في الشرق ، فقد بدأ الاهتمام بدراسة السيرة النبوية وأعمال الرسول كجزء من النهضة الفكرية الحديثة . ولعل أبرز هؤلاء الكتاب المحدثين هو محمد حسين هيكل الذي بدأ بترجمة كتاب (محمد) لدر منجهيم بأسلوب طلي جذاب ، ونشر هذه الترجمة بالتتابع في الملحق الادبي لجريدة السياسة ؛ فلما رأى اقبال الناس عليها تصرف كثيراً في الترجمة ، ثم طبعها بكتاب لاقى اقبالا هائلا لما في اسلوبه من سلاسة ، ولما في بعض ابحاثه من محاولة للتفكير . وقد أثار هذا النجاح الحماس في عدد من المؤلفين ، أمثال طه حسين والعقاد والغمراوي في الكتابة عن حياة الرسول .

كما ان الحركات الانتعاشية في العالم الاسلامي دفعت بعض الباحثين إلى دراسة أعمال الرسول باعتبارها المثل الاعلى الذي نستمد منه القبس ، ومع تنوع مواضعهم وطرافة عرضهم ، إلا ان أغلب ابحاثهم هي من نوع الدفاع لا الوصف ، وهي قلما تشد عما أورده القدامى . والمهم انها لم تفد افادة كافية من دراسة القرآن الكريم ؛ ما عدا محمد عزة دروزة الذي اتخذ القرآن مصدراً أساسياً لدراسة عصر الرسول وحياته ، واستخدمه بمهارة كأساس تكمله الروايات ؛ فطلع بنتائج طريفة جديدة بالدراسة .

ان محاولتي هنا هي في دراسة القرآن كمصدر أساسي ، ثم عرض بعض ما أراه من آراء المستشرقين والمحدثين ، واستخلاص صورة لتطور حياة الرسول والعقائد الاسلامية في العهد المكي . أما العهد المدني فسنبحثه في الجزء الثاني .

الفصل السادس عشر

أجداد الرسول وحياته قبل البعثة

قصي :

ولد الرسول ونشأ في مكة ، متحدرًا من أعرق عشائرها نسباً ، وأوسطها مكاناً . ونقصي مكانة خاصة بين أجداد الرسول ، فهو الذي استطاع أن ينتزع إدارة مكة من خزاعة ويجعلها لقريش التي توحدت بعد أن كانت متفرقة في كنانة . وتروي المصادر العربية أنه نشأ وشب عند اخوانه بني قضاة^(١) ، ثم جاء مكة وتزوج من حبي بنت خليل الخزاعي الذي كان سيد مكة ، وقد تمكن بذلك وبمساعدة قضاة من انتزاع سيادة مكة من أيدي خزاعة^(٢) (فولاي قصي البيت وامر مكة وجمع قومه من منازلهم الى مكة وقريش اذ ذاك حلول وصرم وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة ، إلا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه وذلك انه كان يراه دينياً في نفسه لا ينبغي تغييره فأقر آل صفوان وعدوان والنساء ومرة بن عوف على ما كانوا عليه حتى جاء الاسلام فهدم الله به ذلك كله فكان قصي أول بني كعب بن لؤي اصاب ملكا أطاع له به قومه فكانت اليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعاً بين قومه فانزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي اصبحوا عليها ، ويزعم الناس ان قريشا هابوا قطع شجر الحرم في منازلهم فقطعها قصي بيده وأعوانه ؛ فسمته قريش مجعماً لما جمع من أمرها وتيمنت بأمره فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش ، وما يتشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم الا في داره ، يعقده لهم بعض

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٨١ - ١٨٢ . الأزرقى : ج ١ ص ٥٧ -

٥٨ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٣٦ - ٧ .

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٨٢ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٣٢ .

المسعودي مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٨ . ويقول ابن قتيبة ان البيزنطيين ساعدوه (المعارف ص ٣١٣) ولعله يقصد بذلك الفساسنة .

ولده ، وما تدرع جارية اذا بلغت أن تدرع من قريش الا في داره ، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ثم ينطلق بها الى أهلها . فكان أمره في قومه من قريش في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره . واتخذ دار الندوة وجعل بابها الى مسجد الكعبة فيها كانت قريش تقضي أمورها^(١) .

ويتبين من هذا النص ان قصياً أهتم بالامور الادارية والاجتماعية فحاول اعادة تنظيمها بشكل أدى الى تركيز كافة السلطات بيده ، وكانت له من قوة الشخصية ما جعل الناس تدعن له ، أما الشؤون الدينية فقد تركها بيد من كان يتولاها قبله فلم يمس منها ، إلا ما رواه الازرقى من انه نقل اساناً ونائلة من الصفا والمروة ووضعهما على بشر زمزم عند الكعبة^(٢) .

وقد أحدث قصي ايضاً وقود النار بالمزدلفة ، وظلت تلك النار توقد تلك الليلة في الجاهلية وفي الاسلام^(٣) .

لقد أورث قصي ابنه عبدالدار سلطانه فأعطاه دار الندوة كما اعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة^(٤) .

ثم أورث عبدالدار هذه الامور من بعده ابنه عبد مناف ثم صارت من هذا الى عامر بن عبد مناف بن عبدالدار .

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٣٧ . الطبري : ج ٢ ص ١٨٤ (عن ابن اسحق) . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٣٩ . أنظر أيضاً مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٨ .

(٢) الازرقى : ج ٢ ص ٧٠ .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٨٨ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٠ . المحبر : ص ٢٣٦ ، ٣١٩ .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٤١ . الطبري : ج ٢ ص ١٨٤ . ويدعي الازرقى ان قصياً قسم الوظائف بين ابنيه عبدالدار وعبد مناف (أخبار مكة : ج ١ ص ٦٢ ج ٢ ص ٨٧) . وكذلك أبو عبيده الذي يضيف ان هاشماً أراد اللواء والحجابة وان ذلك تم في حياة ابن جدعان (المسعودي : التنبيه والاشراق : ص ١٨٠) والشطر الاخير مختلط بحلف الفضول وحوادثه .

غير ان بني عبد مناف بن قصي نافسوا عامرا على ما كانت له من سلطات وأرادوا انتزاعها منه ، وقد ناصرهم على ذلك بنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة وبنو تيم بن مرة وبنو الحرث بن فهر ؛ أما بنو عبد الدار فلم يستسلموا لأنفسهم ، ووجدوا لهم مؤيدين في بني مخزوم وبني جمح وبني سهم وبني عدي . وهكذا انقسمت قريش الى كتلتين متخاصمتين ، وكونت عشائر كل كتلة حلفاً بينها . ويدعى حلف بني عبد مناف حلف المطيين ، أما حلف بني عبد الدار فيدعى حلف لعقة الدم . ومن سوء الحظ ان المصادر لا تقدم معلومات اخرى عن دوافع المنافسة وعوامل التكتل أو كيفية حدوثه ، بل تكفي بالقول بأن الخلاف سوي بطريقة سلمية بأن تبقى الحجابة والمواء والتدوة بيد بني عبد الدار ، أما السقاية والرفادة فتصبح لبني عبد مناف^(١) .

هاشيم :

لقد كان هاشم بن عبد مناف زعيم المعارضة لعامر بن عبد مناف بن عبد الدار فأخذ بعد الصلح السقاية والرفادة . وتتضح من الاخبار قوة شخصيته ونفوذه فضلاً عن حفره عدة آبار كبر سخلة^(٢) وبئر بذر^(٣) فانه أول من أطعم الثريد المحجاج في مكة^(٤) . وهو أول من سن الرحلتين قريش ، رحلة الشتاء والصيف^(٥) وهو الذي أخذ الايلاف (فأخذ لهم هاشم جبلاً من ملوك الشام والروم وغسان وأخذ لهم عبد شمس جبلاً من النجاشي الأكبر فاختلفوا بذلك السبب الى أرض الحبشة وأخذ لهم

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٤٣ - ٤ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٤ - ٤٥ المحبر : ص ١٦٦ . مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٩ . ابن حزم : جمهرة النسب ص ١٤٩ .
(٢) الازرقى : ج ١ ص ٦٥ .
(٣) الازرقى : ج ١ ص ٦٤ ج ٢ ص ١٧٥ . البكري : معجم ما استعجم ص ٢٣٥ .

(٤) الطبري : ج ٢ ص ١٧٩ . الاشتقاق : ص ٩ .

(٥) الطبري : ج ٢ ص ١٨٠ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٣ .

نوفل جبلا من الاكاسرة فاختلفوا بذلك السبب الى العراق وأرض فارس وأخذ لهم المطلب جبلا^(١)) ويتضح من هذه النصوص ان علاقة هاشم باخوته كانت طيبة ، وان تجارة مكة قد ازدهرت وامتدت الى مختلف الاطراف ولا ريب أن الظروف الدولية قد ساعدت على ذلك إذ كانت العلاقات متوترة بين الفرس والروم فاستغل ذلك سادة مكة وصمموا على الاستفادة من ذلك بالوقوف موقف الحياد وحسن المعاملة مع كافة الدول وكان للنوتر الدولي أثر في ازدهار الطريق الغربي . وقد مات هاشم بغزة^(٢) .

عبدالمطلب :

تزوج هاشم من امرأة يثربية من بني النجار فولدت له شيبه الذي ولد وترعرع في المدينة عند امه ثم عاد الى مكة^(٣) ، وكان أبوه قد توفي وولى من بعده السقاية والرفادة المطلب^(٤) أخو هاشم ، وقد سمى شيبه عبدالمطلب بالنسبة لعمه . ولما توفي المطلب هذا ولي السقاية والرفادة عبدالمطلب وقد قام بحفر بئر زمزم عند الكعبة .

يروى ابن هشام ان قريشا نازعت عبدالمطلب على قيامه وحده بحفر بئر زمزم حتى اضطروا أن يلجأوا الى كاهنة بني سعد لفض النزاع^(٥) ولا ريب انه لا يوجه مبرر قوي لمخاصمة قريش على حفره هذه البئر ، خاصة وان لكل عشيرة في مكة تقريبا بئر أو أكثر^(٦) . ولكن هذا الخبر

-
- (١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٧ ، ١٤٧ . الطبري : ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨١ . المحبر : ص ١٦٢ - ١٦٣ .
(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٨١ .
(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٧٦ - ١٧٧ .
(٤) يقول السكري : « فلما هلك حرب بن أمية ، وكان حرب رئيسا بعد المطلب تفرقت الرياسة والشرف في بني عبد مناف » المحبر : ص ١٦٥ .
(٥) الطبري : ج ٢ ص ١٧٨ - ١٧٩ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٩ . الازرقعي : ج ٢ ص ٣٤ .
(٦) أنظر عن آبار مكة الازرقعي : ج ٢ ص ١٧٢ - ١٨٣ .

يشير الى أن زعامته في بادئ الأمر لم تكن خالية من المنافسات سواء من بعض العشائر أو زعماء قريش • ويروى أيضا أن نوفل بن عبد مناف نافس عبدالمطلب على السقاية في الحصفا فاستنجد عبدالمطلب بأخواله من بني النجار^(١) •

حملة الاحباش :

ولعل أبرز حادث في عهد عبدالمطلب هي غزو الاحباش لمكة وتشتت شمل الحملة ، وتروي المصادر العربية ان سبب الحملة هو ان أبرهة بنى كنيسة في اليمن سماها القليس (يبدو ان اسمه مشتق من Ecclesia أو الكنيسة) وأراد أن تحجه العرب ولكن أحد المكيين استاء من ذلك فجاء الى القليس وتغوط فيه فاغتاض أبرهة وجهاز جيشاً لاحتلال مكة وتدمير الكعبة فيها^(٢) • غير ان هذه القصة هزيلة : فان أبرهة اذا كان قد بنى كنيسة نصرانية في اليمن ليأتها النصارى ، لا يستطيع اجبار المشركين على زيارة الكنيسة النصرانية ، واذا كان قد فعل ذلك فان نطاق أمره ينحصر في اليمن وهي البلاد التي يحكمها ولا يمتد الى غيرها من المناطق ، فمكة اذاً لا تغتاض من انشاء كنيسة نصرانية لان مركزها الديني لا علاقة للنصارى به ، كما انه ليس لأبرهة سلطة عليها فضلاً عن أن هناك عدة بيوت مقدسة^(٣) لم يرد في التاريخ خبر استيائه أهل مكة منها فلماذا تستاء من القليس •

والأرجح ان سبب هذه الحملة هو ما رواه بروكوبيوس من أن البيزنطيين في صراعهم مع الساسانيين استمدوا ملك الحبشة ليعينهم بقوة

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٧٨ - ٩ • نسب قريش : ص ١٩٧ •

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١١٠ • الازرقى : ج ١ ص ٨٢ • سيرة ابن

هشام : ج ١ ص ٤٣ •

(٣) أنظر ص ١٩٩ •

(٤) كتاب الحرب الفارسية I ٢٠ (نقلا عن مقال اسماعيل أدهم في

مجلة الرسالة العدد ٣٤٩ - ١١ مارس سنة ١٩٤٠ •

عسكرية^(١) دون أن يذكر مصيرها • ولعل هذه الحملة التي أشار إليها بروكويوس أي ان ملك الحبشة أشار على أبرهة أن يقود الحملة فتقدم به سالكاً طريق القوافل البري الى سوريا لينضم الى الجيوش البيزنطية ويتقدم معها للمهجوم على الساسانيين • وتشير الكتب العربية الى أن أهل مكة انسحبوا وان عبدالمطلب خرج يفاوض أبرهة لكي لا يمس بعض أباعر يمتلكها • وقد عجب أبرهة كيف ان كبير مكة وسيدها يفاوض على انقاذ ابله دون أن يتطرق الى مكة والسكبة ، باعتبار ان المبيت رباً يحميه ، كما تضع الرواية على لسان عبدالمطلب^(١) ، ولا ريب ان هذه الرواية هزيلة اذ أن زعيماً كعبدالمطلب لا يعقل أن يفاوض هذا الغازي على انقاذ ابله ، بل لابد أن تكون المفاوضة على أمر أكبر وأهم من اموره الخاصة • والمراجع انه كان يفاوض على أمور تؤيد مصالح أهل مكة وانه وقف موقفاً مشرفاً بحيث انه بعد أن فشلت الحملة زادت مكانة عبدالمطلب عند أهل مكة •

لقد كان يرافق هذه الحملة فيل^(٢) وربما فيلة • وكان لاستخدام الفيل أثر في نفوس العرب ، حتى لقد سموا سنة حدوثها عام الفيل ، ولا ريب ان كثيراً من الدول القديمة استخدمت الفيلة في القتال ، ولكن العرب لم يألفوا الفيلة ، لذا كان لاستخدامها وقع كبير في نفوس العرب •

لقد أشار القرآن الى هذه الحملة في سورة الفيل فقال تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل • ألم يجعل كيدهم في تضليل • وأرسل عليهم طيراً أبابيل • ترميهم بحجارة من سجيل • فجعلهم كعصف مأكول ، •

ومن المحتمل ان الطير الابابيل وحجارة السجيل كنايةات عن وباء جارف

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٠ - ٥١ الطبري : في ٢ ص ١١٢

(عن ابن اسحق) ١١٤ (عن الواقدي) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٥٥ •

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١١٣ •

اكسحهم كالجدرى أو غيره • ويقول ابن اسحق انه حدث ان أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام^(١) •

أما عن أهمية هذه الحملة فيروى ابن جريج انه (لما اهلك الله تعالى من اهلك من ابرهة الحبشي صاحب الفيل وسلط عليه الطير الالبابيل عظمت جميع العرب قريشاً وأهل مكة وقالوا أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم فازدادوا من تعظيم الحرم والمشاعر الحرام والشهر الحرام ووقروها ورأوا ان دينهم خير الاديان واحبها الى الله ثم اوجدوا الحمس^(٢) •

عبدالله والرسول :

لقد كان لعبدالمطلب عدة أولاد من اصغرهم سنأ عبدالله الذي تزوج من آمنه بنت وهب وهي من عشيرة زهرة القرشية • وقد توفى عبدالله وترك أرملته وطفلها الوحيد يتيماً • وهناك خلاف في تاريخ وفاته لخضه المسعودي بقوله (توفى على ما روى جعفر بن محمد الطبري بعد شهرين من مولده وقال بعضهم انه توفى قبل أن يولد وهذا غير صحيح لان الاجماع على انه توفى بعد مولده وقال آخرون بعد سنة من مولده^(٣)) (ويؤيد ابن الكلبي والسكري ان عبدالله توفى وعمر النبي ثمانية وعشرون شهراً^(٤)) •

لقد قدر لمحمد بن عبدالله أن يختاره الله للرسالة ويقوم بالدعوة لدين الوجدانية المطلقة ، واستطاع بعد نضال أكثر من عشرين سنة أن ينشره بين العرب في معظم أنحاء جزيرة العرب ثم امتد بعد وفاته فشمّل بلاد الشرق من أواسط آسيا الى جبال البرانيز وامتد أيضا الى الهند والصين

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٥ •

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٩ الأزرقى : ج ١ ص ٥٠ ويروى عن اسحق انه لا يدري هل كان انشاء الحمس قبل الفيل أم بعده (سيرة ابن هشام) ج ١ ص ٢١٦ •

(٣) مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٨٠ •

(٤) رواية ابن الكلبي في : ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٦٢ •

الطبري : ج ٢ ص ١٣٠ • المحبر : ص ٩ •

والملايو وجزر الهند الشرقية وأوسط وغربي أفريقيا ثم صار هذا الذين حضارة وتفكير العالم المتمدن في العصور الوسطى ولا يزال حتى اليوم يلعب دورا هاما في التوجيه الحضاري والفكري والروحي والسياسي لمعتقيه انذين يناهزون الاربعمائة مليون •

لا يشير القرآن الى سنة ولادة الرسول أو عمره عند البعثة أو الهجرة أو الوفاة ، والواقع ان المؤرخين المسلمين مختلفون في تعيين حياته ومن اثابت انه توفي سنة ٦٣٢ ميلادية ولو عرفنا عمره آنذاك لأمكن تقدير سنة ولادته • والواقع ان المؤرخين والرواة اختلفوا في ذلك ، فيروي الطبري ثلاث روايات متباينة احداها عن ابن عباس ، وحماة ، وابن المسيب ، وعروة بن الزبير يذكرون فيها ان الرسول توفي وعمره ثلاث وستون سنة ، ورواية ثانية عن ابن عباس أيضا وعن الحسن البصري بأن عمره خمس وستون سنة ، وعن عروة بن الزبير ان عمره عند وفاته ستون سنة^(١) •

نشأته :

وقد أرضعته حليلة السعدية وهي من قبيلة سعد هذيم^(٢) • ويرى البعض ان أرضاعه كان خاطرا لان هواء البادية أصح^(٣) وليتعلم الفصاحة ولما كان مناخ مكة جاف صحي لا يختلف كثيرا عن مناخ الصحراء فلا يمكن اعتبار العامل الاول صحيحا وربما كان التعليل الثاني هو الاصح اذ من المعروف ان مكة مركز تجاري اتصل أهلها بالبلاد الاخرى وجاءها كثير

(١) الطبري : ج ٣ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ انظر أيضا مروج الذهب :

ج ٢ ص ١٩٠ •

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٢٦ • سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٧٢ •

اليعقوبي : ج ٢ ص ٦ - ٧ وقد أرضعته في الايام الاولى من ولادته ثوبية

مولاة أبي لهب (ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٦٧ • ابن هشام : ج ٣ ص

٤٧ حيث يضيف انها أرضعت الحمزة وأبو سلمة بن عبد الاسد) •

(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٢٧ •

من الاجانب فدخلت في لغة سكانها كثير من الكلمات الاعجمية والواقع ان القرآن قد نزل على لغة سعد هذيم واعجاز هوازن^(١) . وروى عن ابن سعد عن الرسول انه قال أنا من قريش ولساني لسان بني سعد بن بكر^(٢) .

وعندما كان في حوالي السابعة من عمره توفيت امه بالابواء في طريق عودتها من المدينة^(٣) وبذلك أصبح يتيم الأبوين وقد أشار القرآن الى ذلك « الم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى » (الضحى ٦-٨) ولا ريب ان اليتيم كان له تأثير عظيم في نفسه . وفي القرآن آيات كثيرة تحض على حسن معاملة اليتيم وتوعد من يظلمه ويأكل ماله بأشد العقوبات .

وقد توفى جده عبدالمطلب وهو عليه السلام في السابعة أو الثامنة من عمره^(٤) فكفله عمه أبوطالب رغم انه لم يكن غنياً^(٥) وقد ظل أبوطالب يرعاه حتى مات وكان أكبر من يحميه ويذب عنه كما كانت قريش تفاوضه عندما يشتد الخلاف بينهم وبين الرسول فكانت لهذه العلاقة أهمية كبرى في تاريخ الرسول والدعوى الاسلامية في أدوارها الاولى . والواقع ان الاضطهاد اشتد عليه بعد موت أبي طالب كما سنرى فيما بعد .

(١) تفسير الطبري : ج ١ ص ٢٣ . أما عن الكلمات الاعجمية في القرآن فانظر تفسير الطبري : ج ١ ص ٦ - ٩ السيوطي : كتاب الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ١٣٦ - ١٤٢ .

(٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٧١ .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٣١ . اليعقوبي : ج ٢ ص ٧ . ويروي المسعودي ان عمره سبع سنوات (مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٨) ويروي السكري ان عمره ثمان سنوات (الحبر : ص ٩) .

(٤) الطبري : ج ٢ ص ١٣١ ، ١٩٤ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٧٥ . اليعقوبي : ج ٢ ص ١٠ . مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٨١ .

(٥) الطبري : ج ٢ ص ٢١٣ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٦٤ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٨٢ ، ١٠١ .

ولما بلغ الثانية عشرة رافق عمه أبا طالب الى الشام^(١) . وقد رأينا ان للشام علاقات تجارية وثيقة مع الحجاز وقد وصل حتى بصري التي كانت من أهم مراكز التجارة الحجازية في الشام ثم عاد الى مكة . ولا ريب ان صغر سنه وقصر مدة بقاءه لم تتح له دراسة أحوال سوريا .

الفجار وحلف الفضول :

ولما بلغ الرسول حوالي الخامسة عشرة اشترك في حرب الفجار التي نشبت بين قريش ومن معها من كنانة وبين عامر بن صعصعة لان أحد رجال اقبيلة الاخيرة أجار لطيمة للنعمان فغضب من ذلك أحد الكنانيين . واعتدى على اللطيمة في الشهر الحرام مما أدى الى نشوب الحرب بينهما . وناصرت قريش كنانة^(٢) . ولعل الدافع لذلك هو خشية قريش وحليفاتها كنانة أن تخرج من يدها التجارة .

وعلى أثر الفجار حدث حلف الفضول ، وكان سببه الظاهري ان العاص بن وائل السهمي مطل ثمن بضاعة ابتاعها من رجل يمني ، فسمى بمض القرشين لتكوين هذا الحلف ، لنصرة المظلوم : وقد عقد الاجتماع العام له في دار عبدالله بن جدعان واشترك فيه بنو هاشم وبنو المطلب وبنو زهرة وبنو تيم بن مرة وبنو الحارث بن فهر ، وكونوا الحلف لينصفوا المظلوم من الظالم ، وقد حضره الرسول وروي انه قال (لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفا ما احب ان لي به حمر النعم ولو ادعى به في الاسلام لأجبت^(٣)) . ويلاحظ ان قبائل حلف الفضول هم نفس قبائل المطيين ما عدا بني أمية .

-
- (١) يروي الطبري (ج ٢ ص ١٩٥) ، واليعقوبي (ج ٢ ص ١٠) ،
والمسعودي (ج ٢ ص ٢٩٣) ان عمره كان تسع سنوات وهو قليل جدا .
(٢) اليعقوبي : ج ٢ ص ١١ . أما الطبري (ج ٢ ص ٢٠١) ، وابن سعد (ج ١ قسم ١ ص ٨١) والمسعودي (مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٥) فيروون ان عمره كان عشرين سنة . فاذا صح ذلك فلا بد ان عمله لم يقتصر على جمع النبل الذي هو من عمل صفار السن .
(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٤٥ (وهو يضيف ابن اسد بن عبد العزى لهم) . المحبر : ص ١٦٧ نسب قريش : ص ٢٩١ . مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٧٦ .

زواجه بخديجة :

ولما بلغ الخامسة والعشرين عمل في تجارة لخديجة وهي سيدة من بني أسد بن عبد العزى كانت قد تزوجت ابي هالة التميمي فولدت له هنداً ثم تزوجت عتيق بن عائذ المخزومي فولدت له ابنة اسمها هند أيضاً^(١) . وكانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم . وفرضت على الرسول (ص) أن يخرج في مال لها الى الشام تاجراً مع غلام يدعى مسرة فذهب وعاد بربح كبير^(٢) . ويلاحظ ان هذه هي السفرة الثانية الى الشام ، ولم يرد في الاخبار اطلاقاً ذكر لسفرة قام بها الرسول الى أي مكان آخر ، رغم سعة اطلاعه على احوال ولهجات القبائل العربية . كما انه لم يرد ذكر لغير هاتين السفرتين : ومع انه لا يجوز المبالغة في أثر هذه المرحلة نظراً لقصر مدتها ولانشغاله في التجارة ، الا انه لابد وانها تركت في نفسه أثراً قوياً . ويلاحظ ان موقف الرسول بعد البعثة تجاه المسيحية كان معتدلاً كما انه بعد قضائه على مقاومة مكة توجه نحو الشمال كما فعل من بعده الخليفة أبو بكر كما سنتحدث في الجزء الثاني .

لقد تأثرت خديجة بما سمعته عن أماته وعمله فطلبت له وتزوجها^(٣) وقد ولدت له ، ما عدا ابراهيم ، كافة أولاده وهم كلثوم ورقية وزينب وفاطمة والقاسم وعبدالله الذي يروي ابن سعد واليعقوبي انه هو الطيب والظاهر^(٤) . ويروى انه عندما تزوجها النبي كان عمرها اربعين سنة .

(١) المحبر : ص ٧٩ . الطبري : ص ١٧٥ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ . الطبري ج ٢ ص ١٩٧ .

(٣) يزعم بعض الرواة انهم سقوا أباهما خمراً فوافق على الزواج وهو سكران (ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٨٥) . المحبر : ص ٧٩ وهي رواية هزيلة ينكرها الواقدي ويقول ان أباهما مات في حرب الفجار (الطبري ج ٢ ص ١٩٧) .

(٤) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٨٥ ، ج ٣ ص ٢ . اليعقوبي : ص ١٤ . المحبر : ص ٧٩ . ابن حزم : جمهرة النسب ص ١٤ .

ومع ان سن اليأس في البلاد الحارة ، ومنها مكة ، منخفض ، الا انه ليس من المستحيل على سيدة في الاربعين من عمرها أن تنجب ستة أولاد ؛ ولكن الأرجح ان عمرها كان أقل من الاربعين ، كيما يمكن أن تنجب هؤلاء الاولاد بصورة اعتيادية وان كانت هي على أي حال أكبر من الرسول . ومن المألوف في الشرق ان المرء اذا تزوج بسيدة أكبر منه سناً فان الناس تقول عنها انها عجوز أو بقدر امه ، مع انها قد لا تزيد عنه أكثر من سنة أو سنوات قليلة .

لقد كان لخديجة تأثير كبير في حياة الرسول ، فان ثروتها وغناها أمتنا له حاجاته المادية ، فلم يعد الحصول عليها ليشغل وقته كما أمنت له العلماتية والرعاية التي كان يحس بلزومها بسبب يتمه .

ولعل هذا يفسر سبب عدم تزوجه بزوجة اخرى طوال حياتها ، بينما بعد أن توفيت أخذ يقبل على الزواج من عدة نساء كانت كل منهن تتميز بميزة خاصة كما ستحدث في الجزء الثاني .

كان لخديجة أيضا تأثير كبير في تشجيعه وتثيته عندما جاء الوحي أول مرة وظلت تشجعه وتعاونه طيلة حياتها ، والواقع ان حياتها تعطي مثلاً لمكانة المرأة العربية وهي تقدم أروع نموذج لما يجب أن تكون عليه الزوجة الفاضلة .

بناء الكعبة :

ولما بلغ الرسول الخامسة والثلاثين أرادت قريش بناء الكعبة ولما أرادوا وضع الحجر الاسود بمكانه منها اختلفوا فيمن يضعه وقد حكموا الرسول في ذلك فحكم بأن يوضع بثوب يشارك في رفعه رجال من كافة القبائل الى أن اوصلوه مكانه من الكعبة فرفعه الرسول ووضع مكانه^(١) ، وقد كان لحكم الرسول المتزن أثر كبير في نفوس الناس فزادوا من تقديرهم لمواهبه وعدالته .

وتروي المصادر انه كان يقوم بالتجارة في دار السائب بن أبي السائب
الذي كان شريكه في التجارة^(١) .

ان ما ذكرناه من الحوادث هي فقط التي تتردد في كتب السيرة
وانتاريخ الاولى ويتضح منها مدى قلة معلوماتنا عن نشأته وأعماله وأصدقائه
وعلاقاته الاجتماعية والسياسية ونشاطه الفكري واتصالاته والمشاكل التي
واجهته أو اشغلت فكره مما هو ضروري لمعرفة مقدمات الدعوة التي كان
لها الأثر الأكبر في إعادة توجيه الملايين من البشر المتشردين في بلاد واسعة
منذ أن انتصرت الى ما شاء الله .

(١) لقد استفدنا في بحث الوحي وطبيعته من الفصل السادس الذي

الفصل السابع عشر

الوحي^(١)

يتفق الرواة المسلمون على ان الرسول (ص) كان يتحنث في غار حراء •
ويبقى فيه أمدأ ، ولاشك ان الاعتزال للتعبد أمر معروف منذ القديم عند
الشعوب والامم ، وله أهمية كبرى اذ يعطي الانسان مجال الاغراق في
التأمل والتفكير بمعزل عن الشواغل الدنيوية •

وهناك روايتان عن الدوافع التي دفعت الرسول الى التحنث : أولهما
رواية ابن شهاب الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة انها قالت : كان
أول ما بدى به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا الا
جاءت مثل فلق الصبح ، قالت فمكث على ذلك ما شاء الله وحجب اليه الخلوة
فلم يكن شيء أحب اليه منها • وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي
ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى
فجأه الحق وهو في غار حراء^(٢) •

أما الرواية الثانية فهي رواية ابن اسحق عن وهب بن كيسان عن
عبدالله بن الزبير عن عبيدالله بن عمير بن قتادة الليثي حيث يقول : « كان
رسول الله (ص) يجاور في حراء من كل سنة شهراً وكان ذلك مما تحنث
به قريش في الجاهلية ، والحنث التبرر ، وقال أبو طالب : وراق ليرقى في
حراء ونازل • فكان رسول الله (ص) يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم

كتبه توراندره في كتابه « محمد » ، وما كتبه وات في كتابه « محمد في
مكة » ص ٣٩ فما بعد • ومقال بيل عن دعوة الرسول ، في مجلة العالم
الاسلامي العدد ٢٤ سنة ١٩٣٤ (بالانكليزية) •

(٢) البخاري : الكتاب كيف بدى الوحي الباب الاول • كتاب تفسير
القرآن (سورة ٩٦) ، كتاب التعبير عن الرؤيا الباب ١ ، ابن حنبل : ج ٦
ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ، ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٢٩ ، الطبري : ج ٢
ص ٢٠٨ •

من جاءه من المساكين فاذا قضى رسول الله (ص) جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به اذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع الى بيته حتى اذا كان الشهر الذي أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها وذلك في شهر رمضان خرج رسول الله (ص) الى حراء كما كان يخرج لجواره معه أهله حتى اذا كانت الليلة التي أكرمهم الله فيها برسالاته ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله^(١) .

وبين الروایتين اختلافات ظاهرة : فرواية الزهري تبين ان دافع انتحنت هو ذاتي شخصي ، بعد فترة من الرؤيا ؛ وانه كان يتحنت الليالي ذوات العدد والتي لا نعلم عنها شيئا . أما رواية ابن اسحق فتبين ان التعبد هو عادة قرشية قديمة ، وانها تجري في شهر رمضان وانه لم يقم وحده ، بل يرافقه أهله في ذلك . ويمكن أن يحدث المرء بأنه كان يتحنت عدة سنوات .

لا يذكر القرآن سن الرسول في بدء مجيء الوحي ، بل يذكر « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون » (يونس ١٦) ولاشك ان كلمة العمر غير واضحة الحدود ؛ وقد اختلف المؤرخون في سن الرسول عند مجيء الوحي ، فقال ابن المسيب ان عمره ثلاث واربعون سنة ، وقال انس بن مالك وعروة بن الزبير وابن عباس ان عمره عند بدء مجيء الوحي كان اربعين سنة^(٢) . وجدير بالملاحظة ان العرب تعتبر سن الاربعين هو سن اكتمال النضج وقد أشار القرآن الى ذلك « حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب أوزعني أن اشكر نعمتك انني انعمت عليّ وعلى والدي » (الاحقاف ١٥) .

وينص القرآن على انه نزل في رمضان « شهر رمضان الذي انزل فيه

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٥٤ . الطبري : ج ٢ ص ٢٠٦

- ٢٠٧ -

(٢) الطبري : ج ٢ ص ٢٠١ - ٢٠٥ ، ٢٠٩ . أنظر أيضا ابن الاثير :

ج ٢ ص ١٦٠ . ابن خلدون : ج ٣ ص ٦٠ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ١ - ٢ . الذهبي : تاريخ الاسلام : ج ١ ص ٦٩ .

القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، البقرة ١٨٥ • وهناك آية أخرى تنص على نزول آيات في غزوة بدر التي حدثت في رمضان • ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان • (الأنفال ٤١) غير ان سياق الآية لا يستلزم بدء نزول القرآن في اليوم الذي يشبه يوم بدر ، فقد تعني الإشارة الى آيات نزلت يوم وقعة بدر •

يشير القرآن الى يوم نزوله ، فيصفها بانها ليلة القدر واللييلة المباركة « انا انزلناه في ليلة القدر • وما أدراك ما ليلة القدر • ليلة القدر خير من الف شهر • تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر • سلام هي حتى مطلع الفجر » (القدر ١ - ٥) • حم والكتاب المبين انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم امراً من عندنا انا كنا مرسلين • (الدخان ١ - ٥) • ومن الواضح ان هذه الآيات لا تعين بالضبط تاريخ تلك الليلة • كما لا تذكر فيما اذا كان القرآن نزل في هذه الليلة الى السماء الدنيا أم كان بدء نزوله على الرسول ، والواقع ان الرواة اختلفوا في تعيين هذه الليلة فمنهم من قال انها ١٧ أو ١٨ أو ٢٤^(١) ، ومنهم من قال انها ربيع الاول^(٢) ، ومنهم من قال انها ٢٧ رجب^(٣) •

أشار القرآن الى كيفية نزول الوحي بآيات « والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى • ان هو الا وحي يوحى • علمه شديد القوى • ذو مرة فاستوى • وهو بالافق الاعلى • ثم دنى فتدلى • فكان قاب قوسين أو أدنى • فأوحى الى عبده ما أوحى • ما كذب الفؤاد ما رأى • (النجم ١ - ١١) • انه لقول رسول كريم • ذي قوة عند ذي العرش مكين • مطاع ثم أمين • وما صاحبكم بمجنون • ولقد رآه بالافق المبين •

(١) انظر في هذه الروايات الطبري : ج ٢ ص ٢٠١ • ابن الاثير ج ٢ ص ١٦ • ابن كثير ج ٣ ص ٦ •
(٢) انظر : اليعقوبي ج ٢ ص ١٥ • ابن كثير ج ٣ ص ٦ (عن ابن عباس وجابر بن عبدالله) • زيني دخلان ج ١ ص ٩٢ •
(٣) زيني دخلان : ج ١ ص ٩٢ •

وما هو على الغيب بضنين • وما هو بقول شيطان رجيم » (التكوير ١٩ - ٢٥) •
والراجح ان الآيتين تشيران الى رؤية الرسول للملك :

وتروى عدة روايات عن بدء نزول الوحي :-

(١) فيروي ابن سعد عن هشام بن عروة عن عروة ان رسول الله
(ص) قال : يا خديجة اني ارى ضوءاً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن اكون
كاهناً فقالت : ان الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله انك تصدق الحديث
وتؤدي الأمانة وتصل الرحم •

(٢) ويروي عن ابن عباس ما يشبه الرواية الاولى ثم يضيف الى ان
خديجة أتت ورقه بن نوفل فذكرت له ذلك فقال ان يك صادقاً فهذا
الناموس مثل ناموس موسى فان يبعث وأنا حي فسأعززه وانصره وأؤمن به •

(٣) ويروي عن ابن عباس أيضا انه قال (فينما رسول الله (ص)
على ذلك التعب وهو باجساد اذ رأى ملكاً واضعاً احدى رجله على الاخرى
في أفق السماء يصيح يا محمد انا جبريل يا محمد انا جبريل فذعر رسول
الله (ص) من ذلك وجعل يراه كلما رفع رأسه الى السماء فرجع سريعاً الى
خديجة فأخبرها خبره وقال يا خديجة والله ما ابغضت بغضي هذه الاصنام
شيئاً قط ولا الكهان واني لأخشى أن أكون كاهناً • قلت كلا يا ابن عم
لا تقل ذلك فان الله لا يفعل ذلك بك أبداً ، انك لتصل الرحم وتصدق
الحديث وتؤدي الامانة وان خلقك لكريم • ثم انطلقت الى ورقة ابن نوفل
وهي أول مرة أتته فأخبرته ما اخبرها به رسول الله ، فقال ورقة والله ان
ابن عمك لصادق ، وان هذه البدء نبوة ، وانه ليأتيه الناموس الاكبر فمريه
ألا يجعل في نفسه الا خيراً^(١) •

(٥) ويروي الطبري روايتين متشابهتين عن يحيى بن كثير عن أبي

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٢٩ - ١٣٠ • وانظر عن الناموس

ابن هشام ج ٣ ص ٣١٩ •

سلمة انه سأل جابر بن عبدالله عن أول ما نزل من القرآن فقال جابر (لا احديثك الا ما حدثنا النبي (ص) قال جاورت في حراء فلما قضيت جوارى هبطت فاستبطنت الوادي فنوديت فنظرت عن يميني وعن شمالي وخلفي وقدامي فلم أر شيئاً فنظرت فوق رأسي فاذا هو جالس على عرش بين السماء والارض فخشيت منه .. فلقيت خديجة فقلت دثروني وصبوا علي ماء وانزل علي يا ايها المدثر قم فانذر^(١)) .

(٥) ويروي الطبري أيضاً عن الزهري انه قال (فتر الوحي عن رسول الله (ص) فترة فحزن حزناً شديداً جمل يغدو الى رؤوس شاهق الجبال ليردى منها فكلما أوحى بذروة جبل تبدى له جبريل فيقول انك نبي الله فيسكن لذلك جائته وترجع اليه نفسه فكان النبي (ص) يحدث عن ذلك . قال فبينما أنا أمشي يوما اذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء على كرسي بين السماء والارض فجثت منه رعباً فرجعت الى خديجة فقلت زملوني نزل مناه أي دثرناه فانزل الله عز وجل يا ايها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر^(٢) قال الزهري فكان أول شيء انزل عليه اقرأ باسم ربك الذي خلق حتى بلغ ما لم يعلم^(٣)) .

(٦) ويروي ابن اسحق بعد أن ذكر التحنث (حتى اذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالاته ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله فقال رسول الله (ص) فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ فقلت ما اقرأ ففتني حتى ظننت انه الموت ، ثم ارسلني فقال اقرأ ، فقلت ماذا اقرأ ، وما أقول ذلك الا افتدأاً منه أن يعود الي بمثل ما صنع بي قال اقرأ باسم ربك الذي خلق الى قوله علم الانسان ما لم يعلم قال فقرأته قال ثم انتهى ثم انصرف غني وهيب من نومي وكأنما كتب في قلبي كتاباً . قال ولم يكن

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) الطبري : ج ٢ ص ٢٠٩ . البخاري : كتاب التفسير (الآية ٩٦) .

من خلق الله أحد ابغض الي من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن انظر اليهما . قال قلت ان الابدع يعني نفسه لشاعر أو مجنون لا تحدث بها عني قريش أبداً لأعمدن الى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها فلأستريحن ؟ قال فخرجت أريد ذلك حتى اذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول يا محمد انت رسول الله وأنا جبريل قال فرفعت رأسي الى السماء فاذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في افق السماء يقول يا محمد انت رسول وأنا جبريل ، قال فوقفت أنظر اليه وشغلني ذلك عما أردت فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت اصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها الا رأيته كذلك ؛ فما زلت واقفاً ما اتقدم امامي ولا ارجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي حتى بلغوا مكة ورجعوا اليها وأنا واقف في مكاني ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً الى اهلي حتى اتيت خديجة فجلست الى فخذها مضيفاً فقالت يا أبا القاسم اين كنت فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا الي ، قال قلت لها ان الابدع لشاعر أو مجنون ، فقال اعينك بالله من ذلك يا أبا القاسم ما كان الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك وعظم أمانتك وحسن خلقك وصله رحمك وما ذاك يا ابن عم لعلك رأيت شيئاً قال لها نعم ، ثم حدثتها بالذي رأيت ؛ فقالت ابشر يا ابن عم وأثبت فوالذي نفس خديجة بيده اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت الى ورقة ابن نوفل^(١) .

(٧) ويروي الزهري عن عروة عن عائشة انها قالت كان أول ما ابتدء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة كانت تجيء مثل فلق الصبح ثم حجب اليه الخلاء فكان بغار بحراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ثم يرجع الى أهله فيتزود لثلثها حتى فاجأه الحق فاتاه فقال يا محمد انت رسول الله . قال رسول الله (ص) فجتوت لركبتي وانا قائم

ثم زحفت ترجف بوادري ثم دخلت على خديجة فقلت زملوني زملوني حتى ذهب عني الروع ، ثم أتاني فقال يا محمد أنت رسول الله قال فلقد هممت أن اطرح نفسي من حالق جبل فتبدي لي حين هممت بذلك فقال : يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله ، ثم قال اقرأ ، قلت ما اقرأ ، قال فأخذني فمطني ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال اقرأ باسم ربك الذي خلق ؛ فقرأت ؛ فأتيت خديجة فقلت لقد اشفقت على نفسي فأخبرتها خبري •• (ثم كلام يشبه ما جاء في آخر النص السابق ^(١)) •

(٨) ويروي البخاري هذا الحديث برواية مخالفة في بعضها حيث يقول : حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم ، فرجع بها رسول الله (ص) يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد (رض) فقال زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبداً انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ^(٢) •••

ان في هذه الروايات بعض الاختلاف ؛ فرواية ابن اسحق (٦) تنفرد في ان جبريل جاء الرسول وهو نائم ، وهي تناقض ما جاء في القرآن فلا يصح قبولها • ورواية عروة وابن عباس (١ ، ٢) تذكر انه كان يرى رؤيا وأصواتاً غير واضحة ولعلها تمثل الدور الاول حيث بدأ تعالى يمهد ذهن

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ •

(٢) البخاري : كتاب كيف بدى الوحي الباب ١ ، كتاب تعبير الرؤيا

الباب ١ ، كتاب التفسير (سورة ٩٦) • ابن حنبل : ج ٦ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ •

الرسول للوحي ، أما روايتا ابن عباس وابن جابر (٣ ، ٤) فتبينان ان الرسول رأى الملك فارتاع له ودهش وعاد الى داره مضطرباً ثم نزل عليه الوحي بسورة المدثر . ولكن هاتين الروايتين لا تبيان طول الفترة التي مضت بين رؤية الملك ونزول سورة المدثر . أما رواية ابن اسحق والبخاري عن عروة (٦ ، ٨) فتذكران ان سورة اقرأ نزلت عليه ثم رأى الملك الذي أخبره بأنه نبي . أما رواية عروة في الطبري (٧) فتبين ان الملك أخبر الرسول بأنه نبي ثم انزل عليه سورة اقرأ . ومن المرجح ان سورة اقرأ هي التي نزلت أولاً ، فاضطرب لها ولم يتثبت من مرامي نزولها ، فشجعت خديجة ، وثبتة ورقة بن نوفل ، ثم أخبره الملك بأنه نبي وأنزل عليه يا أيها المدثر قم فأنذر وثياك فطهر والرجز فاهجر ، أي ان الوحي طلب منه أن يقوم بالدعوة الى رسالته . على ان رؤية الملك سبقت نزول آية اقرأ ، كما يتضح ذلك من سورة النجم .

لقد وردت كلمة الوحي في عدة آيات من القرآن الكريم : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون » (الانعام ١١٢) « ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم وان أطعموهم انكم لمشركون » (الانعام ١٢١) « فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » (مريم ١٠) « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم » (الشورى ٥١) « ان هو الا وحي يوحى .. فأوحى الى عبده ما أوحى » (النجم ٤ ، ١٠) « وإذ اوحيت الى الحوارين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » (المائدة ١١٤) « اذ يوحى ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب » (الانفال ١٢) « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذني من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون » (النحل ٦٨) « وإذ أوحينا الى امك ما يوحى » (طه ٣٨) « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت

عليه فآلقه في اليم ولا تخافي ولا تحزني » (القصص ٧) « ففصاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها » (السجدة ١٢) « اذا زلزلت الارض زلزالها • واخرجت الارض ابقالها • وقال الانسان ما لها • يومئذ تحدث أخبارها • بأن ربك أوحى لها » (الزلزال ١ - ٥) •

ويتبين من هذه الآيات ان الشياطين والكفار قد توحى ؛ وان الله تعالى يوحي أيضا الى السماء ، والى الارض ، والى الملائكة ، والى النحل ، والى البشر ، فالوحي الى أم موسى ، والى الحواريين ، والى الانبياء •

ومجيء الوحي يفترض وجود اله حي قادر يريد ارسال الوحي ، ويفترض من جهة أخرى وجود انسان قادر على استلام الوحي ، والوحي هو الوسيلة الوحيدة لكلام الله للبشر « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل اليه رسولا » (الشورى ٥١) ؛ وهكذا أوحى الله تعالى الى نوح والنبيين من بعده (النساء ١٦٣ ، المؤمنون ٢٧ ، هود ٣٦) والى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط (النساء ١٦٣) والى موسى (الاعراف ١١٧ ، ١٦٠ يونس ٨٧ طه ١٣ ، ٧٧ الشعراء ٥٢ ، ٦٣) ؛ وأوحى الى الرسول العربي والذين من قبله (انظر النساء ١٦٣ ، الشورى ٣ ، الزمر ٦٥) • وقد أوحى الله تعالى الى الرسول القرآن (يوسف ٣ ، ١٠٩ الشورى ٧ الانعام ١٧ انظر أيضا الكهف ٢٧ العنكبوت ٤٥) ؛ والرسول لا يتبع الا ما يوحي من ربه (انظر الاعراف ٢٠٣ وكذلك الانعام ٥٠ يونس ١٥ ، ١٠٩ الاحزاب ٢ الاحقاف ٩ النجم ٤ الانبياء ٤٥) الا انه تعالى لا يأتي بالوحي بنفسه ، فهو لا يرى عند مجيء الوحي ، وبذلك كان الرسول يعلم عن طريق الوحي بعض علم الله تعالى •

ان الوسيط الذي يأتي بالوحي ذكر في القرآن بأسماء منها الروح الأمين « انه لتنزيل رب العالمين • نزل به الروح الأمين • على قلبك لتكون من المنذرين • بلسان عربي مبين » (الشعراء ١٩٣ - ١٩٥) ومنها الروح

القدس^(١) « قل نزل به روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا »
(النحل ١٠٢) ، ومنها الروح^(٢) « يلقي الروح من أمره على من يشاء
من عباده لينذر يوم التلاق » (غافر ١٥) « وكذلك أوحينا إليك روحاً من
أمرنا » (الشورى ٥٢) ، ومنها جبريل « قل من كان عدواً لجبريل فإنه
نزل به على قلبك بأذن الله » (البقرة ٩٧)^(٣) .

وعند مجيء الوحي تتأثر طبيعة الرسول ، ويحدث له بعض الانفعال
كما روى ذلك عدد من الرواة فقد روى ابن سعد (عن عفان بن مسلم عن
حماد بن سلمة عن قتادة وحמיד عن الحسن عن حطان بن عبدالله الرقاشي
عن عبادة الصامت : ان النبي (ص) كان اذا نزل عليه الوحي كرب له
وتريد وجهه) .

وعن عبيد الله بن موسى العباسي عن اسرائيل عن جابر عن عكرمة انه
قال : كان اذا اوحى الى رسول الله (ص) وقد لذلك ساعة كهيئة السكران .

وعن محمد بن عمر الأسلمي عن أبي بكر بن عبدالله بن أبي سبرة
عن صالح بن محمد أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي اروى الدوسي انه
قال : رأيت الوحي ينزل على النبي وانه على راحلته فترغوا وتقتل يديها
حتى أظن ان ذراعها ينقص فربما بركت وربما قامت مotide يديها حتى
يسري عنه من ثقل الوحي وانه ليتحدر منه مثل الجمار .

(١) لقد ذكر الروح القدس في ثلاث آيات أخرى حيث ارسله الله
ليؤيد عيسى (البقرة ٨٧ ، ٢٥٣ ، المائدة ١١٠) .

(٢) لقد وردت الروح في آيات أخرى فان عيسى كلمة الله القاها الى
مريم وروح منه (النساء ١٧١) . وانه بروح منه يؤيد الذين آمنوا (المجادلة
٢٢) . وان الروح من أمر الله (الاسراء ٨٥) وان الروح والملائكة تنزل على
من يشاء (النحل ٢ ، المعارج ٤) .

(٣) ويروي الطبري عن الشعبي انه « قرن اسرائيل بنبوة الله (ص)
ثلاث سنين يسمعه حسه ولا يرى شخصه ثم كان بعد ذلك جبريل » . غير
ان الواقدي ينكر ان اسرائيل جاء بوحي (الطبري ج ٢ ص ٢٥١) .

وعن حجين بن المثني عن عبدالعزيز بن عبدالله بن ابي سلمة عن عمه انه بلغه ان رسول الله (ص) كان يقول : كان الوحي يأتيني على نحوين : يأتيني به جبريل فيلقيه عليّ كما يلقي الرجل على الرجل فذلك يتمت مني ويأتيني في شيء مثل صوت الجرس حتى يخالط قلبي فذلك الذي لا يتمت مني .

وعن معن بن عيسى عن مالك بن انس عن هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة انها قالت ان الحارث بن هشام قال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله (ص) أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً .

وعن عبيدة بن حميد التيمي - عن ابن موسى بن ابي عائشة عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس انه قال : كان النبي (ص) اذا نزل عليه الوحي يعالج من ذلك شدة قال كان يتلقاه ويحرك شففيه كي لا ينساه فانزل الله عليه لا تحرك به لسانك لتعجل به^(١)

وقد أشار القرآن الى ما ينتاب الرسول من انفعال فقال « لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » (القيامة ١٦ - ١٩) « فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يفضي اليك وحيه وقل ربي زدني علماً » (طه ١١٤) .

ان هذا التأثير والانفعال هو مظهر من مظاهر الاغراق في المشاعر ؛ والواقع ان كثيراً من الشعراء والمفكرين يصيبهم مثل هذا الانفعال عند الاغراق في التفكير ومجيء الهام الشعر ، فكيف بالوحي اذا جاء ؟

ويتبين من الروايات التي أوردناها عن ابن سعد من ان الرسول كان

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٣١ . البخاري كتاب بدء الخلق

عند مجيء الوحي مثل صلصلة الجرس أو كان يلقي عليه القول ، ان الوحي هو سمعي لا بصري ، ويؤيد هذا الآيتان اللتان أوردناهما ، بل ان التنزيل يسمى القرآن من القراءة ، كما وردت كلمة الاقراء « اقرأ باسم ربك الاكرم » (العلق ١) « سنقرؤك فلا تنسى الا ما شاء الله » (الاعلى ٦) •

لقد تحدى القرآن المنكرين لوحي القرآن ، بأن يأتوا بمثله « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » (البقرة ٢٣) « أم يقولون افتراء قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (يونس ٣٨) « أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (هود ١٣) « ام يقولون تقوله بل لا يؤمنون • فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » (الطور ٣٣ - ٣٤) « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (الاسراء ٨٨) •

لقد ادرك المشركون ان القرآن كلام غير عادي ، ولكن عزوه الى الشياطين أو الجن ؟ واتهموا الرسول بالجنون (انظر الاعراف ١٨٤ ، المؤمنون ٧٠ سبأ ٨ ، ٤٦ الحجر ٦ الطور ٢٩ القلم ٢ ، ٥١ التكوين ٢٢) •

واتهموه أيضا بأنه كاهن (انظر الحاقة ٤٢ ، الطور ٢٩) كما اتهموه بأنه شاعر « بل قالوا اضغات احلام بل افتراء بل هو شاعر » (الانبياء ٥) « ويقولون أثنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (الصافات ٣٦) « أم يقولون شاعر تترجص به ريب المنون » (الطور ٣٠ أنظر أيضا الشعراء ٢٢٤) وقد رد على هذه التهمة « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » (يس ٦٩) • وقد رد القرآن أيضا على التهم السابقة بقوة وشدة وأكد على انها آية من مصدر علوي هو الله تعالى ، وان فيها حكمة وانقاذا للعالم •

على ان الملاحظ ان هؤلاء المشركين لم يتهموا الرسول بالفلسف ، فكأنهم وهم كفار ، رأوا ان روح الوحي أقرب الى الشعر والكهانة منها الى

الفلسفة ، فأنهموه بذلك • والواقع ان مصدر الشعر هو الالهام Intuition
أما مصدر الفلسفة فهو العقل •

والواقع ان الباحثين في نظرية المعرفة أدركوا منذ الازمنة القديمة وجود طريقتين للمعرفة المطلقة ، احدهما طريق المنطق والعقل ويتجلى في أوج مظاهره عند الرياضيين ، وأكثر من يتبع هذه الطريقة هم العلماء والمناطق والفلاسفة ، وأشد من يدافع عنها العقليون Rationalists والماديون Materialists الذين بلغ التطرف بعضهم حداً كبيراً فتصوروها الطريقة الوحيدة للمعرفة الصحيحة ، فأنكروا غيرها من وسائل المعرفة •

غير ان هذا التطرف لا ينبغي ان يحملنا على انكار الاهمية الكبرى للطريقة الثانية من المعرفة ، وهي طريقة الالهام التي لا تأتي عن طريق التفكير المادي والتجارب ؛ ولكنها تقودنا الى المعرفة أيضا • فبطريقة الالهام يبدع الشاعر شعره ، والفنان صوره ، والموسيقيار ألحانه ؛ وبالالهام يدرك هؤلاء من الصور والعلاقات بين الامور ما لا يدركه الطبيعيون مهما بلغ ذكاؤهم • ولعل كثيرا من الناس مرت به لحظة أو لحظات من التجلي ، يحس بها في فكرة أو رأي خاطف يمر به كلمح البرق ، ويتجلى فيه حل مشكلة اعضلت عليه ، أو جواب مسألة اغلقت عليه ، أو فكرة رائعة انكشفت له ، ولم يكن ليراها رغم طول ما فكر فيها • هذه هي الطريقة الثانية للمعرفة : هي وسيلة الالهام بالبصيرة Intuition وهي التي بحثها كثير من المفكرين القدماء وكانت من أهم مواضيع الفلسفة الاسلامية ، وساهم المسلمون بقسط وافر في ايضاحها وتبيان أهميتها في كشف أسرار الكون ، وفي علاقتها مع طريق المنطق والفلسفة^(١) ، وهي التي بحثها المحدثون ،

(١) ان ايراد أسماء كافة الكتب والباحثين المسلمين في هذا الموضوع قد يطول جدا ، نكتفي منه بذكر بحث الغزالي في « احياء علوم الدين » و « المنقذ من الضلال والموصل الى ذي العزة والجلال » و « حي بن يقظان » لابن الطفيل و « فصل المقال فيما بين الحكمة والشرعية من اتصال » لابن رشد •

وخاصة برجسون ومؤيدوه • والوحي ولاشك أسمى أنواع الإلهام
لا يقتصر على مجرد منطق العقول الناقص ، بل يخاطب بصائر القلوب ،
وبه يعلم الله تعالى الأسرار الكونية ، ويعطي نظرة شاملة لتفسيرها وتوضيحها
مما لم تصل اليه العلوم الطبيعية •

الفصل الثامن عشر

مبادئ الاسلام الاولى^(١)

الاسلام :

ان الدين الذي دعا الرسول الناس الى اعتناقه يسمى الاسلام « ان الدين عند الله الاسلام » (آل عمران ١٩) « ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » (آل عمران ٨٥) « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » (المائدة ٣) « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » (الانعام ١٢) « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » (الزمر ٢٢ أنظر أيضاً الصف ٧ الحجرات ١٧ التوبة ٧٤) •

ويدعى معتقو هذا الدين مسلمين « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بيأننا مسلمون » (آل عمران ٦٤) « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » (آل عمران ١٠٢) « قل إنما يوحى الي انما الحكم اله واحد فهل أنتم مسلمون » (الانبياء ١٠٨) « وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (النمل ٨١ أنظر أيضاً الروم ٥٣) « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (النحل ٨٩) •

(١) لن يتسع النطاق هنا لاييراد كافة الابحاث عن الاسلام في اللغة العربية ، لكثرتها ، أما في اللغة الانكليزية فاعمق بحث هو كتاب محمد اقبال « اعادة تكوين الفكر الديني الاسلامي » ، وكتاب أمير علي « روح الاسلام » ، وقد بحث بيل في كتابه « مقدمة القرآن » ، وسيل في مقدمته لترجمة القرآن ، كثيراً من المؤسسات الاسلامية التي وردت في الآيات القرآنية •

وان ابراهيم وبنيه ويعقوب ويوسف واسماعيل واسحق والحواريين
ومن آمن بموسى ونوح وأهل الكتاب كل هؤلاء ذكر القرآن الكريم
بأنهم مسلمون » واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا
انك انت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك
وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم • • • • • ومن يرغب عن ملة
ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن
الصالحين • اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين • ووصى بها ابراهيم
بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون •
أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا
نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الالهاً واحداً
ونحن له مسلمون • (البقرة ١٢٧ - ١٣٣) • « رب قد آتيتني
من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السماوات والارض
انت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً والحقني بالصالحين »
(يوسف ١٠١) • فلما احس عيسى منهم الكفر قال من انصاري الى الله
قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد باننا مسلمون • (آل عمران
٥٢) • « واذا أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد
باننا مسلمون • (المائدة ١١١) • « وما تنقم منا [السحرة لفرعون] الا أن
آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين • (الاعراف
١٢٦) • « وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين •
(يونس ٨٤) • « وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا
 وعدوا حتى اذا ادركه الفرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو
اسرائيل وانا من المسلمين • (يونس ٩٠) • « واتل عليهم نبأ نوح اذ قال
لقومه • • • • • فان توليتم فما اسألكم من أجر ان أجري الا على الله وامرت ان
أكون من المسلمين • (يونس ٧١ - ٧٢) • قالت (بلقيس) يا ايها الملأ اني القي
إلى كتاب كريم • انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم • ألا تعلوا
علي وأتوبي مسلمين • (النمل ٢٩ - ٣١) • قال [سليمان] يا أيها

الملا أياكم يأتي بني عرشها قبل أن يأتوني مسلمين » (النمل ٣٨) « فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو واوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » (النمل ٤٢) « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون • واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين » (القصص ٥٣) •

على ان كلمة الاسلام قد تحددت باتباع الدين الذي دعا اليه الرسول وبهذا التحديد يستعمل هذا التعبير حتى اليوم • ولا ريب ان كلمة اسلم واسلام ومسلمون وردت في الآيات المكية غير اننا لا نستطيع أن نحدد بالضبط في أي سنة من البعثة نزلت •

وكلمة الاسلام جذرها الثلاثي سلم بمعنى سلم أو خلص أو لم يصب بأذى أو كسر ومنها كلمة أسلم (وهو الفعل الذي مصدره الاسلام) ومعناها استسلم « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه » (البقرة ١١٢ أنظر أيضا النساء ١٢٥) « فان حاجوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتبعني » (آل عمران ٢٠) « وامرت أن اسلم لرب العالمين » (غافر ٦٦ أنظر أيضا الانعام ٧١) • ولا ريب ان المقصود منها خضوع المرء لله تعالى وانقياده لأوامره وطاعته لأحكامه والاستسلام له وان لا حول ولا قوة الا بالله • غير ان هذا لا يعني الانقياد الأعمى ، كلا بل هو استسلام عن تعقل وتفكير « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن اسلم فاولئك تحروا رشدا » (الجن ١٤) « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » (الشمس ٧ - ١٠) • والحق ان الاسلام ينادي دائماً باستعمال العقل والتبصر والنظر والتفكير والتدبير • وكلها تعابير تردد ورودها في القرآن وخاصة في الدور المكي • ولا ريب ان الاسلام يتطلب الايمان المنبعث من القلب والعقيدة حتى ان كلمة المؤمنين كثيراً ما كانت مرادفة لكلمة المسلمين •

الوحدانية :

• وأساس الاسلام هو الدعوة الى عبادة اله واحد مطلق هو الله تعالى •

لقد كانت عبادة الله معروفة قبل الاسلام • فقد رأينا ان الآيات القرآنية توضح ان المشركين العرب كانوا يعبدون الله ويرون انه خالق كل شيء ، وانه يرزقهم من السماء والارض ويملك السمع والابصار ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويدبر الأمر وانه رب السماوات السبع ورب العرش العظيم • ولكنهم كانوا يشركون به آلهة اخرى يعتقدون بأنها بنات الله وشفعاؤهم عنده ، وهم يكفرون ببعض نعمه فهو اذا اعما ديمر مزه وبعيد عن الوجدانية^(١) •

أما الاسلام فقد جاء بفكرة التوحيد المطلق ، وانكر الشرك وهاجم الآلهة التي يدينون بها من دون الله •

ولاشك ان فكرة التوحيد قديمة وهي موجودة عند بعض الامم القديمة • ولعل أشهر من نادى بها من الاقدمين هو اخناتون الذي دعا الى عبادة اله واحد هو آتون وبذل جهداً لنشر دياناته ولكنه لقي مقاومة شديدة وأخيراً مات من دون أن يستطيع تثبيت أقدام دعوته •

ثم بنو اسرائيل دعاهم النبي موسى الى التوحيد واستطاع أن يجعلهم يدينون به • غير ان بني اسرائيل كانوا يشعرون بان الله ربهم وهو يفضلهم على العالمين ويحميهم وينصرهم وينتقم لهم من اعدائهم ، فكان الله ربهم فقط من دون العالمين ، وهي نظرة ضيقة لا تساعد على نشر التوحيد بين الناس • والواقع ان اليهودية ظلت محصورة بالدرجة الاولى بين بني اسرائيل ولم تنتقها من غيرهم الا القليل • ولعل ذلك راجع الى هذه النظرة الضيقة والتعصب والغرور الذي يضع بني اسرائيل فوق العالمين مما يجعل غيرهم من الشعوب اذا دانوا باليهودية يصبحون أقل من اليهود مرتبة ؛ هذا فضلاً عن القيود الشديدة التي كانت تفرضها الديانة اليهودية على اتباعها من صيام وصلوات واحترام السبت وما الى ذلك •

على ان اليهود قد مهدوا الافكار في الجزيرة العربية الى فكرة الاله الواحد والبعث والحساب والملائكة وغير ذلك^(١) .

كما ان النصارى كانت تدين بها ولكن كثيرا من الفرق المسيحية لم تنزه الله فاعتبرت المسيح هو الله أو ابن الله أو انه انسان في الارض واله في السماء أي انه ذو طبيعتين .

والواقع ان القرآن الكريم أكد في عدد من الآيات ان الدعوة الاسلامية هي تصديق لما جاء في الكتب المقدسة وطلب من المشركين أن يسألوا أهل الذكر في ذلك « ان هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى ، (الاعلى ١٨ - ١٩) » انه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين . وانه لفي زبر الاولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل ، (الشعراء ١٩٢ - ١٩٧) « واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضّرُوهُ قالوا اصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم ، (الاحقاف ٢٩ - ٣٠) » ومن قبله كتاب موسى اماماً ورحمة وهذا الكتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ، (الاحقاف ١٢) « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه . الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب ، (الشورى ١٣) » قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ، (الاسراء ١٠٧ - ١٠٩) « قل أرأيتم ان كان عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ثم ان الله لا يهدي القوم الظالمين » (الاحقاف ١٠) « ويقول الذين كفروا لست

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٣١ . ابن سعد : ج ١ قسم ١

مرسلا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب • والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين • (البقرة ١٤٧) فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين • (يونس ٩٤)

الحنيفية :

وفي القرآن آيات متعددة تشير الى الدين الحنيف الذي هو ملة ابراهيم التي جاء الاسلام لتجديدها « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (البقرة ١٣٥) « قل انني هدايني ربي الى صراط مستقيم • ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (الانعام ١٦١) « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين • ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » (آل عمران ٦٧ - ٦٨) « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (النحل ١٢٣) « ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » (النحل ١٢٠) « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا » (النساء ١٢٥) « قل يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وامرت أن أكون من المؤمنين • وان أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين » (يونس ١٠٤ - ١٠٥) « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور • حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق » (الحج ٣٠ - ٣١) « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله • ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم ٣٠) « اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا » (الانعام ٧٩) « وما امروا الا ليعبدوا

الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (البينة ٥) •

يتبين من هذه الآيات أن الحنيفة هي الدين الصحيح ، وانها ديانة ابراهيم الخليل وانها تتميز عن الديانات الموحدة الاخرى كاليهودية والنصرانية ، وهي تمثل الدين الاصلي الحقيقي النقي المقابل للوثنية أو لديانات أهل الكتاب المشوهة •

وقد وردت الحنيفة ايضا في عدد من الاحاديث النبوية فقد روى ابن حنبل عن يحيى بن سعيد عن هشام عن قتادة عن مطرف عن عياض بن حمار : ان النبي (ص) خطب ذات يوم فقال في خطبته ان ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا : كل مال نحلته عبادي حلال واني خلقت عبادي حنفاء كلهم وانهم اتهم الشياطين فأضلّتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما احللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي •

وروي أيضا عن اسحق بن عيسى عن يحيى بن سليمان عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبي راشد عن التتوخى انه جاء رسول الله •• (قال ممن أنت ؟ فقلت أنا أحد تتوخ ، قال هل لك في الاسلام الحنيفة ملة أبيك ابراهيم ••) وروي أيضا عن سليمان بن أبي داود عن عبد الرحمن عن أبيه (قال لي عروة ان عائشة قالت قال رسول الله (ص) يومئذ اتعلم يهود ان في ديننا فسحة اني ارسلت بحنيفة سمحة) ؛ وعن أبي المغيرة عن معاذ بن رفاعه عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي امامة •• (فقال النبي (ص) اني لم ابعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفة السمحة) • وعن يزيد عن محمد بن اسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس (قيل لرسول الله (ص) أي الاديان أحب الى الله قال الحنيفة السمحة) •

(١) هذه الاحاديث مواضع من المسند بالتتابع ج ٤ ص ١٦٢ ، ج ٣ ص ٤٤٢ ، ج ٦ ص ١١٦ - ٢٢٣ ، ج ٥ ص ٢٦٦ ، ج ١ ص ٢٣٦ •

وقد ورد ذكر الحنيف في بعض الآيات الجاهلية والاسلامية الاولى فقال ذو الرمة يصف الحرباء :

يظل بها الحرباء للشمس مائلاً على الجذل الا انه لا يكبر
اذا حول الظل العشي رأيتُه حنيفا وفي قرن الضحى يتنصر
ويقول ابن بري في شرح ذلك انه اذا حول الظل العشي وذلك عند
ميل الشمس الى جهة المغرب صار الحرباء متوجها للقبلة فهو حنيف ، فاذا
كان في أول النهار فهو متوجه للشرق لان الشمس تكون في جهة المشرق
فيصير متنصراً لان النصارى تتوجه في صلاتها جهة المشرق^(١) .

وقال صخر النقي :

كأن توأله بالملأ نصارى يساقون لاقوا حنيفا
ويقول السكري في شرح هذا البيت يسوق فيها صوت كصوت
النصارى يقول يسوقون في عيد لهم لاقوا حنيفا فاحتفلوا له في هذا العيد ،
والحنيف من غير دينهم فاحتفلوا له وكذلك من لقي من على غير دينه
فاخلط . يقول لا يكاد يبرح مثل هؤلاء النصارى الذين عزفوا^(٢) .

وقال أيمن بن خريم :

وصهباء جرجانية لم يطف بها حنيف ولم تنفر لها ساعة قدر^(٣)
وقال جرير :

وحالفتهم للوم يا آل درهم خلاف النصارى دين من يتحنف^(٤)
وقد جمع ابن منظور آراء كثير من اللغويين في تحديد معنى الحنيف
نقال : (الحنيف المائل من خير الى شر ومن شر الى خير . . .) تحنف
مال الحنيف المسلم الذي يحف عن الاديان أي يميل الى الحق ، وقيل هو
الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة ابراهيم (ص) وقيل هو المخلص

(١) لسان العرب : ج ١٣ ص ٢٠٦ .

(٢) ديوان الهذليين : ج ٢ ص ٧١ - ٧٢ .

(٣) الاغانى : ج ١٦ ص ٤٤ . معجم البلدان : ج ٢ ص ٥١ .

(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ٥٩٥ .

وقيل هو من أسلم من أمر الله فلم يتلو في شيء • وقال أبو عبيدة في قوله عز وجل « بل ملة ابراهيم حنيفا » قال من كان على دين ابراهيم فهو حنيف عند العرب ، وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون نحن حنفاء على دين ابراهيم ، فلما جاء الاسلام سموا المسلم حنيفا ، وقال الاخفش الحنيف المسلم ، وكان في الجاهلية يقال لمن اختن وحج البيت حنيفاً لان العرب لم تمسك بشيء من دين ابراهيم غير الختان وحج البيت ، فكل من اختن وحج قيل له حنيفاً فلما جاء الاسلام تبادت الحنيفية فالحنيف المسلم • وقال الزجاج ومعنى الحنيفية في اللغة الميل ، والمعنى ان ابراهيم حنيف الى دين الله ودين الاسلام ••• الفراء الحنيف من سنته الاختان • وروى الازهري عن الضحاك في قوله عز وجل حنفاء لله غير مشركين به قال حجاجاً ، وكذلك قال السدي ••• وقد قيل ان الحنف الاستقامة •• أبو منصور الحنيفية في الاسلام الميل اليه ••• الجوهرى الحنيف المسلم وقد سمي المستقيم بذلك ، وتحنف الرجل أي عمل عمل الحنيفية ويقال له اختن ويقال اعتزل الاصنام وتعبد •

قال جران العمود :

لما رأي الصبح بادرن ضوءه رسم قطا البطحاء أو هن أقطف
وأدركن اعجازاً من الليل بعدما أقام الصلاة العابد المتحنف

وقال أبو ذؤيب :

أقامت به كمقام الحنيف شهري جمادى وشهري صفر

وقال الزجاج : الحنيف في الجاهلية من (كان يحج آليت ويفتسل من الجنابة ويختن فلما جاء الاسلام كان الحنيف المسلم وقيل له حنيفاً لعدوله عن الشرك)^(١) ويتضح من كلام ابن بري ان الحنيف كان يتوجه الى القبلة في صلاته • ومن كلام صخر الغي وجريير انه يختلف عن النصارى • ومما رواه ابن منظور ان الحنيف هو المتحرف أو المائل وانه يدين بدين ابراهيم ويستقبل القبلة ويختن ويحج البيت ويعتزل الاصنام

ويقتسل من الجنابة •

لقد روت الاخبار أسماء عدد من هؤلاء الحنفاء فيقول ابن اسحق :
 (واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه
 وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل
 سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجياً ثم قال بعضهم لبعض تصادقوا وليكنم
 بعض على بعض ، قالوا أجل وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن
 قصي • • وعبد الله بن جحش بن أسد بن خزيمة ، وكانت أمه أميمة بنت
 عبد المطلب ، وعثمان بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وزيد بن عمرو بن
 نفيل بن عدي بن كعب بن لؤي • فقد قال بعضهم لبعض تعلموا والله ما قومكم
 على شيء • لقد اخطأوا دين أبيهم ابراهيم ما حجر نطيف به ولا يسمع ولا
 يبصر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء ففرقوا
 في البلدان يلتمسون الحنفية دين ابراهيم • فأما ورقة بن نوفل فاستحكم
 في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب •
 وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم
 هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة ،
 فلما قدمها تنصر وفارق الاسلام حتى هلك هناك نصرانيا • وأما عثمان بن
 الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده ، وأما
 يزيد بن عمرو بن نفيل فوقف ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق
 دين قومه فاعتزل الاوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الاوثان
 ونهى عن قتل المؤودة وقال اعبد رب ابراهيم وبادى قومه بعب ما هم فيه ^(١) •
 ويذكر ابن قتيبة في الفصل الذي عنوانه (قصة من كان على دين قبل مبعث
 النبي (ص) هؤلاء ويضيف اليهم أمية بن أبي الصلت وكان أمية قد قرأ
 الكتب ورغب عن عبادة الاوثان وكان يخبر بأن نبياً يبعث قد اطل زمانه ،
 فلما سمع بخروج النبي (ص) كفر حسداً له ولما نشد رسول الله (ص)

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٤ • المحبر : ص ١٧١ -

١٧٢ • وانظر عن زيد بن عمرو بن نفيل وعلاقته بالرسول الاشتقاق :
 ص ٨٤ • ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ٢٧٦ •

شعره آمن لسانه وكفر قلبه وقس بن ساعدة الايادي ، وهو حكيم العرب ، وذكر رسول الله (ص) انه رآه يعظب بمكاذ على جمل أحمر واقتص أبو بكر قصته وأنشد شعره . وأبو قيس صرمة بن أبي أنس وهو من بني النجار ، وكان ترهب ولبس المسوح وفارق الاوثان وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ودخل بتا له فاتخذ مسجدا لا يدخله طامث ولا جنب وقال اعبد رب ابراهيم ، فلما قدم رسول الله (ص) المدينة أسلم وحسن اسلامه ، وهو القائل في رسول الله وخالد بن سنان بن غيث هو من بني عبس بن بغض وروي ان رسول الله (ص) قال ذلك نبي أضاعه قومه وأنت ابنته رسول الله (ص) فسمته يقرأ قل هو الله أحد فقالت كان أبي يقول ذا^(١)) .

يتبين من هذه النصوص التي تتردد في الكتب العربية ان هؤلاء الحنفاء كانوا في الحجاز وانهم مهدوا الافكار لدعوة الرسول . ويظهر ان عددهم كان ملحوظا وربما كان هناك آخرون لم يردنا عنهم شيء ولم يقتصر على الحجاز وحده بل كانوا في اليمامة أيضا على الأقل حيث تقيم قبيلة « حنيفة » وحيث ادعى مسيلمة انه عبدالرحمن وأدعى النبوة ودعا الى عبادة الرحمن^(٢) .

(١) المعارف : ص ٢٧ - ٢٩ . سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٣٠ -

(٢) يقول ابن سعد : انه « بعثت قريش النضر بن الحرث بن علقمة وعقبة بن أبي معيط وغيرهما الى يهود يثرب وقالوا لهم سلوهم عن محمد ، فقدموا المدينة فقالوا . أتيناكم لأمر حدث فينا غلام يقول قولاً عظيماً يزعم انه رسول الرحمن ولا نعرف رحماناً الا رحمان اليمامة » ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٠٨ . انظر أيضا تفسير الطبري ج ١٠ ص ٧٠ ، انظر عن دعوة مسيلمة للرحمن الطبري : ج ٣ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ . البلاذري : فتوح البلدان ص ١١٣ . ويروي الطبري في تفسيره ج ١ ص ٤٤ « عن عطاء يقول كان الرحمن فلما اختزل الرحمن من اسمه كان الرحيم . والذي أراد ان شاء الله عطاء بقوله هذا ان الرحمن كان من أسماء الله التي لا يتسمى بها أحد من خلقه فلما تسمى به الكذاب مسيلمة وهو اختزاله اياه يعني اقتطاعه من أسمائه لنفسه أخبر الله جل ثناؤه ان اسمه الرحمن الرحيم » .

لا تعطينا المصادر معلومات وافية دقيقة واضحة عن دين وعادات هؤلاء الحنفاء • وكلما يمكن استنتاجه من هذه المعلومات القليلة ان عقائدهم هي احتجاج على تعدد الآلهة والشرك وعبادة الاصنام • والطقوس الوثنية وانها تميل الى العزلة والتوحيد وان معتقيها كانوا يقدرون الاديان السماوية ، ولكنهم لم يكونوا يهودا أو نصارى • وان هذه الديانة هي أقرب الى الاسلام ، وهي تؤكد على صلتها بدين ابراهيم أكثر من تأكيدها على عبادة الله ، وليس هناك اشارة الى اعتقادهم بالبعث ، ويظهر انهم كانوا يميلون الى العزلة والتحت^(١) •

والحق اننا لا نعلم كيف كان العرب في الجاهلية يتصورون دين ابراهيم اللهم الا ما رواه ابن هشام وابن السكلي من ان العرب بعد أن دانوا بالشرك بقي فيهم (على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدى البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه^(٢)) •

الصابئة :

وهناك فرقة أخرى هي الصابئة ، ورد ذكرها في القرآن عرضاً في ثلاث آيات (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (البقرة ٦٢) • ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، (المائدة ٦٩) • ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى

(١) لقد بحث بعض المستشرقين في الحنفية : ومنهم بوهل في مقال في دائرة المعارف الاسلامية ، وييل في مجلة العالم الاسلامي العدد ٢٠ سنة ١٩٣٠ ، وفارس وكلدن في مجلة الجمعية الشرقية الفلسطينية العدد ١٩ سنة ١٩٣٩ وكذلك وات في الملحق الثاني من كتابه • محمد في مكة ، •
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٢ • ابن الكلبي الاصنام ص ٦ •

والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد ، (الحج ١٧) •

ويتبين من هذه الآيات ان الصابئة فرقة دينية مستقلة عن غيرها وانها ممن آمن بالله واليوم الآخر • وانها تتميز عن اليهود والنصارى • ومن الواضح انهم لا علاقة لهم بصابئة حران لان هؤلاء كانوا من عباد الاله سين ثم اتحلوا اسم الصابئة في زمن المأمون تخلصاً مما أراد أن يفرضه عليهم من عقوبة^(١) • أما صابئة العراق فهم المندائيون أو المقتسلة وعبادتهم مزيج من بقايا العبادة البابلية القديمة والمسيحية مع احترام خاص ليوحنا المعمدان^(٢) • ولا يوجد دليل على كونهم كانوا في الحجاز •

وكلمة صبا في اللغة العربية تعني مال ، وقد وردت في القرآن بهذا المعنى « والا تصرف غني كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين » (يوسف ٣٣) ، وكانت العرب تطلق كلمة صابئي على من يفارق دين آبائه واجداده ويدخل ديناً جديداً • وقد دعا المشركون الرسول والمسلمين في البداية صابئة ، فيروي ابن هشام ان عمر بن الخطاب لما اسلم نادى جميل بن معمر بأعلى صوته « يا معشر قريش وهم في انديتهم حول باب الكعبة الا أن عمر بن الخطاب قد صبا قال ويقول عمر من خلفه كذب ولكن قد اسلمت وشهدت ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله^(٣) » • ويروي ابن سعد ان الرسول عندما كان يدعو الناس الى الاسلام كان يسير (أبو لهب وراءه يقول لا تطيعوه فانه صابئي كذاب^(٤)) ولما أراد أبو لهب أن يحمي

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٤٤٥ • ويقول المسعودي ان الصابئة هم الحنيفية (التنبيه والاشراف ص ٧٩ ، ١٣٧) •

(٢) خير بحث عن صابئة العراق هو كتاب المسز دراور « المندائيون في العراق » (بالانكليزية) وانظر ايضا كتاب عبدالرزاق الحسني عن الصابئة •

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ قسم ١ ص ٣٧ • الاشتقاق : ص

٧٩ - ٨١ •

(٤) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٤٥ •

الرسول بعد وفاة أبي طالب قال ابن الغيطلة (يا معشر قريش صبا أبو عتبة^(١)) (وروى البخاري في التاريخ وأبو زرعة الدمشقي والبغوي وابن أبي عاصم من طريق الوليد بن عبد الرحمن الجرجسي عن الحارث بن الحارث الغامدي قال : قلت لأبي ونحن بمنى ما هذه الجماعة ؟ قال هؤلاء اجتمعوا على صابيء لهم • قال فتشرفت فاذا برسول الله (ص) يدعو الناس الى توحيد الله وهم يردون عليه^(٢) ، ويروي ابن سعد عن اسحق بن يوسف الازرق عن القاسم بن عثمان البصري عن انس بن مالك : خرج عمر متقلداً السيف فلقه رجل من بني زهره قال أين تعمد يا عمر فقال أريد أن أقتل محمداً قال وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهره وقد قتلت محمداً قال فقال عمر ما أراك الا قد صبوت وتركت دينك الذي انت عليه قال أفلا أدلك على العجب يا عمر ان ختلك واختك قد صبوا وتركوا دينك الذي انت عليه^(٣) •

ومما تقدم نستنتج ان العرب كانت ترى ان الصابئة من الموحيدين ، وانهم وصفوا المسلمين الاول بهذا الوصف لانهم لم يدركوا الفرق بين الصابئة وبين الاسلام في أدواره الاولى ومن قبل أن تتوضح معاملته • على انا لا نعلم تفاصيل هذه النحلة التي كانت تعبد الله وتختلف عن اليهود والنصارى كما يتجلى ذلك من آيات القرآن الكريم • ولم تذكر الكتب اسم أي شخص صابيء •

يتضح من كل ما تقدم ان فكرة اله أكبر كانت موجودة عند القرشيين كما ان فكرة التوحيد كانت موجودة منذ القديم ، وانها كانت عند ظهور الاسلام موجودة عند اليهود والنصارى والاحناف والصابئة • ولاشك ان عقيدة اليهودية والمسيحية في الله تختلف عن عقيدة الاسلام • فاليهودية ترى ان العزيز ابن الله كما ترى ان نعمه وبركاته تقتصر على بني اسرائيل الذين

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٤١ •

(٢) ابن حجر : الاصابة ج ١ ص ٢٧٥ •

(٣) ابن سعد : ج ٣ ص ١٩١ •

هم في رأيهم شعب الله المختار • أما المسيحية فقد كانت فرقاً متعددة بعضها يرى ان المسيح هو الله وبعضها يرى انه ابن الله وبعضها يراه ذا طبيعتين لاهوتية وناسوتية • وقد ناقش القرآن هذه المزايع ورد عليها في الآيات التي نزلت في المدينة وأنكر عليهم عدم التنزيه •

أما العرب فقد كانوا يشركون به آلهة أخرى هم بنات الله في زعمهم •

التوحيد في الاسلام :

أما العقيدة الاسلامية فأساسها ان لا اله الا الله وحده لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وانه تعالى رب العالمين ورب كل شيء ورب السماوات والارض والمشرق والمغرب ، وهو خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير ، وهو الذي يحيى ويميت ويعلم خائفة الاعين وما تخفي الصدور ، وسلطانه واسعة مطلقة يخضع له الكل وينبغي أن يستسلموا له • ولاشك ان الفكرة العامة في الاسلام عن الله تعالى هي العظمة والعدل والخير فهو العادل الذي يحاسب الانسان بالقسطاس المستقيم ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، ولكنه في نفس الوقت رحيم بعباده • ولا ريب ان تكرر كلمة الرحمن الرحيم من شأنها أن تذكر المسلم دائماً برحمة الله وتجعله لا يقنط من روحه وعدله كما يجب أن يكون شكوراً ولا يكفر بنعمه •

والله تعالى موجود في كل مكان فلا ينحصر في مكان دون آخر ويدركه الانسان عن طريق الفطرة والبصيرة بالدرجة الاولى ، كما يمكن أن يدركه عن طريق التفكير في آثاره وأعماله والحق ان الاسلام يتطلب التأمل والتفكير والتبصر والتدبر والنظر • وقد تردد الامر بذلك في القرآن في مواضع كثيرة جدا • فالاسلام لا يفرض العقيدة بالله فرضاً تلقينياً دوكماتيكياً ولا يتطلب من البشر الانقياد الاعمى •

ان هذا التفكير مطلوب من كل شخص ويسكن أن يمارسه أي انسان كان وحيثما كان • فليس في الاسلام طبقة من الكهنوت تكون واسطة بين

الله والناس • ولكن يجدر التأكيد بأن ادراك الله واثبات وجوده لا يتم بالطريقة الرياضية أو المختبرية ، اذ ان الخبرة الدينية قائمة بالدرجة الاولى على البصيرة والشعور الذاتي الباطني •

الملائكة :

ومن المعتقدات الاساسية في الاسلام الملائكة « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة » (البقرة ١٧٧ أنظر أيضا البقرة ٢٨٥) « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » (النساء ١٣٦) •

لقد ورد ذكر الملائكة في القرآن بصيغة المفرد في اربع عشرة آية وبصيغة التثنية مرتين وبصيغة الجمع في اربع وستين آية • وقد ذكرت أسماء بعضهم فورد اسم جبريل في ثلاث آيات (البقرة ٩٧ و ٩٨ التحريم ٤) وميكال مرة واحدة (البقرة ٩٨) وذكر مالك مرة واحدة (الزخرف ٧٠) وملك الموت مرة واحدة (السجدة ١١) أما الآيات الباقية فقد ذكرت فيها الملائكة كاسم جنس •

لقد كان المشركون يعتقدون بالملائكة ويرون انها اناث وانها بنات الله^(١) • وقد انكر الاسلام كون الملائكة بنات الله وانكر عبادتهم لانها تناقض مبدأ البوحداية الاساسي ولكنهم عباد مكرمون وقد خلقوا من قبل أن يخلق آدم ثم انه تعالى علم آدم الاسماء كلها ثم عرضها عليهم (البقرة ٣٠ - ٣١) وقد أمرهم أن يسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر ، كما سنتحدث عنه فيما بعد • والملائكة عباد الرحمن (النساء ١٧٢) يشهدون بأن لا اله الا هو (آل عمران ١٨) وهم يخافونه (الرعد ١٣) ويسجدون له بتواضع ولا يستكبرون (النحل ٤٩) وهم اولو اجنحة مثني وثلاث ورباع (فاطر ١) ويوم القيامة يأتي الله والملك صفا صفا (الفجر ٢٢) وهم

(١) أنظر ص ١٧٣ - ١٧٥ •

يحفون به (الزمر ٧٥) ويحمل عرش الله منهم ثمانية (الحاقة ١٧) وهم يستغفرون لمن في الارض (الشورى ٥) ويصلون على النبي (الاحزاب ٥٦) •

ويصطفي تعالى من الملائكة رسلا الى البشر (الشورى ٥١ الزخرف ٨٠) وهم ينزلون بالروح (النحل ٢) وقد كلمت الملائكة زكريا ومريم (آل عمران ٣٩ مريم ٤٢ و٤٥) • وقد امدَّ الله تعالى المسلمين في بدر بثلاثة آلاف (آل عمران ١٢٤) وفي الخندق بخمسة آلاف (آل عمران ١٢٥) وهو يمد المسلمين بألف من الملائكة مسومين (الانفال ١٩) •

والملائكة تلعن الكفار (البقرة ١٦١ آل عمران ٨٧) وتبسط أيديها عليهم في غمرات الموت (الانعام ٩٣) • وهم يوم القيامة يضربون وجوه الكفار وأدبارهم (الانفال ٥٠ ، محمد ٢٧) •

ابليس :

ومن الملائكة في الاصل ابليس وقد وردت قصته في سبع سور ، كما ورد ذكره في سورتين اخريين • وفي سورة الاعراف والحجر تفصيل لقصته « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين • قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين • قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين • قال انظرني الى يوم يبعثون • قال انك من المنظرين • قال فما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم • ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين • قال اخرج منها مَذءُوماً مدحوراً لمن تبك منهم لآملأن جهنم منكم أجمعين » (الاعراف ١١ - ١٨) • وفي آية أخرى يصف القرآن ابليس بأنه كان من الجن (الكهف ٥٠) •

وهناك آيتان تشيران صراحة الى أن بعض المشركين كانوا يعبدون

ابليس « ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين » (سبأ ٢٠) « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهو لكم عدو بئس للظالمين بدلا » (الكهف ٥٠) • وهنا آية أخرى تشير الى أن لابليس جنوداً « فككبوا فيها هم والغاؤون • وجنود ابليس اجمعون » (الشعراء ٩٤ - ٩٥) •

ولا ريب أن ابليس اسم علم مفرد كان ملكا ولكن كبريائه الذي دفعه الى عدم السجود لآدم مما سبب طرده من الجنة وسمح له تعالى بأن يغوي آدم ويخرجه من الجنة ثم يغوي بني آدم •

الشيطان :

لقد ذكر القرآن أيضا ان الذي أغوى آدم فأخرجه من الجنة هو الشيطان (البقرة ٣٦ ، الاعراف ٢٧ ، طه ١٢٠) مما قد يستنتج منه ان ابليس هو الشيطان • وقد ترددت كلمة الشيطان بصيغة المفرد في سبعين آية مكية ومدنية وبصيغة الجمع بثمانى عشرة آية مكية وكلها بال التعريف الا في ثلاث آيات (الحجر ١٧ ، التكوين ٢٥ ، الزخرف ٣٦) •

والشيطان كفور لربه (الاسراء ٢٧) وعصى للرحمن (مريم ٤٤) وهو الذي أزل آدم فأخرجه من الجنة (البقرة ٣٦ ، الاعراف ٢٧ ، طه ١٢٠) وسبب الخصومة البشرية الاولى بين هابيل وقايل (الاعراف ٢٠) واثّر في الامم الضالة (النحل ٦٣ ، القصص ١٥) •

والشيطان للانسان عدو مبین (الاعراف ٢٢ ، يوسف ٥ ، الاسراء ٥٣ ، القصص ١٥ ، فاطر ٦ ، الزخرف ٦٢) خذول له (الفرقان ٢٩) يعد الناس الغرور (النساء ١٢٠ ، الاسراء ٦٤) ويريد أن يضلهم ضلالا بعيدا (النساء ٦٠) وهو يعد الناس الفقر ويأمرهم بالفحشاء (البقرة ٢٦٨ ، النور ٢١) ويستنزلهم ببعض ما كسبوا (آل عمران ١٥٥) ومن أعماله الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وبها يحاول أن يوقع بين الناس العداوة والبغضاء

(المائدة ٩٠ و ٩١) وهو اسوأ قرين (النساء ٣٨) •

والشياطين أولياء الذين لا يؤمنون (النساء ٧٦ ، الاعراف ٢٧)
وهم الذين يوحون الى أوليائهم ليجادلوا المسلمين (الانعام ١٢١) وينبغي
أن يقاتل أولياؤه (النساء ٧٦) الذين هم في خسران مبین (النساء ١١٩) وقد
أرسل تعالى الشياطين على الكافرين تؤزهم (مريم ٨٣) وقد زين تعالى
السما بمصاييح وجعلها رجوماً للشياطين (الملك ٥) •

والشيطان يقر بالله تعالى ويخافه (ابراهيم ٢٥٧) ولكنه يسخر من
الناس ويحاول أن يضلهم (يوسف ٤٢ ، الحج ٥٢) وهو خصم للمسلمين
(المجادلة ٩) •

ولا تقتصر محاولات الشيطان على البشر بل تمتد حتى الى الانبياء « وما
ارسلنا قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في اميته فينسخ
الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » (الحج ٥١) وهو
يحاول أن ينسى الرسول « واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض
عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد
الذكرى مع القوم الظالمين » (الانعام ٦٨) •

والشياطين تنزل على كل أفك أثيم (الشعراء ٢٢) واما الوحي والقرآن
فهو من الله وما هو بقول شيطان رجيم وللجن شياطين تغويهم •

ومما تقدم يظهر جلياً ان الشيطان هو الذي يلعب الدور الاول في
افساد الناس وغوايتهم واخلالهم وانه مصدر الشرور في العالم وان كان في
قرارة نفسه يخاف الله واذا كانت هناك آية « بل عبدوا الشيطان أكثرهم
لا يعلمون » ففسيرها انهم اخطأوا وعبدوا الشيطان من دون ان يعلموا فانهم
يمبدون الشيطان يدلك على هذا ان القرآن لم يذكر في غير هذه الآية ان
الشيطان من معبوداتهم كما لم يرد عن العرب انهم عبدوا الاهاً هو الشيطان
أو انهم عبدوا اله الشر •

ان استعمال كلمة الشياطين بصيغة الجمع تدل على انها جنس وان

كانت الآيات لا تبين اسماءها ولا عن علاقة الشيطان وهو ابليس ببقية الشياطين .

الجن :

لقد ورد ذكر الجن في القرآن في ثلاثين آية مكية وهي مخلوقة من نار (الحجر ٢٧ ، الرحمن ١٥) ومنهم ابليس الذي هو ملك ايضا (الكهف ٥٠) وان أصلهم الناري وكون ابليس منهم يظهر علاقتهم بالملائكة . غير انهم يختلفون عن الملائكة في امور منها ان منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وانهم كانوا طرائق قدذا (الجن ١١) فمنهم المسلمون الذين تحروا رشداً والقاسطون الذين هم لجهنم خطبا (الجن ١٤ و ١٥) وكان سفهاؤهم يقولون على الله شططاً (الجن ٤) وقد ظنوا ان لن يبعث الله أحداً (الجن ٧) ولكن نفراً منهم سمع القرآن منه (الاحقاف ٢٩ ، الجن ١) مما يدل على معرفتهم باللغة العربية فآمنوا به ولن يشركوا ربهم أحداً (الجن ٢) ولكن فريقاً منهم لم يؤمن وسيحاسبهم الله يوم القيامة ويدخل كثيرا منهم في جهنم ليعذبه فيها على سوء عمله (الاعراف ٣٨ و ١٣٧٩ ، الرحمن ٣٩ ، السجدة ١٣) .

من هذا يتبين انهم وان اتفقوا مع الملائكة في مادة خلقهم وهي النار وفي بعض الخصائص والاحوال الا أن أحوالهم أشد شبهاً بأحوال الانس . ويقترن ذكرهم بالانس في عشر آيات ، فهم ليسوا جميعا بمهتدين وان الرسل تأتيهم (الانعام ١٣٠) وقد استمع بعضهم للنبي وصاروا مسلمين ، وكانت جيوش سليمان منهم ومن الانس (النحل ١٧) وقد أتاه أحدهم بعرش بلقيس ويبدو انهم لا يرون بالعين الانسانية اذ لم يشر القرآن الى ان الانس ترى الجن ولم يذكر انهم سخرُوا لغير سليمان . ولا يعتبر الايمان بهم جزءاً أساسياً من العقيدة الاسلامية .

ولعلمهم اذا مسوا انسانا صار شاذاً أي به جنة (الاعراف ١٨٤ ، المؤمنون ٢٥ و ٧٠ ، سبأ ٨ و ٤٦) وقد اتهم المشركون الرسول بأن به جنة وهو اتهام باطل .

البعث والقيامة :

ومن المبادئ الأساسية في الاسلام فكرة البعث والقيامة فان الله تعالى خالق كل شيء والقادر على كل شيء سوف يعيد الخلق كما انشأ أول مرة وينشر الناس من القبور ويبعثهم الى الحياة • وقد سمي هذا اليوم في القرآن بعدة أسماء منها يوم الآخرة (وقد وردت في مائة وعشر آيات) ويوم الآخر (في ستة وعشرين آية كلها تقريباً مدنية) ويوم القيامة (في سبعين آية) والحشر (في ثلاثين آية) ويوم البعث (في ثلاث آيات عدا مشتقات هذه الكلمة) ويوم الدين (في سبع آيات) ويوم الفصل (في ست آيات) ويوم الحساب (في اربع آيات) ويوم الجمع ويوم التلاقي ويوم الحسرة ويوم الآزفة والصاخة والقارعة والتغابن (وقد ذكرت كل منها في آية) •

ويأتي يوم القيامة بفترة (الانعام ٣١ و٤٤ و٤٧ ، الاعراف ٩٥ و١٨٧ ، يوسف ١٠٧ ، الانبياء ٤٠ ، الحج ٥٥ ، الشعراء ٢٠٢ ، الزمر ٥٥ ، الزخرف ٦٦ ، محمد ١٨) • وهو يأتي بصيحة (يسن ٢٩ و٤٩ و٥٣ ص ١٥ ق ٤٢) أو بصيحتين • ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون واشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون • (الزمر ٦٨ - ٦٩) وتتم هذه الصيحة بأن ينفخ في الصور (الانعام ٧٣ ، الكهف ٩٩ ، طه ١٠٢ ، المؤمنون ١٠١ ، النحل ٨٧ ، يسن ٥١ ، الزمر ٦٨ ق ٢٠ ، الحاقة ١٣ سبأ ١٨) •

وعندما تقوم القيامة ترج الارض رجا (الواقعة ٥) أما الجبال فتسير سيرا (الطور ١٠ ، التكوير ٣ ، الكهف ٤٧) وتبس بسا (الواقعة ٥) وتسف (المرسلات ١٠) وتذك دكة واحدة (الحاقة ١٤) وتصبح كالعهن (المعارج ٩ ، القارعة ٥) وتسير سرايا (النبا ٢٠) أما البحار ففجر (الانفطار ٣) وتسجد (التكوير ٦) • وأما السماء فتتفطر (الانفطار ١) وتكشط (التكوير ١١)

وتفرج (المرسلات ٩) وتنشق (الحاقة ١٦ ، الانشقاق ١ ، الفرقان ٢٥) وتأتي بدخان ميين (الدخان ١٠) وتمور اموراً (الطور ٩) وتطوى كطي السجل للمكتب (الانباء ١٠٤) • أما النجوم فتطمس (المرسلات ٨) وتنكدر (التكوير ٢) وتبشر القبور (الانفطار ٤ ، العاديات ٩) ويخرج الناس من الاجداث سراعا (يسن ٥١ ، القمر ٧ ، المعارج ٤٣) •

ويأتي تعالى والملك صفا صفا (النبا ٣٨ ، الفجر ٢٢) ويحمل عرشه تعالى يومئذ ثمانية (الحاقة ١٧) •

ويخرج الله لكل انسان «يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» (الاسراء ١٤) ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها (الكهف ١٩ ، انظر أيضاً سبأ ٣) • فاما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاكم اقرأوا كتابيه اني ظننت اني ملاق حسايه • وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسايه (الحاقة ١٩ - ٢٠ و ٢٥ - ٢٦ ، أنظر أيضاً الاسراء ٧١ ، الانشقاق ٧ - ١١) •

جهنم :

ان الذين تزيد شرورهم على حسناتهم ينالون في الآخرة جزاءهم وهم يذهبون الى النار (وقد ذكرت في ١٣٠ آية) أو جهنم (وقد ذكرت في ٧٩ آية) أو سقر (وقد ذكرت في ٣ آيات) • وجهنم لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم (الحجر ٤٤) عليها تسعة عشر من الملائكة (أنظر المدثر ٣٠ - ٣١) وهم غلاظ شدداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (التحريم ٦) وجهنم وقودها الناس والحجارة (البقرة ٢٤ ، التحريم ٦) والذين يدخلونها يقاسون من سموم وحميم • وظل • يحموم • لا بارد ولا كريم (الواقعة ٤٢ - ٤٤) ولهم من فوقهم ظلل من

النار ومن تحتهم ظلل (الزمر ١٦) • وهم يؤخذون النواصي والاقدام (الرحمن ٤١) واذا الاغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون • في الحميم ثم في النار يسجرون (غافر ٧١ - ٧٢ أنظر أيضا ابراهيم ٤٩ ، الانسان ٤) وهذه السلسلة ذراعها سبعون ذراعاً (الحاقة ٣٢) • فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب فوق رؤسهم الحميم • يصهر به ما في بطونهم والجلود • ولهم مقامع من حديد • كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق (الحج ١٩ - ٢٢) وكلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها (النساء ٥٦) • وهم لا يدوقون فيها برداً ولا شراباً • الا حميماً وغساقاً (النبا ٢٤ - ٢٥) ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب عظيم (ابراهيم ١٦-١٧) ولهم شراب من حميم وعذاب أليم (الانعام ٧٠ ، يونس ٤ أنظر أيضا ص ٥٧ الدخان ٤٦ ، الواقعة ٤٢ و ٥٤ ، محمد ١٥) • ان الضالين المكذبين في جهنم لآكلون من شجرة الزقوم • فمائلون منها البطون • فشاربون عليه من الحميم • فشاربون شرب الهميم (الواقعة ٥٢ - ٥٥) وان شجرة الزقوم • طعام الأنيم • كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم (الدخان ٤٣ - ٤٦) • أما شجرة الزقوم فانها شجرة تخرج في أصل الجحيم • طلعتها كأنه رؤوس الشياطين فانهم لآكلون منها فمائلون منها البطون • ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم (الصفات ٦٥ - ٦٨) • فالذين يذهبون الى جهنم ليس لهم طعام الا من ضريع • لا يسمن ولا يغني من جوع (الغاشية ٦ - ٧) •

الجنة :

أما من نقلت موازينهم وأوتوا كتابهم يمينهم لان أعمال الخير عندهم تفوق أعمال الشر فانهم يذهبون الى الجنة (وقد وردت بصيغة المفرد في ٦٩ آية وبصيغة الجمع في ٦٩ آية أيضا منها ١١ مضافة الى عدن ووردت باسم النعيم ٦ مرات و ٨ مرات جنات النعيم و ٣ مرات جنة النعيم ومرتين باسم الفردوس ومرة باسم الكوثر) •

ان الجنة تجري من تحتها الانهار (وقد ذكر ذلك في ٣٧ آية) وفيها
 أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمرة لذة
 المشاريين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من
 ربهم (محمد ١٥) وفي الجنة للذين اتقوا ربهم غرف من فوقها غرف
 مبنية تجري من تحتها الانهار (الزمر ٢٠ ، أنظر أيضا العنكبوت ٥٨ ، سبأ
 ٣٧ ، الفرقان ٧٥) وفيها أيضا فاكهة كثيرة (ص ٥١ ، الزخرف ٧٣ ، أنظر
 أيضا الرسائل ٢ ٤ ، يس ٥٧ ، الدخان ٥٥ ، الطور ٢٢ ، الرحمن ٥٢ ،
 عبس ٣١ ، الواقعة ٢٠) وفيها نخل ورمان (الرحمن ٦٨) • وفيها لحم مما
 يشتهون (الطور ٢٢) ولحم طير (الواقعة ٢١) •

وفيها أيضا سرر مصفوفة (الطور ٢٠) وموضونة (الواقعة ١٥)
 ومرفوعة (الغاشية ١٣) يجلس الناس عليها متقابلين (الحجر ٤٧ ، الصافات
 ٤٤) • كما ان فيها أرائك يتكئون عليها (الكهف ٣١ ، يس ٥٦ ، الانسان
 ١٣ ، المطففين ٢٣ ، الفجر ٣) • وفيها نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة
 (الغاشية ١٥) ويتكئون أيضا على رفرف خضر وعقري حسان (الرحم ٧٦)
 وعلى فرش بطائنها من استبرق (الرحمن ٥٤) • وأهل الجنة يلبسون ثياباً
 خضراً من سندس واستبرق (الكهف ٣١ ، أنظر أيضا الدخان ٥٣ ، الانسان
 ٢١) • وهم يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير
 (فاطر ٣٣ ، الحج ٢٣) • وهم يشربون بكأس (النبأ ٣٤ ، الطور ٢٣) من
 معين (الصافات ٤٥ ، الواقعة ١٨) مزاجها كافورا (الانسان ٥) وزنجبلا
 (الانسان ١٧) •

ويطاف عليهم بصحاف من ذهب (الزخرف ٧١) وآتية من فضة
 (الانسان ١٥) وبأكواب من قوارير (الانسان ١٥) وأباريق (الواقعة ١٨ ،
 أنظر أيضا عن الاكواب الزخرف ٧١ ، الغاشية ١٤ ، الواقعة ١٨) •

ويطوف عليهم ولدان مخلدون (الواقعة ١٧ ، الانسان ١٩) وعلمان
 لهم كأنهم لؤلؤ مكنون (الطور ٢٤) •

وفي الجنة قاصرات الطرف عين (الصفات ٤٨) وأتراب (ص ٥٢) لم يطمئنهن انس قبلهم ولا جان (الرحمن ٥٦) وحوور عين (الدخان ٥٤) كأمثال اللؤلؤ المكنون (الواقعة ٢٢) •

ويدخل المتقون الجنة مع زوجاتهم (الزخرف ٧٠ ، أنظر أيضا يس ٥٦) ويتزوجون بهور عين (الدخان ٥٤ ، الطور ٢٠) (ولابد أن الزواج بالحوور العين بنفس العزاب) •

ان الذين يدخلون الجنة لا يمسه فيها نصب وما هم منها بمخرجين (الحجر ٤٨) وهم لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى (الدخان ٥٦) وهم فيها خالدون ، كما ان أهل النار يبقون فيها خالدين (وقد ذكر خلود أهل الجنة وأهل النار في تسعة وستين آية) • « ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتهم عذاب يوم عظيم » (الحج ٥٥) •

وفي الجنة وجههم يوجد حجاب واعراف عليه رجال ونادى « أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين • الذين يصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون • وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون • واذا صرفت أنظارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين • ونادى أصحاب الاعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون (الاعراف ٤٤ - ٤٨) • ولا ريب ان ظاهر معنى الآية يدل على أن أصحاب الاعراف هم الذين عند الحجاب الذي يحجز بين الجنة وجههم وليسوا من تتعادل حسنتهم وسيئاتهم كما يرى بعض المفسرين فان أهل التعادل لم يشر عنهم القرآن بشيء واضح •

أهمية فكرة البعث :

ولا ريب ان لفكرة البعث أهمية كبرى في النظام الاخلاقي والاجتماعي

للإسلام ، وذلك لان البعث يتبعه يوم الحساب الذي يتقرر فيه مصير الانسان حيث يحصل على السعادة والراحة الأبدية ويخلد في الجنة أو يذهب الى حيث العذاب الأبدي • وحصوله على إحدى هاتين النتيجةين يتوقف على أعماله في الدنيا • ففي يوم الحساب يؤتى كل امرئ كتابه بيمينه ولا يذبر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فأما من ثقلت موازينه بعمل الخير والصالح في الدنيا ينال الجنة ، وأما من فاقت أعماله الشريرة الخير فانه يذهب الى جهنم • ولما كان المسلمون يدخلون الجنة فان هذا سيكون دافعا لهم على عمل الخير في الدنيا وتجنب عمل الشر •

وفكرة الآخرة فوق ذلك تعطي الناس أملاً في الحياة ، اذ أن حياة الآخرة طويلة جداً والحياة الدنيا قصيرة وهي دار لهو فلا يكون قصر العمر مصدراً لليأس •

ثم ان في الحياة الدنيا كثيراً من المصاعب والآلام والاحزان ولولا أمل الآخرة لاستولى اليأس على النفوس • ففكرة الآخرة اذاً تبعث على الامل وتحيي التفاؤل وتحمل الناس على عمل الخير والصالح وتجنب عمل الشر •

المقاييس الاخلاقية :

ومن الميزات الرئيسية للإسلام تأكيده على الاخلاق واعتباره اياها المقياس الأوحد للتفاضل بين الناس • يا أيها الناس انما خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير • (الحجرات ١٣) • والتقوى هنا هي الاخلاق • وأمام هذا المقياس يستوي الناس بصرف النظر عن أصلهم وجنسهم وسنهم ولونهم ، ومثل هذا الفارق الاخلاقي لا يقوم على أساس الوراثة ولا هي وقف على فرد دون آخر كلا بل هي مكتسبة بمقدور كل انسان أن يعملها وهي واقعية وليست خيالية ، كما أنها أساس المجتمع وأساس نوال الجنة والسعادة الأبدية • ومن هنا جاءت مسؤولية الانسان •

والمسؤولية الاخلاقية في الاسلام فردية فالانسان يجزى بما كسبت يده فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (الزلزلة ٧ - ٨) ولا تزر وازرة وزر اخرى (الانعام ١٦٦٤ ، الاسراء ١٥ ، فاطر ١٨ ، الزمر ٧ ، النجم ٣٨) ويوم القيامة لا يسأل والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً بل يكون كل انسان مسؤولاً عن أعماله . والاسلام في هذه النقطه تختلف مثله اختلافاً أساسياً عن البداهة التي تؤكد على المسؤولية الاجتماعية والتي تأخذ الفرد بجريرة غيره وخاصة في الثأر والدية ، كما تختلف مثله عن كثير من المجتمعات التي ترى مقياس التفاضل بالنسب والوراثه ، أو بالثروة والمركز والنفوذ المادي .

على ان الاخلاق الاسلامية ذات رسالة اجتماعية . فالاسلام جاء بكثير من المبادئ التي من شأنها تنظيم العلاقات بين الناس كالصدق في القول والمعاملة والعطف والبر والاحسان ومساعدة الفقراء والمساكين واعطاء الصدقات للمحتاجين والتعاون والتأزر والبر بالوالدين وغير ذلك من الصفات الاخلاقية الحميدة التي من شأنها أن تؤدي الى تنظيم المجتمع وسعادته واستقراره « قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا أولادكم من اطلاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده . وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً الا وسعها واذا قُلْتُمْ فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » (الانعام ١٥١ - ١٥٢ ، أنظر أيضاً الاسراء ٢٣ - ٣٧) . ولاشك ان هذه الآيات التي اجملت المبادئ الاجتماعية الاسلامية هي بعض الآيات الكثيرة التي تدعو الى ذلك .

والاخلاق الاسلامية لا تقتصر على مجرد الاعمال الخارجية بل تؤكد على الاعمال الباطنية وتعير النيات اهتماماً كبيراً « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » (الشعراء ٨٩) « ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى

القلوب » (الحج ٣٢) وقد جاء في الحديث « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى » • ولا ريب ان الله بكل شيء عليم وهو يعلم ما تخفي الصدور ويعلم ما توسوس به نفس الانسان وهو اقرب من جبل الوريد (انظر ق ٦) وهو لا تخفى عليه خافية ويحاسب الناس يوم القيامة على أعمالهم ومقاصدهم ويجزي كل نفس بما كسبت ، ويوم القيامة يؤتى كل امرئ كتابه بيمينه ولا يذر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها • كل هذا يجعل من يدين بالاسلام عليه أن يخلص نيته ويطهر قلبه ويصفي سريره ويهجر النفاق والفساد •

الفصل التاسع عشر

الأدلة القرآنية على تطور الدعوة

آيات الله :

ان القرآن هو الوثيقة الكبرى التي نعرف منها تطورات الدعوة الاسلامية . ومع اننا لا نستطيع أن نعين بضبط ودقة ترتيب نزول كافة الآيات ، كما ان كتب السيرة والحديث لا تقدم معلومات مغنية عن هذا الدور المبكر ، الا اننا يمكن أن نقول بصورة تخمينية غير جازمة ان الآيات الاولى كانت تؤكد على عظمة الله وقدرته وآثار خلقه وأعماله . وتدعو الناس الى أن « ينظرون ويبصرون ويعقلون ويتفكرون » في اثاره في الكون . كما انه بين وفصل آياته في الكون ليريهم عظمته واعماله . ومن هذه الآيات انه « هو الذي انزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (النحل - ١٠ - ١٢) « والله انزل من السماء ماءً فأحيا به الارض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون . وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ان في ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعمرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » (النحل ٦٥ - ٦٩) . « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا اتم بشر تنثرون . ومن آياته أن

خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون • ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألستكم ان في ذلك لآيات للعالمين • ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون • ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون • ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا اتتم تخرجون « (الروم ٢٠ - ٢٥) » وآية لهم الارض الميتة احييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون • وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون • ليأكلوا من ثمره وما عملته ايديهم أفلا يشكرون • سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون • وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون • والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم • والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم • لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون • وآية لهم انا جعلنا ذريتهم في الفلك المشحون • وخلقنا لهم من مثله ما يركبون • وان نشأ نفرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقدون • الا رحمة منا ومناعاً الى حين • (يس ٣٣ - ٤٤) • ان في السموات والارض لآيات للمؤمنين • وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يؤمنون • واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء من رزق فأحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون • (الباقية ٣ - ٥) • وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل والنهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون • وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون • (الرعد ٣ - ٤) • وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً •

(الاسراء ١٢) « خلق السموات والارض بالحق ان في ذلك لآية للمؤمنين »
 (العنكبوت ٤٤ ، الشورى ٢٩ ، الجاثية ١٣) « ومن آياته الليل والنهار
 والشمس والقمر » (فصلت ٣٧ كذلك آل عمران ١٩٠ والنحل ٨٦)
 « ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد
 على ظهره ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » (الشورى ٣٣ انظر ايضاً
 الجاثية ١٢ ، لقمان ٣١) « الله يتوفي الانفس حين موتها والتي لم تمت في
 منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى »
 (الزمر ٤٢) « الذي جعل لكم الارض مهاداً وسلك فيها سبلاً وانزل من
 السماء ماءً فاخرجنا به أزواجاً من نبات شتى • كلوا وارعوا انعامكم • • »
 (طه ٥٣ - ٥٤) « ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » (الزمن ٥٢)
 « أو لم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن الا الله ان في
 ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (النحل ٧٩) •

ولا تقتصر آيات الله على مظاهر خلقه في الكون فحسب بل تشمل
 ايضاً أحداث التاريخ وما أصاب الامم الغابرة • أو لم يهد لهم كم أهلكنا من
 قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ان في ذلك لآيات أفلا يسمعون •
 (السجدة ٢٦) • وهكذا كان لسبأ في مساكنهم آية (سبأ ١٥) ولزكريا
 وعيسى آية (آل عمران ٤١ ، مريم ١٠ ، الانبياء ٩١ ، المؤمنون ٥٠) وفي
 يوسف واخوته آية للسائلين (يوسف ٧) وفي اغواء ابليس للناس (الشعراء
 ١٧٤) وقصة نوح (الشعراء ١٢١ ، المؤمنون ٣٠ ، العنكبوت ١٥) وثمود
 (الشعراء ١٥٨ ، الاعراف ٦٤ و١٠١) ولوط (الشعراء ١٧٤ ، النحل ٥٢ ،
 الحجر ٧٥) وابراهيم (العنكبوت ٢٤) •

الرسول بشر :

وقد اكد القرآن الكريم ان الرسول بشر اوحى اليه كما اوحى الى
 الذين من قبله من الرسل ، وانه لا يستطيع أن يتجاوز في دعوته ما يأمره

تعالى به وما يوحى اليه « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم
إله واحد » (الكهف ١١٠ ، صلت ٦) « قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً
رسولاً » (الاسراء ٩٣) « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل
بي ولا بكم ان اتبع الا ما يوحى الي وما أنا الا نذير » (الاحقاف ٩)
« وما أرسلنا قبلك الا رجالاً نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم
لا تعلمون » (الانبياء ٧ ، يوسف ١٠٩ ، النحل ٤٣) « رفيع الدرجات ذو
العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق »
(غافر ١٥) « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول
لكم اني ملك ان اتبع الا ما يوحى الي قل هل يستوي الاعمى والبصير
أفلا تتفكرون » (الانعام ٥٠) « وقالوا لولا انزل عليه آية من ربه قل انما
الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين » (الغنيوت ٥٠) « واذا بدلنا آية مكان
آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون • قل
نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى للمسلمين »
(النحل ١٠١ - ١٠٢) « انه لقول رسول كريم • وما هو بقول شاعر قليلاً
ما تؤمنون • ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون • تنزيل من رب العالمين •
ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين • ثم لقطعنا منه الوتين •
فما منكم من أحد عنه حاجزين » (الحاقة ٤٠ - ٤٧) « ويقولون لو انزل
عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا اني معكم من المنتظرين »
(يونس ٢٠) « واذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت
بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن ابده من تلقاء نفسي ان اتبع
الا ما يوحى الي اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم • قل لو شاء
الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون »
(يونس ١٥ - ١٦) « أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات
وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين • فان لم يستجيبوا لكم

فاعلموا انما انزل بعلم الله وأن لا اله الا الله فهل أنتم مسلمون » (هود ١٤)
 « أم يقولون افتراء قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله
 ان كنتم صادقين » (يونس ٣٨) « واذا لم تأتكم بآية قالوا لولا اجتبتنا قل
 انما اتبع ما يوحى الي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم
 يؤمنون » (الاعراف ٢٠٣) « ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من
 ربه انما أنت منذر ولكل قوم هاد » (الرعد ٧) •

رسول الله :

ان الله تعالى يرسل رسالاته الى من يصطفيه من الناس ويجعلهم
 رسلاً وأنبياء ليلفوها الى الناس وان محمداً خاتم النبيين وقد اصطفاه الله
 ليلفح رسالته للناس « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره
 على الدين كله » (التوبة ٣٣ ، الفتح ٢٢ ، الصف ٩) • وقد تكرر ورود
 « أرسلناك » في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن ، « وأرسلنا الرسل » اثنين
 واربعين مرة ، « وارسل الرسول » أكثر من مائتي مرة •

وعلى الرسول أن يبلغ هذه الرسالة « يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك
 من ربك » (المائدة ٦٧) « وما على الرسول الا البلاغ المبين » (النور ٥٤ ،
 العنكبوت ١٨ ، التغابن ١٢ ، انظر ايضاً آل عمران ٢٠ ، المائدة ٩٢ و ٩٩ ،
 الرعد ٤٠ النحل ٨٢ ، يس ١٧ ، الشورى ٤٨) •

وهذه الرسالة هي تذكرة « كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره » (المدثر
 ٥٥ ، عبس ٢٢) وعلى الرسول أن يذكر (انظر الغاشية ٢١ ، الاعلى ٩
 الطور ٢٩ ، الذاريات ٥٥ ، ق ٤٥) فهو مذكر « فذكر فانما أنت مذكر »
 (الغاشية ٢١) وقد ارسل ايضاً بشيراً بالجنة ونذيراً بالنار « وما أرسلناك
 الا مبشراً ونذيراً » (الاسراء ١٠٥ ، الفرقان ٥٦) « انا أرسلناك بالحق
 بشيراً ونذيراً (البقرة ١١٩ ، انظر ايضاً المائدة ١٩ ، الاعراف ١٨٨ ، سبأ ،
 فصلت ٤) « كما ارسل شاهداً عليهم » (الاحزاب ٤٥ ، الفتح ٨) « وما نرسل

المرسلين الا مبشرين ومنذرين » (البقرة ٢١٣ ، النساء ١٦٥ ، الانعام ٤٨ ،
الكهف ٤٦) .

تذكير بالامم الاخرى :

وقد ذكرهم بما أحاق بالامم الاخرى (أو لم يسيروا في الارض
فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة
وآثاراً في الارض فاخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، (غافر
٢١ و ٢٧ ، انظر يوسف ١٠٩) . وفي ذكر قصص الامم الاخرى ايضاً
تشجيع للرسول وتقديم الموعظة والذكرى « وكلا نقص عليك من انباء
الرسل ما ثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ،
(هود ١٢٠) « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، (الاعراف ١٧٦) « وتلك
من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا
فاصبر ان العاقبة للمتقين ، (هود ٤٩) .

ان هذه القصص هي أحسن القصص (يوسف ٣) فيها نبأهم بالحق
(الكهف ١٣) وفي قصصهم عبرة لاولى الالباب (يوسف ١١) ولا ريب ان
الانبياء لم يذكروا جميعاً « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص ،
(غافر ٨٧ انظر ايضا النساء ١٦٤) .

تكرر قصة كل نبي في بضعة أماكن من القرآن وتؤكد بأن الانبياء
بشر اختارهم الله لتبليغ رسالاته ، وانهم لاقوا العنت ، فقد كذبهم قومهم
وسخروا منهم وقالوا لهم ما يقوله المشركون للرسول « ما يقال لك الا ما
قد قيل للرسول من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » (فصلت ٤٢)
ولكن الحق ينتصر أخيراً ويتدمر الكافرون المكابرون في هذه الدنيا
وينتصر الانبياء ويعلمو الحق رغم ما يلاقيه من مصاعب .

ولقد تكرر في القرآن ذكر قصة نوح وابراهيم وموسى وعيسى وعاد

وتمود ولوط وسليمان وداود ويونس وأيوب وزكريا كما ذكر اسحاق ويعقوب واسماعيل وذو الكفل والياس واليسع وشعيب ؛ وقصصهم تكرر بصورة خاصة في سورة الاعراف وهود وابراهيم والشعراء والانبياء والحج والفرقان والنحل والعنكبوت والصفات وص وغافر وفصلت وق والذريات والحقا حيث يرد في كل من هذه السور قصة عدد من الانبياء^(١) .

عيب آلهة المشركين :-

ثم نزلت آيات تعيب آلهتهم التي يعبدونها من دون الله وتنتعها بشتى النعوت « ايشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون • ولا يستطيعون لهم نصراً ولا انفسهم ينصرون • وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم ادعوتموهم أم اتم صامتون • إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم قادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين • ألهم ارجل يمشون بها أم لهم ايد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون • ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين • والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون » (الاعراف ١٩١ - ١٩٧) • والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون • أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون • (النحل ٢٠ - ٢١) • قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا • (فاطر ٤ • انظر ايضا الاحقاف ٤ - ٥) • واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً • (الفرقان ٣) • هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون

(١) للدكتور خلف الله رسالة (الفن القصصي في القرآن) وفيها

بحث وتحليل لما ورد في القرآن من قصص •

في ضلال مبين ، (لقمان ١١) « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، (الحج ٧٣) « واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون • لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ، (يسين ٧٤ - ٧٥) « قل من رب السموات والارض قل الله قل افاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لانفسهم نفعاً ولا ضرراً قل هل يستوي الاعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ، (الرعد ١٦) « قل ادعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على اعقابنا بعد اذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران له اصحاب يدعونه الى الهدى آتينا قل ان هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، (الانعام ٧١) « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال ، (الرعد ١٤) « قل أفرايتم ما تدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ، (الزمر ٣٨) « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ، (الاسراء ٥٦) « ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً ، (الفرقان ٥٥) « ويعبدون من دون مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، (يونس ١٨) « ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيئاً ولا يستطيعون ، (النحل ٧٢) « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير • أن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ، (فاطر ١٣) « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيهما من

شرك وما له منهم من ظهير » (سبا ٢٢) « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون » (الزخرف ٨٦) « أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون » (الزمر ٤٣) « والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ان الله هو السميع البصير » (غافر ٢٠) .

« وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » (يونس ٦٦) « ويعبدون من دون الله ما لم ينزل سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير » (الحج ٧١) « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذ بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » (العنكبوت ٤١) « وقل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم » (القصص ٦٤) « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا » (الفرقان ١٨) « ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (النجم ٢٣) .

مهاجمة المشركين :

ولم تقتصر الآيات على تسفيه آلهتهم بل وصفتهم بأوصاف شديدة « انكم وما تعبدون من دون الله حطّب جهنم أنتم لها واردون » (الانبياء ٩٨) « فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة » (المدثر ٤٩ - ٥١) « أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلاً » (الفرقان ٤٤) « انا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي الى الاذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً

فاغشيناهم فهم لا يبصرون • وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم فهم لا يؤمنون » (يسن ٨ - ١٠) • ومن يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ماؤاهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً » (الاسراء ٩٧) • ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون (يونس ٤٢ - ٤٣) • انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين • وما انت بهادي العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (النمل ٨٠ - ٨١) • من يضلل الله فلا هادي له ونذرهم في طغيانهم يعمهون » (الاعراف ١٨٦) • من كفر بالله بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » (النحل ١٠٦) • ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الاولين » (الانعام ٢٥) •

لقد أطلق عليهم المشركون والكافرون والضالون والمجرمون والفاسقون والآثمون وغير ذلك من أوصاف الذم ، ووصف مصيرهم في النار وعذابهم فيها بأوصاف مريعة •

مكائد المشركين :

ويشير القرآن الى المؤامرات والمكائد التي كانوا يقومون بها • أم ابرموا أمراً فانا مبرمون • أم يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون » (الزخرف ٧٩ - ٨٠) • انهم يكيدون كيداً وأكد كيداً فمهل الكافرين امهلهم رويدا » (الطارق ١٥ - ١٨) • أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون » (الطور ٤٢) • يوم لا يغني كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون » (الطور ٤٦) • لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا

هل هذا الا بشر مثلكم » (الانبياء ٣) « نحن أعلم بما يستمعون اليك اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلاً مسحوراً » (الاسراء ٤٣) غير أنه ليست لدينا تفاصيل عن هذه المؤامرات •

تهديد الرسول :

ويظهر ان المشركين قاموا بمحاولات في تهديده واقناعه للعدول عن الدعوة الى الوحدانية فأمره تعالى ان يثبت لها « ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد » (الزمر ٣٦) « قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والارض وهو يطعم ولا يطعم قل اني امرت أن أكون أول من أسلم ولا أكون من المشركين • قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم • من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك هو الفوز المبين • وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير » (الانعام ١٤ - ١٧) « قل أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون • ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين • بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » (الزمر ٦٤ - ٦٦) « ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون • انهم لن يغفوا عنك من الله شيئاً وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين » (الباقية ١٨ - ١٩) « فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم • الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير » (الشورى ١٥) « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تتصرون » (هود ١١٣) « قل اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني اليينيات من ربي وامرت أن أسلم لرب العالمين » (غافر ٦٦) « ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين • وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين • ولا يصدنك عن

آيات الله بعد اذ انزلت اليك وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين • ولا تدع مع الله الهاً آخر لا اله الا هو كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون » (القصص ٨٥ - ٨٨) « فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » (الانسان ٢٤) « لا تجعل مع الله الهاً آخر فتقع مذبذباً مذموراً » (الاسراء ٢٢) « فلا تك في مريّة مما يعبد هؤلاء ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص » (هود ١٠٩) « قل اني امرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين • وامرت أن أكون أول المسلمين • قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم • قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه • قل ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين » (الزمر ١١ - ١٥) « قل انما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا • قل اني لا أملك لكم ضرراً ولا رشدا • قل اني لن يغيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا • الا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يصد الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبداً • قل ان أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً » (الجن ٢٠ - ٢٥) •

« وما ارسلنا قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في امنيه فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم • ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد » (الحج ٥٢ - ٥٣) « واما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم » (فصلت ٣٦) « وان كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا اليك لتفتری علينا غيره واذاً لاتخذوك خليلاً • ولولا أن نبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً • اذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات

ثم لا تجد لك علينا نصيراً ٥ وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافتك الا قليلاً ٥ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لستتنا تحويلاً » (الاسراء ٧٣ - ٧٧) ٥

ويروي ابن اسحق^(١) والواقدي^(٢) ان آية « وان كادوا ليفتنوك » نزلت بعد قصة الغرائق التي تلخص بأنه لما نزلت آية « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى » (النجم ١٥ - ٢١) اضاف الرسول من عنده « تلك الغرائق العلى وان شفاعتهن لترتجى » ففرح القرشيون وسالموا الرسول وسمع المهاجرون المسلمون في الجبشة فعادوا ، ولكن نزلت هذه الآية وآية « وما أرسلنا قبلك من رسول ٥٥٥ » التي ذكرناها فمحت هذه الجملة التي هي من اغواء الشيطان ، وظل الرسول متمسكاً بالمبدأ الاساسي للدعوة وهو الوحدانية ٥ وجدير بالملاحظة ان هذه المعبودات لم تكن في مكة ، وان اللات ومناة لم تكن آلهة قريش المقربة كما ان الجملة المقول اضافتها لا تسق في المعنى مع الآية التي بعدها « ألكم الذكر وله الانثى » ولا يمكن أن تكون بمجموعها مما يرضي المشركين ٥

الصبر :

وقد أمر تعالى الرسول بالصبر والثبات « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك » (طه ١٣٠ ، ق ٣٩) « فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار فهل يهلك الا القوم الفاسقون » (الاحقاف ٣٥) « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داوود ذا الأيد انه أواب » (ص ١٧) « فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » (الانسان ٢٤) « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم » (الطور ٤٨) ٥

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٢٦ ٥

(٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٣٧ ٥

المقاطعة :

كما أمره تعالى بمقاطعتهم نظراً لعنفهم وعدم جدوى المحاولات معهم
 « قل يا أيها الكافرون • لا أعبد ما تعبدون • ولا أنتم عابدون ما أعبد •
 ولا أنا عابد ما عبدتم • ولا أنتم عابدون ما أعبد • لكم دينكم ولي دين »
 (الكافرون ١ - ٦) « قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه »
 (الزمر ١٤) « فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت
 بما أنزل الله من كتاب وامرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم
 أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير » (الشورى ١٥)
 « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في
 حديث غيره وأما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين »
 (الأنعام ٦٨) « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتبعون
 عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً • وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم
 آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث
 غيره انكم إذا مثلهم » (النساء ١٣٩ - ١٣٤٠) « اتبع ما أوحى إليك من ربك
 لا اله الا هو واعرض عن المشركين • ولو شاء الله ما اشركوا وما جعلناك
 عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل » (الأنعام ١٠٦ - ١٠٧) « فتول عنهم
 فما أنت بملوم • وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » (الذاريات ٥٤ - ٥٥)
 « وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا
 برى مما تعملون » (يونس ٤١) « انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق
 فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل »
 (الزمر ٤١) « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ان عليك الا البلاغ »
 (الشورى ٤٨) « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير
 علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبؤهم بما كانوا

يعملون » (الانعام ١٠٨) « فتول عنهم حتى حين • وابصرهم فسوف
يبصرون » (الصافات ١٧٤ - ١٧٥) ويظهر ان الاضطهاد على المسلمين كان
شديدا « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله •
ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » (الزمر ٥٣) •

الفصل العشرون

السابقون الاولون في الاسلام

دعوة اهل مكة :

بعد مجيء الرحي والأمر بتبليغ الرسالة ونزول الآيات الاولى ، آمن بالرسول عدد من أهل بيته والمقربين اليه ، ثم أمره تعالى أن ينذر الناس ويبدأ بعشيرته والمقربين اليه « وانذر عشيرتك الاقربين » (الشعراء ٢١٤) « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » (الشورى ٢٣) ؛ كما أمره أن ينذر قومه « وانه لذكر لك ولقومك » (الزخرف ٤٤) وأن ينذر أهل مكة « لتنذر ام القرى ومن حولها » (الانعام ٩٢ ، الشورى ٧) . وعلى هذا نزل القرآن باللغة العربية وهي لغة أهل مكة والحجاز والجزيرة « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » (ابراهيم ٤) « لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » (الشعراء ١٩٥) .

ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول دعوته بانذار عشيرته الاقربين ، اذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية ، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته . كما ان القيام بالدعوة في مكة لابد أن يكون له أثر خاص ، لما لهذا البلد من مركز ديني خطير ؛ فجلبها الى حضيرة الاسلام لابد وأن يكون له وقع كبير على بقية القبائل . ولا يخفى ان نزول القرآن باللغة العربية يساعد على تفهم الناس له .

على ان هذا لا يعني ان رسالة الاسلام كانت في أدوارها الاولى محدودة بقريش ؛ لان الاسلام كما يتجلى من القرآن اتخذ الدعوة في قريش كخطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية . والواقع ان كثيرا من الآيات المسكية

كانت تنص على ان القرآن « ما هو الا ذكر للعالمين » (هود ١١٤ ، الانعام ٩٠ ، التكويد ٢٧ ، القلم ٥٢) ، الامر الذي يدل على ان فكرة الدعوة العالمية كانت قائمة منذ هذا الوقت المبكر .

علاقاته مع العشائر :

ومما يجدر ذكره ان نظام الزواج في مكة لم يكن مقتصرا على داخل العشيرة بل كان الزواج خارج العشيرة شائعا أيضا ، مما ساعد على ربط الرسول بصلة القرابة مع كافة العشائر . وفي تفسير آية « قل لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى » يروي الطبري عن ابن عباس انه لم يكن بطن من بطون قريش الا وبين رسول الله وبينهم قرابة^(١) .

والبواقع اننا اذا اعتبرنا عشيرته هم من تحدر من عبدالمطلب جده ووهب جد امه : واقتصرنا على ذلك ، وجدنا ان لعشيرته علاقات زواج بكافة عشائر مكة وبكثير من العشائر القاطنة خارجها .

فقد كانت ابتناء رقية وكلثوم عند عتبة وعتيبة ابنا عمه ابي لهب قبل ان يفرق بينهما الاسلام^(٢) ؛ وكانت ابنته فاطمة عند علي ابن عمه ابي طالب كما ان معتب ابن عمه ابي لهب لهم تزوج من فاختة ابنة عمه المقوم ، بعد أن طلقها زوجها الاول مسعود الثقفي ؛ ثم تزوجها أبو سفيان ابن عمه الحارث بعد انفصالها عن معتب . وتزوج ربيعة ابن عمه الحارث من أم الحكم بنت عمه الزبير ؛ وتزوجت اميمة بنت عمه العباس من العباس بن عتبة ابن عمه ابي لهب .

(١) تفسير الطبري : ج ٢٥ ص ١٥ . البخاري : كتاب المناقب ١ .

ابن حنبل ج ١ ص ٢٢٩ ، ٢٨٦ .

(٢) عن زواج بنات الرسول بولدي ابي لهب وابي العاص انظر سيرة

ابن هشام : ج ٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ ، ٣٠٢ نسب قريش ص ٢٢ - ٢٣

الطبري : ج ٢ ص ٢٩٠ ج ١٣ ص ٦٥ المحبر : ص ٥٣ المعارف : ص ٦٢

وعن زواج زينب انظر ايضا ابن حزم جمهرة الانساب ص ١٤ اما عن علاقات

الرسول النسبية فانظر عنها نسب قريش وخاصة ص ١٧ - ٢١ المحبر :

ص ٦٢ - المعارف : ص ٥١ - ٦٢ .

أما علاقته مع بني عبد شمس فلم تكن قليلة ، فقد كانت زينب بنت الرسول زوجة ابن خالتها ابي العاص بن الربيع بن وائل ؛ ورقية زوجة عثمان بن عفان بعد انفصالها من عتبة ؛ وكلثوم تزوجها عثمان أيضا بعد انفصالها عن عتية و وفاة اختها رقية ؛ وعمته ام حكيم بنت عبدالمطلب عند كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ؛ واروى ابنة عمته أم حكيم زوجة عفان بن أبي العاص ، ثم زوجة عقبة بن ابي معيط . كما ان زينب بنت فاطمة بنت عمته اروى تزوجت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس ؛ وتزوجت ابنتها كبشة من عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بعد مسيلمة الكذاب . وتزوجت ام جميل بنت حرب بن امية ابن عبد شمس من عمه أبي لهب . وتزوجت هند بنت أبي سفيان من الحارث بن نوفل بن عمه الحارث بن عبدالمطلب .

فأما علاقته مع بني عبدالدار فوثيقة أيضا فان جدته لأمه هي برة بنت عبدالعزيز بن عثمان بن عبدالدار بن قصي ؛ وعمته أروى خلف عليها بعد عمير ، كلدة بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار ، كما ان فاطمة ابنة عمته أروى تزوجت ارطاة بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار ، وحننة ابنة عمته اروى تزوجها مصعب بن عمير بن عبد مناف بن عبدالدار .

واما مع بني عبد بن قصي فقد كانت عمته اروى (وفي رواية السكري صفية) عند عمير بن وهب بن عبد بن قصي ، كما ان ام جدته هي تخمر بنت عبد بن قصي .

أما مع بني مخزوم فقد كانت أم أبيه فاطمة بنت عمرة بن عائذ بن عمران بن مخزوم ؛ وعمته عاتكة عند أبي اميمة بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم ، وعمته برة عند عبدالاسد بن هلال بن عبدالله بن عمرو ابن مخزوم ؛ وام حبيب بنت عمه العباس كانت عند الاسود بن سفيان بن عبدالاسد بن هلال بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم ؛ وام هاني بنت عمه

أبي طالب كانت عند هيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ؛ وامامة بنت عمه الحمزة عند سلمة بن ابي سلمة المخزومي •

وجدير بالذكر ان عتيق بن عائذ بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم هو احد أزواج خديجة ، وهو أبو هند التي هي اخت أولاده ؛ كما ان زينب بنت مصعب ، وامها ابنة عمه الرسول ، كانت عند عبدالله بن عبدالله بن أبي امية بن المغيرة بن عبدالله بن عمير بن مخزوم •

اما علاقته ببني زهرة فتجلى في ان امه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وان هالة بنت اميب بن عبد مناف بن زهرة هي زوجة جده عبدالمطلب وام عدد من اعمامه ؛ وان عبدالرحمن بن الاسود بن عبد يغوث الزهري تزوج ضباعة ، بنت عمه الزبير ، بعد المقداد ، وعبدالرحمن بن عوف تزوج حبيبة بنت عمته اميمة •

اما مع بني عبدالمزى ، فان منها زوجته خديجة بنت خويلد بن اسد ابن عبدالمزى ، وعمته صفية تزوجها العوام بن خويلد بن اسد بن عبدالمزى ، وعمته الثانية ام حبيب تزوجت خالد بن حزام •

اما مع بني تيم بن مرة فان حمنة بنت عمته اروى ، تزوجها طلحة بن عبدالله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم •

كما ان اروى بنت عمه الحارث تزوجت ابا وداعة بن هيرة بن سعيد بن سعد بن سهم •

والعلاقة مع اسد بن خزيمة تظهر في ان عمته اميمة تزوجت جحش بن رثاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن اسد بن خزيمة •

واما حصل فان عمته برة تزوجت ، بعد عبدالاسد ، من ابي رهم بن عبدالمزى بن أبي قيس بن عبدود بن نصر بن مالك بن حسل •

اما علاقته مع بني عبد بن حسل فقد جاءت من خديجة التي كانت

امها فاطمة بنت زائدة بن هدم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص ؛ وام فاطمة هي هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن منقذ بن عمرو بن معيص .
اما مع خزاعة فقد كانت صلته عن طريق زوجة عبدالمطلب وام بعض اعمام الرسول لبنى بنت هاجر بن عبد مناف بن خاطر بن حبشية بن سلول الخزاعي .

وهو يتصل بهذيل عن طريق اميمة بنت مالك بن غنم بن خنس وهي جدة امه ، وعن طريق أحد نساء عمه العباس .
اما مع بني هلال بن عامر فصلته عن طريق احدى زوجات عمه العباس وهي لبابة بنت الحارث .

اما ثقيف : فقد كانت ام عمرو ابنة عمه المقوم عند مسعود بن معتب الثقفي ، وخالدة ابنة عمه أبي لهب عند عثمان بن أبي العاص .
واما هوازن : فقد كانت اروي بنت عمه المقوم عند أبي مسروح الحارث بن يعمر ؛ وصفية بنت عمه العباس عند عبدالله بن أبي مسروح كما ان احدى زوجات جده هي صفية بنت جندب بن حجر بن رثاب بن سواة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن .

ومع سليم عن طريق عزة ابنة عمه ابي لهب التي كانت عند اوفى بن حكيم بن امية السلمي .

ومع بني تميم عن طريق نباش بن زرارة من بني اسيد بن عمرو بن تميم وهو زوج خديجة وأبو هالة أخت أولاده .
ومع بهراء عن طريق المقداد بن عمرو البهراني زوج ضباعة بنت عمه الزبير .

ومع كليب عن طريق دحية بن خليفة الذي تزوج عمته درة .
ومع النمر بن قاسط عن طريق تنيلة بنت جناب التي كانت زوجة عبدالمطلب وأم بعض أعمامه .

أما مع الازد ، فقد كانت هند بنت عمه المقوم عند ابي عمرة بن عمرو من بني النجار .

ان هذه العلاقات النسبية مع مختلف العشائر القرشية ، ومع القبائل التي كانت تقيم في اطراف مكة ضمنت للرسول الحماية من الاعتداءات ، في ذلك المجتمع القبلي الذي يستلزم نصرة العشيرة لافرادها وحمايتهم من الاعتداء . والواقع انه رغم خطر دعوته على الكفار الا أنه لم يجراً أحد على الاعتداء على حياته ، لأن أبا طالب كان يحميه ، كما ان من أهم أسباب اعتناق عمه الحمزة للإسلام هو ما رآه من تطاول أبي جهل على الرسول^(١) . ولم تقتصر هذه الحماية على الرسول فقط ، بل عمت كل من تبعه ودان بدعوته ، والواقع ان الاعتداءات كانت في الغالب تقع على المستضعفين من العبيد أو ممن لا عشائر لهم .

حرم مكة :

ثم ان الدعوة الاسلامية قامت في مكة وهي حرم آمن يحمي من فيه من الاعتداء ، ولا ينزل فيمن يبث الدعوة أي عقاب رسمي ، ولا توجد فيها هيئة دينية تبت في الدعوة الى أي دين جديد ، كما انه لا توجد محكمة تحاكم من يبث الدعوة ، ولا سلطة تنفيذية تطبق أحكام العقوبات^(٢) . لذلك فبالرغم من الموقف العدائي الذي وقفه المشركون عامة ، والمتنفذون خاصة ، فاتنا لا نسمع في الاخبار بذكر لأية محكمة ألفت لمحاكمته ، أو بقرار انزال عقوبة فيه أو في المسلمين . فالمعارضة التي قامت ضده وضد الاسلام هي معارضة فردية أو شعبية لا معارضة رسمية ، ان جاز لنا استعمال هذه التعابير الحديثة .

ان هذه الحرية والحماية التي كان يتمتع بها الرسول والمسلمون من أوضح مظاهرها انهم كانوا يصلون عند الكعبة علناً^(٣) .

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١٢ .

(٢) أنظر ص ١٩٦ - ١٩٩ .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٣٧ ، ٣٦٥ . الطبري : ج ٢

ص ٢١٢ . ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١٩٣ .

السرية :

ثم ان الرسول كان يبث دعوته في السنوات الثلاث الاولى بصورة سرية ، ولما أعلن الدعوة ، كان يعقد الاجتماعات في دار الأرقم بن أبي الأرقم^(١) على الصفا بصورة خاصة وشبه سرية ، وقد ساعدهم ذلك التداول والتحدث ومناقشة أحوال المشركين وعباداتهم ونظمهم بحرية تامة وفي مأمن من الاذى والاعتراض .

خلق الرسول :

وينبغي ألا يغرب عن بالنا أثر شخصية الرسول ، وقوة عقيدته وصبره وثباته وسمو نفسه ومثانة خلقه مما كان ضامناً لاستمرار الدعوة رغم مختلف وسائل الوعد والوعيد التي اتخذت ضده . وقد وصف القرآن الكريم أخلاق الرسول بعدة آيات « وانك لعلی خلق عظیم » (القلم ٤) « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » (آل عمران ١٥٩) « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فان عصوك فقل اني برى . مما تعملون » (الشعراء ٢١٥ - ٢١٦) « ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » (فصلت ٣٤) « ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين » (المؤمنون ٩٧) « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (النحل ١٢٥) .

السابقون الاولون :

تجمع الروايات الاسلامية على أن خديجة بنت خويلد زوجة الرسول هي أول من آمن به ، ولكنها تختلف اختلافاً كبيراً فيمن تلاها في اعتناق الاسلام من الرجال ويكاد يدور خلافهم حول ثلاثة أشخاص هم علي بن

(١) انظر عن ١٠: الأرقم ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١٧٤ . الازرقعي :

ج ٢ ص ٢١٠ .

أبي طالب ، ابن عم الرسول وزيد بن حارثة ربيه ، وأبو بكر الصديق رقيقه^(١) ؛ ومن الصعب البت في ترتيب اسلام هؤلاء الثلاثة الذين كانوا السابقين الأولين ، وكلهم من أهل بيته وأشد المقربين اليه .

وقد تلا هؤلاء عدد ممن آمن بالرسول خلال الفترة التي كانت فيها الدعوة سرية ، وقد ذكر ابن اسحق أسماءهم وهم جعفر بن أبي طالب (بني هاشم) عبيدة بن الحرث (المطلب) عثمان بن عفان وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وخالد بن سعيد بن العاص (عبد شمس) عبد بن جحش وأبو أحمد بن جحش (حلفاء بني عبد شمس) الزبير بن العوام (أسد بن عبد العزى) عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعمر بن أبي وقاص والمطلب بن أزهر (زهرة) وخباب بن الارت وعبدالله بن مسعود (حلفاء زهرة) وأبو سلمة والارقم بن أبي الارقم وعياش بن أبي ربيعة (مخزوم) وعمار بن ياسر (حليف بني مخزوم) ، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ونعيم بن عبدالله النحام (عدي) وواقد بن عبدالله ، وخالد وعامر وأياس بني البكير (حلفاء عدي) وطلحة بن عبيدالله (تيم) وعامر بن فهيرة وصهيب ابن سنان (حلفاء تيم) وعثمان بن مضمون وأبناؤه قدامة وعبدالله والسائب ، وحاطب بن الحارث وأخوه حطاب بن الحرث (جمع) وخنيس بن حذافة (سهم) وأبو عبيدة بن الجراح (الحارث بن فهر) ومسعود القاري (القارة) وسليط بن عمرو وحاطب بن عمرو (عامر) .

يضاف الى هؤلاء عدد من النساء هن فاطمة بنت الخطاب زوجة سعيد ابن زيد بن عمرو وأسماء وعائشة بنتا أبي بكر ، وأسماء زوجة عياش بن أبي ربيعة ، وأسماء زوجة جعفر بن أبي طالب ، وفاطمة زوجة حاطب بن الحرث ، وفكيهة زوجة حطاب بن الحرث ، ورملة زوجة المطلب بن أزهر ، وأمينة زوجة خالد بن سعيد بن العاص^(٢) .

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢١١ - ٢١٥ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٤ .

يتبين من هذه القائمة ان المسلمين الاول أكثرهم من قریش ، ولكنهم لم يقتصروا على عشيرة واحدة ، بل كانوا موزعين على كافة العشائر تقریبا ، وهناك أفراد منفردون من بعض العشائر ، وأحيانا يسلم الرجل مع زوجته ، والراجح ان النساء اسلمن مع أزواجهن ، وان كان هناك رجال اسلموا وبقيت أسرهم أو زوجاتهم شركات^(١) .

وقلما تسلم أسرة كاملة . والواقع ان هذا ينطبق حتى على الدور المسكي المتأخر فيروي ابن سعد انه (كان ممن خرج في الهجرة الى المدينة فوعدوا رجالهم ونساءهم وغلقوا دورهم فلم يبق منهم أحد الا خرج مهاجرا . دار بني دودان ودار بني أبي البكير ودار بني مظعون^(٢)) .

والغالب ان اسلام معظمهم كان فرديا ، وان كان بعضهم قد اسلم للنبي بشكل جماعة ، فيروي ابن اسحاق ان أبا بكر اسلم على يده عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة ابن عبيدالله^(٣) . ويروي ابن سعد انه (انطلق عثمان بن مضمون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبدالرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبدالاسد وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله (ص) فعرض عليهم الاسلام وأنبأهم بشرائه فأسلموا جميعا في ساعة واحدة وذلك قبل دخول رسول الله (ص) دار الارقم^(٤)) .

ومع انه ليست لدينا معلومات وافية عن أحوال وأوضاع كل من هؤلاء السابقين قبل اسلامهم ، الا انهم ولاشك كانوا من أوسط قریش ، فخالد بن سعيد بن العاص كان أبوه من أغنى أهل مكة وأقواهم نفوذا^(٥) ، كما ان

(١) المحبر : ص ٤٠٦ ، ٤٣٢ .

(٢) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ٦٣ ، ص ٢٨٨ . ابن هشام ج ٢ ص ١١٦ - ١١٧ .

(٣) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٨ . الجاحظ : كتاب العثمانية ص ٣١ .

(٤) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ٢٨٦ .

(٥) المحبر : ص ١٦٥ نسب قریش ص ١٧٣ - ١٧٤ .

أبا بكر وسعد بن أبي وقاص وطلحة وعبدالرحمن بن عوف كلهم تجار أو صناع من رجال الطبقة الوسطى^(١) .

ومن بين السابقين في الاسلام عدد من الحلفاء ، وربما المعتقين ولعلمهم هم المستضعفون الذين أشار اليهم الزهري بقوله (فاستجاب الله من شاء من احدث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به) .

وقد عرف الواقدي المستضعفين بأنهم قوم لا عشائر لهم بمكة وليست لهم منعة ولا قوة ، فكانت قريش تعذبهم بالرمضاء بانصاف النهار ليرجعوا عن دينهم^(٢) . ويروي الطبري عن ابن مسعود في تفسير آية « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » (الانعام ٥٢) . ان بعض كفار قريش جاؤوا الى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب او ان ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فانما هم عبيدنا وعسفاؤنا كان أعظم في صدورنا واطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا وتصدقنا له . . قال : وكانوا بلالاً وعماراً بن ياسر وسالمًا مولى أبي حذيفة وصيحا مولى اسيد ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو ومسعود القاري وواقد بن عبدالله الحنظلي وعمرو ابن عبد عمرو ذو الشمالين ومرثد بن أبي مرثد وأبو مرثد من غني حليف حمزة بن عبدالمطلب واشباههم من الحلفاء . ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين » (الانعام ٥٣)^(٣) .

دوافع اعتناق الاسلام :

ولابد لنا بعد أن عرضنا أسماء ومراكز المسلمين الاول في المجتمع

(١) المعارف : ص ٢٤٩ .

(٢) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١٧٧ .

(٣) تفسير الطبري : ج ٧ ص ١٢٧ وانظر أيضا سيرة ابن هشام

المكي أن نسأل عن سبب اعتناقهم الاسلام في هذه الفترة المبكرة التي لم يكن مستقبل الاسلام المادي ونجاحه واضحاً . لا ريب انه لا يمكن قبول نظرية جرمه التي تقول بأنه استجاب له المستضعفون ، رغبة في التحرر ، والفقراء رغبة في الكسب ، نظراً لما فيه من ميل اشتراكي ، فان هذا الرأي ينقضه دراسة المسلمين الاول الذين كان اكثرهم من التجار ورجال الطبقة الوسطى ومن كانت لهم عشائر تحميهم وتدفع منهم . بل حتى وجود الحلفاء والمستضعفين في الاسلام لا ينهض دليلاً على صحة هذا الرأي ، اذ ان هؤلاء نالوا كثيراً من الاضطهاد بسبب عقائدهم ، ومنوا بكثير من الآمال اذا تركوه ، فرفضوا وأصرروا على التمسك بالدين الجديد ، مما يدل على ان دافع العقيدة هو الذي كان يدفعهم الى اعتناق الاسلام . والواقع ان الروايات اشارت بصراحة الى دوافع بعضهم فثمان بن مضمون كان قبل ظهور الاسلام من الباحثين عن الدين ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل هو ابن الرجل الذي كان حنيفياً يبحث عن دين ابراهيم^(١) ؛ وخالد بن سعيد ابن العاص اعتنق الاسلام لانه رأى نفسه في المنام على حافة هاوية من النار يدفعه اليها أبوه ويدفعه عنها رجل آخر لينقذه منها^(٢) ، ويمكن تفسير ذلك بانشغال عقله الباطن في الامور الدينية واعتناقه الاسلام لاعتقاده بأن فيه المنجى والمخلص ؛ أما عمر بن الخطاب الذي اسلم بعد هذه الفترة ، فقد اسلم لتأثره من سماعه آيات القرآن ومن رؤيته اخته تأذى^(٣) ، وأما الحمزة عم الرسول ، وقد اسلم بعيد هذه الفترة أيضاً ، فقد اعتنقه لما رأى من تطاول على ابن أخيه^(٤) .

ومن كل هذا نرى ان الدافع لاعتناق الاسلام ديني بالدرجة الاولى . يقول ابن اسحق : ثم دخل الناس في الاسلام ارسالاً من الرجال

(١) انظر ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) ابن سعد : ج ٤ قسم ١ ص ٦٤ .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٦٤ ، ٣٦٨ .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١٢ .

والنساء حتى فشا ذكر الاسلام بمكة وتحدث به . ثم ان الله عز وجل أمر رسوله (ص) أن يصدع بما جاءه منه وأن يباي الناس بأمره وأن يدعو اليه ، وكان بين ما أخفى رسول الله (ص) أمره واستتر به الى أن أمره الله تعالى باظهار دينه ثلاث سنوات فيما بلغني من مبعثه ثم قال الله له « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » (الحجر ٩٤) « وانذر عشيرتك الاقربين واخلض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل اني برىء مما تعملون » (الشعراء ٢١٦) .. فلما بادى رسول الله (ص) قومه بالاسلام وصدع به كما أمره الله : لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه فيما بلغني ، حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته ، الا من عصم الله تعالى منهم بالاسلام ، وهم قليل مستخفون وحدث على رسول الله (ص) عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله (ص) على أمر الله مظهرآ لأمره ، لا يرده عنه شيء^(١) .

ويؤيد ابن سعد أيضا ان الرسول كان يدعو أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفياً الى أن أمر بظهور الدعاء ، ثم يروي عن الزهري « فاستجاب لله من ساء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به ، وكفار قريش غير منكرين لما يقول ، فكان اذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون اليه ان غلام بني عبدالمطلب ليكلم من السماء ، فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التي يعبدونها دونه ، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر ، فشنفوا لرسول الله (ص) عند ذلك وعادوه »^(٢) .

(١) سميرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .

(٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٢٣ . أما عن عيب آلهتهم في القرآن

فانظر ص ٣٢١ فما بعد .

الفصل الواحد والعشرون

مقاومة المشركين للدعوة الاسلامية

دوافع المقاومة :

يتبين مما ذكرناه فيما سبق ان الدعوة الاسلامية في الادوار الاولى لم تلق معارضة شديدة ، نظراً لسريتها وعدم التعرض لآلهة الشرك ، وان الآيات الاولى كانت تؤكد على عظمة الله وقدرته ووجوب تقواه وعبادته ، فهي لا تثير المشركين الذين كانوا يعبدون الله • غير أنه بتقدم الاسلام وازدياد وضوح معالم الدين الجديد وتتابع نزول الآيات التي تعيب آلهتهم ، بدأ المشركون يمتعضون ويناصبون الدعوة الاسلامية والرسول العداء ، وأخذوا يؤذوه بمختلف الوسائل ، ولمختلف الدوافع •

الدافع الديني :

لقد رأينا ان الاسلام جاء يؤكد بالدرجة الاولى على عبادة اله واحد • منزه ، ولا يقر بأي مظهر من مظاهر الشرك والوثنية ، ولا يمكن التوفيق بين ما جاء به وما كان يدين به القرشيون • فانتصار الاسلام كان يستلزم حتما ازالة المعتقدات والعبادات التي كان الناس قد ألفوها واعتادوا عليها • ان ديانة الشرك لم تكن لها فلسفة قوية تدافع عنها ، كما يظهر من حاجة القرآن لهم ، حيث لا يظهر منها وجود فكرة حية واضحة عندهم ، كما لم تذكر آراء واضحة عن ديانتهم أو عن وجود رجال دين يتحمسون في الدفاع عن هذه الديانة • والواقع ان القرآن يذكر ترددي ذلك الدين في قلوب الناس « وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا » (الانعام ٧٠) « الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم نساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون » (الاعراف ٥١) •

والواقع أن المشركين أقاموا أحاملهم على مبدئين أساسيين ، أحدهما التهجم على فكرة الوحدةانية الخالصة والبعث وعلى شخصية الرسول ، والثاني هو ان دينهم قد ورثوه عن آباءهم •

ان مقاومة المشركين للاسلام ، رغم الجمود الظاهر لديانتهم يمكن تعليله بأن دينهم وان لم يكن يلعب دورا كبيرا ظاهرا في حياتهم اليومية ، الا أنه كان متغلغلا في نفوسهم ومتعمقا في اللاشعور فيهم ، فهم يعيشون فيه دون أن يفهموه أو يدركوه • كما أنه نظرا لطول أمد استقراره ، لم تكن هناك حاجة للتحدث به أو الدفاع عنه • ولكن الاسلام بنقده لدينهم كان تحديه موجهاً لا الى عقائدهم فحسب بل الى ذاتيتهم وإلى كيانهم الروحي فاندفعوا يدافعون عنه بقوة • ومما زاد في قوة هذه المقاومة روح المحافظة التي تتجلى عند البدو بصورة خاصة • وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين أثر روح المحافظة في المقاومة غير المفكرة التي واجهوا الاسلام بها • « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم » (سبا ٤٣) « بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آئارهم مقتدون • قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون » (الزخرف ٢٢ - ٢٤) « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » (لقمان ٢١) « وإذا قيل لهم انبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (البقرة ١٧٠ ، أنظر أيضا المائدة ١٠٤) « انهم ألفوا آباءهم ضالين • فهم على آئارهم يهرعون • ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين » (الصافات ٦٩ - ٧١) •

الدعوة جديدة :

ومما زاد في عنف مقاومتهم أن دعوة الرسول للوحدةانية كانت جديدة عليهم فلم يكن قد أتاهم من قبله رسول « لتندروما ما أنذر آباؤهم فهم

غافلون » (يس ٦) « أم يقولون اقترأه بل هو الحق من ربك لتتذروا قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » (المسجدة ٣) وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير » (سبا ٤٤) .

وبجانب هذا العامل النفسي فهناك عدة عوامل دفعت القرشيين لمقاومة الاسلام منها ان الاسلام جاء يدعو لعبادة اله واحد مطلق يمكن عبادته في أي مكان . فانتشاره سيؤدي حتماً الى تهديد مصالح كثيرين ممن كانت لهم علاقة ومصلحة بالدين القديم . واذا دانت مكة وأهلها بالدين الجديد فستزول مكانتهم عند المشركين من العرب وتقل حرمتهم ولا تبقى لهم المكانة السابقة » وقالوا أن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبي اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون . وكم أهلكتنا من قرية بطرت معيشتها فلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين » (القصاص ٥٧ - ٦٠) .

الدوافع الاجتماعية :

ثم ان الاسلام يهدد تكوين وتنظيم المجتمع القديم . اذ رغم ان الاسلام جاء في البداية يهدف دعوة دينية خالصة الا أن انتشاره كان لابد أن يؤدي الى نتائج اجتماعية وسياسية مهمة . فاتباع الدين الجديد لابد أن ينفصلوا عن الدين القديم وأتباعه ، ويكونوا فيما بينهم كتلة قائمة بذاتها ، تقوم على أسس جديدة وتتطلب من هؤلاء الاتباع أن يتعاونوا ويتناصروا فيما بينهم ، بصرف النظر عن القبيلة التي ينتمون اليها ؛ وأن يتحدوا لصد من يهددهم ممن لا يدين بدينهم أي أن يقفوا ضد مشركي مكة وكفارها . وهكذا تنشط مكة الى شطرين : الاول جامد والثاني قابل للتوسع ، بل ان الانقسام سيمتد الى أعضاء الاسرة الواحدة . وقد اشار القرآن الى أزمات حدثت في بعض الأسر التي أسلم أبناؤها وظل بعض كبارها غير مسلمين أو بالعكس الذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن اخرج وقد خلت القرون من

قُبلي وهما يستغيثان الله ويلك ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا أساطير
الاولين » (الاحقاف ١٧) « ووصينا الانسان بوالديه حسناً وان جاهداك
لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمهما الى مرجعكم فانبؤكم بما كنتم تعملون »
(العنكبوت ٨ أنظر أيضا لقمان ١٥) كما روى ابن اسحق ان المشركين
كلموا النبي وقالوا له « انك قد أتيت بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهم
به أحلامهم وعبت به آلهتهم » وكذلك قالوا لعنه أبي طالب عندما طلبوا منه
أن يتدخل ويطلب من الرسول الكف عن الدعوة ^(١) .

ويجدر بنا أن نلاحظ ان الاسلام يدعو الى تنظيم اجتماعي يختلف
اختلافاً أساسياً عن التنظيم الذي كان قائماً في الجزيرة ، وخاصة في مكة .
فهو يدعو الى الانسانية والرحمة والشفقة والعطف على الضعيف والصدق
والاستقامة . ويضع للتفاضل الاجتماعي مقاييس جديدة ، تقوم على أساس
الاخلاق الفاضلة الصالحة بصرف النظر عن الثروة أو الجاه أو النسب .
فهي تناقض تماماً ما كان سائداً في مكة من تفاخر بالانساب والآباء ومن
تقدير للثروة والفنى والمظاهر الدنيوية . فانتشار الاسلام كان من شأنه أن
يؤثر في مركز المتنفذين والاغنياء فيخفض من مركزهم اذا لم تكن لهم
صفات أخلاقية حميدة ويحل محلهم في المسكنة العليا اناساً ربما كانوا من
الفقراء أو ممن ليسوا من العشائر المكيّة .

ولن يقتصر هذا التغير عليهم وحدهم في هذه الدنيا بل يعتمد الى
أجدادهم أيضاً فقد لاحظنا في فصل سابق ان فكرة البعث واليوم الآخر
أساسية في الاسلام ، وان الناس سيحاسبون فيها على ما كسبت ايديهم في هذه
الدنيا وسيجزون بما كانوا يعملون فمن عمل مثقال ذرة خيراً يره ومن عمل
مثقال ذرة شراً يره ومن ثقلت موازينهم وكثرت أعمال الخير والبر عندهم
فيذهبون الى الجنة . اما من زادت أعمال الشر عندهم فيذهبون الى جهنم ؟

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٩ ، ٣١٢ ، ٣١٥ الطبري ج ٢ ص

٢٢٣ ، ٢٣٠ تفسير الطبري ج ٧ ص ٢٠٧ ج ١٥ ص ١١٠ .

وان حساب يوم الآخرة لا يقتصر على الغلواهر بل على الاعمال الحقيقية وانه سوف ينال الجميع حتى من كان قبل الاسلام • ولما كان آباء المشركين وأجدادهم كفاراً فسيكون مصيرهم النار • وقد تكرر في القرآن ورود انكار المشركين المبعث كما تكرر التأكيد عليه كثيراً بشكل يوحى بأنها من أهم الافكار الاسلامية التي عارضوها (انظر الانعام ٢٩ ، الرعد ٥ ، النحل ٢٨ ، الاسراء ٤٩ و ٩٨ ، المؤمنون ٨٢ - ٨٣ ، الفرقان ١١ ، النمل ٦٧ - ٦٨ ، سبأ ٣ و ٧ ، يس ١٦ - ١٧ ، الجاثية ٢٤ ، ق ١ - ٣ ، التغابن ٧ ، النازعات ١٠ - ١٢ ، القيامة ٣ - ٤ و ٣٦ - ٤٠ ، أنظر أيضاً فصلت ٦ ، الذاريات ١٠ - ١٢) •

النوافع السياسية :

ثم ان المجتمع الجديد لا يدين بالطاعة الى الرؤساء القدماء ، بل يرتبط بالرسول الذي تأتي بواسطته أحكام الاسلام • والقرآن يأمر بالطاعة الرسول « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » (الاحزاب ٧١) « قل اطيعوا الله ورسوله فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين » (آل عمران ٣٢) « واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » (آل عمران ١٣٢) « تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم » (النساء ١٣) « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » (النساء ٦٩) « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيفاً » (النساء ٨٠) « وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله » (النساء ٦٤) « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم » (التوبة ٧١) • ومع ان أغلب هذه الآيات مدنية ، الا انها توضح ما ستؤدي اليه دعوة الاسلام من منح الرسول مركزاً أساسياً قوياً يغطي على الباقي • ومع ان الرسول كان من مظاهر

أخلاقه الدمائية والتواضع والرقّة والتسامح والعطف ، وان القرآن أكد انه مذكر ومنذر وبشير لا ينبغي أية منفعة مادية من دعوته « قل ١٠ أسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى » (الشورى ٢٣) « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » (ص ٨٦) « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان اجري الا على الله وهو على كل شيء شهيد » (سبا ٤٧) « وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكرى للعالمين » (يوسف ١٠٤) « أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون » (القلم ٤٦ ، الطور ٤٠) .

غير ان القرشيين أرتاعوا من هذه الدعوة فكروها أن ينزل الوحي على رجل منهم « وعجبوا ان جاءهم منذر منهم » (ص ٤ ق ٢) « أكان للناس عجباً ان أوحينا الى رجل منهم ان أنذر الناس » (يونس) « أو نزل عليه الذكر من بينا بل هم في شك من ذكرى » (ص ٨) « أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم » (الاعراف ٦٣ و ٦٩) « ابعث الله بشراً رسولا » (الاسراء ٩٤) « واذا رأوك ان يتخذوا منك الا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا » (الفرقان ٤١) « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرشيين عظيم » (الزخرف ٣١) .

وينبغي ألا يفسر موقفهم بأنه انتقاص من مركز النبي فانه من أعلى الاسر الارستقراطية القرشية وفي القرآن شواهد على مركزه « أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون » (المؤمنون ٦٩) « وجاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم » (التوبة ١٢٨) . كل هذا يدل على حسن مركزه بين قريش . ولكنهم لم يقرأوا له لانه لم يكن من الزعماء السياسيين في مكة ، ولانه لم يأت معه صفات خارقة . والواقع ان أشد المقاومة جاءت من الارستقراطية والزعماء السياسيين كما سنين .

الدعوة ليست اشتراكية :

وقد ادعى بعض المستشرقين وخاصة كريمر^(١) ان دعوة الرسول الاولى كانت احتجاجا على سوء توزيع الثروة ، وانها استهدفت أغائة المنكوبين والضعفاء والفقراء ، وانها لذلك كان لها مظهر الاشتراكية . ومما اتخذوه من الادلة لتعزيز دعوتهم ان الصدقات ومساعدة الضعيف والفقير والحض على اطعام المسكين وتحرير العبيد وفك رقابهم قد اكد عليها منذ أوائل أدوار الدعوة الاسلامية . وكذلك التأكيد على حسن معاملة اليتامى والتشديد على من يظلمهم . وقد هدد الاغنياء الذين ينفقون ولا يعطون الفقراء ويكنزون الذهب والفضة ؛ يضاف الى ذلك ان الاغنياء كانوا من أشد المقاومين للاسلام ، وقد أشار القرآن الى عدد غير قليل من هؤلاء الذين قاوموا الاسلام وأوعدهم بالعقاب الشديد .

لقد كان كريمر متأثراً بالنظريات الاشتراكية التي سادت القرن التاسع عشر وأراد أن ينظر بهذا المنظار الى تاريخ الرسول ، وفي رأيه تطرف فمساعدة الضعيف والريق واجب انساني ضروري ولم يتطرف الاسلام فيه لجعله قريبا من الاشتراكية الحديثة ، كلا فان الصدقات وسنفضل الكلام عنها في الجزء الثاني ، كانت أقل من أن نطفىء الرأسمالية أو تخلق الاشتراكية ، هذا الى ان الاسلام أقر جمع الثروة ولم يهاجمها اذا كانت آتية من طريق مشروع^(٢) كما ان كثيرا من المسلمين الاول كانوا انفسهم من الاغنياء والتجار^(٣) . ويلاحظ ان الاشتراكية مذهب اقتصادي أما الدين الاسلامي فهدفه بالدرجة الاولى رוחي ديني وأما المسائل

(١) تجد بحث كريمر في كتابه محمد (بالألمانية) وتجد اشارة ونقد له في المقال القيم الذي كتبه بوهل عن الرسول في دائرة المعارف الاسلامية وفي كتاب وات (محمد في مكة) ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) أنظر كتابي عن (التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة) الفصل التاسع .

(٣) المعارف ص ٢٤٩ .

الاقتصادية فكانت ثانوية بالنسبة لأمور العقائد وخاصة في الأدوار الأولى من الدعوة . كما ان أشد فكرة قاومها المشركون هي فكرة الآخرة . « اذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون » (الزمر ٤٦) « واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على ادبارهم نفورا » (الاسراء ٤٦) .

وفي القرآن آيات تدل على ان المسلمين الاول اغنياء « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وابقى » (الاعلى ٦ - ١٧) « كلا بل لا تكرمون اليتيم » ولا تحضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلاً لما . وتحبون المال حباً جماً » (الفجر ١٧ - ٣٠) « فلا اقتحم العقبة . وما ادراك ما العقبة . فك رقبة . او اطعام في يوم ذي مسغبة . يتبعها ذا مقربة . أو مسكيناً ذا مترية » (البلد ١١ - ١٧) .

اساليب المقاومة :

لقد اتخذ المشركون اساليب وطرقاً متعددة لمقاومة الرسول والدعوة . وقد اشار القرآن الى بعضها :

فقد اتهموه بأن ما جاء به لم يكن جديداً عليهم بل هو من اساطير الاولين (الانعام ٢٥ ، النحل ٢٤ ، المؤمنون ٨٣ ، النمل ٦٨ ، الاحقاف ١٧ ، القلم ١٥ ، المطففين ١٣) .

واتهموه بأن اعجبياً يلقنه اياها « وقال الذين كفروا ان هذا الا فده افتراء واعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً » وقالوا اساطير الاولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلاً » (الفرقان ٤ - ٥) « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين » (النحل ١٠٣) وانتقدوا الناسخ والمنسوخ « واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون » (النحل ١٠١) .

ثم اتهم سخرؤا من الرسول وهزؤا به وبدعوته (الصافات ١٢ و١٤ ،

التوبة ٦٥ ، الانعام ٥ و ١٠ ، هود ٨ ، النحل ٣٤ ، الشعراء ٦ ، الروم ١٠ ،
يسين ٣٠ ، الزمر ٤٨ ، الزخرف ٧ ، الاحقاف ٢٦ ، الرعد ٤١ ، الانبياء ٤١ ،
الحجر ٩٥ ، الكهف ٥٦ و ١٠٦ ، الفرقان ٤١ ، الجاثية ٩ و ٣٥) .

واتهموه بأنه ساحر وان ما جاء به سحر (الانعام ٧ ، يونس ٧٦ ،
هود ٧ ، النمل ١٣ ، سبأ ٤٣ ، الصافات ١٥ ، الزخرف ٣٠ ، الاحقاف ٧ ،
الطور ١٥ ، القمر ٢ ، الصف ٦ ، المدثر ٢٤ ، ص ٤ ، الذاريات ٥٢ ،
الاسراء ٤٧ ، الفرقان ٨) .

كما اتهموه بأنه مجنون (الحجر ٦ ، الصافات ٣٦ ، القلم ٥١ ،
المؤمنون ٢٥ و ٧٠) وقد رد على هذه التهمة (الاعراف ١٨٤ ، سبأ ٤٦ ،
الطور ٤٩ ، القلم ٢ ، التكويد ٢٢) .

واتهموه أيضا بأنه كذاب (ص ٤ ، القمر ٢٥ ، فاطر ٢٥ ، الحج ٤٢)
وانه مفتر (الفرقان ٤ ، سبأ ٤٣ ، الاحقاف ٨ و ١١ ، السجدة ٣ ، يونس
٣٨ ، هو ١٣ و ٣٥ ، الانبياء ٥) .

ونسبوا اليه انه شاعر (الصافات ٣٦ ، الحاقة ٤٠ ، الانبياء ٥ ، الطور
٣٠) وكاهن (الطور ٢٩ ، الحاقة ٤٢) .

كما أخذوا على الرسول انه بشر مثلهم فلم يصدقوا بأن الرسول يمكن
أن يكون بشرا (الانبياء ٣ ، المؤمنون ٢٤ و ٣٣ ، الاسراء ٩٤ ، القمر ٢٤)
كما طلبوا منه آية (الانعام ١٠٩ و ٢٧٩ ، يونس ٢٠ ، الرعد ٧ و ٢٧ ،
الانبياء ٥ ، الشعراء ١٥) .

وطلبوا منه أن يأتي بالمعجزات « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من
الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب تفجر الانهار خلالها
تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا
أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى
تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا » (الاسراء

٩٠ - ٩٤) « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً • أو يلقي إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلاً مسحوراً » (الفرقان ٧ - ٨) « فلعنك تارك بعض ما يوحى إليك أو ضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » (هود ١٢) •

كما قالوا له « إئت بقرآن غير هذا » (يونس ١٥) أو « لو نزل عليه القرآن جملة واحدة » (الفرقان ٣٢) وعندما ذكر القرآن آيات الله قالوا « لن نؤمن حتى تؤتى مثل ما اوتى رسل الله » (الانعام ١٢٤) كما انهم عندما كانت تتلى عليهم آيات الله يقولون « قد سمعنا لو شئنا لقلنا مثل هذا » (الانفال ٣١) • وادعوا بأنهم ما سمعوا بهذا في الملة الآخرة وان آباءهم لم يعرفوا ما جاء به النبي • وكانوا لا يسمعون ما يقول ويصدون عنها (الاسراء ٤٦ ، فصلت ٤ و ٢٦ ، الاعراف ١٩٨ ، فاطر ١٤ ، النمل ٨٠ ، الروم ٥٢ ، المدثر ٤٩ ، الجاثية ٨ ، لقمان ٧) •

وكانوا يشكون فيما جاء به (هود ٦٢ ، و ١١٠ ، ابراهيم ٩ ، الشورى ١٤ ، فصلت ٢٥ و ٤٥) ويجحدون بآيات الله وينكرونها ويكفرون بها ومن ثم اطلق عليهم اسم الكافرين التي تردد كثيرا في العصر المبكي •

ويظهر أنهم استغربوا من كلمة الرحمن التي هي مرادف لاسم الله تعالى • واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا • (الفرقان ٦٠) « واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزواً أهذا الذي يذكر آلهتهم وهم بذكر الرحمن كفرون » (الانبياء ٢٦) « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعون فله الاسماء الحسنی » (الاسراء ١١٠) « كذلك أرسلناك في امة قد خلت من قبلها امم لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت وإليه متاب » (الرعد ٣٠) •

ثم انهم كانوا يسخرون من المسلمين • ان الذين أجزموا كانوا من

الذين آمنوا يضحكون • وإذا مروا بهم يتغامزون • وإذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين • وإذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون • (المطففين ٢٩ - ٣٢) « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا • (الحج ٧٢) »

المقاومون

اشارات القرآن :

لم يرد في القرآن من أسماء مقاومي النبي الا اسم عمه ابي لهب وزوجته حمالة الحطب ، وقد ذكرا في سورة قصيدة • ولكن وردت في عدة آيات قرآنية اشارات الى اشخاص يدل ما نزل فيهم على انهم كانوا يقاومون الرسول ودعوته • ومع ان القرآن لم يذكر اسماءهم بصراحة ، الا ان كتب التاريخ والتفسير تذكر اسماءهم • فمن هذه الآيات « ذرني ومن خلقت وحيدا • وجعلت له مالا ممدودا • وبنين شهودا • ومهدت له تمهيدا • ثم يطمع ان أزيد • كلا انه كان لآياتنا غنيدا • سأرهقه صعودا • انه فكر وقدر • فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر • ثم نظر • ثم عبس وبسر • ثم ادبر واستكبر • فقال ان هذا الا سحر يؤثر • ان هذا الا قول البشر • (المدثر ١١ - ٢٥) » أفرايت الذي تولى • وأعطى قليلا واكدي • أعنده علم الغيب فهو يرى • أم لم ينبأ بما في صحف موسى • وابراهيم الذي وفى • ألا تزر وازرة وزر اخرى • وان ليس للانسان الا ما سعى » (النجم ٣٣ - ٣٩) وقد نزلت هاتان الآيتان في الوليد بن المغيرة المخزومي^(١) الذي أشار اليه القرشيون بقولهم « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم • (الزخرف ٣١)^(٢) »

« ويل لكل همزة لمزة • الذي جمع مالا وعدده • أيحسب ان ماله

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٤ تفسير الطبري ج ٢٥ ص ٤٠

ج ٢٩ ص ٩٦ الاشتقاق ص ٩٤ •

(٢) تفسير الطبري ج ٢٥ ص ٤٠ •

اخلده كلاً لينبذن في الحطمة » (الهمزة ١ - ٤) وقد نزلت في أمية بن خلف^(١) .

« وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم • قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » (يسين ٧٨ - ٧٩) « يوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً • يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً • لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً » (الفرقان ٢٧ - ٢٩) • وقد نزلت هاتان الآيتان في أبي بن خلف^(٢) .

« أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً • اطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً • كلاً سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً • ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً » (مريم ٧٧ - ٨٠) • ويل لكل أفاك أثيم • يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم • وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين » (الجنات ٧ - ٩) • « أرايت الذي يكذب بالدين • فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » (الماعون ١ - ٣) • وقد نزلت هذه الآيات في العاص بن وائل^(٣) .

(ولا تطمع كل خلاف مهين • فهاز مشاء بنميم • مناع للخير معتد أثيم • عتل بعد ذلك زنيم • ان كان ذا مال وبنين • اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الأولين سنسمه على الخرطوم » (القلم ١٠ - ١٦) وقد نزلت في الاخنس بن شريق^(٤) .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٧٩ - ٤٢٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ تفسير الطبري ج ١٧ ص

٦ ج ٢٣ ص ٢٠١ الاشتقاق ص ٨٠ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٠ ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١١٦

تفسير الطبري ج ١٦ ص ٩١ الاشتقاق ص ٧٩ .

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٤ تفسير الطبري ج ٢٩ ص

« فلا صدق ولا صلى : ولكن كذب وتولى » ثم ذهب الى اهله
يتمطى اولى لك فاولى • ثم اولى لك فاولى ، (القيامة ٣١ - ٣٥) « فاضبر
لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » (الانسان ٢٤) « أو من كان ميتاً
فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس
بخارج منها » (الانعام ١٢٢) • وقد نزلت هذه الآيات في أبي جهل^(١) •

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير •
ثاني عطفه ايضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب
الحريق » (الحج ٨ - ٩) « وقال الذين كفروا ان هذا الا فتك افتراء واعانه
عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً • وقالوا اساطير الاولين اكتتبها
فهي تملي عليه بكرة واصيلاً » (النور ٤ - ٥) وقد نزلت هاتان الآيتان في
النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبدمناف بن عبدالدار بن قصي^(٢) •
ويروى عن ابن عباس انه قال نزل فيه ثمان آيات من القرآن ، وكل ما ذكر
فيه من الاساطير من القرآن نزل فيه • ويقول ابن اسحاق انه « كان النضر
ابن الحارث من شياطين قريش وممن كان يؤذي رسول الله وينصب له
العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث
رستم واسفنديار ، فكان اذا جلس رسول الله (ص) مجلساً فذكر فيه بالله
وحذر قومه ما اصاب من قبلهم من الامم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه ،
اذا قام ثم قال انا والله يا معشر قريش احسن حديثاً منه فهل الي فانا احدثكم
احسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ثم يقول
بماذا محمد احسن حديثاً مني^(٣) » •

وقد أشار القرآن الكريم الى المستهزئين « انا كفيناك المنهزئين الذين

(١) تفسير الطبري ج ٢٩ ص ١٢٤ ، ١٣٨ ج ٨ ص ١٧ ج ٢٥ ص ٨٠
سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢٣ •

(٢) تفسير الطبري : ج ٧ ص ١٨٤ ج ٩ ص ١٥١ ج ١٧ ص ٩٢
ج ١٨ ص ١٣٦ •

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٢٠ ، ٣٨٢ • تفسير الطبري : ج ١٨
ص ١٣٩ •

يجعلون من الله الهاً آخر فسوف يعلمون » (النحل ٩٥ - ٩٦) كما أشار الى المقتسمين « كما انزلنا على المقتسمين • الذين جعلوا القرآن عضين ، (النحل ٩٠ - ٩١) • والمستهزؤون هم فيما يروي ابن اسحق عن عروة بن الزبير خمسة نفر كانوا ذوي أستان وشرف في قومهم من بني أسد بن عبد العزى ابن قصي الاسود بن المطلب بن زمعة • • ومن بني زهرة الاسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة • ومن بني مخزوم الوليد بن المغيرة ابن عبدالله بن مخزوم • ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد بن سهم • ومن خزاعة الحرث بن الطلائة بن عمرو بن الحرث بن عمرو بن ملكان^(١) •

أما المقتسمون فيقول السكري « انهم سبعة عشر رجلاً من قريش اقتسموا عقاب مكة ، فكانوا اذا حضروا الموسم يصدون عن رسول الله (ص) وهم على ما ذكر ابن الكلبي عن ابن عباس من بني عبد شمس ثلاثة نفر حنظلة بن ابي سفيان وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ، ومن بني مخزوم سبعة نفر أبو جهل ، والعاص ، وأبو قيس بن الوليد ، وقيس بن الفاكهة ، وزهير بن أبي أمية ، والاسود بن عبدالاسد ، وصيفي بن السائب • ومن بني عبدالدار واحد هو النضر بن الحارث بن كلدة ، ومن بني سهم اثنان منه ونيه ابنا الحجاج • ومن بني جمح اثنان أمية بن خلف ، وأوس ابن مسير أخو أبي محذورة وهما من أنفـس بني جمـح^(٢)) •

وفي تفسير آية « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم » (الانعام ١٠٨) يروي الطبري عن السدني انه « لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش انطلقوا بنا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهي عنا ابن أخيه ، فانا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان يسمعه ،

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٥ • تفسير الطبري : ج ١٤ ص

(٢) المحبر : ص ١٦٠ - ١٦١ •

فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمّية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعمر بن العاص والاسود ابن البخري وبعثوا رجلا منهم يقال له المطلب قالوا استأذن على أبي طالب • فأتى أبا طالب فقال هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك فأذن لهم فدخلوا عليه فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمدا قد آذانا وآذى آلهمنا فنحب أن تدعوه فتنهه عن ذكر آلهمنا ولندعه والهه^(١) • • • • «

ويروي ابن اسحق عن ابن عباس في تفسير آية « وقالوا لن نؤمن •• » ان عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، ورجلا من بني عبدالدار ، وأبا البخري أخا بني أسد ، والاسود بن المطلب ، وزمعة بن الاسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبدالله بن أبي أمية ، وأمّية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونسيها ومنبها ابني الحجاج السهميين ، اجتمعوا ومن اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان اشرف قومك قد اجتمعوا اليك ليكلّموك^(٢) • • •

رواية ابن سعد :

وقد روى ابن سعد انه (كان اهل العداوة والمباودة لرسول الله (ص) واصحابه الذين يطلبون الخصومة والجدل ابا جهل بن هشام ، وابا لهب ابن عبدالمطلب ، والاسود بن يغوث ، والحارث بن قيس بن عدي وهو ابن الغيطلة والغيطلة أمه ، والوليد بن المغيرة ، وأمّية وأبي ابني خلف ، وابا قيس بن الفاكه بن المغيرة بن وائل ، والنظر بن الحارث ، ومنبه الحجاج ، وزهير بن أبي أمية ، والنسائب بن صيفي بن عائد ، والاسود بن عبدالاسد ،

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢١٩ • تفسير الطبري ج ٧ ص ٢٧ •

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ الطبري ج ٢ ص ٢١٨

تفسير الطبري ج ١٥ ص ١٠٧ - ١١٠ •

والعاصي بن سعيد بن العاص ، والعاص بن هاشم ، وعقبة بن أبي معيط ،
وابا الاصدي الهذلي ، والحكم بن أبي العاص ، وعدي بن الحمراء ،
والذي كان تنهي عداوة رسول الله اليهم أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي
معيط . وكان عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب أهل عداوة
ولكنهم لم يشخصوا بالنبي (ص) كانوا كنعو قريش قال ابن سعد ولم
يسلم منهم أحد الا أبو سفيان والحكم^(١) .

من هم أهل العداوة :

يتضمن ما أوردته آنفا كل ما استطعت الحصول عليه من أسماء خصوم
النبي وأهل العداوة له . ويلاحظ ان القرآن ، وقد أشار في عدد من الآيات
الى من قاوم الرسول ، لم يصرح الا باسم أبي لهب وزوجته ، وهذه الآيات
المتعلقة بهم قد تكفي بالتلميح الى واحد فقط من مواقفهم أو حججهم ، أو
قد لا تلمح شيئا بل تكفي بالشدة عليهم . وقد اقتصر الرواة والمفسرون في
شرح موقف واحد هو الذي أشار اليه القرآن فحسب ، من دون أن يوردوا
أية معلومات اضافية ، حتى الايذاء والاستهزاء فلما يورد عنه الرواة أخبارا
واقية . ولا ريب ان أهالة القرآن الى حادث واحد لكل منهم لا يستلزم
حتما أن يكون هذا الحادث هو وحده مظهر ايذائهم أو هزؤهم . فقد
تكون هنالك أعمال اخرى لم يشر اليها القرآن . ثم ان إشارة القرآن
اليهم لا تعني انهم وحدهم المؤذون والمستهزؤون ، فقد يكون هناك غيرهم ممن
قام بمثل تلك المقاومة دون أن يشير اليه القرآن .

لقد بينا ان الرواة ذكروا أسماء من تعرضت لهم هذه الآيات ، فاذا
افترضنا صحة ما أوردوه فاننا نلاحظ من المعلومات القليلة الواردة عنهم في
الكتب ، انهم كانوا من عشائر متعددة ، وان أغلبهم كانوا ذوي سن وشرف

(١) ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٣٣ .

وساهموا في اجتماعات دار الندوة^(١) ، وان كثيرا منهم كانوا من الاسخياء ،
فلاسود بن المطلب والعاص بن وائل هم من أزواد الركب أي انهم كانوا اذا
سافروا لم يختبر معهم أحد ولم يطبخ^(٢) ؛ وفيهم عدد من المطعمين في بدر
كأبي جهل ونيبه ومنبه وأبني الحجاج والنضر بن الحارث وأمية بن خلف^(٣) .
ان هؤلاء المؤذنين والمستهزئين كان بعضهم يمت الى الرسول بصلة
القراية والنسب ، فأبو لهب عم النبي وحمو بناته^(٤) ، والاسود بن عبد يغوث
ابن خاله^(٥) ، وزهير وعبدالله ابنا أبي أمية هما أولاد عاتكة عمة النبي^(٦) ،
وكانت لبعضهم مواقف طيبة مع الرسول أو المسلمين فان أبا البخري وزهير
ابن أبي أمية وزمعة بن الاسود ساهموا في تمزيق صحيفة مقاطعة المسلمين
والرسول^(٧) ؛ كما ان العاص بن هاشم عندما أظهر عمر الاسلام منعه وحماه
فيما يقال^(٨) ، وقد كان بعضهم صديقا لبعض المسلمين الاول فأمية بن خلف
كان صديق لعبد الرحمن بن عوف^(٩) . ولاشك ان كثيرا منهم كان لهم بين
المسلمين أقارب .

ان أغلب من ذكرنا قتلوا في بدر . وفيهم اثنان أمر الرسول بقتلهم
بعد أن أسروا في الموقعة ، وهما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط^(١٠) .

(١) أنظر ص ١٠٨ - ٩ .

(٢) المحبر : ص ١٣٧ . المنق : ص ٢٩٤ (نبذة بهامش المحبر) .

(٣) المحبر : ص ١٦١ - ١٦٢ . سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٣١١

وانظر عن سخاء أبي جهل أيضا المحبر ص ١٤٠ .

(٤) أنظر ص ٣٢٧ .

(٥) مصعب الزبيري : نسب قريش ص ٢٦٢ .

(٦) الطبري : ج ١٣ ص ٤٤ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٩٩ ،

٣١٧ ، ٣٩٧ ج ٤ ص ١٨ ، ٣١ . المحبر : ص ٢٧٤ .

(٧) الطبري : ج ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٩ . سيرة ابن هشام : ج ١

ص ٢٩٧ . مصعب الزبيري : ٣١٢ ، ٤٣١ .

(٨) مصعب الزبيري : ص ٤٠٨ .

(٩) تفسير الطبري : ج ١٦ ص ١٠٠ .

(١٠) الطبري : ج ٢ ص ٢٨٦ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٦ المحبر

ص ١٧٤ ، ٤٧٨ .

كما أن أبي بن خلف قتله الرسول بيده في غزوة أحد^(١) .

غير أننا لا نعلم عن مناصبهم ووظائفهم شيئاً ، والراجع انهم ، أو أكثرهم ، من التجار ، ولا يوجد ما يدل على انهم رجال دين مع انهم قد يكونون من المتحمسين في الدفاع عن الدين . والراجع انهم لم يقوموا وحدهم بالمقاومة بل ان آخرين كانوا معهم ولكن المصادر سكنت عن ذكرهم .

مكانة المتهمين والمقاومين :

وفي القرآن عدد من الآيات يستدل منها على ان المقاومين كانوا من المترفين الاغنياء والاستقراطية المستكبرين الطغاة . بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ، (الزخرف ٢٢ - ٢٣) . فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا ممن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين ، (هود ١١٦) . واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال . في سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم . انهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما انا لبعوثون . أو آباءنا الاولون ، (الواقعة ٤١ - ٤٨) . وذرنى والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا . انا لدينا انكالا وججيما ، (المزمل ١١ - ١٢) . واما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابه . ولم ادر ما حسابه . يا ليتها كانت القاضيه . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه ، (الحاقة ٢٥ - ٢٩) . ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالا وعدده . يحسب ان ماله أخذه . كلا لينبذن في الحطمة ، (الهمزة ١ - ٤) . واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ، (الاسراء ١٦) . وقال الذين كفروا لن

(١) الطبري : ج ٣ ص ١٩ المحبر ص ١٤٠ مصعب الزبيري ص ٣٨٧ .

نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكانا مؤمنين • قال الذين استكبروا للذين استضعفوا انحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين • وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمرونا ان نكفر بالله ونجعل له انداداً واسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون • وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون • وقالوا نحن اكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذنين • قل ان ربي يسط الرزق لمن يشاء ويقدر والكن أكثر الناس لا يعلمون • وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحاً فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون « (سبأ ٣١ - ٣٧) » واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعاً فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار • قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد « (غافر ٤٧ - ٤٨) » وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعاً فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء • قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا اجزعنا أم صبرنا ما انا من محيص « (ابراهيم ٢١) • « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسول • وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا « (الاحزاب ٦٦ - ٦٧) » ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين « (الاعراف ٤٠ ، انظر أيضا الاعراف ٣٦ - الفرقان ٢١) » وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمسروا فيها وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون « (الانعام ١٣٣) » ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون

عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون «
(الاحقاف ٢٠) « وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم
وكنتم قوما مجرمين « (النجاة ٣١) « حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون
من أضعف ناصرا وأقل عددا « (الجن ٢٤) « فاما من طفئ وآثر الحياة الدنيا
فان الجحيم هي المأوى « (النازعات ٢٨ - ٢٩) « ان جهنم كانت مرصادا •
للمطاعين مآبا « (النبا ٢١ - ٢٢) •

الفصل الثاني والعشرون

الكفاح ضد المشركين

اضطهاد المشركين :

ان المقاومة التي أبداها المشركون للدعوة الاسلامية لم يكن لها اثر في ايقاف الرسول عن الاستمرار في دعوته ، فقد استمر على نشر الدعوة رغم ما بذلوه له من وعد ووعيد • والواقع ان الرسول ناله كثير من الاذى والسخرية التي كان يقوم بها بعض الاشخاص ضده ، كتسميته أبي كبشة^(١) ، ومذمم^(٢) ، أو رمي الاوساخ في طريقه^(٣) ، أو رمى جيرانه بالحجارة عليه^(٤) ، بل بلغ الامر حدا ان حاول أبو جهل مرة رميه بالحجارة^(٥) ، كما حاول مرة أخرى خنقه ، وكان ذلك (أشد ما رأيت قريشا بلغت منه قط^(٦)) •

على ان الرسول لم يعدم حماية ونصيراً ، وخاصة من عشيرته ؛ اذ ان النظام القبلي السائد آنذاك كان يقضي بهذا التأييد ، فلو تخلت عن الرسول عشيرته لربما استهانت بها بقية العشائر وتجرات عليها في ذلك المجتمع الذي يفتقد السلطة المركزية العليا الملزمة •

والواقع ان عمه ابا طالب لم يرض بالتخلي عن حمايته عندما حاول المشركون اقناعه بذلك^(٧) ، و (حين رأى قريشا تصنع ما تصنع في

(١) تفسير الطبري : ج ١٥ ص ٧٥ المحبر : ص ١٢٩ الجاحظ :
العثمانية ص ٧١ •

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٧٩ •

(٣) الطبري : ج ٢ ص ٢٢٩ •

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢٥ •

(٥) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١٨ •

(٦) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١١ الطبري : ج ٢ ص ٢٢٣ •

(٧) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٧٦ - ٢٨٠ ، ٢٨٦ ج ٢ ص ٢٦ •

الطبري : ج ٢ ص ٢١٨ - ٢٢١ تفسير الطبري : ج ٧ ص ٢٠٧ •

بني هاشم وبني المطلب ، فدعاهم الى ما هم عليه من منع رسول الله (ص) والقيام دونه ، فاجتمعوا اليه وقاموا معه ، وأجابوا الى ما دعاهم اليه من الدفع والقيام دونه ، فاجتمعوا اليه وقاموا معه ، وأجابوا الى ما دعاهم اليه من الدفع عن رسول الله (ص) الا ما كان من أبي لهب . فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره من جدهم معه ، وحدهم عليه جعل يمدحهم ويذكر فضل رسول الله فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم^(١) . ثم أن الحمزة عم النبي عندما سمع بنطاول أبي جهل على الرسول ، جاء يريد الانتقام لابن أخيه ثم أسلم^(٢) .

لم تقتصر هذه المقاومة على الرسول وحده ، بل شملت بقية المسلمين أيضا ، حيث قام المشركون بعدة محاولات لا يذائهم وفنتهم ، وقد أشار القرآن الى ذلك ، كما ذكرت الكتب بعض الاخبار عنها فكان (أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش ، اذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنه وخزاه وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهم حلمك ، ولنفيين رأيك ، ولنضعن شرفك . وان كان تاجرا قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك . وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به^(٣)) . وهذا النص يشهد الى الوسائل التي كانت تتخذ ، أو يراد اتخاذها من ضغط اجتماعي واقتصادي ، ومن ايذاء للضعفاء .

ومع وجود اشارات في الكتب الى الاذى الجسماني الذي وقع على بعض القرشيين ، كالتطاول على أبي بكر واقرائه بطلحة بن عبيد الله مرة ، الا ان الراجح ان هذا كان قليلا نسبيا ، وانه اذا حدث ضغط على مسلم فانه يحدث من قبل العشيرة ، لان العشيرة هي السلطة الوحيدة التي يمكن أن تفرض العقوبات على الفرد . وجدير بالملاحظة انه لم تذكر أية محاولة لنفيهم ، كما ان ما روي من ايذاء كان قليلاً نسبياً على الصلية .

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٢٠ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٨١ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١٢ - ٣١٣ . الطبري : ج ٢

ص ٢٢٤ .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٤٢ .

غير انه رويت أخبار عن كثير من الاذى وقع على المستضعفين وهم على ما يقول الواقدي (قوم لا عشائر لهم بمكة وليست لهم منعة ولا قوة فكانت قریش تعذبهم في الرمضاء بأنصاف النهار ليرجعوا عن دينهم^(١)) وقد رويت أخبار كثيرة عن تعذيب بعض هؤلاء أمثال عمار بن ياسر ، وصهيب الرومي وأبو فكيهة وبلال الحبشي^(٢) .

ويلاحظ ان هؤلاء من العبيد الذين لأسيادهم الحق في عقابهم ، وانهم أبدوا تمسكاً في دينهم ، وقد قام كثير من المسلمين يعملون على تحريرهم لتخليصهم مما ينالون من أذى ، فأعتق أبو بكر هلالاً وعامراً بن فهيرة وأم عيسى وزنيرة والنهدية^(٣) وابنتها . ويبدو ان الاعتاق كان يخلص العبد من الاذى .

ويظهر ان محاولاتهم قد ظفرت ببعض النجاح خصوصاً فيمن لم يكن قلبه متمكناً فيه الايمان . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك « ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا اؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين » (العنكبوت ١٠) .

الهجرة الى الحبشة :-

لقد كان لهذه الازمة أثر على الجماعة الاسلامية ، وكان لابد للرسول من معالجتها . وقد أورد الطبري في تاريخه نص كتاب لعروة بن الزبير الى عبد الملك بن مروان قال فيه (أما بعد فانه ، يعني رسول الله (ص) ، لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي انزل عليه لم يبعدوا منه أول ما دعاهم وكادوا يسمعون له حتى ذكر طواغيتهم ، وقدم ناس من الطائف من قریش

(١) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١٧٧ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٣٩ - ٣٤٣ . تفسير الطبري : ج

١٤ ص ١٠٥ . الجاحظ : العثمانية ص ٢٩ .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ . الجاحظ : العثمانية

ص ٣٣ ، ١٠٣ .

لهم أموال ، وانكروا ذلك عليه واشتدوا عليه وكرهوا ما قال وآغروا به من أطاعهم ، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه الا من حفظه الله منهم وهم قليل فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث . ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم واخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله (ص) من أهل الاسلام ، فافتن من افتن وعصم الله منهم من شاء . فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله (ص) أن يخرجوا الى أرض الحبشة ، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي لا يظلم أحد بأرضه وكان يثنى عليه مع ذلك صلاح ، وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً فأمرهم بها رسول الله (ص) فذهب اليها عامتهم لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن ، ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم . ثم انه فشا الاسلام فيها ودخل فيها رجال من أشrafهم^(١) .

ويقول ابن اسحق (فلما رأى رسول الله (ص) ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، لمكانه من الله ومن عمه ابي طالب وانه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يظلم أحداً وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله مخافة الفتنة وفراراً الى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة في الاسلام^(٢)) .

«

المهاجرون :

يروى ابن سعد ان الهجرة الى الحبشة كانت على دفعتين احدهما مكونة من احد عشر رجلاً ، وقد بقوا فيها أمداً حتى سمعوا يعقد الصلح بين الكفار والرسول على أثر قصة الغرانيق ، فعادوا وتبين لهم عدم صحة

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٢١ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٤٣ .

ما سمعوا ، ثم حدثت الهجرة الثانية بعد ذلك ، وكانت تشمل ثلاثة وثمانين شخصا^(١) .

أما ابن اسحق فيروي أسماء عشرة من المسلمين ، ويقول (فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين الى أرض الحبشة فيما بلغني . قال ابن هشام : وكان عليهم عثمان بن مضعون فيما ذكر لي بعض أهل العلم . قال ابن اسحق ثم خرج جعفر بن أبي طالب (رض) وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه^(٢)) .

ومما يؤيد رواية ابن اسحق عن أن الهجرة حدثت تدريجيا ما رواه ابن سعد عن بنت خالد بن سعيد بن العاص (وكانت وابوها من مهاجري الحبشة) أذ قالت (قدم علينا عمي عمرو بن سعيد أرض الحبشة بعد مقدم أبي بسنتين فلم يزل هناك حتى حمل في السفينتين مع أصحاب رسول الله (ص) فقدموا على النبي وهو بخير^(٣)) .

وقد كان هؤلاء المهاجرون من مختلف القبائل : فمن بني هاشم واحد ، ومن عبد بن قصي واحد ، ومن نوفل واحد (حليف) ، ومن عبدشمس اثنان (واحد حليف) ، ومن تيم اثنان ، ومن أسد بن عبد الغزي أربعة ، ومن عدي خمسة (منهم واحد حليف) ، ومن أمية سبعة (منهم أربعة حلفاء) ، ومن زهرة سبعة (منهم ثلاثة حلفاء) ، ومن عبدالدار سبعة ، ومن مخزوم ثمانية (منهم واحد حليف) ، ومن عامر سبعة (منهم واحد حليف) ، ومن الحارث بن فهر ثمانية ، ومن جمح اثنا عشر ، ومن سهم أربعة عشر (منهم واحد حليف^(٤)) .

ويلاحظ ان عدد من هاجر من القبائل التي اشتركت في تكوين حلف

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٣٦ - ١٣٨ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٤٥ .

(٣) ابن سعد : ج ٤ قسم ١ ص ٧٣ .

(٤) انظر قائمة أسماءهم في آخر هذا الفصل .

الفضول قليل نسيها ، وانَّ غدد من كان من قبائل حلف لعقة الدم (وهم مؤيدو بني عبدالدار في خصومتهم ضد هاشم) كبير .

دوافع الهجرة :

لقد ناقش مونتجومري وات خمسة افتراضات عن سبب الهجرة الى الحبشة وملخصها^(١) :

(١) السبب الاول هو تجنب الاضطهادات والضغط الذي قام به المشركون على المسلمين في مكة . وهذا السبب هو الذي ارتآه كل من عروة ابن الزبير وابن اسحق في كتابيهما اللذين ذكرناهما آنفا . ومما يؤيد هذا السبب هو ان المسلمين الذين لم يهاجروا أكثرهم من بني هاشم والمطلب وزهرة وتيم وعدي الذين كانوا قد كونوا حلف الفضول ، اما الذين هاجروا فكان منهم كافة مسلمي بني مخزوم وعبد شمس (الا اثنين هما الارقم المخزومي الذي كان قويا متفذا ، وابا أحمد بن جحش حليف عبد شمس الذي كان أعمى) .

ولكن يرد على هذا بالتساؤل عن سبب بقاء بعض المهاجرين في الحبشة الى السنة السابعة للهجرة^(٢) ، وعدم عودتهم الى المدينة بعد هجرة الرسول إليها حيث لقي ترحيبا وتأيدا ؛ مع انه لم يرو عن الرسول انه أوعز اليهم بالبقاء حتى ذلك الزمن المتأخر .

(٢) والسبب الثاني الذي يمكن أن تفسر به الهجرة الى الحبشة ، هو لتجنب احتمال فتنهم نتيجة الاضطهاد . ولكن مما يضعف قيمة هذا السبب هو ان المهاجرين الى الحبشة هم من أول المسلمين ، وقد عرفوا بقوة ايمانهم ، الذي لا يقل قوة عن ايمان من لم يهاجر ، فلا يعقل أن يخشى الرسول عليهم دون غيرهم من الفتنة أو يحرص على تخليصهم من الاضطهاد

(١) كتاب د محمد في مكة ، ص ١١٣ - ١١٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤١٧ ، الطبري ج ٢ ص ٢٢٩ .

الذي لو وقع عليهم وهم أقوياء الايمان ، لزاد من تمسكهم بعقيدتهم ولصاروا مثلاً أعلى يستشيرهم الباقين وتقديرهم • ثم ما هي نتيجة الهجرة الى الحبشة ؟ وكيف تخلصهم وهم سيمودون ان عاجلاً أو آجلاً الى مكة •

(٣) والسبب الثالث الذي يمكن افتراضه هو انهم ذهبوا الى الحبشة للقيام بالتجارة بعد أن سدت أبوابها أمامهم في مكة • وقد يؤيد هذا الرأي ما رواه ابن اسحق من أن أبا جهل كان يهدد من يعتقد الاسلام باكساد تجارته واهلاك ماله^(١) كما يؤيده ما جاء في رسالة عروة بن الزبير من انه (كانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمنًا ومتجراً حسناً) • غير أنه لاشك ان الرسول كان يحرص على العقيدة أكثر من حرصه على أوضاعهم التجارية ، فلا بد أن تكون هجرتهم لامر متعلق بالدعوة •

(٤) والافتراض الرابع الذي يمكن به تفسير الهجرة الى الحبشة هو ان أهل مكة كانوا رغم حيادهم ، يتاجرون مع الساسانيين الذين كانوا آنذاك قد استولوا على سوريا وفلسطين ومصر ، مما جعل موقفهم ضاراً بالروم ومؤيديهم من الاحباش ، لذلك أراد الرسول أن يقوي علاقته مع الاحباش الذين ربما لم يرضهم موقف القرشيين من الساسانيين • ولعل الرسول أراد أن يحول عن مكة بعض تجارتها ، ويعزلها في عالم التجارة الدولية ، فيجعل التجارة بيد المسلمين الذين يصبح مركزهم الحبشة مما تتضرر به مكة • وقد يؤيد هذا ان الآية الاولى من سورة الروم تظهر عطف المسلمين على الروم ذوي الصلة بالاحباش في صراعهم مع الفرس « الم • غلبت الروم • في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون • في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم • وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم ١ - ٦) • ويروي الطبري في تفسيره عدة روايات تبين ان المشركين كانوا يميلون الى الفرس ويتمنون انتصارهم وان المسلمين كانوا يريدون

انتصار الروم^(١) ، ولعل إرسال المشركين لوفد منهم يطلب من النجاشي^(٢) رد المسلمين كان يدفعه خوفهم من احتمال تأثير المسلمين في سياسة الاحباش تجاه مكة مما يضر بموقف مكة . غير أن هذا الافتراض لا يفسر لماذا بقي بعض المسلمين في الحبشة الى السنة السادسة من الهجرة .

(٥) والافتراض الخامس الذي يرجحه وات هو أن الهجرة حدثت بسبب احتمال حدوث انقسام بين جماعة المسلمين في مكة ، ويعتمد في رأيه على أساس أن عثمان بن مضعون هو الذي قاد الجماعة الاولى من المهاجرين الى الحبشة ، وأنه كان قد حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، ثم جاء الى الرسول على رأس جماعة ليعلمن اسلامه ، وان لم تكن له مكانة كبيرة في المجتمع الاسلامي فيما بعد ، وقد روي عن عمر انه عابه على موته في فرائضه^(٣) . كما ان خالد بن سعيد بن العاص وهو من أبرز أوائل المسلمين وابن أبي احيحة الذي كان من أغنى أهل مكة لم يعودا من الحبشة الا في سنة ٦هـ^(٤) ، وان نعيماً بن عبدالله النحام العدوي كان من أوائل المسلمين البارزين لم يهاجر الى المدينة الا في السنة السادسة^(٥) . ثم ان عبيدالله بن جحش وهو أحد مهاجري الحبشة تنصر هناك^(٦) . والحق ان في القرآن آية توضح ان بعض المسلمين لم يهاجروا الى المدينة « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون

(١) تفسير الطبري : ج ٢١ ص ١١ - ١٦ أنظر أيضا ج ٨ ص ١٢ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٥٦ فما بعد .

(٣) انظر ترجمته في ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢٨٦ - ٢٩١ . انظر

كذلك تفسير الطبري ج ٧ ص ٦ .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٣ ص ٤١٧ . ابن سعد : ج ٤ قسم ١

ص ١٤٤ .

(٥) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١١٢ .

(٦) سيرة ابن هشام : ج ٣ ص ٤١٧ .

سيلا فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفورا » (النساء ٩٧ - ٩٩) •

يستنتج وات من هذه الاخبار القليلة التي ساقها حدوث خلاف في الرأي بين المسلمين ، وخاصة مع أبي بكر الذي كانت له مكانة قوية عند الرسول ، ويرى ان الرسول أوعز لمخالفني أبي بكر بالهجرة الى الحبشة تحاشيا للاخطار التي قد تنجم من هذا الخلاف •

غير ان الادلة التي يسوقها وات ليست قوية ، فان بعض من هاجر الى الحبشة كعثمان وطلحة كانوا من أصحاب أبي بكر ، وتروي بعض الروايات ان أبا بكر هو الذي جاء بهم الى الرسول ليسلموا كما ان اختفاء أسماء بعض المسلمين الأول المهاجرين وعدم لعبهم دورا رئيسيا في السياسة فيما بعد وخاصة في عهد أبي بكر لا يمكن أن يعزى الى خلافهم معه فقط ، بل قد يرجع الى انشغالهم بأمور أخرى في الحياة • والواقع ان أبا بكر استعان بكثير ممن أسلم عند فتح مكة أو بعدها ، وبأولاد كثير ممن قاوم الاسلام ، فجيوش الاسلام الكبرى في زمن أبي بكر كان يقودها عكرمة بن أبي جهل الذي أسلم بعد فتح مكة وكان أبوه على رأس المقاومين للرسول ، ويزيد وهو ابن أبي سفيان رئيس مكة وقائد جيوشها في أحد والخندق ، وعمرو ابن العاص الذي أرسله القرشيون الى النجاشي ليفاضه على اخراج مهاجري المسلمين ، وخالد بن الوليد الذي كان قائد خيالة المشركين في غزوة أحد ، وهذا الاخير ان أسلم في السنة السادسة للهجرة • فلو أهمل أبو بكر رجلا لماضيه ، لكان الاجدر به أن يهمل هؤلاء ولا يسلمهم قيادة الجيوش الاسلامية التي أحسنوا قيادتها •

والواقع ان الآيات القرآنية توحى بأن دافع الهجرة هو الاضطهاد الشديد الذي وقع على المسلمين والمحاولات التي بذلها المشركون لقتلهم ، وانها هي التي دفعت الرسول الى الابعاز اليهم بالهجرة « ألم • أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون • ولقد فتنا الذين من قبلهم

فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (العنكبوت ١ - ٣) « ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » (البروج ١٠) « ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا اوذى في الله جعل فتنه الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين » (العنكبوت ١٠) « وقالوا أن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمنا يجبي اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون » (القصص ٥٧) « قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (الزمر ١٠) « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبؤنهم في الدنيا حسنة والآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » (النحل ٤١) « ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم » (النحل ١١٠) •

انا وان كنا لا نستطيع التأكد من ان هذه الآيات نزلت في الهجرة الى الحبشة الا ان المؤرخين يجمعون على ان الاضطهاد الشديد والفتنة وقعت على المسلمين قبيل الهجرة ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن معظم هذه الآيات تتعلق بالهجرة الى الحبشة ، وتحملنا على ترجيح الاضطهاد وخوف الفتنة كسبب رئيسي للهجرة الى الحبشة •

حياة المهاجرين في الحبشة :

ليست لدينا معلومات وافية عن حياة المهاجرين في الحبشة • وتتفق الروايات على ان التجاشي وفر لهم ملجأ سياسيا ولم يضطهدهم ، ولكن ليس هناك دليل على انه قدم لهم منحا أو هبات • ولما كان هؤلاء المهاجرون من أهل مكة التي عرف أهلها بالنشاط التجاري ، فمن المرجح أنهم ، أو بعضهم ، ساهم بالتجارة وأعمال البيع والشراء ، واستطاع ان يكسب قوته منها • ولعل من أهم أسباب تأخر البعض عن العودة الى المدينة هو اشتغالهم بالتجارة •

العودة من الحبشة :

يروى ابن اسحق انه بلغ أصحاب رسول الله (ص) الذين خرجوا الى أرض الحبشة اسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى اذا دنوا من مكة بلغهم ان ما كانوا تحدثوا به من اسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل منهم أحد الا بجوار أو مستخفيا فكان ممن قدم عليه مكة منهم فأقام بها حتى هاجر الى المدينة فشهد معه بدرا ومن حبس عنه حتى فاته بدر وغيره ومن مات بمكة (ثم يذكر أسماءهم) • فجميع من قدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلا^(١) • ويؤيد الطبري في رواية عن ابن اسحق ذلك ويضيف انهم جاؤوا لما بلغهم من اسلام أهل مكة حين سجدوا مع رسول الله (ص) على أثر قصة الغرانيق^(٢) •

وفي السنة السادسة للهجرة بعث رسول الله (ص) الى الجاشي عمرو ابن أمية الضمري فحمل من بقي من المسلمين في سفيتين وتقدم بهم الرسول (ص) وهو بخير بعد الحديدية ، وكان عددهم ستة عشر رجلا ، عدا النساء^(٣) •

ويذكر ابن اسحق أسماء من توفي في الحبشة وعددهم سبعة^(٤) •

مجموع عدد من عاد قبل الهجرة ، وعند خير ، ومن توفي يبلغ ستاً وخمسين رجلا ، أما الباقيون وهم جميع من تخلف عن بدر ولم يقدم على رسول الله (ص) مكة ومن قدم بعد ذلك ولم يحمل النجاشي في السفيتين أربعة وثلاثون رجلا ، واذا طرحنا من هذا الرقم من توفي وهم سبعة بقي سبعة عشر لا تذكر هذه الروايات متى عادوا • سوى أربعة منهم اشتركوا في

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٨٨ - ٣٨٩ ، ٣٩١ •

(٢) الطبري : ج ٢ ص ٢٢٧ •

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٣ ص ٣١٧ ، ٤١٤ • الطبري : ج ٢ ص

٢٢٩ • ابن سعد : ج ٤ قسم ١ ص ١٧٩ •

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٣ ص ٤٢٢ •

معركة احد مما يدل على أنهم عادوا الى المدينة في زمن لم تعينه المصادر وهم قيس بن عبدالله ، وأبو الروم بن عمير ، وأبو قيس بن الحارث ، وسليط ابن عامر .

المقاطعة :

لم تؤد الهجرة الى الحبشة الى حل الازمة القائمة بين المسلمين والمشركون ، اذ بقي الرسول والمسلمون الاول في مكة وهم ثابتون على ايمانهم و متمسكون بمبادئهم لا يحدون عنه . كما ان المشركون لم يوقفوا أعمالهم العدائية تجاه الرسول والمسلمين . والواقع ان الاذى والاضطهاد من شأنه أن يصهر من يقع عليهم فيزيد من تماسكهم وتكتلهم ويثير عطف الناس عليهم ، والواقع ان الحمزة وعمر بن الخطاب أسلما في هذه الفترة فكان اسلامهما نصرا للمسلمين ، نظرا لما لهما من نفوذ وقوة وقدرة على معاونة المسلمين ، لذا يمكن القول بأن تلك المحاولات لم تحقق ما استهدفته من نجاح .

يقول ابن اسحق (فلما رأت قريش ان أصحاب رسول الله قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا (في الحبشة) وان النجاشي قد منع من لجأ اليه منهم ، وان عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبدالمطلب مع رسول الله (ص) واصحابه وجعل الاسلام يفسو في القبائل ، اجتمعوا واثمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب ، على أن لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوا في صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على انفسهم . وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار بن قصي (ويروي ابن هشام انه يقال النضر بن الحارث) فدعا عليه رسول الله (ص) فثقل بعض اصابعه . فلما نزلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب الى أبي طالب فدخلوا

معه في شعبه فاجتمعوا اليه • وخرج من بني هاشم أبو لهب عبدالعزيز بن عبدالمطلب الى قريش فظاهرهم^(١) •

دوافعها :

ويلاحظ ان هذا النص الذي لا نعرف نصا غيره عن المقاطعة ، يبين ان المقاطعة لم تكن موجهة للمسلمين ، بل الى بني هاشم ثم إل بني المطلب • ولا ريب ان المسلمين لم يكونوا مقصورين على هاتين العشيرتين وحدهما ، بل كانوا من كافة العشائر ، كما ان بني هاشم وبني المطلب لم يكونوا كلهم من المسلمين • فلو كانت المقاطعة موجهة للمسلمين وحدهم ، لكان من الواجب أن تشمل كافةهم من مختلف القبائل ، وأن يخرج منها المشركون من بني هاشم وبني المطلب ، واذا كانت حماية بني هاشم للإسلام هي الدافع الرئيسي للمقاطعة فلماذا أدخل فيها بنو المطلب ؟ ان هذه الاسئلة تحملنا على الاعتقاد بأن هناك أسبابا أخرى للمقاطعة غير مجرد حماية بني هاشم للرسول •

ويمكننا أن نستنتج الدوافع الأخرى من دراسة نقض الصحيفة ، فيروي ابن اسحق (ثم انه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب نفر من قريش ، ولم يبل فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة •• بن عامر بن لؤي ، وذلك انه كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، وكان هشام لبني هاشم واصلا وكان ذا شرف في قومه ، ثم انه مشى الى زهير بن أبي امية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ، وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب ، فقال ، يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتتكح انساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ، أما اني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٧١ - ٣٧٢ • الطبري : ج ٢ ص

٢٢٥ انظر أيضا ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٢٥ ، ١٣٥ •

منهم ما أجابك اليه أبدا ، قال ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ انما أنا رجل واحد والله لو كان معي رجل آخر لقيمت في نقضها حتى انتقضها ، قال قد وجدت رجلا ، قال فمن هو ، قال أنا ، قال له زهير أبغنا ثالثا ، فذهب الى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له يا مطعم أفد رضىت أن يهلك بطناذ من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدهم اليها منكم سراعا ، قال ويحك فماذا أصنع انما أنا رجل واحد ، قال قد وجدت ثانيا ، قال من هو ، قال أنا ، قال ابغنا ثالثا ، قال قد فعلت ، قال من هو ، قال زهير بن أبي امية ، قال ابغنا رابعا ، فذهب الى أبي البخري بن هشام ، فقال له نحوا مما قال للمطعم بن عدي ، فقال وهل من أحد يعين على هذا ، قال نعم ، قال من هو ، قال زهير بن أبي امية والمطعم بن عدي وأنا معك ، قال أبغنا خامسا ، فذهب الى زمعة بن الاسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه ، وذكر له قرابتهم وحققهم ، فقال له وهل على هذا الامر الذي تدعوني اليه من أحد ، قال نعم ثم سمى له القوم ، فاتعدوا له خطم الحجون التي بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير أنا ابدؤكم فأكون اول من يتكلم • فلما أصبحوا غدوا الى أنديتهم وغدا زهير بن أبي امية عليه حلة فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال يا أهل مكة انا نأكل الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكي لا يبايعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ، قال أبو جهل وكان في ناحية المسجد كذبت والله لا تشق ، قال زمعة بن الاسود أنت والله أكذب ما رضىنا كتابتها حين كتبت ، قال أبو البخري صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ، قال المطعم بن عدي صدقنا وكذب من قال غير ذلك نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها ، قال هشام بن عمرو نحوا من ذلك ، قال أبو جهل هذا أمر قضي بليل وتشوور فيه بغير هذا المكان وأبو طالب جالس في ناحية المسجد • فقام

المطعم بن عدي الى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها الا ما كان باسمك اللهم وهي فاتحة ما كانت تكتب قريش تفتتح بها كتابا اذا كتبت^(١) .

ومن هذا النص يتبين ان الذين قاموا بالدور الرئيسي في نقض الصحيفة هم هشام بن عمرو بن ربيعة (عامر بن لؤي) وزهير بن أبي امية (مخزوم) والمطعم بن عدي (نوفل بن عبد مناف) وأبو البخري بن هشام (عبدالعزيز) وزمعة بن الاسود (عبدالعزيز) ، وان هؤلاء استطاعوا أن يقنعوا الناس بوجوب ابطال المقاطعة ، ولعل اشارة أبي جهل الى أن هذا أمر قضى بليل وتشوور فيه بغير هذا المكان ، يدل على أنه شعر بأنهم قد مهدوا له مع قبائلهم في ذلك ، كما أن قولهم بأنهم ما رضوا كتابتها حين كتبت يوحى بأنهم يكونوا متحمسين قليلا لها ، لانها كانت تمس بالضرر بني هاشم وبني المطلب كلهم ، مع أن هؤلاء الذين مزقوا الصحيفة هم ممن ذكر اسمهم في عدة مناسبات كمعارضين للرسول ، مما يدل على أن الصحيفة لا يقتصر دافع كتابتها على المسلمين فحسب ، بل ان هناك دوافع أخرى لها ، وان مسألة الاسلام هي حجة لتنفيذ سياسة ذات أهداف أخرى تصيب بني هاشم والمطلب ، ويلاحظ ان أشد المدافعين عنها هو أبو جهل (من مخزوم) ، ولعل الدافع اليها هو حسد بني هاشم على مكائهم ومحاولة اضعافهم لتحل مخزوم محلها ، ثم اتخذ الاسلام حجة لتبرير هذا الحلف ضد هاتين العشيرتين ، وربما كان بنو امية ممن لعبوا دورا في انشاء هذا الحلف ضد بني هاشم وان كون معظم مهاجري الحبشة من بني امية ومن القبائل التي لم تشترك في حلف الفضول دليل على أن هذه المقاطعة هي حركة سياسية موجهة ضد بني هاشم الذين سترداد مكائهم بانتشار الاسلام وازدياد اتباع الرسول الذي هو منهم .

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٩٧ - ٣٩٩ . أنظر أيضا الطبري :

ج ٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٤١ .

أثرها :

لقد دامت المقاطعة حوالي ثلاث سنوات^(١) ، ولكنها لم تكن ناجحة ، فقد كانت تصل اليهم سرًا بعض الأشياء يخفيها من أراد صلتهم من قريش ، وقد روى من أسماء من كان يصلهم حكيم بن حزام^(٢) ، وهو ابن أخي خديجة زوجه الرسول ، وكذلك أبو البخري الذي دافع عن عمل حكيم عندما أداد أبو جهل منعه من امداد المسلمين^(٣) ، والراجح ان هناك آخرين كانوا يمدونهم بالمساعدة •

ثم ان تجاراتهم لم تقف ، فقد كانوا يخرجون في المواسم ليتابعوا مع القبائل^(٤) ، الامر الذي جعل هذه المقاطعة غير تامة • ولما كانت هذه المقاطعة موجهة ضد بني هاشم والمطلب ، فان المسلمين من العشائر الأخرى لم يكونوا داخلين فيها ، فكانت لهم حرية التجارة ، ونظرا لروابطهم الدينية باخوانهم المسلمين ، فمن المحتمل انهم كانوا يمدون اخوانهم ، وربما يتاجرون لهم ، مما جعل هذه المقاطعة لا تحقق أغراضها تماما ، فلم تقض على المسلمين ولا على مكانة بني هاشم •

ولكن نظرا الى أن الحجة الرئيسية للمقاطعة هي حماية المسلمين ، وانه كان لها تأثير سيء في أعمال بني هاشم ، فالراجح انهم ادرکوا الاضرار التي تنجم عن استمرار حمايتهم للرسول • ويبدو انهم بعد موت أبي طالب بدأوا يتخلون عن حماية الرسول ، ويتجلى هذا من الاحداث التالية •

وفاة خديجة وأبي طالب :

لم تؤثر المقاطعة في الرسول مثلما أثرت فيه وفاة خديجة وأبي طالب

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٧٥ • ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٢٥ ، ١٤١ •

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٧٥ - ٣٧٦ •

(٣) مصعب الزيري : نسب قريش ص ٢١٣ :

(٤) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٤١ •

بعد انتهاء المقاطعة بأمد قصير^(١) . وقد خسر في خديجة الزوجة الوفية المشجعة والمناصرة ، والتي كان من ثروتها وعشيرتها ما يعين الرسول . اما أبو طالب فقد كان عمه الذي رعاه وحامى عنه ، وصد كثيرا مما حاولت قريش والمشركون إلحاقه به . ولعل أبا طالب هو العامل الأكبر في استنهاض همم بني هاشم لمساندة الرسول وحمايتهم له ، فلما مات خفت هاشم من تأييدها^(٢) ، وربما أدركت بعد المقاطعة ما يصيبها من أضرار مادية ومعنوية اذا استمرت في حمايته ، لذا أخذت تتخلى عن ذلك ؛ ويتجلى هذا واضحا مما يرويه الطبري من ان الرسول بعد رجوعه من الطائف عرض على الاخنس بن شريق الثقفي (حليف بني زهرة) ، ثم على سهل بن عمرو (بني عامر) أن يجيراه فلم يوافقا ، فعرض ذلك على مطعم بن عدي (بني نوفل) أن يجيره عند رجوعه الى مكة^(٣) . وهؤلاء الاشخاص كلهم ليسوا من بني هاشم ، الامر الذي يدل على انه كان يعلم أن بني هاشم قد تخلوا عن نصرته .

محاولة بث الدعوة في الطائف :

ان هذه الاحوال والاحداث اقنعت الرسول بعدم جدوى الاستمرار في الاعتماد على بث الدعوة في مكة ، وبضرورة البحث عن ميادين أخرى لنشرها ، لذلك التفت الى الطائف ، وهي بلدة تقع على مسافة ستين ميلا من مكة ، في أرض تتوفر فيها الينابيع والمياه ، وتكثر فيها المزارع والبساتين ، وخاصة الكروم والاعناب . وكان سكانها منقسمين على أنفسهم ، وفيهم عشيرتان بارزتان هم بنو مالك والاحلاف . فاما بنو مالك فكانت علاقتهم وثيقة بهوازن ، وأما الاحلاف فكانت علاقتهم أوثق بمكة .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢٥ .

(٢) يروي ابن سعد ان أبا لهب ، الذي صار زعيم آل عبدالمطلب بعد وفاة أبي طالب وعد أن يؤيد الرسول ، ولكنه تخلى عنه بعد أمد قصير (ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٤١) .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ٢٣١ . المحبر : ص ١١ .

وللطائف أهمية تجارية نظرا لما تنتجه من محاصيل ، ولوقوعها على طريق التجارة اليمنية ، وكانت لأهل مكة علاقة وثيقة بها ، فلبعضهم بساتين فيها^(١) وللبعض الآخر أموال موظفة وقروض تعطى بربا فاحش^(٢) . وفي الطائف أيضا كانت اللات وسدتها من بني مالك^(٣) .

لا توجد نصوص صريحة عن الدوافع التي دفعت الرسول لاختيار الطائف دون غيرها لنشر الدعوة بعد ما لاقاه من عقبات ومصاعب في مكة . وربما شعر الرسول بسوء استغلال المكيين لأهل الطائف ، أو انه لاحظ مصالح المكيين فيها فأراد أن ينشر بينهم الاسلام ليفصلهم عن أهل مكة ويهدد بهم تجارة المكيين مع اليمن .

ومهما يكن الدافع ، فان الرسول وصل الطائف ، وفاوض ثلاثة من آل عبد ياليل ، فلم يلق منهم تأييدا ، بل (اغروا به سفاهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى حائط لعنة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه^(٤)) .

ايمان الجن :

يتبين مما تقدم ان الطائف لم تكن خيرا من مكة في تلقيها الدعوة الاسلامية ، لذا عاد الى مكة . وفي طريق عودته اليها وصل الى نخلة فوقف يصلي ، وقد سمعه نفر من الجن فآمنوا به^(٥) كما ذكر القرآن في سورة الجن « قل اوحى الى انه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا

(١) أوفى بحث عن الطائف هو الكتاب الذي ألفه عنها لامنس .
أنظر أيضا مقاله عن الطائف في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) تفسير الطبري : ج ٣ ص ٧٠ . سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٨ ، ٢٣ .

(٣) أنظر ص ١٥٩ .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢٩ - ٣٠ . الطبري : ج ٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٥) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٣١ . الطبري : ج ٢ ص ٢٣١ .

عجبا • • • » واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا ، فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين • قالوا يا قومنا انا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم • يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم • ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين • (الاحقاف ٢٩ - ٣٢) •

ولابد ان ايمان الجن بالرسول ورسالته قد عوض له بعض ما لقيه في الطائف ، كما شجعه على عدم قصر بث الدعوة على مكة وحدها ، بل الى محاولة نشرها بين القبائل الاخرى •

الاسراء :

وبعد رجوع الرسول الى مكة اسرى به الله تعالى^(١) ، كما جاء في القرآن الكريم « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » (الاسراء ١) • ويروي الطبري ان آيتين اخريين نزلتا في الاسراء « ولقد رآه نزلة أخرى • عند سدرة المنتهى • عندها جنة المأوى • اذ يغشى السدرة ما يغشى » (النجم ١٣ - ١٦)^(٢) » وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن « (الاسراء ٦٠)^(٣)

عرض الدعوة على القبائل :

ثم ان الرسول أخذ يعرض نفسه على القبائل في المواسم ويدعوها الى الاسلام ويروي ابن اسحق انه عرض الدعوة على كندة ، وبني عبدالله

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢ فما بعد •

(٢) تفسير الطبري : ج ٢٧ ص ٢٩ •

(٣) تفسير الطبري : ج ١٥ ص ٧٩ •

(احدى عشائر كلب) ، وحنيفة ، وعامر بن صعصعة^(١) ، وكل هذه القبائل تقيم في مناطق بعيدة عن مكة . ولا نعلم فيما اذا كان الرسول قد عرض نفسه على قبائل أخرى اغفل المؤرخون ذكرها لاسباب خاصة . ولكن المهم ان الدعوة لم تلق ترحيبا عندهم ، حتى لاقى فريقا من بني عبد الأشهل الخزرجيين القاطنين في المدينة ، فلقى منهم اذناً صاغية لدعوته^(٢) ، وفي السنة التالية بايعوه على أن يهاجر الى بلدهم ، فأخذ المسلمون يهاجرون اليها ، ثم هاجر هو نفسه ، وبدأت في تاريخ الاسلام صفحة جديدة ، فلا عجب أن اعتبرها المسلمون نقطة حاسمة في تاريخ الاسلام ، واتخذوها بداية للتقويم الذي ساروا عليه منذ ذلك الوقت الى ما شاء الله .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٣١ - ٣٤ . الطبري : ج ٢ ص ٢٢٢ .
(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٣٦ فما بعد .

أسماء المسلمين في مكة

ان القائمة التي نوردها أدناه تضم أسماء الرجال الذين أسلموا في العهد المكي وهاجروا الى الحبشة والمدينة واشتركوا في بدر • ولا يدخل فيها أسماء من أسلم ثم فتن أو من تخلف عن الهجرة الى المدينة نظرا لعدم امكان حصرهم •

وتضم هذه القائمة أيضا أسماء المشركين الذين قتلوا أو أسروا في بدر ، وهم لا يمثلون كافة المشركين ، لان فريقا غير قليل آذى الرسول أو اشترك في الغزوات والحروب الاخرى ضد المسلمين ، ولكن لم يساهم في بدر ، كما ان عددا غير قليل تراجع وانهزم من بدر دون أن يصيبه القتل أو الأسر •

لقد اعتمدت فيما أوردته من الاسماء على « سيرة الرسول » لابن هشام التي تضم ما أورده ابن اسحق مع اضافات كثيرة • وهي لا تختلف كثيرا عما أورده ابن سعد في كتاب الطبقات • وقد دقت قائمتي مع القائمة التي نشرها مونتجومري وات في الملحق الاخير من كتابه (محمد في مكة) وهي تعتمد على القوائم التي أوردتها كايثاني في كتابه « حوليات الاسلام » • ويعتمد كايثاني بدوره على ابن هشام وابن سعد مع بعض الاضافات الواردة في الكتب الاخرى • وهي اضافات قليلة جدا •

لقد صنف الاسماء في هذه القائمة حسب العشائر ، وربت العشائر تبعا لقرب صلتها من عشيرة الرسول ، وهو الترتيب الذي اتبعه المؤرخون الاول ، والذي هو أقرب الى روح ذلك العصر •

وقد رمزت لمهاجري الدفعة الاولى الى الحبشة (١) ، والى مهاجري الدفعة الثانية (٢) والى الذين عادوا قبل هجرة الرسول الى المدينة (ع) والى الذين عادوا في السنة السابعة ، عندما كان الرسول يغزو خيبر (خ) • أما الذين اشتركوا في بدر فقد رمزت اليهم (ب) • أما (ج) فتشير الى أن الشخص حليف للعشيرة •

الاسم عشيرة الأم الهجرة الى الحبشة الاشتراك
في بدر والعودة منها

بنو هاشم والمطلب :

الرسول	زهرة	ب
علي بن أبي طالب	هاشم	ب
الحمزة	زهرة	ب
جعفر بن أبي طالب	هاشم	ب
زيد بن حارثة . مولى	اخ	ب
أبو مرثد	ح (غني)	ب
مرثد بن أبي مرثد ح (غني)		ب
أنسه . مولى		
أبو كبشة . مولى		
عبدة بن الحارث بن المطلب	ثقيف	ب
الطفيل	»	ب
الحصين	»	ب
مسطح بن اثانة	المطلب	ب

وقد أسر من كفارهم في بدر السائب بن عبيد بن عبد يزيد ، ونعمان
ابن عمرو بن علقمة ، وعبيد بن عمرو بن علقمة ، وعقيل والعباس ،
وأربعة من حلفائهم .

بنو عبد شمس :

عثمان بن عفان	عبد شمس	ب
أبو حذيفة بن عتبة	كنانة	ب
خالد بن سعيد بن العاص	كنانة	ب
	٢خ	

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
عمرو بن سعيد	مخزوم	٢خ	
عبدالله بن جحش	ح خزيمة	٢ع	ب
أبو زيد بن رقيش	»		
عكاشة بن محصن	»		
أبو سنان بن محصن	»		
شجاع بن وهب	»		
عقبة بن وهب	»		
ربيعه بن اكنم	»		
محرز بن نضلة	»		
أربد بن حمير	»		
سنان بن أبي سنان	»		
مالك بن عمرو	ح سليم		
مدلاج بن عمرو	»		
ثقف بن عمرو	»		
أبو أحمد بن جحش	ح خزيمة		
عمرو بن محصن	»		
سعيد بن رقيش	»		
قيس بن خابر	»		
منقذ بن نباتة	»		
الزبير بن عيدة	»		
تما م بن عيدة	»		

الاسم عشيرة الأم الهجرة الى الحبشة الاشتراك
والعودة منها في بدر

سخبرة بن عبيده ح خزيمة
محمد بن عبدالله بن جحش »

قتل من مشركيهم في بدر حنظلة بن أبي سفيان ، وعبيدة بن سعيد بن
العاص والعاص بن سعيد بن العاص ، وعقبة بن أبي معيط ، وعتبة بن ربيعة ،
وشيبه بن ربيعة والوليد بن عتبة • كما أسر منهم عمرو بن أبي سفيان ،
والحارث بن أبي وجزة ، وأبو العاص بن الربيع ، وأبو العاص بن نوفل ،
وخالد بن أسيد بن العاص واثنا عشر من حلفائهم ومواليهم •

بنو نوفل :

عتبة بن غزوان ح (سليم) ع٢ ب
جناب مولى عتبة ب

قتل من كفارهم في بدر الحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدي ، وأسر
منهم عدي بن الخيار واثنا من حلفائهم ومواليهم •

بنو اسد بن عبد العزى :

الزبير بن العوام هاشم ع٢ + ١ ب
الاسود بن نوفل عبد شمس ع٢ خ
عمرو بن أمية بن الحارث تيم ٢ (توفى)
يزيد بن زمعة بن الاسود مخزوم ؟ ٢
حاتب بن أبي بلنعة ح (لخم)
سعد مولى حاطب ب

قتل من كفارهم في بدر زمعة بن الاسود بن المطلب ، والحارث بن
زمعة ، وعقيل بن الاسود ، وأبو البخري بن هشام ، ونوفل بن خويلد •
وأسر منهم السائب بن أبي حبشة ، والحويرث بن عباد •

الاسم عشيرة الأم الهجرة الى الحبشة الاشتراك
والعودة منها في بدر

بنو عبدالدار :

ب	ع٢ + ١	عامر	مصعب بن عمير بن هاشم
	٩ ٢	رومية	أبو الروم بن عمير
ب	ع٢	خزاعة	سويبط بن سعد
	٩ ٢	تيم	فراس بن النضر
	خ٢	المطلب	جهم بن قيس
	خ٢		خزيمة بن جهم
	خ٢		عمرو بن جهم

قتل من كفارهم في بدر النضر بن الحارث ، وأسر أبو عزيز بن عمير
ابن هشام ، وثلاثة من الحلفاء والموالي . كما قتل سبعة منهم في غزوة أحد .

بنو عبد بن قصي :

ب	ع٢	هاشم	طليب من عمير
ب	ع٢ + ١	زهره	عبدالرحمن بن عوف
ب		عبدشمس	سعد بن أبي وقاص
ب		عبدشمس	عمير بن أبي وقاص
	خ٢	عبدشمس	عامر بن أبي وقاص
	٩ ٢	المطلب	المطلب بن أزره
ب	٩ ٢		مالك بن اهيـب
ب		زهره	ذو الشمالين عمير بن عمرو
ب	ع٢ + ١		عبدالله بن مسعود ح (هذيل)

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة	الاشتراك
		والعودة منها	في بدر
عتبه بن مسعود ح (هذيل)	٢خ		
المقداد بن عمرو ح (قضاعه)	٢ع		ب
خباب بن الأرت ح (خزاعه)			ب
مسعود بن ربيعة ح (القاره)			ب

بنو تيم بن مرة :

أبو بكر الصديق	تيم		ب
طلحه بن عبيدالله	حضر موت		ب
الخارث بن خالد	تيم	٢خ	
عمرو بن عثمان بن عمرو	تيم	٢ ؟	
صهيب مولى			ب
بلال بن رباح مولى			ب
عامر بن فهيرة مولى			ب

قتل من كفارهم في بدر عمير بن عثمان بن عمرو ، وعثمان بن مالك
ابن عبيدالله ، ومالك بن عبيدالله بن عثمان ، وعمرو بن عبدالله بن جدعان ،
وأسر منهم مسافع بن عياض وحليف واحد .

مخزوم :

أبو سلمة بن عبدالاسد	هاشم	١ع	ب
الارقم بن عبد مناف			ب
شماس بن عثمان	عبدشمس	٢ع	ب
عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة	تيم	٢ع	ب
سلمة بن هشام بن المغيرة	ربيعة	٢ع	

الاسم عشيرة الأم الهجرة الى الحبشة الاشتراك
والعودة منها في بدر

الوليد بن الوليد بن المغيرة	بجيلة	ع٢
هاشم بن أبي حذيفة بن المغيرة	مخزوم	ع٢
هبار بن سفيان	عامر	ع٢
عبدالله بن سفيان	عامر	ع٢
عمار بن ياسر مولى		ب
معتب بن عوف ح (خزاعة)		ب
عيهامة ح (خزاعة)		ع٢

قتل من كفارهم في بدر أبو جهل بن هشام بن المغيرة ، والعاص بن هشام بن المغيرة ، ومسعود بن أبي أمية بن المغيرة ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، ورفاعة بن أبي رفاعه ، والمنذر بن أبي رفاعه ، وعبدالله بن المنذر بن أبي رفاعه ، والسائب بن أبي السائب ، والاسود بن عبدالاسد ، وحاجب بن السائب بن عويمر ، وعويمر بن السائب بن عويمر ، وحذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة ، وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة ، وزهير بن أبي رفاعه ، والسائب بن أبي رفاعه ، وعائذ ابن السائب .

وقد أسر منهم في بدر خالد بن هشام بن المغيرة ، وأميه بن حذيفة بن أبي المغيرة ، والوليد بن الوليد بن المغيرة ، وعثمان بن عبدالله بن المغيرة ، وصيفي بن أبي رفاعه بن عابد ، وأبو المنذر بن رفاعه ، وأبو عطاء عبدالله بن أبي السائب ، والمطلب بن حنطب ، كما قتل وأسر ثمانية من حلفائهم .

بنو سهم :

خنيس بن حذافة	سهم	ع٢	ب
عبدالله بن حذافة	كنانة	٢ ؟	
أبو قيس بن حذافة	كنانة	٢ ؟	

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
هشام بن العاص	مخزوم	٢ ؟	
عبدالله بن الحرث	كنانة	٢ توفي	
السائب بن الحرث	كنانة	٢ ؟	
الحجاج بن الحرث	كنانة	٢ ؟	
أبو قيس بن الحرث	حضر موت	٢ ؟	
تيم بن الحرث		٢ ؟	
سعيد بن الحرث	جمع	٢ ؟	
معمار بن الحرث	جمع	٢ ؟	
الحرث بن الحرث		٢ ؟	
بشر بن الحرث		٢ ؟	
عمير بن رثاب	جمع	٢ ؟	
عميرة بن جزء ح (زبيد)		٢ خ	

قتل من كفارهم في بدر منبه ونيه ابنا الحجاج ، والعاص بن منبه بن الحجاج ، وأبو العامر بن قيس ، وعاصم بن أبي عوف ، وعامر بن أبي عوف ، والحاتر بن منبه بن الحجاج •

واسر منهم أبو وداعة بن ضيرة ، وفروة بن قيس بن عدي ، وحنظلة ابن قبيصة بن جذافة ، والحجاج بن الحرث • كما اسر أحد مواليتهم •

بنو جمع :

عثمان بن مضمون	جمع	١ + ٢ ع	ب
عبدالله بن مضمون	جمع	٢ ع	ب
قدامة بن مضمون	جمع	٢ ع	ب

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
السائب بن عثمان	سليم	٢ ع	ب
معمر بن الحرث	جمع	٢ ع	ب
حاتب بن الحرث	جمع	٢ توفي	
حطاب بن الحرث	جمع	٢ توفي	
محمد بن حاطب		٢ خ	
الحارث بن حاطب		٢ خ	
سفيان بن معمر	يمن	٢ ؟	
جابر بن سفيان		٢ ؟	
جنادة بن سفيان		٢ ؟	
نبيه بن عثمان		٢ ؟	

قتل من كفارهم في بدر امية بن خلف ، وعلي بن امية ، واوس بن مسير •

واسر منهم عمرو بن أبي ، وعمرو بن عبدالله ، ووهب بن عمير ، وربع بن دراج ، وأبي بن خلف وخمسة من حلفائهم ومواليهم •

بنو عدي :

عمر بن الخطاب	مخزوم	ب
زيد بن الخطاب	أسد	ب
سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل	خزاعة	ب
عمرو بن سراقه بن متمر	جمع	ب
نعيم بن عبدالله	عدي	
معمر بن عبدالله بن نضله	اشعر	٢ خ
عدي بن نضله بن عبد العزى	سهم	٢ توفي

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
عمرو بن أبي ائانه	عزة	٢ توفي	
عبد بن سراقه	جمع		ب
خارجة بن حذافة	عدي		
مالك بن خولى			ب
عامر بن ربيعة ح (عزّه)		١ + ٢ ع	ب
عافل بن المنكدر ح (كنانه)			
خالد بن المنكدر ح (كنانه)			
أياس بن المنكدر ح (كنانه)			
عامر بن المنكدر ح (كنانه)			
واقد بن عبدالله ح (تيم)			
خولى بن أبي خولى ح (مذحج)			
مهجع بن صالح مولى			

بنو عامر بن لؤي:

أبو سبرة بن أبي رهم	هاشم	١ + ٢ ع	ب
عبدالله بن مخرمه	كنانه	٢ ع	ب
أبو حاطب بن عمرو	أشجع	١ خ	
عبدالله بن سهيل	نوفل	٢ ع	ب
سليط بن عمرو	يمن	٢ ع	
السكران بن عمرو	خزاعه	٢ ع	
مالك بن زمعه		٢ خ	ب

الاسم عشيرة الأم الهجرة الى الحبشة الاشتراك
والعودة منها في بدر

وهب بن سعد بن أبي سرح
عمير بن عوف مولى
سعد بن خوله مولى

وقد اسر من مشركيهم في بدر سهيل بن عمرو ، وعبد بن زمعة ،
وعبدالرحمن بن منشاء ، وحبيب بن جابر ، والسائب بن مالك • واثنان
من حلفائهم •

بنو الحارث بن فهر :

أبو عبيده بن الجراح	الحارث	ع٢	ب
سهيل بن بيضاء	الحارث	ع٢ + ١	ب
صفوان بن بيضاء	الحارث		ب
معمر بن أبي سرح	عامر	ع٢	ب
حاطب بن عمرو			ب
عياض بن أبي زهير	الحارث	٢ ؟	
عمرو بن أبي عمرو			
عمرو بن الحارث	عامر	ع٢	ب
عثمان بن عبد غنم	زهره	٢ ؟	
سعيد بن عبد قيس		٢ ؟	
الحارث بن عبد قيس		٢ خ	
عمرو بن عبد غنم		٢ ؟	

اسر من كفارهم في بدر الطفيل بن أبي قنيس ، وعتبة بن عمر بن
ججدم ، كما اسر حليفان لهم •

المحتويات

١ - ٤ المقدمة

القسم الاول : الدول العربية القديمة

١ - الفصل الاول : الساميون

- الساميون ٧ • أساس تميزهم ٧ - ٩ • أصلهم : جويدي وبارتون وكايتاني ٩ - ١٢ • الهجرات السامية ١٣ • جغرافية جزيرة العرب ١٣ - ١٥ • تسمية العرب ١٥ •

٢ - الفصل الثاني : اليمن

- موقعها وأهميتها ١٧ - ١٨ • علاقتها بالعراق ١٨ • المعينيون ١٨ • القبتانيون ١٩ • حضارة المعينين ٢٠ • السبأيون ٢١ • المكارب ٢١ • سد مأرب ٢٢ - ٢٣ • تطور دولتهم ٢٣ • حملة اليوس كالوس ٢٥ • الملاحة في المحيط الهندي ٢٦ • الحميريون ٢٧ • المسيحية ٢٨ • غزو الاحباش الاول ٢٨ • التبابعة ٢٨ • اضطهاد المسيحية ٢٩ • الاحتلال الحبشي ٢٩ • الاحتلال السلطاني ٢٩ • مجيء الاسلام ٣١ • قائمة أسماء الملوك المعينين ٣١ - ٣٢ • السبأين ٣٣ - ٣٤ • الحميريين ٣٥ •

٣ - الفصل الثالث : بطرا والانباط

- تجارة الهند ٣٦ • الطرق التجارية ٣٦ - ٣٧ • أثرها في نشوء الحضارة ٣٨ • منطقة الاردن ٣٨ • علاقتها مع الآشوريين والاعريق والبطالسة ٣٨ - ٤٠ • دور التوسع والازدهار ٤٠ • الرومان ٤١ • سقوط دولة الانباط ٤١ - ٤٢ •

- مدنية الانباط : أهمية القوافل ٤٢ • الابنية ٤٣ • اللغة ٤٣ • الدين ٤٤ • قائمة أسماء ملوك الانباط ٤٥ •

٤ - الفصل الرابع : تدمير

- موقع تدمير ونشؤها ٤٦ • علاقتها بالسلوقيين والرومان ٤٧ • اذينة ٤٨ • الزباء ٤٩ • توسيع رقعة بلادها ثم سقوطها ٤٩ • الحضارة التدمرية : الطبقات الاجتماعية ٥٠ - ٥١ • الدين ٥١ - ٥٢ • الادارة ٥٢ - ٥٣ • العمران ٥٣ - ٥٤ • الزراعة ٥٤ • التجارة ٥٤ - ٥٥

٥ - الفصل الخامس : الفسائنة

- بادية الشام ٥٦ • أصل الفسائنة ٥٧ • الحارث بن جبلة ٥٧ • المنذر ٥٩ • تفكك الامارة ٦٠ • الامراء المتأخرون ٦٠ - ٦٢ • حضارة الفسائنة ٦٣

٦ - الفصل السادس : المناذرة

- حدود العراق الغربية ٦٤ • التتوخيون ٦٥ • مالك بن فهم ٦٥ • جذيمة ٦٥ • عمرو بن عدي ٦٦ • أمريء القيس ٦٦ • النعمان الاعور ٦٧ • المنذر بن ماء السماء ٦٨ • عمرو بن هند ٦٩ • النعمان أبو قابوس ٦٩ • ذي قار ٧٠ • المنذر الفرور ٧٢ • الحيرة في العهد الاسلامي ٧٢ - ٧٣

- حضارة المناذرة : الحيرة ٧٣ • السكان : عرب الضاحية ٧٤ • العباديون ٧٤ • الاحلاف ٧٤ • النبط ٧٥ • اليهود والفرس ٧٥ • بلاط المناذرة ٧٦ • الجيش ٧٦ • الصناعة ٧٧ • الدين ٧٨ • النصارى ٧٩ • التعليم الديني ٨٠ • قائمة ملوك المناذرة ٨١ - ٨٢

٧ - الفصل السابع : كندة

- أصل ملوكهم ٨٣ • حجر ٨٤ • عمرو المقصود ٨٥ • الحارث بن عمرو ٨٥ • حجر بن الحارث ٨٧ • امرئ القيس ٨٨ - ٩١ • حضارة كندة ٩١ - ٩٢

٨ - الفصل الثامن : مكة

- أميتها ٩٣ • مناخها ٩٣ • التجارة ٩٥ • مع العراق ٩٦ • مع

- الشام ٩٧ • مع الحبشة ٩٧ • مع اليمن ٩٨ • التجارة ٩٨ • الصيرفة ١٠٠ •
- الربا ١٠١ • الطبوغرافيا ١٠٢ • السكان ١٠٢ • قریش ١٠٣ • قصي ١٠٥ •
- قریش البطاح ١٠٥ • قریش الظواهر ١٠٨ • التنظيم السياسي والرؤساء ١٠٨ •
- دار الندوة ١١٠ • الوظائف الدينية ١١٢ • النسيء ١١٣ • الحجابة ١١٥ •
- عمارة البيت ١١٥ • الرفادة ١١٦ • السقاية ١١٨ • الامن والجيش ١١٨ • القضاء ١١٩ •

القسم الثاني : الحياة البدوية ونظمها

٩- الفصل التاسع : النظم البدوية قبيل ظهور الاسلام

- أهميتها ١٢٢ • في الدين الاسلامي ١٢٢ • في الدولة الاسلامية ١٢٢ •
- في الفكر الاسلامي ١٢٣ • في تاريخ الاسلام ١٢٣ • في التاريخ عامة ١٢٤ •
- عزلة الصحراء ١٢٤ • صفات البدوي ١٢٥ • القبيلة ١٢٧ • تطورها في العهد الاسلامي ١٢٨ •
- نظرية سمث ١٢٨ • أهمية النسب ١٢٩ • أسماء القبائل ١٣٠ • الطوطمية ١٣١ • القحطانيون والعدنانيون ١٣٢ •
- جدول بأهم القبائل ١٣٣ •

١٠ - الفصل العاشر : التنظيمات الاجتماعية عند البدو

- الصلية ١٣٤ • الحلفاء ١٣٤ • العيد ١٣٦ • المرأة ١٣٦ • الوأد ١٣٧ •
- مكانة المرأة ٣١٩ • الامومة ١٤٠ • الزواج ١٤١ • الزواج بالاباعد ١٤٢ •
- الزواج الداخلي ١٤٢ • المهر ١٤٣ • تعدد الزوجات ١٤٤ • التسرى ١٤٥ •
- نكاح الرهط ١٤٥ • المتعة ١٤٦ • الطلاق ١٤٧ • العدة ١٤٨ •
- المخادنة ١٤٨ • الزنا ١٤٩ • الفاحشة والسفاح ١٤٩ • البغاء ١٥٠ •

١١ - الفصل الحادي عشر : التنظيمات عند البدو

- القبيلة ١٥٢ • الفردية والتماسك ١٥٣ • العلاقات السياسية ١٥٤ •
- المجلس ١٥٥ • الرئيس ١٥٦ • صفات الرئيس ١٥٦ • واجباته ١٥٨ •
- العلاقات الخارجية ١٦٠ • الحروب ١٦٠ • المحالفات ١٦١ •

١٢ - الفصل الثاني عشر : المفاهيم القانونية عند البدو

- التقاليد ١٦٢ • القانون الجنائي : القصاص ١٦٢ • الخلع ١٦٢ •
- الثأر ١٦٣ • الدية ١٦٣ • الحكم ١٦٤ • تعديلات الاسلام ١٦٤ • السرقة ١٦٤ • الارث ١٥٦ •

١٣ - الفصل الثالث عشر : الدين الجاهلي (١) المعبودات

- الدين ١٦٦ • علاقة الآلهة بالمجتمع ١٦٦ • الاساطير ١٦٧ • العقلية البدائية ١٦٧ • مصادر دراسة الدين الجاهلي ١٦٨ • الاديان الخارجية ١٦٠ • ديانة مكة ١٧١ • عباد الله ١٧٢ • الشركاء ١٧٣ • بنات الله ١٧٣ • الحبث والطاغوت ١٧٥ • الجن ١٧٦ • هبل ١٧٧ • أساف ونائلة ١٧٩ • نهيك ومطعم الطير ١٨٠ • أصنام منى ١٨٠ • مناف ١٨١ • قزح ١٨١ • الغزي ١٨٢ • اللات ١٨٤ • مناة ١٨٤ • الشعري ١٨٦ • الشمس ١٨٧ • بلع ٨١٧ • ود ١٨٨ • سواع ١٨٨ • يغوث ١٨٩ • يعوق ١٨٩ • نسر ١٩٠ • ذو شرى ١٩٠ • الخلاصة ١٩١ • الفلس ١٩١ • آلهة أخرى ١٩١ • الاصنام ١٩٣ • الاوثان ١٩٤ • الانصاب ١٩٥ • الاشجار المقدسة ١٩٨ • الحرم ١٩٩ • البيوت المقدسة ٢٠١ • الكعبة ٢٠٢ •

١٤ - الفصل الرابع عشر : الدين الجاهلي (٢) الطقوس والعبادات ورجال الدين

- الحج ٢٠٧ • مواعده ٢١٠ • الحلة والحمس ٢١١ • الحمس ٢١٢ • الحلة ٢١٣ • الطلس ٢١٦ • طقوس الحج ٢١٦ • العمرة ٢٢٢ • الهدايا ٢٢٤ • أنواع الهدايا ٢٢٦ • البحيرة ٢٢٧ • السائبة ٢٢٧ • الحامي ٢٢٨ • الوصيلة ٢٢٨ • تعريف ابن اسحق ٢٢٨ • الاضاحي ٢٢٩ • الهدى ٢٣٢ • الاشعار والتقليد ٢٣٣ • حلق الشعر ٢٣٤ • رجال الدين ٢٣٥ • الكهان والعرافون ٢٣٧ •

القسم الثالث : حياة الرسول والدعوة الاسلامية في مكة

١٥ - الفصل الخامس عشر : مصادر دراسة حياة الرسول

- القرآن ٢٤٠ • الاحاديث والسنة ٢٤٣ • المؤرخون ٢٤٥ • أبان بن عثمان ٢٤٦ • عروة بن الزبير ٢٤٦ • شرحيل بن سعد ووهب بن منبه • وابن حزم وابن عاصم ٢٤٧ • الزهري وتلامذته ٢٤٨ • ابن اسحق ٢٤٩ • الواقدي ٢٥١ • ابن سعد ٢٥١ • مؤلفون آخرون : رواية ابن النديم ٢٥٢ • رواية ياقوت ٢٥٣ • رواية السخاوي ٢٥٣ • رواية حاجي خليفة ٢٥٤ • كتب البلدان ٢٥٥ • أبحاث المستشرقين ٢٥٥ • الابحاث العربية الحديثة ٢٥٧ •

١٦ - الفصل السادس عشر : اجداد الرسول وحياته قبل البعثة

- قصي ٢٥٨ • هاشم ٢٦٠ • عبدالمطلب ٢٦١ • حملة الاحباش ٢٦٢ • عبدالله ٢٦٢ • ولادة الرسول ٢٦٤ • نشأته ٢٦٥ • الفجار وحلف الفضول ٢٦٧ • زواجه بخديجة ٢٦٨ • بناء الكعبة ٢٦٩ •

١٧ - الفصل السابع عشر : الوحي

- التخنت ٢٧١ • زمن نزول الوحي ٢٧٢ • كيفية نزوله ٢٧٣ • كلمة الوحي ٢٧٤ • تأثير طبيعة الرسول ٢٨٠ • الاعجاز ٢٨٢ • الوحي والمعركة ٢٨٣ •

١٨ - الفصل الثامن عشر : مبادئ الاسلام الاولى

- الاسلام ٢٨٥ • الوحدانية ٣٨٧ • الحنيفية ٢٨٨ • الصائبة ٢٩٦ • التوحيد في الاسلام ٢٩٩ • الملائكة ٣٠٠ • ابليس ٣٠١ • الشيطان ٣٠٢ • الجن ٣٠٤ • البعث والقيامة ٣٠٥ • جهنم ٣٠٦ • الجنة ٣٠٧ • أهمية فكرة البعث ٣٠٩ • المقاييس الاخلاقية ٣١٠ •

١٩ - الفصل التاسع عشر : الأدلة القرآنية على تطور الدعوة

- آيات الله ٣١٣ • الرسول بشر ٣١٥ • رسول الله ٣١٦ • التذكير
- بالأمم الأخرى ٣١٣ • عيب آلهة المشركين ٣١٩ • مهاجمة المشركين ٣٢٠ •
- مكائد المشركين ٣٢٢ • تهديد الرسول ٣٢٣ • الصبر ٣٢٥ • المقاطعة ٣٢٦ •

٢٠ - الفصل العشرون : السابقون الأولون في الاسلام

- دعوة أهل مكة ٣٢٨ • علاقة الرسول مع العشائر ٢٣٩ • حرمة مكة
- ٣٣٣ • السرية ٣٣٥ • خلق الرسول ٣٣٤ • السابقون الأولون ٣٣٤ •
- دوافع اعتناق الاسلام ٣٣٧ •

٢١ - الفصل الواحد والعشرون : مقاومة المشركين للدعوة الإسلامية

- دوافع المقاومة ٣٤٠ • الدافع الديني ٣٤٠ • روح المحافظة ٣٤١ •
- الدوافع الاجتماعية ٣٤٢ • الدوافع السياسية ٣٤٤ • الدعوة ليست اشتراكية
- ٣٤٦ • أساليب المقاومة ٣٤٧ • المقاومون : اشارات القرآن ٣٥٠ • رواية
- ابن سعد ٣٥٤ • من هم أهل العداوة ٣٥٥ • مكانة المتهجمين
- والمقاومين ٣٥٧ •

٢٢ - الفصل الثاني والعشرون : الكفاح ضد المشركين

- اضطهاد المشركين ٣٦٠ • الهجرة الى الحبشة ٣٦٢ • المهاجرون
- ٣٦٣ • دوافع الهجرة ٣٦٥ • حياة المهاجرين في الحبشة ٣٦٩ • العودة
- من الحبشة ٣٧٠ • المقاطعة ٣٧١ • دوافعها ٣٧٢ • أثرها ٣٧٥ • وفاة
- خديجة وأبي طالب ٣٧٥ • محاولات بث الدعوة في الطائف ٣٧٦ • ايمان
- الجن ٣٧٧ • الاسراء ٣٧٨ • عرض الدعوة على القبائل ٣٧٨ •

قائمة بأسماء المسلمين ٣٨٠ •

قائمة المحتويات ٣٩١ •

الفهرس الابجدي

أحمد بن عبدالله الرقي ٢٥٢	(أ)
أحمد بن فارس اللغوي ٢٥٣	
الاخسف ١٧٨	أب يدع ريام ٣٢
الجبيل الاخضر ١٣	أب يدع يشع ٣٢
الآنس بن شريق ٣٥١ ، ٣٧٦	أبان بن عثمان ٢٤٦ ، ٢٥٣
آدم ١٠٢ ، ٢٥٠	أبي بن خلف ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧
اذريجان ٢٧	ابراهيم الخليل ١٠٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٨٦
اذينه ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٣	٢٩١
أرامين ١٢	ابراهيم بن النبي ٢٦٨
أربد ٨٢	ابراهيم الحربي ٢٥٢
الاردن ٦٣	ابرهه ٢٢ ، ٩٥ ، ١٦٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣
أرسطو ١٧	الابشيطي ٢٥٤
أرسو ٥٢ ، ٥٣	اتاركتيس ٢٤
الارقم بن أبي الارقم ٣٣٤ ، ٣٦٥ ، ٣٨٥	اثرولا ٢٥
أرميا ١٥	ابن الانير ٢٤٨ ، ٢٥٤
أرنو ٢٢	اجا ١٣
أرباط ٢٩	احد ٣٦٨ ، ٣٨٤
أريتريا ١٠	أحمد أمين ٣
الازد ٢٣ ، ١٣٣	أبو أحمد بن جحش ٣٣٥ ، ٣٦٥
	٣٨٢
	أحمد بن الحارث الخزاز ٢٥٢
	أبو أحمد الديباط ٢٥٢

الاسود بن عبدالمطلب ٣١٣ ، ٣٥٦	أساف ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ٢٥٩
الاسود بن نوفل ٣٨٣	أسبانيا ٢٧ ، ٥٤ ، ٥٩
الاشعث بن قيس ٢٤٧	الأسبزيون ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٧١
الاشعر ١٩٢	اسحق (النبي) ٢٨٦
أشعيا ١٥	أبو اسحق التلمساني ٢٥٤
الآشوريين ١٥ ، ١٩	أسد بن عبد العزيز ١١٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨
أشور بانيبال ٣٨	بنو اسرائيل ٢٩٨
أبو الاصدى الهزلي ٣٥٥	اسرحدون ١٩
الاخط ١١٣	أسعد كامل ٢٨
الاغريق ٦ ، ١٩	أسعد أبو كرب ٢٧
اغسطوس ٢٥ ، ٤٠ ، ٤٧	اسفنديار ٣٥٢
افريقية ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ١٧	الاسكندر المكدوني ١٧ ، ٣٨
أفلح بن النضر ١٨٣	الاسكندرية ٤٠ ، ٤٣
الاقرع بن حابس ١١٣	أسكا ٢٥
الاكاديين ١٢	اسماعيل ٢٠٧ ، ٢٥٠
اكلبول ٥٢	اسماعيل بن ابراهيم ١٠٣ ، ١٩٥ ، ٢٨٦
الشرح ٣٤ ، ٣٥	اسماعيل بن اسحق القاضي ٢٥٢ ، ٢٥٣
الكرب يهنم ٣٣	الاسود بن البخري ٣٥٤
المقه ٢١	الاسود الغنسي ٣١
الالوسي محمود شكري ٣	الاسود بن عبد يفيث ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦
اليقع ريام ٣٢	
اليقع وقه ٣١	
اليقع يثع ٣١	
اليقع يشر ٣٢	

أوس بن مسير ٣٥٢	اليوس كالوس ٢٥ ، ٤١ ، ٩٥
أوسان ٢٣	أبو امامه بن النقاش ٢٥٣
أوهاب ٢٤	بنو امامه ٢٣٦
أياد ١٣٣	امرىء القيس ١٤٩
الياس بن بكير ٣٣٥	آمنة بنت وهب ٢٦٤
ايران ٢٧	أمون ١٧
ايسخلوس ١٥	بني أمية ١١٩ ، ٢٦٧ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥
أيله ٤٢ ، ٦٢	أمية بن خلف ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦
أيمن بن خريم ٢٩٢	أمية بن أبي الصلت ٢٩٥
(ب)	أمية بن حذيفة ٣٨٦
باب المنذب ١٩ ، ١٠	أمية بن عبد شمس ١٠٧ ، ١٠٩
بابل ١٧ ، ١٩ ، ٥٥ ، ٥٥	أم أيلس ٨٤ ، ١٤١
البابليين ١٥ ، ١٨	اميحه بنت عبدالمطلب ٢٩٤
بارتون ١٠	أنذريه (تور) ٢٥٦
البارثيين ٥٤ ، ٦٥	الاندلس ٣١
باقوم ٢٠٤ ، ٢٠٥	انستاسيوس ٨٥
بجيله ٣٨٦	انطاكية ٤٨ ، ٤٩
بحران ٢٤	انماريهنعم ٣٣
البحرين ٤ ، ١٥ ، ١٦٣ ، ١٩٢	أنوشروان ٨٦
البخاري ٢٤٤ ، ٢٤٦	انينا ٥١
أبو البخري ٢٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ،	اهيب ١٠٧
٣٨٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٣٧٣	أوال ١٩٣
بدر ٩٩ ، ١٠٤ ، ٢٧٣ ، ٣٧٠	أوربا ٢٧
	أورليان ٤٩

بليني ٢٠	بدرالدين محمود الحنفي ٢٥٤
بواط ٩٩	برترام توماس ١١ ، ١٤
بومبي ٢٥ ، ٤٠	برجسون ٢٨٤
بوهل ٢٣٦ ، ٢٥٦	بروكلمان ٣
(ت)	بروكوبيوس ١٨٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣
تبع كرب ٣٢	يوم برزه ١٦٠
تدمر ٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ،	البسل ١١٤
٦٣ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦	بطليموس ١٠٢
مراجان ٤٢ ، ٤٧	بعل ١٧ ، ٥١ ، ٥٣
تركستان ٢٧	بعل سمين ٥١
الترمذي ٢٤٤	بصري ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٣
تغلب ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٧٠	بطليموس ١٨ ، ٣٨ ، ١٠٢
تغلات فلاسر ١٩ ، ٤٦	البطالسة ٢٥ ، ٤٨
تمام بن عبيده ٤٠	البطائح ٦٦
تمنا ١٩	بطرا ٥ ، ٣٦
تميم ١١٣ ، ١٣٧ ، ١٣٨	بكر بن وائل ١٣٣ ، ١٧٠
تنوخ ٥٤ ، ١٣٣ ، ٣٩٠	أبو بكر ٢٥١ ، ٢٦٨ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦
تهامه ٢٧	٣٥٦ ، ٣٦٨ ، ٣٨٥
تيم الادرم ١٠٨	بكيل ٢٥
تيم بن مره ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،	بل (ريشاد) ٢٤٢ ، ٢٥٦
٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ،	البلاذري ٢٤٩
٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥	بلال الحبشي ٣٣٧ ، ٣٦٢ ، ٣٨٥
تيم الله ٤٨ ، ١١٣	بلج بن المحرق ١٩٢
	بلقيس ١٩ ، ٢٨٦

تيماء ١٧١

(ث)

ناران يعب يهنعم ٣٤

تقيف ٢٣٦ ، ٣٨١

تقيف بن عمرو ٣٨٢

تعلبه ١١٣

ثيو دورس ٥٨

ثيوفانوس ٨٥

(ج)

الجابه ٦٣

الجار ٩٨

جبله ٥٧

جبله بن الايهم ٦٣

الجبت ١٧٥

جبريل ٢٧٢ ، ٢٧٤

جده ١٤

جذام ١٣٣ ، ١٩١ ، ٢٣٥

جذيمه ٦٦

جران العود ٢٩٣

جرجي زيدان ٣

جرهم ١٠٣ ، ١١٢

جرير (الشاعر) ١٤١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣

جرير البجلي ١٩١

جساس ١٦٣

جستيان ٥٨ ، ٦٣ ، ٨٦

جستين ٥٨

جعفر بن ابي طالب ٣٣٥ ، ٣٦٤ ،

٣٨١

بفنه ٥٧ ، ٦٠

جلق ٦٣

جليله بنت المهلهل ١٣٩

ابن جماعه ٢٥٤

الجماعيلي الخنبلي ٢٥٤

بني جحم ١١١ ، ٢٦٠ ، ٣٥٣ ، ٣٦٤

جميل بن معمر ٢٩٦

جناب مولي عتبه ٣٨٣

جناده بن عوف ١١٢

أبو جهل ١١١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،

٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ،

٣٨٦ ، ٣٦٦

جهم بن قيس ٣٤٣ ، ٣٨٤

جهينه ١٣٣

جواد علي ٣

الجودي ١٠

الجوف ١٨ ، ٢١

الجولان ٥٦ ، ٦٢ ، ٦٣

جويدي ٩ ، ١٠

حام ٧ ، ١٠	(ح)
حابت ٢٣	حاجب بن السائب ٣٨٦
الحبشة ١٧٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،	حاجي خليفة ٢٥٤
٣٧٤	الحارث الاول ٤٠ ، ٤٥
الاحابيش ١١٨	الحارث الثاني ٤٠ ، ٤١ ، ٤٥
حبيب بن جابر ٣٩٠	الحارث الثالث ٤١ ، ٤٥
أم حبيب ٣٩٤	الحارث بن جبلة ٥٧ ، ٨٥
الحجاز ٤ ، ١٣ ، ١٣٨ ، ١٩ ، ٦٢ ،	الحارث بن رواحه بن منقذ ١٥٩
١٥٦	الحارث بن زمعة ٣٨٣
الحجاج بن الحرث ٣٨٧	الحارث بن أبي شمر ٥٧ ، ١٩١
حجر ١٥	الحارث بن عباد ٣٨٣
حداد ٥٢	الحارث بن عبد مناة
حدان ٢٤٩	الحارث بن عمرو ٨٥
الحديبية ٣٧٠	الحارث بن غبشان ١٨٦ ، ١٦٠ ،
حذيفة بن قيس ١١٢	٣٦٤ ، ٢٦٧
أبو حذيفة بن عتبة ٣٣٥ ، ٣٨١	الحارث بن قيس ٣٥٤
حمراء ٢٧١	الحارث بن كعب ١٨٣
حرب بن أمية ١٠٩ ، ١١٩	الحارث بن كلدة ٩٧
حريد ٢٥	الحارث بن ابي وجرة ٣٨٣
الحرث بن الحرث ٣٨٧	الحارث بن منبه ٣٨٧
الحرث بن الطلائه ٣٥٣	حاشد ٢٥
الحرث بن عبد قيس ٣٩٠	حاطب بن ابي بلتعة ٣٨٣
حزقيا ١٤	حاطب بن الحارث ٣٣٥
ابن حزم ٣٥٣	الحافظ مغلطي ٢٥٤

الحمزة ١٠٩ ، ٣٣٨ ، ٣٦١ ، ٣٨١	حسان تبع ٨٣
الحمس ٢١٩ ، ٢١٢	حسان بن ثابت ٦٣
حمص ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩	الحسن بن علي ٢٥١
حميد بن زهير ١١٧	الحسن بن فهم ٢٥٢
حمير ٢٣ ، ١٣٣	الحسين بن علي ٢٥١
حنظلة بن الحرث ٣٨٧	الحصين بن الحارث ٣٨١
حنظلة بن أبي سفيان ٣٥٣ ، ٣٨٣	الحضر ٦٦
حنظلة بن زيد مائة ٨٦ ، ١٣٣	حضر موت ١٥ ، ١٧ ، ١٩ ، ١٩٢ ،
حنظلة بن قيصة ٣٨٧	٣٨٥
حنيفة ٢٢٧ ، ٢٩٥ ، ٣٧٩	حطاب بن الحرث ٣٣٥
الحنيفية ٢٩٠ ، ٢٩٦	حفن ذريح ٣٢
أبو حنيفة ٢٤٣	حفن، صدق ٣٢
حوارين ٥٩	حفن ريام ٣٢
الحواريون ٢٨٥	حمن يتع ٣٢
الحوراء ٩	الحكم بن أبي العاص ٣٥٥
حوباس ٢١	حكيم بن حزام ١١١ ، ٣٧٥
حوران ٤٠ ، ٥٦ ، ٦٢	أم حكيم بنت عبدالمطلب ٢٩٠
حوف عث ٣٢	حلال ١٩٣
الحوض ٣	حلف الفضول ١٢٠ ، ٣٦٥
الحويرث بن عباد ٣٨٣	حليل الخزاعي ٢٥٨
حويطب بن عبدالعزى ٢٠٣	الحلة ٢١٠ ، ٢١١
ابن حيان ٢٥٣	يوم حليلة ٥٨
الحيرة ٦٣ فما بعد	حليلة السعدية ٢٦٥
	حمالة الحطب ٣٨٦

(خ)

خندق ١٤٠	خالد بن أسيد ٣٨٣
الخورنق ١٥٦	خارجة بن حذافة ٣٨٩
خولان ١٩ ، ٢٣	خالد بن بكير ٣٣٥
خولي بن أبي خولي ٣٨٩	خالد بن سعيد بن العاص ٣٣٥ ، ٣٧٠
خير ١٤ ، ١٥ ، ٦٢ ، ٧٩ ، ١٧١ ،	٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٨١
خيران ٤٨	خالد بن المنكدر ٣٨٩
(د)	خالد بن الوليد ٤٩ ، ٦٣ ، ١٨٣ ،
داير ٢١	١٨٤ ، ١٨٧ ، ٢٤٩ ، ٣٦٨
دار الندوة ١١١ ، ٣٥٦	خباب بن الارت ٣٣٥ ، ٣٨٥
دارا ١٥	خشم ١١٤
داروايل ٢٣	خديجة (أم المؤمنين) ٩٩ ، ١٠٥ ،
بنو دارم ١١٣ ، ١٧١	١٣٩ ، ١٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٦٨ ،
داسيا ٥٠ ، ٥٤	٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ،
الدانوب ٤٦	٢٧٧ ، ٣٣٤ ، ٣٧٥
أبو داود ٢٤٤	خزاعة ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١٣٨ ،
ابن درباس ٢٥٣	٢٣٦ ، ٣٥٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦
دجلة ١٢	خزيمة بن جهم ٣٨٤
دروزة (محمد عزة) ٢٣٦ ، ٢٥٧	خزيمة بن مدركة ١٧٨ ، ٣٨٢
درمنجهم ٢٥٧	خطم الحجون ٣٨٣
دمشق ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٦٣	الخضراوي القصري ٢٥٤
الدهناء ١٤	الخلاطي ٢٥٤
دوراويوريوبوس ٣٥ ، ٥٤	ابن خلدون ١٥٢ ، ٣٥٤
دوفرتي ١٨	الخلصة ١٩١
	ختيس بن حذافة ٣٣٥ ، ٣٨٦

رفاعة بن أبي رفاعه ٣٨٦
ذو الرمة ٢٩٢
وادي الرمة ١٩
رقية بنت الرسول ٢٦٨
الرقيم ٤٣

رواحه بن منقذ ١٥٩
رودس ٤٣
الدها ٤٨

الروم ١٤٥
أبو الروم بن عمير ٣٧١ ، ٣٨٤

روما ٢٥ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
٥٤ ، ٥٦

الرومان ٦ ، ١٩
رومانوس ٨٥

ريال الاول ٤٥
ريال الثاني ٤٥
رينان ٨

(ز)

زاغرس ٧

الزباء ٤٨ ، ٦٦ ، ١٤١
ابن زباله ٢٥٥

زبدا ٤٨

الزبير ١٤

الزبير بن العوام ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٨٣

دومة الجندل ٦٣
ديلوس ١٩ ، ٤٠ ، ٤٣
ديودورس ٢٠ ، ٤٣

(ذ)

ذمر علي ٢٣
ذمر علي بين ٣٤
ذمر علي ذرح ٣٤
ذمر علي وتر ٢٢ ، ٣٣
ذمر علي يحابر ٣٤
ذمر علي نيف ٣٥
ذو جدان ٩٠

ذو الخلصة ٩٠ ، ١٦٧

ذو شرى ١٩٠

ذونواس ٣٥

ذؤيب بن كعب ١١٣

الذهبي ٢٥٣

(ر)

الربع الخالي ١١ ، ١٤

ربع بن دراج ٣٨٨

ربيعه ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٣ ، ١٥٦ ،
٢٩٠

ربيعه بن أكرم ٣٨٢

رستم ٣٥٢

الرشيد ٢٥١ ، ٢٢٣

الزبير بن عبدالمطلب ١٠٩	السائب بن أبي السائب ٢٧٠ ، ٣٨٦
الزبير بن عبيدة ٣٨٢	السائب بن صيفي ٣٥٤
زكريا التلؤؤي الاحمر البجلي ٢٥٣	السائب بن أبي حبشة ٣٨٣
زمنة بن الاسود ١١١ ، ٣٥٤ ، ٣٧٣	السائب بن الحرث ٣٨٥
٣٧٤ ، ٣٨٢	السائب بن عبيد ٣٨١
زيرة ٣٦٢	السائب بن عثمان ٣٨٧
زهرة ٢٦٠ ، ٢٩٨ ، ٣٥٣ ، ٣٦٤	السائب بن أبي رفاعه ٣٨٢
٣٦٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٤	سام مولى حذيفة ٣٥٥
زهير بن أبي رفاعه ٣٨٦	السبائين ١٩
زهير بن أبي أمية ٣٥٣ ، ٤٥٦	أبو سبرة بن أبي رهم ٣٨٩
زهير بن أبي المغيرة ٣٧٢ ، ٣٧٣	سترايو ٢٥ ، ٤٤ ، ١٨٧
٣٧٤	سجاح ١٤٠
زياد بن أبي سفيان ١٥٠	سحنون ٢٤٣
زيد بن حارثة ٩٧ ، ٢٤١ ، ٣٧٥	السخاوي ٢٥٣ ، ٢٥٤
٣٨١	سخبرة بن عبيدة ٣٨٢
زيد المخل ١٣٩	سد رحاب ٢٣
أبو زيد بن رقيش ٣٨٢	سد مأرب ٢٢
زيد بن عمرو بن نفيل ٢٩٤	السراة ١٣
زينب بنت الرسول ٢٦٨	سرجون ١٢
زينوفون ١٥	سروج ٥٧
(س)	سعد مولى جابط ٣٨٢
سام ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٨	سعد بن خولة ٣٨٩
السامريين ٥٧	سعد بن زيد مائة ١١٣ ، ١٣٣
الساميين ٣ ، ١٣٨	سعد بن أبي وقاص ٣٣٥
سابور ٤٨	

سليمان بن عبد الملك ٢٤٧	سعد هذيم ٢٦٥ ، ٢٦٦
سلوقس ٣٨	سعيد بن الحرث ٣٨٦
سلوقية ٤٣ ، ٤٤	سعيد بن زيد ٣٣٥ ، ٢٣٨
سمث (روبرتسن) ١٣١ ، ١٤٠ ،	سعيد بن العاص ١٠٩
١٨٩ ، ١٤١	سعيد بن عبد قيس ٣٨٩
سمه علي ٢١ ، ٣٣ ، ٣٥	سعيد بن رقيش ٣٣٥
سمه علي ذرح ٣٥	سعيد بن عبيد الاشهلي ١٨٥
سمه علي نيف ١٤ ، ٣٣ ، ٣٤	أبو سفيان ٩٧ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٤١ ،
سمرقند ٢٧	٣٥٥
السهودي ٢٥٥	سفيان بن عيينه ٢٤٧ ، ٢٤٩
سميفع اشوع ٣٠ ، ٣٥	سفيان بن معمرة ٣٨٧
سمية ١٥٥	السكران بن عمرو ٣٨٨
السموأل	السكون ٧٠
سنان ٩٧	السلف ١٩٢
سنان بن أبي سنان ٣٨٢	سلمان ١٩٢
أبو سنان بن محصن ٣٨٢	سلمة ٨٦
سبحاريب ٢١ ، ٢٢	سلمة بن الفضل ٢٥٠
سوريا ٢٠ ، ٥٦ ، ١٧٠ فما بعد	سلمة بن هشام بن المغيرة ٣٨٥
سويط بن سعد ٣٨٤	أبو سلمة بن عبدالاسد ٣٣٦
سهل بن عمرو ٣٧٦	جبل سلمى ١٣
سهيل بن بيضاء ٣٩٠	سليط بن عامر ٣٣٥ ، ٣٧١
السهيلي ٢٥٤	حرة سليم ١٠
بنو سهم ١٧٦ ، ٢٣٧ ، ٢٦٠ ، ٣٥٣	سليم ١١٤ ، ١٣٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠
٣٦٤	سليمان (النبي) ٢١ ، ٤٦ ، ٧٥ ،
	٢٨٦

صبيح مولى السيد ٣٥٥
 صخر ١٠٤
 صخر اللقي ٢٩٢ ، ٣٠٠
 صرمة سن أبي أنس ٢٩٥
 صدق ايل ٣١
 صرواح ٢١
 الصعب بن عكاه ٨٩
 الصعر ١٦٨
 الصفا ١٨١ ، ٢٥٩
 صفوان بن أسيد ١٨٧
 صفوان بن بيضاء ٣٩٠
 صفوان بن الحارث ١١٢
 صقلية ٥٩
 صلصل بن اوس ١١٣
 الصمان ١٤
 صنعاء ٢٢
 صور ٤٠ ، ٤٣
 صوفة ١١٢
 الصومال ١٠ ، ١١
 صهيب ٥٧ ، ٣٣٥ ، ٣٦٣
 صيدا ٤٣
 صيلع ٧٥
 صيفي بن السائب ٣٥٣
 الصين ٥٥

ابن سيد الناس ٢٥٩
 سينا ٢٠

سيف بن ذي يزن ٣٠

(ش)

شبر نجر ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٥٦

شجاع بن وهب ٣٤٢

شرحيل ٨٦

شرحيل بن سعد ٢٤٧

شرحيل يعفر ٢٩ ، ٣٥

شرحيل يكيف ٣٥

الشعية ٩٨

شلمانصر الثالث ١٥

شماس بن عثمان ٣٨٥

شماس ١٨ ، ٥١

شمر ١٣ ، ٧٣

شمر يرعش ٢٣

شمران ١٩٣

بنو شيان بن مرة ١٨٣ ، ٢٣٦

شيبه بن ربيعة ٢٦١ ، ٣٥٧ ، ٣٥٥

شير ٩٥

الشيعه ١٤٧

الشیطان ١٤٩ ، ١٥٠

(ص)

صاعد الاندلسي ١٨٦ ، ١٩٠

(ظ)

ظالم بن أسعد ١٨٢

ظفر ٣ ، ٢٧

ظويلم ١١٧

(ع)

عائدة ١٣٨ ، ٣٥٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٦ ، ٣٥٣

عائذ بن السالب ٣٨٦

عائشة بنت أبي بكر ٢٣٣

عاتكة عمة النبي ٣٥٦ ، ٣٧٢

عادلة بنت عبدالمطلب ٣٨٣

العاص بن سعيد ٣٥٥

العاص بن هاشم ٣٥٥

العاص بن وائل السهمي ٢٦٧ ، ٣٥١

٣٥٦ ، ٣٥٣

أبو العاص بن ربيع ٣٨٣

أبو العاص بن نوفل ٣٨٣

عاصم بن عمرو ٢٤٨ ، ٢٥٠

عاصم بن أبي عوف ٣٨٧

عاقل بن المنكدر ٣٨٩

شنو عامر الاجداد ٢٣٦

عامر بن بكير ٣٣٥

عامر بن عبد مناف ٢٥٩

عامر بن ربيعة ٣٨٩

عامر بن صعصعة ٢٦٧ ، ٣٧٩

(ض)

ضمار ١٩٣

ضيزن ٦٦ ، ١٤٣

(ط)

الطاغوت ١٧٥

أبو طالب ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٣

٣٦٠ ، ٣٧٣

الطائف ١٤ ، ١٥٠ ، ٣٧٦ ، ٨

الطاهر ٢٦٨

طرفه بن العبد ١٩٧

طعime بن عدي ٣٨٣

الطفيل بن أبي قنيع ٣٩٠

الطفيل بن الحارث ٣٨١

طلحة بن عبدالله ٣٣٥ ، ٣٦١

الطلس ٢١٦

طليب بن عمير ٣٨٤

طه حسين ٢٥٧

طوروس ٧

طوطمية ١٣١

طي ١١٤ ، ١٣٢ ، ١٧٠

ابن أبي طي ٢٥٤

الطيب ٢٦٨

طياريوس ٥٨ ، ٦٠

طيسفون ٤٨

عبدالغزى ٣٧٤	عامر بن الضرب ١١٣
عبدالعزيز الديري ٢٥٤	عامر بن فهيرة ٣٣٥ ، ٣٦٤ ، ٣٦٤
عبدالغنى النابلسي ٢٥٣	عامر بن أبي عوف ٣٨٧
عبد كلال ٣٥	عامر بن أبي وقاص ٣٨٤
عبدالله أبو الرسول ٢٦٤	عاملة ١٤٠ ، ١٩١
عبدالله بن أبي ١٦٠	عامر بن ثوي ٣٦٤ ، ٣٤٢ فما بعد
عبدالله بن أبي بكر بن حزم ٢٤٧ ،	عامر بن وائلة ١٩٦
٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠	عبادة الاول ٤٠ ، ٤٥
عبدالله بن أبي أمية ٣٥٦	عبادة الثاني ٤٠ ، ٤٥
عبدالله بن جحش ٢٩٤	عبادة الثالث ٤٠ ، ٤٥
عبدالله بن جدعان ٩٧ ، ١٠٩ ، ٢٦٧	عباس بن أنس ١٥٩
عبدالله بن حذافة ٣٨٦	العباس بن عبدالمطلب ١١٧ ، ١١٨ ،
عبدالله بن الحرث ٣٨٧	٢٠٧
عبدالله بن سفيان ٣٨٦	عباس محمود العقاد ٢٥٧
عبدالله بن سراقه ٣٨٩	عباس بن مرداس ١٩٣
عبدالله بن الزبير ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،	عبد بن جحش ٣٣٥
٢٤٧ ، ٢٧١	عبد الحارث بن رواحه ١٥٩
عبدالله بن سهيل ٣٨٩	عبد بن قصي ٣٦٤
عبدالله بن عبدالغزى ٢٠٦	عبد الدار ١١٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦
عبدالله بن عثمان ٣٣٥	٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٣٦٥
عبدالله بن عمر ٢٣٣	عبد الاشهل ٣٧٩
عبدالله بن عمير بن قتادة الليثي ٣٧١	عبدالرحمن بن عوف ٩٩ ، ٣٣٥ ،
عبدالله بن مسعود ٣٨٤	٣٣٦ ، ٣٥٦ ، ٣٤٣
عبدالله بن مخزومة ٣٨٩	عبدالرزاق الصنعاني ٢٥٣
	عبد شمس ٢٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٨١

عتبة بن أبي سفيان ٣٧٤	عبدالله بن المنذر ٣٨٦
عتبة بن عمر ٣٩٠	عبدالله بن مضمون ٣٨٧
عتبة بن ربيعة ١٠٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥	عبدالله بن عبدالمطلب ١٣٩ ، ١٦ ، ٢٣٧
عتبة بن غزوان ٣٨٣	عبدالمطلب ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٣٩ ، عتبة بن مسعود ٣٨٥
عتيق بن عائذ ٢٦٨	٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣
عثمان بن الحويرث ٩٥ ، ٢٩٤	٢٦٦
عثمان بن عبدالله ٣٨٦	عبدالمملك بن عمر بن حزم ٢٥٢
عثمان بن عبد غنم ٣٩٠	عبدالمملك بن مروان ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٣٦٢
عثمان بن عفان ٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢٤٨ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦	عبدالمنعم الدمياطي ٢٥٤
عثمان بن مالك ٣٨٥	عبد بن هشام ٩٤
عثمان بن مضمون ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٢٤٦	عبد مناف ١٠٩ ، ١٥٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠
بنو عجلان ٢٣٦	عبد يزيد بن هاشم ١٠٩
عثر ٢١	عبد ياليل ٣٧٧
عدن ٣٧	العبرانيون ١٢
عدنان ١٣٢	عبيد بن الابرص ٨٧
عدوان ١١٣ ، ١٨٧	عبيد بن عمرو بن علقمة ٣٨١
عدي بن حاتم الطائي ١٥٩	عبيدالله بن جحش ٣٦٧
عدي بن الحمراء ٣٥٥	عبيدالله بن أبي سعيد الوراق ٢٥٥
عدي بن الخيار ٣٨٣	عبيدة بن الحارث ٣٨١
عدي بن نضلة ٣٨٨	عبيدة بن سعيد بن العاص ٣٨٣
بني عدي بن كعب ٢٦٠ ، ٣٢٤ ، ٣٩٠	أبو عبيدة بن الجراح ٣٩٠
	عيس ٢٩٥
	ععب ١٩٣
	أم عيس ٣٦٢

العلاء علي بن محمد البغدادي ٢٥٤	العرابة ٣٨
علباء ٨٨	العراق ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٨
علهاء نهضان ٣١	عروة بن الزبير ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٣٦٢
عمار بن ياسر ١٧٦ ، ٣٣٥ ، ٣٦٢	العزيز ٢٩٨
عمان ١٣ ، ١٧١	عزالدين بن جماعة ٢٥٣
عمر بن الخطاب ٩٤ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،	العزي ٤٧ ، ١٣٩
١٤٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢٤٣ ، ٢٩٧	العزيز ٥٢
عمر بن عبدالله ٣٨٧	عسقلان ٤٣
عمر بن عبدالعزيز ٢٤٣ ، ٢٤٨	عسير ١٠٨
عمر ابن أبي ربيعة ١٤٩ ، ١٨٣	عشروت ١٨ ، ٥٢
عمرو بن أبي أئانة ٣٨٩	العقبة ١٣ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٢٧
عمرو بن أمية الضمري ٣٧٠	عقبة بن وهب ٣٤٢
عمرو بن جهم ٣٨٥	عقبة بن ابي ميعط ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٤
عمرو بن الحارث ٣٩٠	عقيل ٣٨١
عمرو بن حازم ٢٤٨	عك ٢ ، ٢١
عمرو بن سراقه ٣٨٨	عكرمة بن أبي جهل ٣٦٨
عمرو بن حجر ١٤٠ ، ١٤١	عكرمة بن عامر بن هشام ١١٠
عمر بن سميد بن العاص ٣٦٤	عكاظ ١١٣
عمر بن أبي سفيان ٣٨٣	علي بن أمية ٣٨٧
عمر بن عبدالله بن جدعان ٣٨٥	علي بن ابراهيم القمر ٢٥٣
عمرو بن عبد غنم ٣٩٠	علي بن محمود الكازروني ٢٥٣
عمرو بن عثمان ٣٨٥	علي بن أبي طالب ١٨٥ ، ٣٣٥
عمرو بن أبي عمره ٣٩٠	علي بن محمد المدائني ٢٥٢
عمرو بن المحرق ١٩٢	العلاء علي بن عثمان التركماني
	الحنفي ٢٥٣

الغال ٥٠ ، ٥٤	عمرو المقصور ٨٥
غاوي بن ظالم ١٨٩	عمرو بن أمية الضمري ٣٧٠
غير ١١٤ ، ٣٥٤ ، ١٨٩	عمرو بن العاص ٩٧ ، ١٨٩ ، ٣٥٤ ، ١١٤
الغزانيق ٣٧٠	٣٦٨
الغساسنة ٦ ، ٢٣ ، ٥٨ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ، ١٦٠	عمرو بن لحى الخزاعي ٤٤ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ٢٠٦
غزة ٤٢	عمرو بن حصن ٣٨٢
غطفان ١١٤ ، ١٣٢ ، ١٨٧	عمرد ٢٤٨
غضيله ١٩٢	عمار بن ياسر ١٧٦
الضحراوي ٢٥٧	العموريين ١٢
غوث ١٨٧	عندل ٨٦
الغوث بن مره ١١٢	عمير بن رثاب ٣٨٧
الغياطلة ١٧٦	عمير بن عثمان ٣٨٥
غيلان بن سلمة ٩٧	عمير بن عوف ٣٩٠
غي القوم ٥٢	عمير بن أبي وقاص ٣٣٥
(ف)	عمير بن جزء ٣٨٧
فارس ١٥٦	عميلة بن الأعزل ١١٢
فاطمة (بنت الرسول) ٢٣٧ ، ٢٦٨	عوف بن محلم ٧٣ - ١٤٠
فاطمة بنت الخطاب ٣٣٥	عويمر بن السائب ٣٨٦
الفاكهي ٢٥٤	عيس ابن أبي ربيعة ٣٣٥
فالريان ٤٨	عيسى بن مريم ٢٠٥ ، ٢٠٦
فتح الدين بن الديماطي ٢٥٤	عياض ابن أبي زهر ٣٩٠
فدك ١٥ ، ١٧١	عيهامه ٣٨٦
الفرزدق ١٣٨	(غ)
	غاضرة بن حبشية ١٧٩

الفرس ٣٦٦	قرناو ١٨
الفرات ٦٣	فرح ١٩١
فراس بن مالك ١٦٠	القسطنطينية ٢٧ ، ٥٦ ، ٥٨
فراس بن النضر ٣٤٣	فصي ٨٠ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١١٥ ،
الفرزدق ١٤١	١١٧ ، ١١٨ ، ١٧٩ ، ٢٣١ ، ٢٥٨
فروة بن قيس ٣٨٧	قضاة ١٠٣ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٩١ ،
فزاره ١٩٣	٢٣٥
الفضل بن العباس ٢٠٥	أم قطام ٨٦
أبو فكيهة ٣٦٢	القطب الحلبي ٢٥٣
فلبى ١٤ ، ٣٤	ابن قطلوبغا ٢٤٥
الفلس ١٩٢	القلمس ١١٢ ، ١١٤
فلسطين ١٢ ، ٢٤ ، ٥٧ ، ٦٣	قمر ٤١
الفتيقيون ١٢	قنسرين ٥٨
فواو كاسكرتة ٥٤ ، ٥٠	أبو قيس بن الحارث ٣٧١
(ق)	قيس بن خابر ٣٨٢
القاسم ٢٦٨	قيس عيلان ١٣٣
قباد ٨٦	قيس بن عاصم ١٣٨ ، ١٥٧
جبل أبي قيس ١٦٨	أبو قيس بن الفاكه ٣٥٣
قبتان ٢١	أبو قيس بن الحارث ٣٧١
قحطان ١٣٢	قيس بن عبدالله ٣٧١
قدامه بن عثمان ٢٣٥	أبو قيس بن الوليد ٣٥٣ ، ٣٨٦
قدامة بن مضعون ٣٨٧	(ك)
القدس ٤٠ ، ٤٦	الكاشيون ٢٤
قرمل ٩٠	كايتاني ١١ ، ٢٣٠ ، ٢٥٦ ، ٣٨٠

كوز ١٨١	أبو كبشة ٣٨١
كوك ١٨١	ابن كثير ٢٥٤
كهلان ١٣٣	كرخ ميسان ٥٠
(ل)	كرة ٣٧
اللات ٤٤ ، ١٨٢ ، ١٩٢	كرب آل بين ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٤
اللبا ١٩٢	كرب ال وتر ٢٣ ، ٣٣ ، ٣٤
بنو لحيان ٢٣٦	أبو كرب أسعد ٢٩ ، ٣٥
لخم ١٩١ ، ٢٣٥	أبو كرب يشع ٣٠
لونجينوس ٤٨	كرب بن صفوان ١١٣
بنو لؤي بن شمع ١١٧	كرب ايلو ٢١
أبو لهب ٢٤١ ، ٢٩٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٥	كرمة ٢٥٦ ، ٣٤٦
٣٦١ ، ٣٧٢	كعب بن الاشرف ١٧٦
(م)	كعب بن لؤي ٢٥٨
ابن ماجة ٢٤٤	ابن الكلبي ٢٥٢
مأرب ٢١ ، ٦٥	كلب ١٣٣ ، ٣٧٩
ماجنوس ٥٩ ، ٦٠	كليب ٨٥ ، ١٦٣
مارسيابا ٢٥	كلأزر ٢٢
مازن بن مالك ١١٣	كلثوم (بنت الرسول) ٢٦٨
مانك الاول ٤١ ، ٤٥	الكلدانئون ١٧
مالك الثاني ٤٥	كنانة ١٠٥ ، ١١٤ ، ١٣٣ ، ١٨٢
مالك بن أنس ٢٤٣ ، ٢٤٩	٢٦٧ ، ٣٨١
مالك بن أقيش ١٧٦ ، ٢٢٠	كندة ٦ ، ٣٠ ، ١١٤ ، ١٦٠ ، ٣٧٨
مالك بن خالد بن صخر ١٦٠	الكنعانيون ١٢
مالك بن عبدالله ٣٨٥	الكوفة ٣١
مالك بن خولى ٣٨٩	

مخرمة بن نوفل ٢٠٣	مالك بن زمعة ٣٨٩
مخزوم ١١١ ، ٢٦٠ ، ٣٥٣ ، ٣٦٤ ،	مالك بن عمرو ٣٨٢
٣٧٣ ، ٣٧٤	مالك بن كنانة ١١٣
المدائن ٢٥٥	مالك بن اهيـب ٣٨٤
مدلاج بن عمرو ٣٤٢	المأمون ٢٥١
مدلج ١٨٧	مـجاشع ١١٣
المدينة ٣٦٧	المتلمس ١٩٦
مذحج ١٣٣	المثقب العبدى ١٩٦
مرتـع بن معاوية ٨٤	مـبروك نافع ٣
مرثد ٩٠	مـجاشع ١١٣
مرثد بن أبى مرثد ٣٣٧	أبو مجذورة ٣٥٣
أبو مرثد ٣٣٧	المحامر ٢٣
مرج الصفر ٦٣	المحب الطبرى ٢٥٣
ابن مرحل ٢٥٤	محرز بن نضلة ٣٤٢
مرة بن ذهل ١٦٣	المحرق ١٩٢
مرة بن عوف ١١٣ ، ٢٥٨	محمد بن حاطب ٣٨٨
مرينا ٧٣	محمد بن الحسن الشيباني ٢٤٣
مروان بن الحكم ٤٩	محمد بن سفيان ١١٣
المروة ٢٥٩	محمد بن عبدالله بن جحش ٣٨٣
المزدلفة ٢٥٩	محمد محمود جمعة ٣
مزعم ينهب ٣٤	محمد عبدالمعـيد خان ٣
مزينة ١٤٠	محمد بن مسلم الزهرى ٢٤٨
مسطح بن ائانة ٣٨١	مخا ١٤ ، ٥٤
مسعود ٢٣٦	ابن مخراق ٢٥٥
	مخاشن ١١٣

معمر بن راشد ٢٤٩ ، ٢٥١	مسعود القاري ٣٣٥ ، ٣٣٧
معمر بن عبدالله ٣٨٨	مسعود بن أبي أمية ٣٨٦
معين ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣	المسنودي ٢٥٤
مغلطاي ٢٥٤	مسلم ٢٤٤
المغيرة بن شعبة ٩٧	مسيلمة ٢٩٥
المغيرة بن عبدالله المخزومي ١١٧	المشقر ١٩٢
المقريري ٢٥٣	مصر ١٧ ، ٢١
مكة ٣٠ ، ١٥٠ ، ١٧١ ، ١٧٧	المصطلق ١٤٦
ملالاس ٨٥	مصعب بن الزبير ٢٤٧
ملكان ١٨٧ ، ٢٦٤	مصر ١١٢ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٦١
ملكرب يهمن ٣٥	مطعم الطير ١٧٦ ، ٣٧٧
بنو مليح الخزاعين ١٧٦	مطعم بن عدي ١٠٩ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦
مليلة ٧٥	المطلب ١١٧ ، ٣٦٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٦
منى ٩٩ ، ١٠١ ، ١٥٦	المطلب بن أزهري ٣٥٥
مناف ١٨١	المطلب بن حنطب ٣٨٦
مناة ١٨٤	معاوية ١١٠ ، ١١٣ ، ١٥١ ، ٢٤٩
منبه بن الحجاج ٣٥٤ ، ٣٥٦	معاوية الثاني ٤٩
المناذرة ٤ ، ٦ ، ٢٣ ، ٥٤ ، ١٦٠	معتب ٢٣٦
المنذر بن أبي رفاعه ٣٨٦	معتب بن عوف ١٨٦
المنذر بن ماء السماء ٥٧ ، ٨٥ ، ١٣٩	معدني كرب ٧٥
٢٣١	معديكرب ينعم ٣٥٠
المنصور ٢٠٨	أبو معشر ٢٥٢
منصور بن عكرمة ٣٧١	معمر بن أبي سرح ٣٩٠
منقذ بن نباتة ٣٨٢	معمر بن الحارث ٣٨٨

النساطرة ١٧٠	المهدي ٢٠٨
شاكر بن عين يرحب ٣٤	مهمل ٧٦
شاكر بن يهنم ٣٣	موريس ٥٩
نشان ٢٤	موسى ٢٧٤
نشق ٢١	موسى بن عقبة ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢
أبو نصر الخضراوي القصري ٢٢٤	موير ٢٣٦ ، ٢٥٦
النضر بن الحارث ١٠٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣	ميسان ٥٤
٣٨٤ ، ٣٧١ ، ٣٥٦	ميسرة ٢٦٨
بضلة بن هاشم ٣٧٢	(ن)
نعمان الأسود ٨٥	نائلة ٢٥٩
نعمان بن المنذر ١٣٨	النايفة الديباني ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢
نعم بن عبدالله النحام ٣٣٥ ، ٣٦٧ ، ٣٨٨	ناصر يهنم ٣٤
النفود ١٤	ناشر النعم ٢٧
النهدي ٣٦٣	نبيه بن عثمان ٣٨٨
نهيك ١٧٦ ، ١٧٩	نبيه بن الحجاج ١١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦
نوح ٧ ، ٩	نجد ٦٣
ذي نواس ٢٩	نبوخذ نصر ٤٦ ، ١٩٠
نولدكه ٣ ، ٢٤٢	بنو النجار ٢٦٢
نوفل ١٠٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٣٦٤ ،	انتجاشي ٩٧ ، ٢٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٩
٣٧٩ ، ٣٧٦	٣٧١
نوفل بن خويلد ٣٨٣	
(ه)	نجران ٢٣ ، ٢٨
هايل ٢٦٧	نجيح المدني ١٢٧
هادريان ٤٧ ، ٥٣	ابن التديم ٢٥٥
	نرجال ٥١

هاشم ١١٦ ، ١١٧ ، ٢٦١ ، ٣٦٤	هيكل (محمد حسين) ٢٥٧
بنو هاشم ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٣٦٥ ، ٣٨٠ ، ٢٧١	(و)
هاشم بن أبي حذيفة ٣٨٦	وات (موتجومري) ٢٥٦ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٢٨٠
أبو هالة ٢٦٨	وادي بيشه ١٤
هاليفي ٢٢	وادي خريد ٢١
هبارخوس ٢٦	وادي الرمة ١٤
هبار بن أبي سفيان ٣٨٦	وادي سرحان ١٤
هبل ٤٦ ، ١٥٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧	وادي القرى ١٥ ، ٦٣ ، ١٧١
هراقل ٦٢	وادي موسى ٣٨ ، ٤١
هشام بن أبي حذيفة ٣٨٦	واقد بن عبدالله ٣٣٧
هشام بن العاص ٣٨٧	الواقدي ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥
هشام بن عروة ٢٤٩	رائل ١٢٢
هشام بن عمرو ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤	وتريهمن ٣٤
همام ١٦٣	وجره بن غالب ١٨٦
همدان ٢٥ ، ١٣٣	ورقة بن نوفل ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٩٤
الهند ١٨ ، ٢٦ ، ٥٥	ورود ٥٣
هند بنت ظالم ٨٤	الوليد بن عبد الملك ٢٠٨
هند أم معاوية ١٠٥ ، ١٤١	الوليد الثاني ٢٤٦
هند بنت أبي هالة ١٨٧ ، ٢٦٨	الوليد بن المغيرة ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٣٥٠
ابن أبي هنيذة ٣٤٧	٣٥٣
هوازن ١٣٣ ، ٢٦٦ ، ٣٧٦	الوليد بن مسلم ٢٥٢
هوزة بن علي الحنفي ١٥٩	الوليد بن الوليد ٣٨٦
هومل ١٨ ، ٣٤	

يدع ال ذرح ٣٣	وقه ال ريم ٣٢
يدع ال ضريح ٢١	وقه ال صديق ٣١ ، ٣٢
يدحيل ٥٠	وقه ال يثع ٣٢
يربوع ١١٣	ونسكلر ١٨
الرموك ٦٣	وهب ال ٣٣
يريم ايمن ٣٤	وهب ال يحز ٣٤
يزل بيان ٣٤	وهب بن سعد ٣٩٠
أبو يزيد بن رقيش ٣٤٢	وهب بن عبد بن قصي ١١٦
يزيد بن زمعة ٣٨٣	وهب بن عمير ٣٨٨
يزيد بن أبي سفيان ٣٦٨	وهب اللات ٤٨
يزيد بن أبي كبشة ٣٠	وهب بن منبه ٢٤٧ ، ٢٥٠
يزيد الثاني ٢٤٦	(ي)
يسار ٢٤٩	
يعقوب البردعي ٥٨	ياشر يهنم ٣٤
اليقابة ١٧٠	يافت ٧
يقطان ٢١	ياقوت الحموي ٢٥٣
اليامة ١٤ ، ١٧٠ ، ١٧١	يشرب ١٤ ، ٢٥ ، ٥٦
أبو يوسف ٢٤٣	يشع ال صدق ٣٢
يوسف منخاص ٢٩	يشعر ال ريم ٣٢
يوليوس قيصر ٢٥ ، ٤١	يشعر بين ٢٣ ، ٣٣ ، ٣٥
اليونان ١٥ ، ٢٠	يدع ال بين ٢١ ، ٣٣ ، ٣٥



أعيد طبعه على مطابع مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر
في جامعة الموصل ١٩٨١